حضارة الإسلام وأوربا

المنار الهادي

تأليف

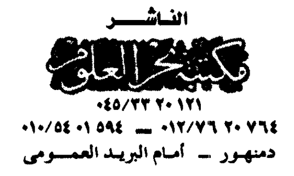
أحمد بن محمد طاحون
جامعة الأزهر ١٩٥٥
تربية - عين شمس ١٩٥٦

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ــ ٢٠٠٦م

رقم الإيداع : ١٦٧٧٨ / ٢٠٠٦

الناشر



١٢١ ٢٠ ٠٤٥/٣٣
٧٦٤ ٢٠ ٠١٢/٧٦ ــ ٥٩٤ ٠١ ٠١٠/٥٤
دمنهور ــ أمام البريد العمومى

إشارة .

فى فصول هذا الكتاب غذاء للعقل ومتعة للنفس مع التنوير والتبصير بما أحدثه الإسلام فى حياة الإنسان من ازدهار فكرى وعلمى واجتماعى ومن سموٍّ فى العلاقات الإنسانية ، ما زالت آثاره شاهدة وناطقة بالدور العظيم الذى قامت به حضارة الإسلام من أجل حياة أفضل .

وفى فصول هذا الكتاب ستقرأ عن :

الدور العظيم الذى قامت به الأندلس ثم صقلية فى نقل علوم الأمة الإسلامية وآدابها وثمرات أفكار أبنائها فى نقل علوم هذه الأمة إلى دول أوربا مما هيأ لها إقامة مدنية ازدهرت ونمت مع مرور الأعوام .

ثم عن جهود علمائنا فى مجال البحث والتأليف فى : السيرة النبوية ، والتراجم ، والمناقب ، والتاريخ العام وتأسيس علم الاجتماع ، وما كان لهم من مبتكرات صاروا بها روادًا لغيرهم من الأمم الأخرى مع إشارات إلى جهودهم فى الجغرافيا والفلسفة وغيرهما .

وذلك مع بيان جهودهم فى مجال الطب والصيدلة وما استحدثه علماء الحضارة الإسلامية ومفكروها فى مجال : تطور الطب وفروعه ومؤسساته ونظمه وكيف صاروا رواد هذا العلم بلا منازع ، مع إشارات لجهودهم فى سائر العلوم الكونية والعقلية .

ثم نبذة عن العلوم اللغوية التى نشأت فى ظل جهودهم لخدمة لغة القرآن الكريم مثل النحو والصرف والقراءات وغيرها من العلوم .

ذلك مع إيراد عدد من التراجم لرجال أسهموا فى الابتكار والتجديد كنماذج من بين الألوف الذين شهد لهم العلماء والمفكرون بالريادة فى فروع العلم المختلفة .

هذا إلى جانب القضايا التى تتعلق بروح الأمة الهادية وسماحتها وتسامحها وجمعها بين حاجات العقل والنفس والروح والبدن مما أعانهم على إقامة أعظم حضارة فى تاريخ بنى الإنسان .

أحمد بن محمد طاحون

القاهرة فى : ١٤٢٤ / ٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى:

حضارة الإسلام

أشرقت على أوربا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

[المائدة: ١٥، ١٦]

تمهيـد

الأندلس وصقلية

مَعْبران رئيسان

للحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا

لمحة تاريخية : فتح الأندلس كان رحمة ونعمة :

عبر طارق بن زياد البحر المتوسط إلى الأندلس عام ٩٢ من الهجرة ، وصبر وثابر حتى تَمَّت هزيمةُ جيش«رودريك» القوطى ملك الأندلس، ومضى الجيش الظافر بمَعُونة أمير أندلسيٍّ هو «الكونت جوليان» مضى يزحف على مدن الأندلس حتى بسط نفوذه على عدد منها وكان النصر حليف طارق وجنده.

ثم عبر القائد موسى بن نُصَيْر على رأس جيش فى العام الثالث والتسعين من الهجرة «٧١٢ من الميلاد» وأخذ يطوق بقيةَ المدن الأندلسية واستردّ مدينة «إشبيلية» بعد أن تمرّدت على طارق بن زياد .

ثم سار موسى وطارق معًا لفتح شمال بلاد الأندلس حتى وصلوا إلى برشلونة وغيرها من المدن الأندلسية ، وأطمعتهم الرغبةُ فى نشر عدالة الإسلام على أوسع نطاق فى أوربا فاستمرًا حتى بلغا جبالَ البَرانس فى أقصى الشمال، وعزم موسى بنُ نصير على أن يُوالىَ فُتوحاته حتى يضمَّ فرنسا ، ثمَ يتَّجه إلى القسطنطينية شرقًا ليصبح البحر المتوسط بحيرةً عربيةً خالصة ، ولما علم الخليفةُ الأموى بدمشق «الوليدُ بنُ عبد الملك» بطموحات قائده خشى أن تكون الفرصةُ غيرَ مواتية لتحقيق هذه الآمال العريضة، وأمره بالتوقف والرحيل إلى دمشق ومعه طارق بن زياد.

جهاد فى جميع الميادين :

لقد صاحَب جهادَ موسى وطارقٍ فى الجانب العسكرى جهادٌ آخرُ تولَّاه رجالُه وقادتُه بدعم من الدولة وبهدايةٍ من نور الإسلام وتعاليمه ، هذا الجهاد العظيمُ توالى فى ميادين الحياة العامة ، فى الزراعة وفى السعى نحو الرخاء ، وتحقيق الكفاية للجميع ، وفى تنويع الحِرَف والمهن ، وفى العلوم والآداب وفى العمران ، وفى تَحقُّق الأمن والأمان ودَمْجِ عناصرِ الأمة فى جبهة واحدةٍ على أساس « لكُم دينُكم ولنا دِين » ، أمّا عمارةُ البلاد وسلامتُها فمسؤوليةُ الجميع، وقد تَزَوَّجَ أولُ أميرِ عربى مسلم أرملةً مسيحيةً بقيتْ على دينها ، وهو الوالى عبدُ العزيز بن موسى بن نُصير ، والذى ساوى بين جميع طبقاتِ الأمة فى الأندلس دون تمييز فى الجنس أو الدين ، وأظهَر من العدل والمساواة ما شهد به التاريخ .

لماذا رحَّبوا بالفتح العربى ؟ ولقد رحَّب الكادحون فى تلك المناطق بالفتح العربى للأندلس ؛ واعتبرته طبقةُ العبيد ورقيق الأرض خلاصًا لها من نير وقسْوةِ الاستبداد القُوطى ومن رِبْقَة الاستعبادِ وفكاكًا من قيود السادة القُوط وغلظتهم ، وبادر بعضُ أبناء الأندلس إلى اعتناق الإسلام ، وصار الجميع مع المسلمين متساوين فى الحقوق، وفى حرية العقيدة والعمل وفى الإسهام فى بناء الحياة وتحقيق الازدهار برعاية الدولة وعدالتها وَدَعْمِها لكل جُهد يحقق الخير.

وكان فتحًا ونورًا لأوربا كلها : وفى نور توجيه الإسلام ومبادئه ازدهرت الحياة الفكريةُ والاقتصادية والعمرانيةُ والاجتماعية فى الأندلس ، وواصلت المسيرةُ العظيمةُ نُموَّها فى العلوم والفنون والآداب وفى الإقبال على التَّعَلُّم والتحضُّر ، مما جعل الأندلس جنةَ أوربا وزينةً لها ، كما صارت قِبْلةً للراغبين فى التعلُّم والترجمة من العربية إلى اللاتينية ثم إلى لغات أوربية أخرى .

يقول المستشرق «ليبرى» : « إن العرب إذا استحقوا الخلود فإنهم يستحقونه

غالبًا لأنهم حفظوا كثيرًا من الثقافات الإغريقية «اليونانية» إلى جانب ثقافتهم العريقة ، فى وقت كانت فيه أوربا تتخبط فى ظلمات يموج بعضُها فوق بعض».

وازدانت الأندلس بما بهر العالمين ففتحوا عيونَهم وقلوبَهم على ما لم يألفوه فى أوربا قبل وصول الفاتحين العادلين ،وصارت الأندلسُ أولَ وأعظم مَعْبَرٍ للعلوم والآداب والفنون إلى سائر المناطق الأوربية الأخرى ، ونافس الأندلسيون إخوانَهُم المشارقةَ فى كل فنون العلم والأدب والترجمة ، واجتهدوا فى الأخذ عن العلماء والمؤلفين والفقهاء والمحدِّثين الذين ازدانت بهم الحواضر الإسلامية .

* * *

وكانت صقلية المعبر الثانى :

اتجهت أنظارُ العرب فى أفريقيا (تونس والجزائر) نحو صقليةَ ، لأنها فى موقع يجعلها مَعْبرًا ذا أهمِّيَّة كبيرة لنقل العلوم والآداب وأنوارِ الوحى الإلهى لإيقاظ الأوربيين من سُباتهم وغفلتهم ؛ ذلك أنّ صقليةَ تقع فى منطقة متوسطة فى البحر المتوسط ، وتربط الشرق بالغرب عن طريق السفن الرائحةِ والغادية . وكانت ترسو بها السفنُ القادمةُ من صُور ، وقُرطاجِنَّةَ ، وطَرسُوس ، وبيزنطة وغيرها.

القاضى أسد بن الفرات : استجاب حاكمُ تُونسَ «زيادةُ الله» بعد مشاورات لدعوة قائدِ حاميةِ الروم فى صقليةَ واسمُه «يوفيميوس » لفتح صقليةَ ولانتزاعها من الحكم الرومانى ، فَجَهَّز «زيادةُ الله» حملةً بقيادة قاضى تونس العلامة «أسَدِ بن الفُرات» الذى التفَّ حوله المتطوعون من العرب والبربر ، ثُمَّ فى مائةِ مركبٍ أقلعوا من مرفَأ سُوسةَ عام «٢١٣ من الهجرة» :١٣ من يونيو عام ٨٢٧ من الميلاد»، وبعد جهاد ومَدٍّ وجَزْرٍ نظرًا لكثرة الروم ومَن يُؤازرهم من الصقالبة ، إلى جانب ما لحق بالعرب من أزمات شديدةٍ لعدم تَوافُر الإمدادات بما

يفى بحاجاتهم من الطعام، مع تَفشِّى الأوبئة فى بعض الأوقات ، بعد هذا كله بسط العربُ نفوذهم على الجزيرة عام [٢١٥ من الهجرة «٨٣٠ من الميلاد].

مائتا عام أو تزيد : وظل سلطانُ العرب على صقليةَ أكثرَ من مائتى عام كان الحُكم فى بعضها للأغالبة حُكَّام تونس ، ثم للفاطميين وغيرهم ، ثم أخذ التنافسُ بين الأمراء ، وذوى النفوذ يزيد ويعلو على مرِّ سنين يزيد على صوت الحِكْمة والعقل فتنازعوا ، فأصابهم الوعيدُ القرآنىُّ ؛ ففشلوا فى الحِفاظ على استقلالهم وفى الحِفاظ على رسوخهم واستقرارِ أمورهم فى صقلية، بعد أن صارت الجزيرةُ متعاونةً ، وقد تآلفت جميعُ عناصرها فى ظل العدل والرحمة والمساواة ، وما حققه المسلمون من ازدهار وتسامح .

النورمان قوة أوربية طامحة :

هبط النورمان «النورماند» من «إسكندنافيا» فى القرن التاسع من الميلاد ، واكتسحوا فرنسا ، وبعد قرنين ولّوا وجوههم نحو إيطاليا ، وقد ضعُف فيها الحكمُ وانتشرت الفوضى فى إيطاليا وفى جزر المتوسط ، فصارت سياسةُ إيطاليا رهنَ إشارة «النورماند» ، وصارت مقاليدُ الأمورِ فى أيديهم فى النصف الأول من القرن الحادى عشرَ من الميلاد ، وزاحموا العربَ فى الجزر المتوسطيَّة واتجهوا إلى صقلية ، تَشوقُهم مطامعُهم ونزعاتٌ عنصريَّةٌ .

فى صقلية : وقد وصل النورمانْدُ إلى صقليةَ فى الثُّلث الأخير من القرن الخامس من الهجرة [عام٤٦٤هـ]، ودارت معاركُ شهد التاريخُ للعرب فيها بالبسالة والبطولة والشجاعة والإقدام ، ثم دخلت أمراضُ النفوس فى فترة الخلاف والتنازع ، فتمكَّن النورمانْدُ من مدينة «بالرم» بعد خمسة أشهر من القتال الضارى ، ثم سقطت «سَراقُوسة» وتقدَّم أهلُ حِصن «كاستروجيوفانى» للنورماند بمفاتيح المدينة ، ولم يبق للعرب حتى عام [٤٨٤ من الهجرة] سوى مدينتين هما

«بوترا» و «نوتوا» فانتقلتا إلى النورماند بمقتضى معاهدات بين الطرفين .

وبذلك انقضى الحكمُ العربيُ من صقليةَ ولكن بقى العقلُ العربى ، وبقى احترامُ الفكر العربى الإسلامى ،وبقيت الحكمةُ العربية ، والجهودُ البنَّاءة التى جعلت للحكم النورمانديّ رونقًا وقبولًا فى النفوس لمبادرة قيادة النورماند إلى استبقاء مَن لم يَفِرّ من العلماء والأدباء والفنيين والإداريين وغيرهم بل عمل النورمانْدُ على رعاية جهودِ العرب ودعمهم لها ، وقد أدّتْ استمراريةُ الجهود العربيةِ فى ميادين العمارة والعلم والأدب والفنون ومشاركتهم فى الوظائف وفى المشورة ؛ أدى ذلك إلى أن صارت صقليةُ من أفضل النماذج الحضارية بعد الأندلس يقتبس الأوربيون من نورها ، ويحذون حَذْوَها وظلت المعبرَ الثانىَ الثّرىَّ بكلِّ ما هو نافع ومفيد ، وظل هذا التعاونُ قائمًا أكثر من قرن ونصف القرن .

وبعد هذا التمهيد نجد - فيما يلى- بعضَ التفصيل عن حضارة العرب والإسلام فى «الأندلس» وفى «صقلية» وكيف صارت كلٌّ منهما شمسًا ساطعةً بالنور والعدل والعلم والرخاء ورونق الحياة الاجتماعية وجمالها فكانتا النموذجَ لأمم غرب أوربا الذى يُحتَذى ويسعى إليهما المخلصون الراغبون فى الخير لأممهم يتعلمون وينقلون .



(أ) شاهد من أهلها :

شمس حضارة الإسلام
أشرقت على أوربا فأيقظتها
تنبؤات «رِينان» بعودة ازدهار حضارة الإسلام

المدنيةُ الأوربيةُ وليدةُ التمدُّن الإسلامي : يقول المستشرق الفرنسيُّ أرنست رينان «القرن التاسع عشر» «ما يُدرينا بأن يعودَ العقلُ الإسلاميُّ الولُود – أى المبتكر – والكثيرُ المواهبِ إلى إبداع مدنيةٍ أروعَ من زميلتها ، بل ما يدرينا ما عساه أن يصبح بعد قليل مصيرُ المدنية الأوربية الحالية التى هى وليدةُ التمدُّنِ الإسلاميُّ القديم فى خصائصها العليا» .

إن رينانَ الفيلسوف الأجنبيَّ الأوربى يشعر شعورًا عميقًا بحاجة العالم إلى مدنية الإسلام ، ويمنِّى نفسه بأن يعود العقلُ الإسلاميُّ المبتكرُ إلى الإبداع والبحث مرةً أخرى ، لينشئ للدنيا الحائرة مدنية أكثر ملاءمة لحياة الإنسان .

أزمة المدنية الأوربية المعاصرة : والفيلسوف رينان يرى أن المدنية الأوربية، قد استمدت خصائصَها من حضارة الإسلام، ولكنه يتوقع لهذه المدنيةِ مصيرًا مُفجعًا، فلماذا يتوقع للحضارة الأوربية هذا المصير ؟ . لاشك فى أن الحضارةَ الأوربيةَ المعاصرة قد حققت انتصارات بالغةَ الأهمية فى ميادين العلوم العقلية والكونية والعمران والصناعة وقطعت فى هذه الميادين أشواطًا ومسافاتٍ بعيدةً ومُبهرة ، حتى أصبحت ثمراتُ العلم متغلغلةً فى كل نواحى المعاش ، وباديةَ الأثر والتأثير فى مختلف المجالات .

ولكن هذه الحضارةَ مع ذلك تمرُّ بأزمة تضعُها على حافة هاوية ، مما يجعل

مأساةَ الإنسان المعاصر مثيرةً للإشفاق والخوف من سوء المصير ، وإن الأزمة التى تمرُّ بها الحضارةُ الأوربيةُ سببُها إغفالُ الجانبِ الروحيّ فى الإنسان ، فانطلقت الغرائزُ بلا حدود انطلاقَ الحيوان فى الغابة ، وسيطر التفكيرُ المادىُّ على العقول والنفوسِ ، حتى صار الإنسان كالآلة ، تتحرك بقوة البخار ..

إن نظرةً إلى العالم الأوربيِّ شَرقِه وغربه لتُرينا هذه الحقيقةَ واضحة جَلِيَّةً، فالإنسانُ لم يُوضع في مكانه الصحيح ، ولم يُرَبَّ التربيةَ الشاملةَ الكاملةَ العالية التى تتناول العقلَ والروح وحاجاتِ البدن والنفس مع الاهتداء بنور الوحى الإلهى، فالإنسان فى أمم المدنية الأوربية يعيش فى عالم المادة والحِسِّ وحدهما، وحِيل بينه وبين عالم الروح ، وبين الـخُلُق الإنسانيِّ الرفيع الذى جاء به الوحْىُ من عند الله ، فكان من ثمرات هذه التربية الناقصة فى أمم المدنية الأوربية أن طغتْ الأَثَرةُ وضاعت فضيلةُ الإيثار ، وعَلتْ موجةُ التعصُّب الأعمى ، واختفت تحتها فضائلُ السماحة ، والتسامح ، وامتلأت الصدورُ بالأحقاد ، ولا ندرى متى تتفجّر هذه الأحوال على نحو أكثر ممّا رآه العالم فى بدايات القرن الحادى والعشرين وتصير براكين فتدمّر الأخضر واليابس ، وإن الضحية فى النهاية هو الإنسان الذى كرّمه الإسلام، ولكنَّ هذه الأحقاد التى تفور ، والعصبيات العمياءَ الحمقاء تُبدّد أمنه وتجعلُ جهودَه عرضةً للدمار وحياته ودمه للإهدار بلا وازع ولا ضمير، وإن العلاج والطبَّ فى الأخذ بتعاليم دين الله عز وجل الذى أكرم الله به الإنسان.

مفهوم الحضارة :

إن الحضارة – فى مفهومها الحقيقيّ – ليست بنيانًا ماديًّا فحسب ، لأن الإنسانَ ليس جسدًا ماديًّا فحسب ، بل إن الإنسان جسمٌ وروحٌ ، وإن الحضارةَ التي لا تحقق لهذا الإنسان حاجاتِ جسمِه وعقلِهِ وروحِه ، ولا تُوازِنُ بين هذه

الحاجات ، هى حضارةٌ كُتِب عليها الانهيارُ ، ولنسأل التاريخَ عن مصير الحضارات الرومانية ، والفارسية ، واليونانية ، وهل أغنتها قوتُها المادية ؟ هل دفع عنها المظهر المادىُّ الضخمُ سوء المصير الذى واجهته كلُّ حضارة من تلك الحضارات!

إن مفكرين أوربيين يشعرون بالمحنة التى تعيش فيها حضارةُ الغرب الماديةُ التي نبذت القيم الروحيةَ والمُثُلَ الأخلاقية ، ولم تخدعهم مظاهرُ التقدم الصناعىّ والمادىّ الضخم عن الحقيقة التى تعيش الشعوبُ الأوربيةُ عليها ، حيث القلقُ وعدمُ الاستقرار النفسىّ وانتشارُ الأمراض العصبية والنفسية ، وتفَشّى مساوئ يَقْشَعِرُّ لها بدنُ الإنسان الحرِّ الأبىِّ ذى الفطرة النقيّة .

العلوم العقلية وحدها لا تكفى : قد علّل لهذه الحقيقة الكاتبُ الأوربى «سومرست موم» ، فقال : « إن أوربا نسيت ربَّها ، واتخذت لها معبودًا جديدًا هو العلم ، ولكن العلم كائنٌ مُتقلِّب، فهو يُثبت اليوم ما نفاه بالأمسِ ، وهو ينفى غدًا ما يُثبته اليوم ، لذلك تجد عُبَّاده فى قلق دائم ، لا يستقرون ..» ويقصد بذلك العلم الذى هو ثمرةُ عقلِ الإنسان وتجربته فى شتى الفنون .

إن الحضارة المادية التي لا تُقيم وزنًا لعالم الروح ولا للأخلاق الفاضلة والقيم الثابتة لا تنشئُ إلا ذاتًا ضالَّةً ، حائرة ، مُتقلبة ، ونحن إذا قارنَّا بين الشخصية التي تبنيها عقيدةُ الإسلام والشخصيةِ التى تُنشئُها حضارةُ الغرب المادية ، وجدنا الشخصيةَ المسلمة التي تبنيها عقيدةُ الإسلام ذاتًا رصينةً متزنةً فاضلة تستمدُّ المعرفة من دستور خالدٍ ثابتٍ لا يتغير ولا يتبدَّل فهي تعيش بِمُثُلها الرفيعة فى عالم الواقع تعرف الغايةَ التي من أجلها خُلقت ، والغايةَ التى من أجلها خَلق اللهُ هذا الكونَ وهى تسعى لعمارة الأرض ، مؤمنةً بأن لهذا الكون خالقًا حكيمًا عليمًا ، تعبُدُه وتشكره وتتوكلُ عليه ، وتوقن بالجزاء بعد الحساب ، وهذا الإيمانُ القوىُّ

يمنح المسلم صبرًا على الشدائد ، وعزمًا فى مواجهة الخطوب ، ورِضًى بما ينوب واغتباطًا للنعمة ، وتجلُّدًا للمحنة ، ومن هنا يعيش المؤمن مستقرَّ النفس ، هادئًا هانئًا ، قريرَ العين .

وتعليل لمحمد إقبال : يقول الفيلسوف محمد إقبال : «إن مثالية أوربا – أى التى توجّه العناية للمطالب المادية والعقلية للإنسان وتُهمل تربيةَ ضميره وروحه ونفسه– ، لم تكن من العوامل الحيَّة المؤثرة فى أبنائها ، ولهذا أنتجت ذاتًا ضالةً تبحث عن نفسها بين ديمُقراطيات لا تعرف المثل الأخلاقية ، وصَدِّقونى أن أوربا أكبرُ عائق فى سبيل الرقىِّ الأخلاقى للإنسان ، أما المسلم فإن لديه هذه الآراءَ الثابتةَ القائمةَ على أساس مُستمدٍّ من تنزيلٍ حكيمٍ يتحدَّثُ إلى الناس من أعماق الحياة والوجود (لا من المثالية البعيدةِ عن الواقع وعن مراعاة فِطرةِ الإنسان وطبيعة تكوينه) ، ولذا فإن ما يؤمن به المؤمن ويعمل به من تعاليم الوحى الإلهىّ يترك أثره فى أعماق النفوس ، وإن الأساس الروحى عند المسلم هو إيمانٌ يستطيعُ أقلُّنا استنارةً أن يسترخص الحياةَ فى سبيله ..» .

ومحمد إقبال يشير بهذا إلى أن حضارة القرآن الكريم تملك المنهج الذى يشرح الحقائق ، ويرسم الطريق ، ويمنح المعرفة الثابتةَ الصحيحةَ ، لأنها مُستمدةٌ من كلام رب العالمين ، فهى من أجل ذلك معرفةٌ لايتسرَّب إليها الضعف أو الخلل ثابتة ولا تتغيَّر ولا تتبدل ولاتتناقض ولا تضطرب ، وإن آثارها الفذة لتنعكس على المسلم ثباتًا فى المواقف وتضحيةً فى الشدائد ، وقوةً فى الرأى ، وبصرًا بالأمور ، إنها تنتجُ الذاتَ البصيرةَ الثابتة المهتدية ، أما أوربا فإنها حاولت أن تصنع شخصيةً مثالية من تصورِ العقل وحده لكنها لم تفلح لأنها لا تستند إلى منهج ثابت، ولهذا أنشأت ذاتًا ضالَّة تَهيم على وجْهها بين شتى الآراء ، وتحارُ بين مختلف المذاهب الديمقراطية وغير الديمقراطية التى لا تُعطى الآراء الثابتة المستقرة تجاه الكون والحياة

والدِّين والأخلاق والفضائل ؛ لهذا كان الإسلام أعظم نعمة لله على الإنسان .

ماذا يجبُ علينا ؟ :

إن أثمن هدية يقدمها المسلمون لحضارة عصرنا وشعوبها الحائرة ولكل الناس هى أن يعود المسلمون أنفُسُهم إلى العمل بتعاليم دينهم والتمسكِ بها فى كل شئون حياتهم ، ثم يمدُّوا أيديَهُم إلى الدنيا الحائرة لينقذوها من ضلالها ، ويرشدوها إلى طريق ربها .

إن تلك الهديةَ هى أثمنُ وأنفس وأبقى أثرًا من منهج البحث العلمى الذى قَدَّمه المسلمون للغرب من قبلُ فأخرجوا أوربا من طور الجهالة والجمود إلى مرحلة التحضُّر والتمدُّن ، ولكنّهم بَنوا بناءً ماديًّا ضخمًا ، ولهثوا وراء الشهوات والأهواء والأغراض الخاصة فتناقضت مذاهبُهم ، واضطربت حياتُهم على الرغم من القوة الماديّة التى تجعل الإنسانَ فى كل مكان من الأرض على شفا حُفرةِ الخوفِ من سوء المصير ؛ إذ القيادُ لضميرٍ لم يهذِّبه دينُ الله ولم يَصْقله إيمان صحيح صادق يجعله يراقب ربَّ العالمين.

وإليك فيما يلى شيئًا من التفصيل فى بيان ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى الطريق السليم الصحيح :



حقيقة الإنسان
وفساد معتقدات المادّيين

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ . [السجدة : ٧ - ٩] .

الروح والعقل وضبط الغرائز :

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من عنصرين : عُنصرٍ أرضىٍّ ، وهو عنصرُ الطين الذى يشترك فيه الإنسانُ مع سائر الخلائق التى تدبُّ على الأرض من طير وسائر الحيوان والهوامّ ، وعنصرٍ سماوىٍّ هو هذه النفخةُ الروحيةُ التى كرّمه الله بها، وجعل له عقلًا مُدرِكًا قادرًا على الفهم والاستنباط وعلى تصريف أموره وأوْدَعَ فى روحه وفى عقله سِرَّ المعرفة التى امتاز بها الإنسانُ وصار قادرًا على أن يدرك مالا يدركه غيره من الخلائق التى تشاركه الحياة على الأرض: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ﴾ وبمقتضى العنصرِ الأرضى المادى فى الإنسان رُكِّبت فيه الغرائزُ التى يحتاج إليها الجسمُ فى نموّه ، وسلامته ، وفى صلاحيته للحياة، وهى غرائز يشترك الإنسانُ وسائرُ الحيوان فى كثير منها ، فكلاهما جسمٌ يتركَّب من عظم ولحم ودماءٍ وعروق وأعصاب ، وغير ذلك ، وكلاهما يحتاج إلى الغذاء الذى يقيم حياته، وإلى القوة التى يَحمى بها نفسه ، وإلى التناسل الذى يحفظ به نوعَه ، وكلاهما - الإنسان وغيره من الأحياء - يندفع بحكم غرائزه إلى السعى فى سبيل قُوتِه ، وإلى القتال فى سبيل

حياته ، وإلى الزواج فى سبيل الإبقاءِ على نوعه ، وبه يكثرُ نسلُه ، وتحت تأثير هذه الغريزة ينشأ ما يكون فى الإنسان وفى سائر الحيوان من حرص وبطشٍ وشهوة ، وما يترتب على كل ذلك مِمَّا نشاهده من مظاهر الطمع والظلم ، والشحّ والأَثَرةِ والأنانية ، والاندفاع مع الشهوة ، والميل مع هوى النفس إذا لم تنضبط غرائزُ الإنسان بالتزامِ أوامرِ دين الله واجتنابِ نواهيه .

فالإنسانُ من هذه الناحية المادية يستوى مع سائر الحيوان فى الاندفاع الغريزىِّ نحو متاع الحياة الدنيا ، ولكن العنصرَ الروحىَّ فيه يرفعه عن مستوى غيره من سائر الأحياء ، ويجعله بحيث يستطيع أن يتحكَّم فى غرائزه ، ويُهيمنَ عليها ، وبحيث يملكها ويستخدمها على بصيرة وهداية فى كل ما يُقيم حياته على الأساس الذى يَليق به ، فهو إنسانٌ ذو عقلٍ وقلب لا ينبغى له أن يندفع مع الغريزة اندفاعًا أعمى كما يندفع الحيوان الأعجم.

ولذا كان من فضل الله على الإنسان أن منحه «العقل والإرادة» ليساعداه على التمييز ، وعلى ضبط غرائزه ، وأرسل سبحانه له الرسلَ وأنزل الكتبَ لتربيته وإنارة الطريق أمام عقله ، بحيث لا يصير عبدًا لغرائزه بل يصير عقلُه الذى هذّبه دينُ الله هو المسيطر عليها ، يوجّهها ولا تُوجِّهه هى ، وهذا هو فرقُ ما بين الإنسان والحيوان الأعجم ، وبمقدار ما يُحسن الإنسانُ من استخدام هاتين القوتين - العقل والإرادة - يكون الفرق بينه وبين الحيوان الأعجم .

دينُ الله اعظم نعمة :

ولما كان الإنسان ضعيفًا أمام أهوائه وغرائزه ، مع تربُّص الشيطان به ، امتنَّ الله سبحانه وتعالى بالهداية الربانية : فأرسل الرسلَ عليهم السلام لينيروا الطريق أمام العقل ، وليُنَمُّوا فى الإنسان قُواه العاقلة ، وليوضحوا له طريق الحق ، وسُبلَ الخير ، وليضربوا للبشر المثل بأخلاقهم العظيمة وأعمالهم الجليلة، على أن الإنسان

يستطيع بما وهبه الله من القوى النفسيّة والذهنية وفى ضوء هداية دينِ الله أن يُغالب هواه ، ويقمعَ نزواتِه ، ويدفعَ عن نفسه هواجسَ الشيطان ووساوسَه ، فإن دينَ الله يوضح له طريقَ السلامة وما ينبغى له وما لا ينبغى ، وعلى ذلك يصير الإنسان قَمينًا بخلافته فى الأرض على خير وجه ، وأن يحقق فيها معانى الحق ، وأسباب الخير والأمن الاجتماعى ، والازدهار فى الطريق الصحيح .

منهاج كامل : ولما كان الإسلامُ هو الرسالةَ السماويةَ العامة الخالدة ، ولما كانت رسالتُه هى خاتمةَ الرسالات ، فقد أراد الله عزّ وجل أن يكون الإسلام منهاجًا كاملًا يتضمن كلَّ ما يحقق للإنسان السعادةَ فى الدنيا ، والفوزَ فى الآخرة : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٩]

وهذا المنهاجُ الكامل يدور حول نواحٍ ثلاث ؛ **ناحية العقيدة ، وناحية الأخلاق والفضائل ، وناحية الأحكام** .

أما العقيدة : فهى التى تطهر القلبَ من بذور الشرك والوثنية وتربطه بمبدأ الرُّوحية الصافية ، وهى تشمل ما يجب الإيمانُ به فى جانب الله سبحانه من صفات الجلال ونُعوت الكمال ، وما يجب الإيمانُ به فى جانب اليوم الآخر من البعث والحساب والجزاء إمّا فى جنّة وإمّا فى نار ، وغير ذلك مما أخبرنا به القرآنُ الكريم وجاء على ألسنة رسله الكرام صلواتُ الله عليهم أجمعين .

أما الأخلاق : فقد جاء الإسلامُ بكلِّ ما يهذب النفسَ ، ويزكّيها ، مِـمّا يُربِّى الضمير ويصقلُه بحيث يلتزم الحقَّ والصلاح ، ويُبغِضُ الباطل والفساد ، ممّا يرفع من شأن الفرد والجماعة ، ويقوى عُرى التآخى والتعاون على الخير وعلى عمارة الأرض بين بنى الإنسان مع تعدّد أديانهم وألسنتهم وألوانهم، وتشمل الأخلاقُ التى جاءت بها هدايةُ السماء ؛ الصدقَ ، والأمانةَ ، والوفاء ، والصبر ، والحِلم ،

والجود والرحمة ، وغير ذلك من الفضائل ممَّا يحقق فى الإنسان ثمرةَ إيمانه بالله ، وبصفاته سبحانه التى يجب أن يكون عليها عباده .

أما الأحكام : فمنها ما جاء مُبيِّنًا أحكامَ العبادات ؛ كالصوم والصلاة والزكاة والحج ، ومنها ما يشمل أحكام اليمين والنذر وغير ذلك مما يُغذى الإيمان ، وينمِّى ثمراته الطيبة فى النفس الإنسانية.

ومن هذه الأحكام ما يتصل بالأسرة وبالأحوال الشخصية ؛ كأحكام الزواج والطلاق ، والمهر والنفقة والرضاعة والإرث وغير ذلك ، ومنها ما يتصل بالمعاملات المالية ؛ كأحكام البيع والدَّين والرهن والإجارة وغير ذلك ، ومنها ما يتصل بأحكام الجنايات والجرائم وسائر الحقوق بين المتنازعين مما يدخل فى دائرة العقوبات .

هذا إلى الأحكام الدولية العامة : مثل أحكام الحرب والسلم وما يتبع ذلك من معاهدات وغنائم وأسرى ؛ مع الرفق والرحمة والعدل والإحسان فى معاملة المقهور ، وفى رعاية الأسير وكفالةِ جميع حقوقه اللائقة بالإنسان الذى كرمّه الله عز وجل وعدم إجبار أحدٍ على تَرك دينِه أو على الإقرارِ بما لا يَعْرِفه من قبل ، ولا يُدان إنسانٌ بعقوبة كالحبس أو بحدٍّ أو بتعزيرٍ إلا بعد ثُبُوت الجُرم بالبيِّنات والأدلة الشرعية ودون إكراه .

إن رسالةَ الإسلام إيمانٌ وعقيدةٌ ونظامٌ اجتماعىٌّ كاملٌ وشاملٌ ونظيف وعظيم، هذا إلى جانب المسالك الإنسانية الفاضلة ، والأخلاق السامية والفضائل العالية، فرسالةُ الإسلام تهدف إلى إصلاح النفوس ، وتربيتها ، وتنشئتها على مبادئ الحق والخير ، وإلى تكوين المجتمع السليم ، الذى يستمسك بهذه المبادئ ، ويتخلَّص من شوائب المنكر ، ومن قبيح العادات ، ورذائلِ الأخلاق ، ويتعاون أفراده دائمًا على البِرِّ والتقوى ، والأمرِ بالمعروف ، والنهى عن المنكر .. وبذلك

تحيا فى النفوس - دائمًا - معانى الخير ، ومبادئ الحق .

إن خالق البشر سبحانه وتعالى هو العليم بما يَصلُح به أمرُ الناس وبما تستقيم عليه أمورُ دنياهم ، فأنزل القرآنَ الكريمَ مشتملًا على كل خير ، مبينًا كلَّ ما ينفع الإنسان ، وبيّن لنا القرآنُ وسنةُ النبى الهادى ﷺ كلَّ ما يُغنى أمةَ الإسلام فى باب الاعتقاد ، والأخلاق ، والمعاملات ، فالمجتمع الإسلامى فى خير وهُدًى ونُورٍ ما استمسكوا بدينهم ، واعتصموا بكتاب ربِّهم واقتدَوْا برسولهم الكريم والتزموا سُنّته؛ لا تُضلُّهم عن دينهم أهواءُ الملحدين ، ولا نزواتُ المضللين : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٦ - ٢٨] .

* * *

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠]

❋ ❋ ❋

الأخلاق والخيرُ الأسْمَى

حاجة الإنسان إلى دين الله :

إن العلم والأخلاقَ توأمٌ لا تستغنى عنهما المجتمعاتُ، وهما من لوازم بناء الإنسان ، وإذا كانت الأممُ تتخذ من العِلْم أداةً لبناء صَرْحِها الاقتصادى والعُمرانى ووَسيلةً لتحقيق التقدُّم فى كل ميادين الحياة ، فإن هذا التقدمَ إذا لم يُصاحِبْه سُموٌّ فى الأخلاق ، وتهذيبٌ للنفوس ، وتمسُّكٌ بالمُثل العُليا التى جاءت بها رسلُ الله صلى الله عليهم وسلم ، يكون التقدم المادىُّ فى هذه الحالة وبالًا وشرًّا ، فالأخلاقُ الفاضلة هى صِمَامُ الأمانِ الذى يَحمى البشر من سَوْرَات الطبع ، ومن نقمةِ الأحقاد والأثَرة والأنانية ومن حبِّ الذات والتعصبِ الأعمى للمصالح الفردية أو العِرقية .

ولقد اشتغل الفلاسفةُ – منذ أقدم العصور – بما يتعلَّق بالأخلاق ، وبتحديد مفهومها، وما ينبغى وما لاينبغى، وعُنوا فى بحوثهم بالمسائل العملية التى **تتعلق بالسلوك للفرد أو للأسرة ، أو للدولة ، وكان السؤال: ما الغاية التى من أجلها ينبغى أن نعمل؟ وما البواعث التى تدفعنا إلى العمل؟.**

وهذه البحوثُ كانت تهدف إلى تحديد **الخير والشر** ، أى إن هذه البحوث الفلسفية تريد أن تصل إلى تحديد الخير الأسْمَى الذى هو غايةُ القانون وغايةُ الأخلاق ، وإلى تحديد الطريق الموصِّل إلى هذه الغاية – أى : الواجب – وإن كلَّ فيلسوف كان يعمل على تحديد الخير الأسمى وتحديد الواجب ، وقد تشعبت الآراء، وتعارضتْ وِجهاتُ النظر، وكانت وما تزال آراءُ الفلاسفة الذين يجعلون التفكير العقلىَّ وحده هو الفيصلُ والحكَمُ فى تحديد الفضائل والتعريف بما هو خير

وماهو شرٌ مازالت آراؤهم إلى عصرنا الحاضر مُتشعبةً ومتعارضةً ومتناقضة ، فلماذا ؟ .

إن الإنسان بطبيعة تكوينه ، وبتأثير البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها غيرُ قادر - بتفكيره وحده - على أن يصلَ إلى تحديد « الخير المطلق » ، وإلى تحديد القِيَم الثابتة التى تُحقق له السعادةَ التى يرجوها ، وتضمن له حياةً فاضلةً مُستقرَّة ، ولما كان الإنسانُ كذلك ، كان فى أشدِّ الحاجةِ إلى الدين السماوى الذى يوضح له : كيف يتعامل مع الآخرين بأسلوب أخلاقى كريم يحقق المحبةَ والتآخىَ والتعاون فى جوٍّ من التسامُح ، وكَبْح جِماح الأَثَرة والأنانية الفردية أو العُنصرية ؟ ويوضح له السبيلَ إلى تكوين الأسرة بطريقة شرعيَّةٍ صالحةٍ مطابقةٍ لفِطرة الإنسان ، ثم يبين له الشرعُ نوعَ العلاقة التى ينبغى أن تقوم بين أعضاء الأسرة الأم والأب والأولاد لتصير هذه الأسرةُ الصالحة دعامةً قويةً يستند إليها المجتمعُ فى تحقيق آماله ؟ وغير ذلك من أنماط السلوك الفردى أو الجماعى الذى يحقق الاستقرار والسلام الاجتماعىَّ والسعادةَ للبشر، ومن أجل ذلك - وغيره - كان الدينُ الحقُّ من أعظم نِعَم الله سبحانه وتعالى على عباده .

وإن عَجْزَ الإنسانِ عن تحديد كلِّ معالم الخير ، وعن وضع قائمة للقيم ، وللفضائل الثابتةِ ؛ إنَّ هذا العجزَ يرجعُ إلى عوامل تتسلَّط عليه وتتحكَّمُ فيه إذا لم يجد هاديًا من مبادئ دين الله يَهديه ، ويُقَوِّى الوازعَ الداخلىَّ النابعَ من رقابة الإيمان الصحيح ، ويُقَوِّى الإرادةَ فيه ، وهذه العواملُ بعضُها يرجع إلى الغرائز، وبعضها إلى **العاطفة** أو إلى **العادات المكْتسَبة من الوسط والبيئة فكيف ذلك:**

* **فالغرائز** : تلعب دورًا مهمًّا فى تفكير الإنسان ، فإذا ما دفعت الغريزةُ إنسانًا إلى سلوك غيرِ أخلاقى فإن عقلَه وتفكيرَه يعملان لتبرير موقفه ، وعلى سبيل المثال: فإن غريزةَ حبِّ الحياة ، قد تحمل الإنسانَ على الاستكانة والضعف والذلَّةِ

أو على النقيض من ذلك : قد تحمله على العُدوان والافتراس والهجوم فيظلم ويقسو بل وقد يدمِّر ويُسيء ويَبْطش، وإن عقلَه فى كلا الحالين يعمل لتبرير موقفه ، فلو تُرك الإنسانُ وشأنه ، لاتحكمه قوانينُ أخلاقيةٌ ثابتةٌ مُستمدَّة من دين الله تُحيى فى داخله الرقيبَ الأعلى الذى يُهيمن على الغرائز ، وعلى نَزَوات الطبع ، لو تُرك الإنسانُ كذلك لسيَّرته غرائزُه أكثر مما يُسَيِّره العقلُ ، أو القانون الأخلاقى الذى يتعارف عليه الناس ، لأن الإنسان فى حاجة فِطرية إلى الدين السماوىِّ فهو الذى يُهذِّبُ ضميرَه ويصْقلُه ويُربِّيه ، ويُرشد العقل ويُنير له الطريق ويُنمِّى فيه القدرةَ على ضبط غرائزه وتوجيهها فى الطريق السليم الصحيح ، وبدون توجيه دين الله وآدابه ومبادئه يضلُّ الإنسان ويتحيَّر وتستبدُّ به نزعاتٌ غير شريفة أو شريرة .

* **العاطفة** : وليست الغرائزُ هى كلَّ شىء فى حياة الإنسانِ وإنما هناك العاطفةُ ، والعاطفةُ قد تدعو الإنسان – مثلاً – إلى أن يقفَ مناصرًا ، ومُبرِّرًا لعمل عشيرته أو أهلِه ، أو لعملِ قوم يحبهم أو ينحاز إليهم لمصالح خاصَّة، لا لأن الحقَّ معهم ، وإنما بسبب صلتهم به ، ففى المجتمعات الجاهلية نرى الرجلَ يندفعُ بسلاحه إلى حَومَةِ الوغَى ؛ ينصر عشيرته ، حتى ولو كانت هى الظالمة المُعْتدية ، وإن عقله يُبرِّر له عملَه ، ولا يشعر بأى حرج أو تأنيب لنفسه بل على العكس ، فإنه قد يُفاخر بالظُّلم ، وبالعدوان ، فلماذا ؟ . ذلك لأن الجاهلىَّ – فى عصر قديم أو حديث – يفقد الوازعَ الداخلىَّ أو الضابطَ الأخلاقىَّ الذى ربَّاه دينُ الله وهذَّبه الإيمانُ الصحيحُ الذى يجعله دائمًا يشعر بالخوف من خالق الوجود .. فيخشَى عقابه ، ويقف بعيدًا عن كل ما يُغضب ربه ، ويتصرَّف على بصيرة فى إطار الحدود التى رسمها الشرعُ فلا إفراط ولا تفريط .

* **العادات** : وإن الإنسان كذلك لو تُرك لنفسه ، فإنه يكتسب عاداتٍ من

البيئة التى يعيش فيها ، وإن العادات تختلفُ مقاييسُها من جماعة إلى جماعة ، ومن أمة إلى أمةٍ ،ومن بيئة إلى أخرى ، ولا تخضع هذه العادات المكتسبة لنواميسَ ثابتةٍ ، فما تراه جماعةٌ عادةً حسنةً، قد تستقبحها جماعةٌ أخرى ، وإن عقلَ الإنسانِ ومنطقَهُ يُبَرِّران له العاداتِ التى اكتسبها خيرًا كانت أم شرًّا ، إذ العقلُ فى أشد الحاجة إلى هداية دين الله وإرشاده ، فإن دينَ الله هو الذى يُبَيِّنُ له الخيرَ ويُوضِّح له الشرَّ والمَسْلكَ السليم والعاداتِ والأخلاقَ الخسيسة غير اللائقة.

وعلى سبيل المثال : أىُّ عاقلٍ سليم الفطرة منضبط فى تفكيره يستحسن عادةَ **الأخذِ بالثأر** دون الرجوع إلى القانون ، مع تَرْكِ الأمرِ للحاكم وللقضاءِ يفصل فيه؟ إن عاقلًا لا يقول : إن تلك العادةَ فضيلةٌ إنسانيةٌ مستحسنة ، بل إن العاقل المستنير بهداية دين الله يرى أن عادة الثأر بلا قانون ولا ضابط من القبائح التى تجرُ الوبالَ على المجتمع وتُزعزع أمنَه، ولكنَّ المجتمعاتِ التى تشوبُ عاداتِهَا لوثةٌ من لوثات الجاهلية قد ترى فى ذلك ما يُرضى كِبرياءَ ها وحماقتَها ولو كان عملُها هذا لا يستقيم مع العقل السليم ، أو التفكير السديد ، الذى يرى وجوبَ الرجوع إلى القانون وإلى القضاء للفصل فى قضية الثأر .

وما يقال عن عادة **«الثأر»** يقال مثلُه عن عادة **«وأدِ البنات»** فى العصر الجاهلى ، أو عادة إحراق الميت فى مجتمعات جاهلية حديثة ، أو إحراق الزوجةِ نفسَها بعد موت زوجها ، أو ما شَرَعته بعضُ جاهليات المدنية الأوربية المعاصرة من تعمُّد قتْل المريض الذى لايُرجى بُرْؤه وجعلوا ذلك قانونًا مُبيحًا تحت اسم شيطانى وهو «القتلُ الرحيم» وما أروع قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل : ٢٤] ثم يتمدَّح الضالون عن طريق الحق والهدى والرحمة بمعطيات القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين ؛ وهم على هذا النحو من عمى البصيرة ومن ضلال العقل وظلام

النفس وهُزال الضمير ، أو غير ذلك من العادات التى يبررها العقل وحده ويُزيِّنُها إبليس اللعينُ لأصحابها وهى ليست من العقل السليم فى شىْءٍ ، وتتنافى مع تكريم الإنسان ومع العواطف الإنسانية النبيلة التى تتدفّق رحمة وشفقةً وتأبى القسوة وغِلظ الأكباد .

إنّ الإنسانَ تتحكم فيه غرائزُ حيوانية ، وعواطفُ جامحة - أحيانًا - وعاداتٌ وتقاليدُ قَبُحَت أو خَشُنَت ، إذن فالإنسان محتاجٌ إلى معونة السماء ، فى حاجة إلى الهداية الربانيةِ فى حاجة إلى المُثُل العُليا ، وإلى الفضائل الثابتة التى تَصْلحُ لكل زمانٍ ولكل مكان ، والتى لاتهتزُّ مقاييسُها الأُصيلةُ بتغيُّرِ الأحوال، أو تقلُّب الزمان ، أو اختلاف المجتمعات ، ولن نجد ذلك إلا فى «الإسلام» وهدايته الذى بعث الله عز وجل به خاتم رسله محمدًا ﷺ .

إن الإنسان محتاجٌ إلى دين الله ، يَهديه ، ويُرشده ، ويدفعه فى طريق الكمال الإنسانىّ بجانبيه الروحىّ والمادىّ ، ويُقوِّى فى نفسه الوازعَ الدينىَّ أو الرقيبَ الأعلى الذى ينشأ عن الإيمان الصحيح ، وهذا الرقيبُ هو الذى يسيطر على غرائزه فلا تَجْمح ، وعلى عواطفه فلا تندفع على غير هُدًى ، ويُهذب نفسه وعاداته، ويوقظ ضميره ويربيه تربيةً سديدة رشيدةً فيحاسب - لذلك كله - نفسَه على كل صغيرة وكبيرة قبل أن يقف للحساب أمام خالقه : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبُوا ، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم» . ولعلنا عرفنا ، لماذا فشلت الفلسفةُ قديمًا كما فشلت فلسفاتُ المادِّيين حديثًا فى تحديد الخير ، وفى معرفة الطريق إلى السعادة الحقة الموصّلة لخيرى الدنيا والآخرة : ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

وكان فضل الله عزّ وجلّ عظيمًا على بنى الإنسان ، إذْ أنزل عليهم القرآن ، ودعا الناسَ كافة إلى اتباع خاتم الرسل والأنبياء ﷺ ، وهو أكملُ الناس خُلقًا وأتمُّهم أدبًا.

* * *

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾

[البلد : ٨: ١٠]

أى : بينّا له طريق الخير وطريق الشرّ لكى يتجنب الشرّ ويلتزم الخير ، ويسلك مسالك الراشدين الفضلاء ؛ فيتحقق له الأمنُ والطمأنينة وسلامةُ حياته من دواعى القلق والفساد والشرّ .



(ب) فتح الأندلس كان رحمة ونعمة على أوربا

من رحمة الفتح الإسلامى وأنواره :

إن الفتح الإسلاميّ كان نعمةً ورحمة ، وكان فضل الله على الإنسان بالإسلام عظيمًا :

أخرج الإسلامُ بَنى الإنسان من الظلام إلى النور ، وطهَّر القلبَ من الشرك والإلحاد والزَّيغ ، وأنقذ العقلَ من الضلال والحيرة وزوَّده بالعلم النافع والمعرفة الصحيحة، وفكَّ إساره من الجمود والتقليد الأعمى لينطلق حُرًّا يتفكَّر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى أسرار النفس ، وجعل البرهانَ دليلَه ، فانطلق الإنسانُ من إدراك عجائبِ المصنوعات ومِمَّا عَلِمَهُ من أسرارها إلى معرفة عظمة الصانع ، وكمالِ حكمته ، وكمالِ قُدرته ، وكمالِ عِلمه وإرادته ؛ وإلى أنه سبحانه واحدٌ لاشريكَ له ولا نِدَّ ولا نظيرَ ولا ولدَ له ولا صاحبة .

وكانت تلك من أعظم نعم الله ، وبفضلها عَلِم الإنسانُ وتعلَّم وأدار ظهره لظلام الجهل وجمودِ الفكر .

العدل والمساواة :

وبفضل الفتح الإسلاميّ عَرَف الإنسانُ – ومن كل دين ولسان– معنى المساواة فى الحقوق والواجبات ، وعرف حقَّ كلِّ فردٍ فى العدل والتكريم ، واعتدلت نظرةُ الإنسان إلى أخيه فلا تفرقةَ بين عربى وغيرِ عربى فالجميعُ إخوةٌ مُكْرمون ؛ الفقيرُ والغنىُّ ، والقوىُّ والضعيف ، وانصهرت الأجناسُ والعِرقيات فى بَوْتقةِ الحقِّ واللسانِ العربىِّ طوعًا لأنه لغةُ القرآن الكريم الذى هو حياتُهم ونورُ بَصائرهم وأفئدتهم ، ونزع اللهُ بفضله ما فى صدورهم من غلٍّ أو شعورٍ بالتفاوت

الحَسَبيّ والنسبيّ وصاروا إخوانًا على مائدة المحبة والتعاون من أجل البناء والعمارة وازدهار الحياة .

فَمَا أعْظَمَ رحمةَ اللهِ بالإنسان !! وكان الشعارُ : كونوا عبادَ الله إخوانًا ، فأنتم لآدمَ وآدمُ من تراب .

فى اسبانيا :

وفى العام الثالث والتسعين من الهجرة النبوية الشريفة [فى القرن الثامن من ميلاد رسول الله المسيح عليه السلام] أظلَّت حضارةُ الإسلام أسبانيا « الأندلس » وقد تمَّ هذا الفتحُ بقيادة « طارق بن زياد » ، و قائده « موسى بن نصير » ووجد هذا الفتحُ العظيمُ من أهل البلاد ترحيبًا وشعورًا بالراحة والرضى .

العلم والأدب :

وأينما حلَّ المسلمون كانت تُعقد مجالسُ العلم ، لا غِنى لهم عنه ، فهو نورهم، وحياةُ نفوسهم ، وبالقرآن الكريم وبمعانيه يُحْيُون القلوب ، ويُهذِّبون الأخلاق ، ويَصقُلون الضمائر ، ويتعلَّمون ماينفعهم فى أمور دينهم وشئون دنياهم ، ومن سُنَّة نبيهم ﷺ - أى من أقواله وأفعالِه وتقريراته - يتعلَّمون تفصيلَ العبادات وتوضيحَ المعاملات والعلاقات الإنسانية ، فكانت مساجدهم هى مدارسَهُم ، ومع استمرارها وعدم انقطاعها تُنشأ - أيضًا - المدارسُ مُلحَقَةً بالمساجد حينًا ومستقلة حينًا آخر ، وتوسَّعت فنونُ العلم ، وتنوعت مصادرُ المعرفة ، وبرز فقهاءُ ، وعلماءُ ، ومفكِّرون ، وشعراء وناثرون ، وظهر مِهَنيُّون فى حِرَفٍ متعدِّدة ورُوَّادٌ فى كل فنون المعرفة .

فماذا كان من العلاقة بين مَشْرقِ الأمةِ ومَغْربها ؟ وكيف كان يتمُ التواصُلُ بينهما ؟

ازدهار العلوم والآداب بمشرق الدولة الإسلامية :

كانت الحياة العلميةُ والفكرية فى نُـمُوٍّ مُطَّرد ، وازدهرت حلقاتُ العلم فى المساجد ، وأُقيمت المدارس ، ووجدت العلومُ والآدابُ الدعمَ من الخليفة الأُمويِّ فى دمشقَ ومن الأمراءِ ومن كبار رجال الأمة ، وكانت السليقةُ العربيةُ ما زالت على نقائها وقُوتها ، ونمت أغراضُ الشعر ، وظلَّت الفصاحةُ والقوةُ والجزالةُ على عهدها ، لم ينقطع لشيءٍ منها حَبْلٌ .

فكان من المرتَقَب أن يكون مشرقُ أمة الإسلام هو قبلةَ طالبى المزيد من التزوُّد بالعلوم والآداب والمِهَن والحِرَف ؛ فارتحل إليه علماءُ وأدباءُ وطلابٌ للتزوُّد بالعلم والتحصيل فى مختلف أنواع العلوم والآداب ، كما سعى الأندلسيون أيضًا إلى استقدام العلماء المشارقةِ إلى الأندلس ، وإلى الحصول على المخطوطات ، وكانوا يبذلون لذلك الجهود والمال سخيَّةً وراضيةً نفوسُهم .

من أسباب اتخاذهم المشرق قِبلتهم العلمية :

كان أهلُ الأندلس أحرصَ الناسِ على التزوُّد بالعلم ؛ لأن ذلك شأنُ المسلم، ففى نور هداية الإسلام عاشوا ، ولابدَّ لهم من معرفة تعاليمه وفَهم آيات الله، واتباع سُنَّة نبيِّه بمعرفة ما بلَّغه عن ربِّه ، وما كان عليه فى سيرته وأحوالِه ﷺ ، كما حثهم الإسلامُ على التفكُّر فى آيات الله الكونية ، وعلى الانتفاع بكل فِكْر وعِلم نافع وحِكْمة من أى مصدر يمكنهم الوصولُ إليه ، فالحكمةُ ضالةُ المؤمن أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها ، فى حين لم تكن بالأندلس - فى أول الأمر - مدارس تُعين على طلب العلم كى يؤمَّها الراغبون، كما كان الحال فى مشرق الأمة ، ولذا كان الطلبة يدرسون ويطلبون العلم فى المساجد مقابلَ أجرٍ معلوم للقادر عليه ، فلم يُؤثر أنَّ بابَ العلم أُقفِل فى وجه طالبه ، بل كان العلماء يشعَون

للترغيب والتحبيب فى حضور حلقات العلم .

وكان انتشار المدارس فى الأندلس مستقلة عن المساجد أو ملحقة بها فى عصر دولة بنى الأحمر .

المكتبات وشراء الكتب :

وكان إقبال الأندلسيين على اقتناء الكتب وشرائها أمرًا معروفًا بل لقد بلغ من ولع الخليفة الأموى « الحكَم المستنصر » بجمْع الكتب وتزيين قصر الحكم بها أن بلغ عَددُها فى مكتبته أربعمائةِ ألفِ مُجلَّد ، وكم بذلوا من الجهد والمال والوقت فى الحصول عليها ونَقْلها فى ذلك الزمان ! فقد كانوا يستجلبون المصنفات والمخطوطات من سائر الأقاليم والنواحى فى الأمة الإسلامية، ومهما بَعُد المكان كان الخليفة الحكَمُ فى الأندلس يبذل ما أمكن له بذله من الأموال حتى ضاقت عن الكتب والمجلَّدات خزائنُه .

والأعجبُ من هذا أن هذا الخليفة كان ينظر فى هذه الكتب ووجدوا له تعليقاتٍ وآراء مبثوثةً على حواشيها - كما يقول ابن بشكوال القرطبى المولد [٤٩٤هـ] ولم يكن له نظيرفى معرفة تاريخ الأندلس وتوفى فى عام [٥٧٨هـ] .

تَقدُّم الحياة الفكرية والأدبية :

لقد كا حظُّ أهلِ الأندلس من العلوم والآداب كبيرًا للغاية ، وتقدَّمت الحياة العلمية والأدبية تقدُّمًا ملموسًا منذ عهد بنى أمية ، واشتغلوا بالطب ، والكيمياء ، والهندسة ، والعلوم الرياضية ، والفلك ، كما نبغ كثيرمنهم فى الفلسفة والتصوُّف والنحو والصرف وفنون الشعر، وقد نبغ منهم فقهاء ومفسِّرون ومُحدِّثون ومؤرِّخون ، ما زالت آثارهم المتبقيةُ شاهدةً بعظمة الحياة العلمية والحضارية ، وقد وجدت هذه النهضةُ العلمية والفكرية والأدبية الدعم والتكريم

لأربابها من خلفاء وأمراء بنى أمية، وبفضل هذا التكريم وتلك الرعاية ازدهرت العلوم والآدابُ فى الأندلس وبلغ هذا الازدهار غاية عظيمة فى عصر الموحِّدين .

الناس فى الأندلس :

كان الناس فى ظلال حضارة الإسلام بالأندلس يرون فى طلب العلم شرفًا لهم ولأولادهم وتنافسوا فى ذلك، والذى يرى أن قطار العلم فاته اجتهد فى أن يكون له مِهْنةٌ وحِرفة ينتفع بثمراتها ويُسهم فى بناء أمته لا يعيش خاملًا ، وهيَّا معًا نقرأ ما ذكره المَقَّرِىُّ فى كتابه « نفح الطِّيب » يقول : « إن الجاهل الذى لم يوفِّقه الله للعلم فى الأندلس كان يُجهد نفسَه ليتميَّز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى نفسه عالةً على الناس، إذ إن الناس كانوا يَعدُّون ذلك فى غاية القُبح ، أمَّا العالم عندهم فكان مُعظَّمًا من الخاصةِ والعامة على السواء ، يشار إليه ، ويُحال عليه ، ويَنْبُه قَدْرُه ، ويرتفع ذِكرُه عند الناس » .

العلوم العقلية : فى الطب : اشتغل كثير من الباحثين والعلماء بالطب ونبغ منهم أطباء كان لبحوثهم وآرائهم أثر عظيمُ المدى فى ازدهار هذا العلم فى أوربا فيمابعد ، ومن الأسماء التى سطعت فى سماء هذا العلم ؛ أحمد بن إياس القرطبى فى عهد الأمير محمد الأموى ، ونبغ بعده كثيرون فى عهد بنى أمية منهم يحيى بن إسحاق الذى كان طبيبًا للأمير عبدالله بن محمد وصار وزيرًا فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر [القرن الرابع] وله فى الطب مؤلفات كثيرة ،كما ظهر محمد بن عبدون العذرى القرطبى الذى رحل إلى مصر سنة [٣٣٧هـ - ٩٤٨م]، ثم ظهر أبو القاسم الزهراوى (من مدينة الزهراء) وابن جلجل (الطبيب أبو داود سليمان بن حسان) وله كتاب فى « تفسير وشرح الأدوية المُفْرَدة من كتاب ديسقوريدس » وغيرهم كثير- كما سيأتى بإذن الله فى الرسالة عن الطب وازدهاره .

وفى عصر الموحّدين : ظهر ابن البيطار المتوفّى [٦٤٦هـ - ١٢٤٨م] وضياء الدين المالقى وغيرهما فى هذا العصر ، وكان للمالقى عناية بدارسة النبات والأعشاب فى مصر والشام ؛ وقد رحل إلى مصر فى أيام الملك الكامل ، وكان طبيبًا فى قصره ثم طبيبًا للملك الصالح نجم الدين أيوب، وله عِدَّةُ مُصنَّفات فى الأعشاب لم يُسبق إليها ، منها : « المُغنى فى الأدوية المفردة » و « الجامع فى الأدوية المفردة » وتُوفّى بدمشق [٦٤٦هـ] .

ومن أشراف أهل إشبيلية اشتغل « بنو زُهر » بالطب وكان جدُّهم الأعلى قد دخل مع موسى بن نصير أيام الفتح ، ونبغ من هذه الأُسرة كثيرون فى الطب؛ ولأبى العلاء زهر بن عبد الملك جهودٌ قيمة فى علم الأبدان وكان عالمًا فى الطب مطلعًا على دقائق العلاجات ، ومن أولاده وأحفاده نبغ أطباء ، ولأحد أحفاده أبيات كتبها لتُوضع على قبره وفيها :

تـأمَّـل بـفـضـلـك يـا واقـفًـا ... ولاحظ مكانًا دُفِعْنا إليه
تُراب الضَّريحِ على صَفْحَتِىَّ ... كأنىَ لم أمْشِ يومًا عليه
أُداوِى الأنامَ حَذار الـمَـنُـونِ ... فها أنا صِرتُ رهينًا لَديه

إنه الطبيبُ الشاعر أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زُهر وزير الخليفة يعقوب المنصور تُوفى عام [٥٩٥هـ - ١١٩٨م] .

تلك لمحة فحسب ، وقد استفاد الأوربيون من كُتب الطب الأندلسية وترجموا أغلبها إلى اللاتينية واليونانية مثل كتبِ ابن الجزار المتوفى عام(١٠٠٤م) وكُتبِ أبى القاسم الزهراوى فى الطب والجراحة وغير هذين ، وقد ظلت ترجمةُ كتاب : «التيسير» إلى اللاتينية لمؤلفه «أبو مروان بن زهر» ظلت ساريةَ المفعول فى إيطاليا إلى القرن السابعَ عشرَ ، كماتم تدريس علوم الطب فى باريس على أساس التواليف الإسلامية، ذلك أن جهود علماء الحضارة الإسلامية فى فنون العلم

وفروعه المتعدِّدة كانت بمثابة حجر الأساس فى نموِّ الفكر الأوربى ، وتدرُّج الأوربيين نحو إقامة مدنيَّةٍ أخرجتهم من ظلمات الجهالةِ والتصوُّرات الخاطئة للكون والحياة إلى حياة أرقى فى كل جوانب الحياة .

وفى الكيمياء : كان للمسلمين الريادة - كما كانت لهم الريادة فى الطب - وقد صار اسم « جابر بن حيَّان » عَلمًا على هذا العلم حتى كان يقال «الكيمياء علمُ جابر» وإن كان التاريخُ يُشكِّك فى نسبة السبعين رسالة التى حملت اسمه يُشكِّك فى نسبتها إلى «جابر بن حيان» لأن مؤلفها فى الراجح أو فى الحقيقة كان هاشميًا من آل البيت وهو الشريف «جعفر الصادق» وقد اخترع الشريفُ نفسُه اسمَ «جابر» هذا من عنده؛لأن الاشتغالَ بهذا العلم فى تلك الفترة كان مرتبطًا فى أذهان الناسِ بالشعوذة والسِّحر مما يأنفُ أربابُ الشَّرف والحسب من أن يُنسب إليهم الاشتغالُ به ، أى كانت تلك مهنةً غامضةً غيرَ مُحترمة فى نظر عوامِّ الناس فاخترع جعفرُ شخصية «جابر بن حيان» ونَسب إليه مؤلفاته فى الكيمياء- والله أعلم - وهكذا بدأ الاشتغال بالكيمياء فى المشرق ، ثم ازدهر فى الأندلس ، ففى (مدريد) مثلًا ظهر أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى المتوفَّى [٣٩٨هـ / ١٠٠٧م] وهو شيخ الكيمياء هناك فى عهد بنى أمية ، وقد ترجموا له كتابه عن الكواكب لبطليموس فى القرن الثانى عشر من الميلاد، ومن تلامذته «أبو بكر بن بشرون» .

وكان أول من استنبط صناعةَ الزجاج من الحجارة هو «أبو القاسم عباس بن فِرْناس» المتوفى «٨٨٦م» واخترع «المنقالة» لمعرفة الأوقات ، وطار فى الجوِّ مسافةً بوسائلَ صنعها لنفسه مقلِّدًا جناحَى الطائر ، وله أعاجيبُ فى صناعة الآلات.

وقد ازدهرت علوم أخرى متعدِّدة : مثل علم الحساب والرياضيات والنجوم «الفلك» ، والهندسة ، وحركات الكواكب ، والمنطق ، والفلسفة ، ووصف

البلدان (الجغرافيا والجغرافيا الاقتصادية) نبغ فى ذلك وغيره علماء وأمراء .

وفى عصر الموحّدين تقدمت علوم الهندسة ، وصناعة الآلات العجيبة مثل الآلات الفلكية كالإسطرلابات ، وقد تُرجمت إلى اللاتينية كثير من المؤلفات الأندلسية فى هذه العلوم وقد انتفع «ألفونسو العاشر» بمؤلفات «ابن الزرقيال» وهو إبراهيم بن يحيى النقّاش فى الفلك والنجوم ، وقد ابتدع كثيرًا من الآلات الخاصة بالنجوم.

وفى الفلسفة : كان الاشتغال بها سِرًّا فى أول الأمر مثل علم التنجيم ثم ازدهر الاشتغالُ بها فى عصر المُوحّدين، وشجع على ذلك الأمير «أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن» [القرن السادس من الهجرة] وبرز أشهرُ الفلاسفة وفى مقدمتهم ابن طفيل وكان فيلسوفًا وطبيبًا خاصًّا لهذاالسلطان الموحّدى أبى يعقوب يوسف وتوفى ابن الطفيل عام (٥٨١) بمراكش وهو صاحب القصة العجيبة «حىّ بن يقظان» وظهر ابن رشد «الحفيد» وهو صاحب كتاب «الجوامع» الذى لخّص فيه خمسة كتب لأرسطو الفيلسوف اليونانى وله مؤلفات أخرى متعددة ، ثم حارب الفلاسفةَ بعد ذلك السلطانُ أبو يوسف يعقوب المنصور المُوحّدى بعد موت أبيه «أبى يعقوب يوسف» فسجن ابنَ رشد «الفيلسوف» وقتل بعضَ الفلاسفة فتوارى كثيرون ممن كانوا يشتغلون بالفلسفة ، وكان ابن رشد يُسميه الفلاسفةُ «أرسطو الثانى » لعنايته بكتب «أرسطو» الفيلسوف اليونانى وبعد خروجه من سجنه توفى عام [٥٩٤هـ - ١١٩٧م] وقد تُرجمت كتبه إلى العبرية واللاتينية وتغلغت أفكاره فى أوربا ، وكان لكتبه فى إيطاليا شأن فى العصر الوسيط .

حلقة الاتصال : لقد صارت الحضارةُ الأندلسية التى أقامها المسلمون حلقةَ الاتصال بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى قرونًا عديدة ، وازدهرت

الترجمة من العربية إلى اللاتينية ثم إلى لغات أوربية ازدهارًا عظيمًا ، فقد جَدَّ العلماءُ من الطليان والألمان والإنجليز والفرنسيين من مسيحيين ويهود فى هذا المضمار حتى أتيح لأوربا أن تنتقل نقلةً حضارية قامت على أساسها مدنيتهم الحديثة ، ولولا حضارةُ أهلِ القرآن الكريم لتأخَّر النموُّ الحضارى المدنىُّ فى أوربا مائتى عام على الأقل .

إن للعرب فضلًا عظيمًا على مدنية الغرب الحديثة ، وهذا مما لا يجادل فيه إنسان ، ولا يختلف بشأنه اثنان ، وقد امتدَّ هذا التأثير فشمل جميعَ جوانب الحياة الفكرية من علوم وآداب وفنون ، وشمل الجوانب العمرانية والنظمَ الإداريةَ والقضاءَ والظواهر الاجتماعية ممايتصل بالنظافة والحفاظ على كرامة الإنسان ، قال المستشرق «ليبرى» : «إن العربَ إذا استحقوا الخلود ، فإنهم يستحقونه غالبًا لأنهم حفظوا كثيرًا من الثقافات الإغريقية [اليونانية] إلى جانب ثقافتهم العريقة، فى وقت كانت أوربا تتخبط فى ظلمات يموج بعضُها فوق بعض» .



سفراء أوربيون

بين حضارة الإسلام وأهالى غرب أوربا

مراكز الترجمة فى الأندلس :

كانت الأندلسُ مركزًا ثقافيًا مُهمًّا .. انتقل إشعاعُه القويُّ إلى دول أوربا، وساعد على نقل هذا الإشعاع الثقافى **المستعربون الأسبان** الذين اختلطوا بالمسلمين، وشُغِفُوا باللغة العربية وآدابها وعلومها، وفَضَّلوا العربية على اللاتينية، وكان منهم مسيحيون ويهود ، ومن هؤلاء نشأت مدرسةٌ كبيرةٌ استطاع أعضاؤها القيام بدورِ السفراءِ بين الحضارة الإسلامية من ناحية وأهالى غرب أوربا من ناحية أخرى، ولقد كان هؤلاء متلهفين على الاستفادةِ من الحضارة الإسلامية .

وأقيمت فى الأندلس وفى أوربا مراكزُ رئيسة للترجمة تفرَّغ لها أناسٌ متخصصون ، قاموا بنقل التراث الإسلاميِّ ، وقد نشطت حركةُ الترجمة من القرن الثانى عشر من الميلاد حتى الخامسَ عشرَ ، واستطاعت هذه المراكزُ أن تَنقُل إلى اللغات الأوربية كثيرًا من كنوز الفكر الإسلامى فى مختلف العلوم.

ميخائيل سكوت : وقد جذبت المدارسُ والجامعاتُ الإسلامية فى الأندلس الراغبين فى المعرفة من طلاب العلم الأوربيين؛ فقدِموا إليها من مختلف دول أوربا تدفعهم الرغبةُ المُلحَّةُ للاستزادة من علوم المسلمين ، ومنهم : ميخائيل سكوت [فى القرن الثالث عشر من الميلاد] الذى درس العلوم الإسلامية فى الأندلس ، وهو أحدُ ناقلى فلسفة «ابن رشد» إلى اللاتينية ؛ كما ترجم كتبًا لغيره فى علوم الفلك والحيوان .

أديلارد : ومن رُوَّاد الثقافة العربية فى الغرب المستعربُ الإنجليزىُّ «أديلارد» وقد ساح أديلارد فى الربع الأول من القرن الثانىَ عشرَ فى أسبانيا وسوريةَ ، ودرس اللغة العربية ؛ وترجم كثيرًا من الكتب العربية إلى اللاتينية لفائدة مُعاصريه من الأوربيين ، ولقد قال فى مقدمة أحد كتبه : « .. إنى سأدافع عن قضية العرب لا عن قضيتى» وشدَّد فى نهاية كتابه على تفوُّق الطريقة العربية وساعد بنفوذه على نشرها فى الغرب ، فترجم عددًا من الكتب العربية فى علم الهيئة والرياضيات .

ومن الإنجليز أيضًا : وقد اقتفى أثر «أديلارد» كثيرون من الإنجليز منهم «روبرت الشسترى» فى القرن الثانى عشر الذى درس العلوم العربية ، وترجم بعضَها ، كما ترجم معانىَ «القرآن الكريم» مع «هرمن الألمانى» إلى اللاتينية – لأول مرة – ومِمَّن تتلمذوا على الثقافة الإسلامية الأستاذ «دانيل الإنجليزى» الذى ذهب إلى أسبانيا «فى طلب العلم على أحكم الفلاسفةِ على وجه الأرض ..» على حدِّ تعبيره ، وكذلك الفيلسوفُ الإنجليزىُّ « .. روجر بيكون ..» كان فى عِداد الذين تأثروا تأثرًا عميقًا بالثقافة العربية وكذلك الشاعران «شومير ، وليد كيت» .

ومن إيطاليا : ووفد على قرطبة «جيرارد الكريمونى الإيطالى» ومكث هناك خمسين سنة ، وقد ترجم وحده واحدًا وسبعين مولَّفًا تناولت الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب وغير ذلك من العلوم .

ومن ألمانيا : ومن ألمانيا اشتهر «هرمن ، ويُوحنا الغرزينى» الذى مكث فى أسبانيا ثلاثَ سنواتٍ ، وتعلَّم العربيةَ ، ودرس بعض علومها ، ورجع إلى بلده حاملًا مخطوطاتٍ عربيةً نفيسة .

وفى فرنسا : وفى فرنسا أُقيمت مراكزُ للترجمة من اللغة العربية إلى الفرنسية وقد أقيمت تلك المراكز فى ؛ مرسيليا ، وطولوز ، وأربونة ، ومونبلييه التى

أصبحت جامعاتها فى القرن الثالثَ عشرَ من الميلاد أهمَّ مراكز الدراسات الطبية والفلكية فى فرنسا ، وكان معظمُ أساتذتها من المسلمين ، وقد أُسِّست على نسق جامعة قرطبةَ ذلك النسق الذى انتقل إلى جامعات أوربية أخرى .

ثلاثمائة كتاب في الطب وَحْده ترجمها الغرب من العربية :

وبفضل جهود تلك المراكز ، وجهود الطلاب الأوربيين الذين وفدوا إلى الأندلس ذاعت آثارُ المسلمين العلمية والفلسفية العظيمة فى إنجلترا وغيرها من دول الغرب . حتى قال «لكلير» فى كتابه « تاريخ الطبِّ العربى» : «إنه أحصى الكتبَ التى تُرجمت من العربية إلى اللاتينية فى القرنين الثانىَ عشرَ والثالثَ عشرَ فقط فلم يجدها أقلَّ من ثلاثمائة كتاب» . مع العلم بأنه لم يُدخل كتبَ الكيماويين فى هذا الإحصاء، ثم يقول «لكلير» : « .. وهذه كميةٌ هائلةٌ من الوثائق الجديدة انتشرت فى أنحاء أوربا خلال القرنين الثانىَ عشرَ والثالثَ عشرَ فملأت بحقٍّ فراغًا كبيرًا ، وحفزت على انتشار التعليم ولا ينبغى لنا أن ندهش من الحماسة العلمية التى صبغت القرن الثالثَ عشرَ .. فظهر فيه كثيرٌ من الرجال البارزين تهافتوا على الاستفادة من العلم العربى ..»

والأستاذ «جوستاف لوبون» فى كتابه عن الحضارة العربية الإسلامية يعترف بأن الطبقة الأولى من العلماء الأوربيين البارزين ما كانوا سوى تلاميذ للمسلمين عاشوا على دراسة الكتب العربية حتى القرنِ الخامسَ عشرَ ، ولم يبتكروا شيئًا جديدًا، يقول لوبون : « .. إننا مهما قلَّبنا النظر لا نستطيع أن نذكرَ قبل القرن الخامسَ عشرَ من الميلاد عالمًا أوربيًّا ابتكر شيئًا غير استنتاج كتب العرب ، فروجر بيكون ، وليونارد ،وأرنولد وريموند ، وألبرتُ الكبير وغيرُهم من أساتذةِ القرون الوسطى لم يكونوا أكثر من مُجرَّد تلاميذ للعرب أو ناقلين عنهم ، ولا غرو أن قال مسيو «ليبرى» : «إنه إن لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخَّرت نهضةُ

أوربا الثقافية عدَّةَ قرون ..» . وقد قالت المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» فى كتابها بعد ذلك ما معناه : «لولا ظهورُ الإسلام فى القرن السابع لتأخَّر وصولُ الأوربيين إلى سطح القمر مائتى عام» . وهذا تأكيد لفضل ثمرات عقول العلماء والمفكرين فى ظل حضارة الإسلام فى نقل الأوربيين إلى طَور التحضُّر والتمدُّن .

ولم يأخذوا عن الأندلس وحدها :

فقد كانت الأندلس المعبر الأول للثقافة والعلوم أما المعبر الرئيس الثانى الذى انتقلت عن طريقه علومُ المسلمين إلى الغرب الأوربى ، فكان جزيرةَ صقلِّية.

فقد فتح المسلمون صقليةَ فى النصف الأول من القرن «الثالث» من الهجرة على يد دولة الأغالبة التى قامت فى تونسَ والجزائرِ آنذاك ، فقد كان «إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمى» هو الذى أسس دولةً شبه مستقلة بعد أن نال ثقةَ الخليفة العباسى «هارون الرشيد» الذى ولاه على أفريقية من عام [١٨٤هـ - ٨٠٠م]، وقد امتدَّ الفتحُ الإسلامىُّ إلى جنوب إيطاليا حتى صارت «بالرمو ، وَمَسِّينى ، وسرقُوسة ، وبارى» مراكزَ للحضارة الإسلامية فى إيطاليا ، ومعابر مساندة لنقل صورهذه الحضارة الاجتماعية والعلمية والفنية.

وقد حكم المسلمون صقليةَ نحو قرنين ، وازدهرت حضارتُهم هناك ، وانتقلت صقليةُ بجهودهم من بلد متأخر فقير جامد إلى جنة ؛ لأن المسلمين عُنوا بالزراعة ، وبالتجارة ، وبالنظم الإدارية والقضائية وبالصناعة كما عُنوا بالعلوم والآداب ، وفى الفصل التالى شىءٌ من التفصيل .



(ج) جزيرة صقلية

نموذج ومَعْبر للحضارة البانية

كلمة :

سعدت جزيرةُ صقليةَ بالفتح الإسلامى فى النصف الأول من القرن الثالث من الهجرة ، وذلك على يد دولة الأغالبة التي قامت فى تونس والجزائر- كما سبقت الإشارة - ، وقد امتدَّ الفتحُ الإسلامى إلى جنوب إيطاليا ومع امتداد هذا الفتح العظيم يجد الإنسان فى كل مكان ؛ الرحمةَ والعلمَ والمساواةَ والحريةَ والأمنَ والعدل، حتى صارت المدنُ التى ظللتها الحضارةُ البانية الهادية نماذجَ عاليةً مُشرقة أمام الأوربيين فى كل جوانب الحياة ، فسعى العقلاء والراغبون إلى الاقتباس والنقل والتعلُّم ، ومن مراكز هذه الحضارة المشرقة بنور العلم بعد المدن الأندلسية وصقلية نجد ؛ بالرمو ، ومَسِّينى ، وسَرَقُوسة ، وبارى فى جنوب إيطاليا ، وقد دامت الدولةُ الإسلامية واستمرَّت باستقلالها وبذل جهودها العظيمة فى صقلية نحو قرنين من الزمان ، صارت فيهما صقليةُ نموذجًا للحضارة المزدهرة فى جميع جوانب الحياة المادية والعقلية والنفسية والاجتماعية، وصارت باعتراف جميع الباحثين «جنَّة» بعد أن كانت خرابًا خامدة .

وفيما يلى إلقاء ضوء أكثر تفصيلاً على «صقلية» فى ظل دولة الإسلام ، ثم فى ضوء جهود المسلمين وتعاونهم البنَّاء مع «النورمان أو النورماند» الأوربيين الذين غَزَوا الجزيرة وحكموها ، ولكنهم جعلوا حركة الحياة البانية مستمرَّة فى أيدى العرب والمسلمين ، وكان هذا الغزو «النورماندى» الأوربى فى القرن الخامس من الهجرة.

فهيَّا نُتابع معًا مسيرةَ العدلِ والبناءِ والرحمةِ ، مسيرةَ الازدهارِ فى كل القطاعات بصقليةَ !

مع الحضارة العربية الإسلامية فى صقلية :

كانت صقلّيةُ أحدَ المعابر الرئيسة ذات الأهمية لأنماط الحضارة الإسلامية التى ازدهرت على نحوٍ لم يألفه الأوربيون فى العلوم والآداب والفنون ، وفى حركة الحياة النامية فى العلاقات الاجتماعية وفى التجارة والمهن الحرفية ، وفى العلاقات الإنسانية ؛ إذ كان المسلمون والمسيحيون أمةً متآلفةً آمنةً مطمئنة متعاونة فى كل قطاعات الحياة فى ظلال الدولة الإسلامية فى «صقلية» كما كان الحال فى شرق الأمة الإسلامية وغربها ، إذ كان الجميع تُظلُّهم الحريةُ والعدالة.

النورماند : ظلت صقلية فى نموها واستقرارها نحو قرنين من الزمان قبل أن تجتاحها قبائلُ «النورماند» البدْو الأوربيين فى القرن الخامس من الهجرة النبوية الشريفة – أى نحو القرن الثانىَ عشرَ من الميلاد – ووجد النورماندُ أنهم أمام جنَّة وارفة الظلال ، رحيمةٍ بالإنسان ، تؤتى ثمارًا عظيمة ، وتبعث على الفخر والاعتزاز، فقد اتسع العمرانُ وازدهر ، ونشطت الحركةُ الاقتصادية ، كما كان للعلم والأدب والفن منارةٌ عالية ، ووجدوا صناعاتٍ وأساليبَ زراعيةً لم يألفوها .

ومن هذه الجهود البانية : فقد حفر العرب – فى إطار عنايتهم بالزراعة – التُّرع والقنوات ، وعُنوا بوسائلِ الصرف الصحى فى الدور والمساجد والمرافق العامة ؛ ذلك لأن الطهارة والنظافةَ من مبادئ الإسلام الأساسية ، لذا كانوا حيثما حَلُّوا بنوا الحظائر – أماكن قضاء الحاجة – فى المساجد والدور ، وبنوا الحمامات العامة والخاصة ، وعُنوا عناية كبيرة بالمياه وطهارتها وعدم تلويثها ، وأمدُّوا المساجد بها ، وكان ذلك وغيره نموذجًا مُلفتًا للأوربيين ، وكانوا قد بدأوا فى وضع أقدامهم على أول الطريق ناقلين عن الأندلس وعن صقلية وغيرهما من مراكز الثقافة الإسلامية والعربية فى حوض البحر المتوسط ، وقد زرع العرب قصبَ السكَّر ، والقُطن ، وعُنوا بصناعة الورق لمواجهة متطلباتهم لتدوين ثمرات

عقولهم فى العلوم والفنون والآداب .

وقد شهد لهم الباحثون فى مجال جهودهم للكشف عن الثروات المعدنية فى الجزيرة التى كانت فى خمود وجمود قبل الفتح العظيم، فانتفع الناسُ هناك بفضل ماقام به العرب والمسلمون: بالفضة، والحديد، والنحاس، والكبريت.

المفكرون والنورماند : وجد «النورماند» فى صقلية نظامَ دولة مستقرة وازدهارًا فى العلوم والآداب والفنون وفى الترجمة مما هو معدود من أعظم مظاهر تفوق الدولة وقوّتها وأسباب احترامها ، لذا سعت الدولةُ النورمانديةُ البدويةُ فى إيقاف حركة نزوح العرب والمسلمين هربًا من بطش الجنودِ النورمانديّين ورجالهم وخوفًا من توقع الفتن والاضطهاد مما كان معروفًا عن المتعصبين الأوربيين فى ذلك الزمان .

بل لقد أخذ «النورماند» فى الاندماج فى الحياة العربية القائمة فى الجزيرة ، وسَعَوْا لإشاعة الأمن فى نفوس أهل الفكر والعلم وأرباب الحِرف والمهن ورجال الدولة من الإداريين والقائمين على الشئون الحكومية فى القطاعات المتعددة، للإبقاء على أعزّ ما تفخر به الدولةُ ويحقق لها مكانةً مرموقة .

مستشرقة ألمانية تقول فى كتابها «شمس العرب تُشرق على الغرب» الذى له ترجمتان إلى العربية قالت : «لقد كان طبيعيًا أن يندمج النورمانيون وهم لا يملكون حضارة ولا موهبة ، يندمجوا بما وجدوه من حضارة عربية» ثم تمدح اتجاههم إلي التعقل والتسامح مع العرب والمسلمين فتقول : «ولأول مرة فى تاريخ أوربا أظهر النورمانُ تسامحًا مع المخالفين فى العقيدة متمثلين بالعرب فى شهامتهم ورجولتهم ، فكان ذلك المسلكُ بالتأكيد هو سرّ ما أصاب دولتهم من ازدهار إذا قورنت بنظيراتها فى الغرب» .

ثم تمدح «زيغريد هونكه» مؤلفة الكتاب هذا الاتجاه الذى يُمكّن الدولة من الانتفاع بالحضارة المزدهرة فتقول : «لا شك أن إعجاب النورمان بالمسلمين أيقظ

فيهم واجباتِ الشرف ، فوقف النورمان أمام المسلمين موقف التسامح ، وهو تسامحٌ لم نعرفه عن الأوربيين ولا عن جنود وملوك الحروب الصليبية» .

فكرة عن هذه المستشرقة «زيغريد هونكه» : ذاع صيتُ هذه المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» فى «الربع الأخير من القرن الرابع عشر» من الهجرة «النصف الثانى من القرن العشرين» بسبب كتابها «شمس العربِ تشرق على الغرب» ، وقد جعلت للعقل الراشد وللحقيقة الدورَ الأولَ فى بحثها فأخرجت الحقائقَ ناصعة ، وتلمس منها بالقراءة الحيادَ والنزاهة ، إذ جعلت الواقع التاريخيَّ هو سطورَ كتابها ، ولذا نالت التكريم من بعض ملوك العرب ورؤسائهم ، وصدرت ترجمتان لهذا الكتاب إحداهما لمترجمين اثنين أحدهما مصرى والثانى لبنانى ، ولها عبارتان فى الكتاب تُرينا خلاصة الحقيقة التى خرجت بها من بحثها المتأنى ، عبارة تقول : «فى القرن السابع من الميلاد نزل القرآنُ الكريم على محمد النبى العربى - عليه السلام - وكأنما بُعث العرب من جديد» . وقالت - أيضًا - ما معناه: «لولا ظهورُ الإسلام ونزولُ القرآن فى القرن السابع لتأخر وصولُ الغرب إلى القمر مائتى عام» .

الطابع العام عربى والحاكم أوروبى :

قالت هذه المستشرقة التى آمن عقلُها بمبادئ الإسلام وحضارته : «وبعد أن انقضى على استيلاء الأوربيين على صقلية مائةٌ وخمسون عامًا كان العرب يسيطرون على أهم وظائف الدولة ، وقد صارت اللغةُ العربيةُ لغةَ الدواوين (سجلات الدولة) وكان صغار الموظفين من العرب ، وبرز فى المناصب المهمة أشخاصٌ منهم «ابن عبد الرحمن» الذى كان مديرًا للضرائب ثم صار رئيسًا لمالية صقلية كلها» .

وهذا دأب الذين تربَّوا تربيةً إسلامية ينون حيث كانوا ويُعطون من نفوسهم

وأخلاقهم وخبراتهم عطاء طيبًا مفيدًا حيثما وُجِدوا ، فهم مع البناء والعمران والازدهار لصالح الإنسان .

وإزاء هذا التقدم الفكرى والإدارى وأمانة العرب والمسلمين وصبرهم فى ميدان العمل ، وإخلاصهم فى أداء مهامهم أقبل النورمانُ أنفسُهم على الاندماج فى التقاليد العربية الإسلامية ، وأقبل ملوكُهم على تعلُّم اللغة العربية - لأنها كانت لغةَ العلم والفكر ولغةَ سجلات الدوائر والمؤسسات - ولذا درس بعضُ الملوك والوجهاء الآداب العربية وعلومها ، ولما انتقلت إليهم أخبارُ الخليفة المأمون العباسى من حيث إنه كان يلتقى فى مجالسه بالعلماء والحكماء والشعراء ويسخو فى تقديم الحوافز لهم ، كما كان يبعثهم على المناظرة فى مجلسه ، هذا إلى جانب ازدهار الترجمة فى عهده ونَقْل علوم اليونان وحِكمتهم «الفلسفة» وآدابهم إلى اللغة العربية ، حين عرف ملوكُ النورمان فى «صقلية» هذا أخذوا فى تقليد الخليفة المأمون فقربوا الشعراء والمفكرين والعلماء وزادت عنايتُهم بالترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية ، وكما هو ثابت ومعلوم فإن الفلسفة اليونانية وعلومَ اليونان عبرت إلى سائر دول أوربا أى إلى اللاتينية ثم الإيطالية وغيرها عن طريق الترجمة من اللغة العربية نفسها ، ولم يعرف الغربُ أدبَ اليونان وفلسفته إلا عن طريق اللسان العربى .

والتفاتة مهمة : وبلغ حدُّ الاعتراف بفضل الحضارة الإسلامية وأهلها ، وإعجابهم بالعرب والمسلمين أن ملوك «النورمان»فى صقلية كانوا يجعلون تاجهم مُزينًا بكلمة التوحيد : «لا إله إلا الله» واتخذوا شعار خلفاء المسلمين وهو : «الحمد لله حقَّ حَمْدِه» ولبِسَ بعض ملوك «النورمان» العمائم مثل العرب ، وكانوا كما قال ابن جبير أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى «فى وصف رحلته» [٥٤٠هـ - ٦١٤هـ]: «يسلكون فى قصورهم طريقَ ملوك المسلمين» .

تقول دائرة المعارف الإسلامية : « وتُعَدُّ قصةُ رحلته من أهم مؤلفات العرب وخاصة فى تاريخ صقلية على عهد وليم الصالح وقد ترجموها إلى لغات عدَّة» .

لقد كان بلاط ملوك النورمان - ومنهم فردريك الثانى - يعجُّ بالعلماء المسلمين من حكماء وأطباء وغيرهم، مع وجود رائد علم الجغرافيا «الإدريسى» الذى كان له مكانة مرموقة، وكان أحد أسباب ذيوع صيت صقلية وجهود ملوكها الفرنج.

النهضة الأوربية تلميذة الحضارة العربية الإسلامية : قال الدكتور عبدالحليم منتصر: «..أفادت الأمم اللاتينية كثيرًا من حركة الترجمة التى قام بها العلماء فى (سالرينو وصقلية) وكان أثرها كبيرًا جدًّا فى النهضة الأوربية..».

وكانت الترجمة فى هذه القرون من اللغة العربية إلى اللاتينية ، ثم إلى اللغات الأوربية فيما بعد ، فقد نقلوا مبتكرات علماء المسلمين فى شتى العلوم والفنون ، ومن المترجمين فى تلك الحقبة «ميخائيل سكوت» الذى بدأت جهوده فى الأندلس ثم جذبته الأضواء القويةُ للنهضة الفكرية التى كان العلماء العربُ والمسلمون يحملون لواءها فى «صقلية» فانتقل إليها من الأندلس ، ومن المترجمين «قسطنطين الأفريقى» وهو أوربى فرنسى.

وإن حديث تاريخ العلوم عن «الإدريسى» وجهوده فى الجغرافيا وريادته فى ابتكار «الكرة الأرضية» حديث مشهور ومشكور .

وترى المستشرقة الألمانية أن مولد حضارة الغرب كان فى صقلية وأن أطباءها هم العرب الذين تولَّوا أمرها حتى استوت وآتت ثمارها ومدَّت ظلالها ، وإن عبارتَها فى ذلك تقول: «إن حضارة الغرب قد وُلدت فى صقلية وكان الأطباء المشرفون عليها هم العرب ، وإنه بفضل التأثير العربى نتجت نظريةٌ جديدة للعلوم الطبيعية ، أساسها التجربةُ والخبرةُ» .

نموذج حضارى لم يشهد الأوربيون مثله : كانت صقليةُ قبل الفتح الإسلامى على سذاجتها مع بساطة الحياةِ على وتيرةِ الجاهلية وخمود الحركة وخمول الفكر ، ثم قدم إليها نورُ العلم ورياحُ التجديد والبعث من جديد قَدِم إليها ذلك من «تونس» وبعد أن استقرَّ الحال بالمسلمين صارت صقليةُ جنةً وارفةَ الظلال عظيمةَ الخيرات والثمار ، كما نهضت من الناحية العمرانية على نحوٍ لم يألفه الغرب ، وصار لها نظام إدارى ومُؤسَّسىٌّ؛ أى صارت دولة بمعنى الكلمة ذات رونق ونظام ، تقول المستشرقة الألمانية : «يكفى أن الذين قدموا من تونس إلى صقلية ؛ قد حوَّلوا خرائبَ صقلية إلى حدائق غناء ، واستوردوا لها من بلادهم أشجار النخيل ، وزرعوا أشجار البرتقال والفستق والموز كما زرعوا الزعفران ، وحوَّلوا الجزيرة الفقيرةَ بالقطن وقصب السكر إلى بلد يزخر بالخيرات ، وزينوها بالقصور ، والمساجد الرائعة» .

وقد أحصى «ابن حوقل أبو القاسم محمد» وهو رحَّالة عربى وجغرافى عظيم خرج من بغداد وجاب العالم الإسلامى من المشرق إلى المغرب فى القرن الرابع [أواخر القرن العاشر من الميلاد] أحصى هذا الرحالة القصور والمساجدَ فى مدينة «بالرمو» وحدها فوجدها ثلاثمائة ؛ ما بين قصر ومسجد ، ولقى كتابُه «المَسالك والممالك» عناية فى الغرب والشرق.

كما اتسعت آفاقُ العلوم والفنون والآداب لكثرة الشعراء والفلاسفة والأطباء، إلى جانب علماء الرياضيات والطبيعة والموسيقيين ، وفى حال المقارنة بين هذا الواقع فى المدن التى استقر فيها الفتحُ الإسلامى والمدن الأوربية الأخرى لوجدنا البونَ شاسعًا ، وكأنها مقارنةٌ بين النور والظلام أو بين الأحياء والأموات ، وتلك شهادةُ التاريخ ولسانه الصادق ؛ إذ كان من فضل الله عز وجل على الإنسان ورحمته به أن أنزل القرآنَ على قلب خاتم النبيين ﷺ وجعل رسالته عامةً

للناس كافة ، وقد تضمَّنت خيرى الدنيا والآخرة فالروح والجسد كجَناحَىْ الطائر لايُحَلِّق الإنسانُ فى سماء العِلم والعبادةِ والازدهار إلا بهما ، فإذا كبتنا الجسدَ كبتًا لحساب الروح ؛ ضاعت على الإنسان فوائد الانتفاع ببركات الأرض وخمدت العقولُ ، وسكنت حركةُ الأحياء وشُلّت ، مع أن بركاتِ الأرض وما أودع الله فى الكون من أسرار هى نِعَمُه سبحانه تفضل بها على عباده لينتفعوا ويشكروا المنعم ، ولو كبتنا الروحَ لحساب الجسد ؛ لما كان هناك فضلٌ للإنسان على سائر الأحياء فى الأرض ، فهو ينطلق بمنطق المادّة وحدها ومطالب الجسد لإشباع غرائز بهيمية ويُضيِّع جُهْدَ عقله وقواه البدنية فى بناء حياة مادية جافة داعية إلى التناحُر والتقاتُل وبطشِ الأقوى واستعلائه مع الشعور بالخُواء الروحى والقلق ، وكم رأينا فى عصرنا – نحن – أن علوم الملاحدة الماديين وتوجُّهاتهم التى تتَّسم بالمصالح الخاصة والنظرة القاصرة نحو الكون والإنسان صارت وبالًا ودمارًا للنفوس من ناحية ودمارًا للعمران فى فورة التحدِّى وغَلَيان نار التعصُّب والأطماع من ناحية أخرى ، والشواهد كثيرة ، وصار العلمُ بها عامًّا للصغير والكبير والقاصى والدانى ،ولا حول ولا قوة إلا بالله ، نسأله رحمته وحفظه من عُنف القوَّة العمياءِ وبطش الأقوياء فى أمم نسيت الله فأنساها مصالح أنفسها.

إن الإسلام رحمة ونعمة ونور للإنسان .

وفى الإدارة : وجد النورمان (الأوربيون) فى صقلية حضارةً لم يروا مثلها فى ألمانيا ولا الدول المجاورة لها ، سوى ما كانت عليه الأندلسُ والجزرُ والمدنُ التى استقبلت الفتحَ الإسلامى بأنواره ورحمته وعدله وعلومه ، رأى النورمان أن يقيموا دولة تكون نموذجًا مدنيًّا متحضرًا أمام الأوربيين فلم يجدوا أمامهم سوى الحضارة القائمة وبُناتِها ، وهم العربُ والمسلمون ، فسعى النورمانُ مُجدِّين إلى استمرار هذا النمو الحضارى بالإبقاء على الأيدى والعقول البانية ؛ ليظل هذا

النموذج العربى الإسلامى نورًا للغربيين ، وليكون علماءُ العرب ومفكروهم وعلومهم ورجالهم وفنونهم ومهنهم زينةَ دولتهم ونجومَ سمائها.

آمن «فردريك الثانى» إيماناً عميقًا بأن التنظيمات الإدارية القائمة فى بلدان المسلمين هى سرٌّ من أسرار قوتهم ، فوطَّد عزمه على أن ينهج نهجَهم فأخذ عن المسملين كما شرحت «زيغريد هونكه» النظامَ الإداريَّ لمملكته .

وكما تقول المستشرقة عن الملك «روجر الأول» : «أخذ روجر الأول عن العرب نظم إدارتهم ، ودواوينهم ، ونظام بيت المال ، والضرائب ، والمكوس ، وغيرها من أعمال الموظفين وأنماط الوظائف ، وأخذ عنهم نظام الضرائب بتوزيعها المباشر وغير المباشر ، وطرقَ حصْر الأملاك الأميرية وإدارتها ، بل قد أخذ عنهم نُظمَ جيشهم وقياداتهم البرِّيَّة والبحرية إلى جانب نظام الشرطة عند المسلمين» .

لقد كان اتصالُ الغربِ الأوربى وهو فى سُباته العميق بالشرق الإسلامى عن طريق الأندلس ومراكز الثقافة العربية الأخرى فى مشرق الأمة ومغربها ، كصقلية ومعابرها فى حوض البحر المتوسط كان هذا الاتصال نعمة عظيمة من كل ناحية ، وإذا وقعت ثَمَّةَ أضرارٌ فإنما كانت بسبب التعصب الأوربى الأعمى ، أى أن ذلك كان من جانب واحد ، أما الفتح الإسلامى وحضارته فكان خيرًا ونورًا لجميع بني الإنسان .



وتجربة شعرية من واقع النزوح عن صقلية :

ابن حَمْديس شاعر صقلية يصوّر عاطفته

بعد نُزوحه إلى الأندلس

دموع ألم ووفاء :

إن الشعر سجلٌ للوقائع والأحوال ، للمسرّات والمضرّات ، وصورةٌ ناطقة بالحوادث ولوقْعها على نفس الشاعر وَوجْدانه ، فتخرجُ التجربةُ الشعرية مُلوَّنةً بعاطفة الشاعر وقد امتزج فيها الفكرُ بالإحساس ، وكلما قويت العاطفةُ كانت التجربةُ الشعريةُ أعظمَ تأثيرًا وأبلغَ فى مخاطبة العقل والوجدان .

تجربة مهاجر من صقلية وهو مقهور : إن الشاعر ابن حمديس [1] فى صقلية نما وترعرع ، وفى ظلال حضارتها عاش مع الجميع ناعمَ البال بمجالس الظُّرفاء والشعراء وحركة الحياة البانية وجمال الخضرة والزروع والثمار ، ولما قهَر النورمانديون الجزيرة الوادعة فى أحضان الحضارة الإسلامية وبركاتها وسلامها وأمنها ، خرج ابن حمديس فارًّا مع مَن بادر بالفرار ، وخوفًا من سُمعة الغزاة المعروفين بالبطش والقسوة مع حالة بداوة وخشونة ربما تُطيح بكل ثمرات الجهود البانية لصقلية على مدى قرنين من الزمان ، وكما عرفنا من قبل فإن الغزاة أدركوا أن فرار العلماء والحِرفيين والموظفين والأدباء والزراع ليس فى صالحهم ، فبادروا

---

(١) ابن حمديس هو : أبو بكر محمد بن عبد الجبار بن حمديس الأزدى اليمنى (وقيل : أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر) . [دائرة المعارف الإسلامية] الصقلى ولد بمدينة سرقوسة بصقلية عام ٤٤٧ من الهجرة (١٠٥٥) وقد استولى النورمانديون على صلقية عام (١٠٨٧:٤٧١) ففر ناجيًا من القسوة والفظاظة إلى الأندلس وكانت وفاته فى عام [٥٢٧] من الهجرة (١١٣٢) فى مدينة (بجاية أو مدينة ميورقة) .

إلى تأمين الناس على نفوسهم وسَعَوْا إلى الإبقاء عليهم لتستمر الدولة فى ازدهارها ، وتفوُّقها فى القطاعات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية.

ولنسمع ابن حمديس يبكى صقلية الجنة الوارفةَ الظلال الناعمةَ البال بعد أن لجأ إلى الأندلس فارًّا بحياته ؛ إنه ينقلنا إلى مكان التجربة وحوادثها كأننا نرى ونسمع فى صور وألفاظ شفَّافة :

ذكرتُ صَقلِّيةَ والأسى ... يُهيِّجُ للنفس تَذْكَارَها

فانظرإلى عاطفة الحزن والأسى تُثير فى نفسه ذكرياتِ الحياة فى جزيرته الحبيبة إلى قلبه ، وقد أسس آباؤه وأجدادُه حضارتَها ومجدَها ، وعاش هو يتقلَّب فى نعيمها وأمنها وسلامها ، فماذا من ذكرياته فيها :

ومنزلةٍ للتَّصابى خلتْ ... وكان بنو الظَّرْف عُمَّارَها

فإن كنتُ أُخرجْتُ من جَنَّة ... فإنى أحدِّثُ أخبارَها

ولولا مُلوحةُ ماءِ البُكاءِ ... حَسِبتُ دموعىَ أنهارها

لمحات من الأبيات : فى الأبيات من سمات القصة :

١ - **وصف الحال ، ووصفُ المكان ، وحركةُ الإخراج من الموطن** العزيز وهناك فَرْقٌ واضح بينه وبين الخروج الطوْعى «فإن كنتُ أخرجت» والفعل مبنى للمفعول والتاء للمتحدِّث نائب فاعل وهو فى الأصل المفعول به ، وهذا يدل على أنّ الإخراج كان قهرًا ممَّا يزيد الأسى واللوعة ، وَيُرينا مدى جمال الحياة فى موطنه «صقلية» الذى لم يشغله عنه جمالُ الأندلس وبهاءُ حضارتها .

٢ - فصقلية «جنة» وشاعرها يحدِّث أخبارها ، وإنك ترى الحركة فى الإخراج القسرى ، وتسمع الصوتَ فى التحدُّث بأخبارها ترى ذلك من خلال ألفاظ الأبيات ، كما ترى تأثره بالثقافة الإسلامية وأدبها فى اقتباسه من سورة

«الزلزلة» ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة :٤] .

٣ – ومن جمال صقليةَ أنها منزلةٌ ومكانٌ ارتقى وازدهر يُعجب الناظرين ويمرح فيه شبابُه سعداءَ باستقراره وأمنه ولطافة أخلاق أهله وظرف – بفتح الظاء – شعرائه وأدبائه فى ندواتهم ومجالسهم الأدبية ، هذه المنزلةُ أو هذا المكان المُبهج خَلا من دواعى الأُنس بسبب الغزو الذى كان سببًا فى تفريق الشمل وبثِّ الرعب والخوفِ وتوقُّع الدمار .

٤ – ثم انظر المبالغة التى ظهرت فى شعر الأندلس ومغرب الدولة وجزرها وذلك فى تصوير دموعه بأنها تُشبه أنهارَ صقلية ، ولولا وجودُ ملوحةِ الدموع لظنها تدفُّقَ مياهِ الأنهار ،وأعطانا بعد ذلك صورةً من جُهد المسلمين فى شق الأنهار وتحويل صقلية إلى جنة وارفةِ الظلال وكثرة مجالس الأدب والشعر فيها .

إن من أقوى أسباب الانحسارِ الخلافَ والتنازُعَ على السلطة ، والإقبالَ على الترف والاشتغالَ بالمجون واللهو .

* * *

للعلم :

«واستولى العرب على «نابولى» وقد أعان أهل هذه المدينة العربَ على ارتياد شواطئ البحر الإدرياتيكى ومهَّدوا لهم السبيل للتوغُّل فى المدن الإيطالية ، حتى بلغوا أبوابَ مدينة «روميَّةَ» وغيرها من المدن الإيطالية .

وقد بقيت «صقليةُ فى سيادة العرب نيِّفًا ومائتى سنة ، أمَّا سائر إيطاليا فقد ظلت أربعةَ عشرَ عامًا تحت حكم العرب» . [الدكتور عبدالعزيز سالم / دائرة معارف الشعب رقم ٦٤]



(د) شهادة مفكرين وفلاسفة لسماحة
المسلمين وتسامحهم وتحويلهم
الأندلس إلى بلد عظيم مُثقف

لقد اقترب الأوربيون من المسلمين فى الأندلس ثم فى صقلية ، ووقفوا على عظمة الإسلام وكشفوا عن كنوزه ، ورأوا الفضائل التى يتحلَّى بها المسلمون رأوا التسامُحَ ، والوفاء بالعهد ، والمروءةَ ، والشجاعة وليْنَ الجانب ، ورأوا الفروسية ، والرفقَ ، والرِّقةَ ، والرحمةَ ، والعدل ، وكرم النفس ، وسُموَّ الخُلق ، والترفُّع عن الدنايا ، رأوا ذلك وغيره من جميل الصفات ، وشريفِ الخصال ، فأُعْجِبوا بالمسلمين غايةَ الإعجاب ، أُعْجِبوا بفضائلهم ، وبحضارتهم ، وبنشاطهم العلمى والعمرانى والفنى ، فأقبلوا على علوم المسلمين يرتشفون من ينابيعها ، ويغترفون من مناهلها ، حتى لم يبق جانبٌ واحد فى المدنية الأوربية - بعد أن صارت لهم مدنيةٌ - دون أن تكون ثقافة المسلمين واضحةَ التأثير فيه ، وخاصة فى ميدان البحث العلمى ، وفى الدراسات التى تحتاج إلى التجارب ممَّا أدى مع مواصلة الجهود جيلًا بعد جيل إلى هذا الازدهار العلمى والتكنولوجى ، ولقد أتيحت للمسيحيين ولليهود كلُّ الفرص للإسهام فى بناء الدولة مع تولِّى الوظائفِ والحرية الكاملة فى أداء عباداتهم وممارسة أعمالهم ، فكان منهم المترجمون والأطباءُ والفلكيُّون ورجالُ الإدارة جنبًا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين ، مما جعل من الأندلس ثم صقلية أعظم نموذج حضارى لدول أوربا الأخرى .

أمَّا فى المعنويات والأخلاق : فقد كان تأثرهم فى هذا الجانب محدودًا على الرغم من إعجابهم ، ومن تقديرهم الفضائل التى يتحلَّى بها المسلمون ، إذْ أخذوا عن المسلمين أشياء ، وفاتتهم أشياء ، لقد اشتركوا جميعًا فى الأمانة فى البحث

العلمى وفى الدقة فى إنجاز الأعمال والحرص على النافع لمصالح دُنياهم، أما الجوانب التى تتعلق بالروح والإيمان والعمل للآخرة ونبْذِ الأحقاد والتعصب فقد أقبل عليها من أراد الله به خيرًا فدخل فى الإسلام جَمْعٌ عظيم، ونَبَذَ الأحقادَ آخرون ، وتعصَّب أربابُ الأهواء للجنس أو للدين أو للقبيلة قال : «تالا فيرا» رئيسُ الأساقفة الذى كان يُكنُّ للمسلمين كلَّ تقدير واحترام ، ويُعْجَبُ بأخلاقهم وحضارتهم كلَّ الإعجاب قال ما معناه : «.. إن الأسبانى - الأوربىَّ - ينقصه لكى يصبح إنسانًا حقًّا يَنْقصُه الأفعالُ الحميدةُ التى يفعلها العرب ..» والمستشرقة «زيغريد هونكه» فى حديثها عن الحضارة الإسلامية فى الأندلس تقول : «.. إن جمال النهضة الإسلامية وروعتها فى الأندلس سحرت الأسبانىَّ فلم يجد أمامه سبيلًا سوى الاندماج فيها ، والمساهمة - فى الحياة العامة فيها - وكان أثر الإسلام على كل ناحية فكرية أو مادية فى تلك البلاد هو الأساسَ الذى قامت عليه حضارةُ أسبانيا ..» ثم تحكى عن أثر تسامح المسلمين فتقول : «ويذكر «أوردجنو» أن عظمة الأمويين بالأندلس قد سحرته فرجع إلى موطنه - أى مدينة فى أسبانيا - بعد أن وضع شخصَه ورجالَه ، وعَتاده ، تحت تَصرُّف حاكم المسلمين ، وشهد التاريخُ جيوشًا مسيحيةً تحارب تحت قيادة خليفة المسلمين» .

وتؤكد المستشرقة الألمانية ذلك بأدلة أخرى فى كتابها «شمس العرب تُشرق على الغرب »فتقول : «.. إنه فى العام العاشر من القرن الحادىَ عشرَ من الميلاد فَقَد ثلاثةٌ من الأساقفة حياتَهُم فى إحدى المواقع دفاعًا عن الخليفة المسلم ، وشهدت خلافةُ المنصور فى الأندلس عددًا كبيرًا من الفرسان عبروا جبال البرانس ليحاربوا تحت لوائه ..» وذلك كله من شدة إعجابهم بأخلاق المسلمين وعدالتهم وبتسامحهم وكراهيتهم للظلم والقسوة ، إنه مما لاشك فيه أن الأوربيين فى العصور الوسطى ، كانوا على درجة كبيرة من الجمود ، والتأخر والفوضى، ثم بعد اتصالهم بالمسلمين رأوا نمطًا من الحياة جديدًا ، فتعلموا من المسلمين النشاط

والجِدَّ فى البحث عن كل نافع ومفيد، مع الرغبة فى تقديم كلِّ خير وعون للإنسان من كل جنس ودين ولسان، مع مبدأ «الناس سواسية» أمام القانون وفى العلاقات العامة فلا ضررَ ولا ضِرار، ولا إكراه فى الدين، وقد خرج الأوربيون بفضل اقتباسهم عن المسلمين من طور الفوضى إلى طور النظام والتحضُّر، ثم واصلوا مسيرتهم على النحو الذى اختاروه لأنفسهم، ولكنهم مع ذلك لم يستطع الكثيرون منهم أن يتخلصوا من موروثاتهم وجمودهم على ما كان عليه آباؤهم من الخصال والتوجُّهات، فلم يتعلموا - مثلًا - من المسلمين سماحتهم وتسامُحهم - على الرغم من إعجابهم بالمسلمين - ذلك لأن التعصب الأعمى، حرمهم من مثل تلك الأخلاق الرفيعة.

صورة من التعصب الأوربي الذى لم يكن له مُبرّر:

وتُحدثنا المستشرقة «زيغريد هونكه» عن القسوة والوحشية التى عامل بها الأوربيون المسلمين بعد سقوط الأندلس فى أيديهم؛ وهم الذين بسطوا أيديهم بالرفق والرحمة والمودة والعدل لكل الناس من كل جنس ومن كلِّ دين، فلم يفرّق المسلمون فى معاملتهم الكريمة بين المسلم وغير المسلم، تصف المستشرقةُ واقع الحال فتقول: «.. وانقلبت الحالُ .. فلم يلبث المسلمون أن لاقَوْا أهوالًا أفظعَ من أن تُوصف سببُهَا التعصبُ الدينىُ الأعمى، وأصبح السجنُ والتعذيبُ والحرقُ وسط النيران هى عقوباتِ مَن يُمارس شعائرَ الإسلام، أو ينطقُ لغةَ المسلمين، أو يتغنَّى بأشعارهم، وأصبحت زيارةُ الحمَّام للاغتسال جريمة، وما تبقى من الكتب والمخطوطات العربية، والذى لم يُسلب أو يُنهب منها جمعَهُ المتعصبون الأوربيون بمنتهى العناية ليُوقدوا فيه النار، وهكذا حرقت يدُ التعصب مليونًا وخمسةَ آلافٍ من المجلَّدات هى ثمرةُ جُهود المسلمين فى الأندلس، وثمرة نهضتهم فى ثمانية قرون..».

وتأسف المستشرقة لأخلاق هؤلاء الأوربيين الذين كان هذا شأنهم

وتفكيرَهُم وتأسف لدعواهم الباطلة ، ولتعصُّبهم الكريه ، فتسأل بنى جِلْدَتِها المُضلِّين – بشَدَّةٍ مكسورة على اللام– والمُضلَّلين– بشدَّة مفتوحة على اللام– ، فتقول : «أو ليس من العجيب أن نتساءل ، لماذا نفسِّر كما يحلو لنا؟ والعربُ قد فتحوا فعلًا جزءًا من أوربا هو الأندلس ؟ فلم يقضوا على المسيحية التي يزعم الأوربيون أن «شارل مارتل» حماها ، ولم يقضوا على المدنية الأوربية التى لم يكن لها وجود!!» ثم قالت : «لقد حوَّل المسلمون الأندلس فى فترة قصيرة من بلد جدْب فقير مُستعبَد إلى بلد عظيم مُثَقف مهذَّب ، يُحب العلم والفنَّ والأدب ، قدَّم لأوربا سبلَ الحضارة ، وقادها فى طريق النور» .

فتأمل أيها القارئ الكريم كلامَ هذه المستشرقة والحقائقَ التى وصلت إليها عن فضل العرب والمسملين فى إيقاظ أوربا ودفعها نحو التقدم والازدهار .



«لقد كان العلمُ أهمَّ ما جاءت به الحضارةُ الإسلاميةُ على العالم الحديث بل إن مؤثُرات أخرى كثيرةً من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثتْ باكورةَ أشِعَّتها إلى الحياة الأوربية»

المستشرق «بريفولت» فى كتابه «بناء الإنسانية»

*** ضوء : «روجر بيكون» والمنهج التجريبى :**

قال الباحث «بريفولت» : إن «روجر بيكون درس اللغة العربية والعِلم العربى ، والعلوم العربية فى جامعة أكسفورد على تلامذة أساتذته العرب فى الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لفرانسيس بيكون من بعده الحقُّ فى أن يُنسب إليهما الفضلُ فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولًا من رُسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية» كما كان يقول لمعاصريه : «إن تعلُّم اللغةِ العربية وعلومِ العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة».

حقًّا إن «ابن الهيثم» صاحب كتاب «المناظر» سبق «بيكون» بوضع أصول المنهج التجريبى هو وغيره من علماء الأمة الإسلامية .

❁ ❁ ❁

ملامح حضارية من العصر العباسى

فى مشرق أمة الإسلام ومغربها: فى العصر العباسى كان العراق وبقيةُ أجزاء الوطن الإسلامى فى المشرق تزدهر بحضارة مارأى التاريخُ لها مثيلًا قبل الإسلام ، وفى ذلك الوقت كانت الأندلس فى أقصى المغرب الإسلامى قد بلغت درجةً عالية من التقدم والعمران ، ومن الازدهار الفكرى والعلمىّ والأدبى بفضل حضارة الإسلام التى دفعت بهذه البلاد دفعةً قويةً فى مدارج الرقى والازدهار العلمى والاجتماعى والاقتصادى ، حتى سبقت قرطبةُ أخواتها من الحواضر الأوربية رومةَ ولندنَ وباريسَ وغيرها فى مضمار الحضارة بأكثر من خمسة قرون على حدِّ تعبير بعض المستشرقين .

تنافس حضارى عظيم الشأن : ولقد نافس الأندلس الإسلامى مشرقَ البلاد الإسلامية فى مجال العلم والفكر والأدب ، لكيلا يتخلفَ عنه فى هذا المضمار ، منافسةً عظيمة الشأن ، وذلك يدل على أنه كانت هناك فى تلك العصور أمةٌ حيَّةٌ وناهضةٌ تسعى دائمًا إلى بلوغ أقصى غاية من السمو الإنسانى والتقدم الحضارى مهتديةً بتعاليم الإسلام ، ولا أدلَّ على هذا التنافس بين مغرب العالم الإسلامى ومشرقه مما ذكره المؤرخون فى أوربا وغيرها من أن الأندلس تحولت فى عهد الخليفة الأموى الحكم الثانى إلى سوق عظيمة ، تُجلب إليها مُنتجات الأدب وثمرات العلم من مختلف الأقاليم الإسلامية حال فراغ أصحابها من تأليفها فكانت الكتبُ التى تُؤلَّف فى بلاد فارس أوسورية والعراق وسائر المراكز الثقافية تُعرف فى الأندلس فى كثير من الأحيان قبل أن تُعرف فى المشرق ، ومن وسائل الأندلسيين إلى ذلك ، يذكر المؤرخون : أن الحكَمَ الثانى أرسل ألفَ دينار من

الذهب الخالص إلى أبى الفرج الأصبهانى - وهو علىُّ بن الحسن القرشى [٢٨٤ - ٣٥٦هـ] المؤرخ الأديب الشاعر الناقد صاحب كتاب «الأغانى» ولد فى إيران ، ثم رحل إلى العراق ، ومات فى بغداد - لكى يحوزَ هذا الخليفةُ النسخةَ الأولى من أغانيه المشهورة «أى كتاب الأغانى» وقد قضى فى تصنيفه خمسين عامًا وهوأعظمُ كتب أبى الفرج شأنًا ، وهو يقدم صورة للحضارة العربية حتى نهاية القرن الثالث من الهجرة (التاسع من الميلاد) ولتطور الأسلوب الأدبى، وقد حدث بالفعل أن قرئ هذا الأثر النفيس فى الأندلس قبل أن يُقرأ فى العراق وماحولها ، وقد كان للحكم الخليفة الأندلسى وكلاءُ عنه فى القاهرة وبغداد ودمشق والإسكندرية عَهِدَ إليهم فى الحصول على مايجتهدون فى الوصول إليه من المؤلفات والكتب والمخطوطات من علوم الأولين والآخرين بأى ثمن كان ، وتحوَّل قصرُه فى قرطبة إلى مصنع يموج فيه عددٌ كبير من الناسخين، والمجلِّدين ومن كل من له صلةٌ بالورق والنسخ وصناعة الكتاب ، وكانت قائمةُ مكتبتِه العامرة وحدها - أى قائمة الكتب - مؤلفة من أربعة وأربعين مجلدًا، وذلك من غير أن تشتمل هذه القائمة - أو الفهرس - على غير عنوان كل كتاب ، ويروى بعضُ المؤرخين أن عدد المجلدات فى تلك المكتبة بلغ أربعمائة ألف، وأن نقل هذه المؤلفات من مكان إلى آخر احتاج إلى ستة أشهر على الأقل .

وكان الحكمُ نفسه عالمًا متبحّرًا ، وأديبًا ، وقد قيل عنه : « .. إنه لم يوجد كتابٌ لم يقرأه» وكان يقضى وقته فى محادثة رجال الأدب والعلم الذين يَرِدُون بلاطه وتُفتح لهم أبوابُ قصره من جميع أنحاء العالم الإسلاميّ .

إقبال الأوربيين والأندلسيين على تعلم العربية وعلومها : وكان من أثر ازدهار الحياة العلمية والفكرية فى الأندلس وازدهار حضارتهم فى عهد الخليفة الحكَم (القرن الثالث والرابع) وغيره من الأمراء والخلفاء أن أقبل غيرُ المسلمين على

تعلُّم اللغة العربية وآدابها ودراسة علومها ، وساعدهم على ذلك ما أبداه المسلمون من تسامح مع مواطنيهم من أهل الذمة ، وذلك بصورة لاتكاد تعرضُها علينا حضارةٌ قديمةٌ أوحديثةٌ ، وكان من أثر ذلك أن جميع أهل الأندلس من مسلمين وغير مسلمين كانوا يتكلمون بلغةٍ واحدة ، ويُنشدون الأشعار العربية ، ويشتركون فى المباحث الأدبية والعلمية ، وقد زالت جميع الحواجز التى تفصل بين الناس بفضل فضائل الإسلام وتكريمه الإنسان .

وكثر الوافدون من أوربا : وقد غدت مساجد قرطبة ومدارسُها وجامعاتها فى ذلك الزمان تعجُّ بطلاب العلم والمعرفة ، وصارت المدن الأندلسية مراكز ذات فاعلية عظيمة للدراسات الدينية واللغوية والأدبية والفلسفية والعلمية ، يفد إليها الراغبون فى المعرفة من أوربا المسيحية فيجدون صدرًا رحبًا ، ويمكثون ما شاء الله لهم أن يمكثوا مع زملائهم من الطلاب المسلمين ، يَنهلون من ينابيع العلم الصافية ، ويُترجمون من العربية إلى اللاتينية ثم إلى بعض اللهجات الأوربية المحلية ، ثم يعودون إلى بلادهم وكأنهم بُعثوا بعثًا جديدًا ، فقد تزودوا بألوان من المعرفة لا عهد لأبناء جِلْدتهم بها وأخذت شمسُ حضارة الإسلام تُشرق على أمم طال ليلُ جمودها وجهالتها وتأخُّرها حتى استيقظت وأفاقت وسارت فى طريق التقدم والنماء ، وأخذت عن الإسلام احترامَ العقل والعمل والجِدَّ فى طلب كل ما هو نافع من العلوم والآداب ، حتى قيل إن الراهب الفرنسى «جربرت» الذى تقلَّد منصب البابوية فى الفاتيكان تحت اسم «سلفستر الثانى» حين عاد إلى وطنه بعد أن تلقَّى علومه على أيدى علماء المسلمين فى الأندلس ، وقد بلغ من العلم مبلغًا لا عهد للفرنسيين بمثله من قبل، خُيِّل لمُعظم الفرنسيين إذ ذاك أن «جربرت» ساحرٌ، وهذا الخبر يدلنا على مبلغ ما كان عليه الأوربيون من جهل فى العصور الوسطى فى حين كانت شموس المعرفة تُشرق على أرجاء العالم الإسلامى شرقه وغربه، وتسعى بنورها إلى كل راغب من بنى الإنسان لا تطلب جزاء ولا تريد شكرًا.

صورة من صور الحضارة : وفى كتاب «الحضارة الإسلامية فى الأندلس» يقول مؤلفه الدكتور عبد الرحمن على الحجّى: «.. إنه يومَ كان رجالُ الطبقة العليا فى أوربا يفخرون بجهلهم ، ويوم كانت أوربا تزخر بالجهل كانت الأندلس تزخر بالعلم والنور وبالمكتبات والجامعات ، ويوم كانت قرطبة تزهو بشوارعها الممتدة أميالًا عديدة مُبلَّطة ومضاءة بالمصابيح العامة لم يكن فى لندن مصباحٌ عمومى واحد حتى بعد هذا التاريخ بسبعة قرون ، ويوم كانت جامعة أكسفورد فى إنكلترا تعتبر الاستحمام عادةً وثنيةً كانت قرطبة قد مرَّ عليها زمنٌ طويلٌ متمتعةً بالحمامات الرشيقة» أى العامة والخاصة .

حقًّا .. لقد كانت الإمامةُ فى أوربا للأندلس فى العلم والنور تضىء لكل الناس ، من كل جنس ، ومن كل دين ، وفى ذلك الفردوس الإسلامى المفقود ، حمل أمانةَ العلم مئاتٌ من العباقرة والرواد والمبتكرين من فقهاء ومُحدِّثين ، وفلاسفة ، وأطباء وغيرهم ، مثل العلامة العبقرى «ابن حزم» ومئات غيره من الرواد العمالقة فى كل فن الذين صنعتهم حضارةُ الإسلام وقيمُه ومُثلُه العليا .

* * *

إذا كان العصر العباسى الأول [حتى نهاية القرن الثالث] هو عصر ازدهار الترجمة والنقل مع التمحيص والنقد والإبداع فى فروع وفنون متعددة فإن العصر العباسى الثانى وهو عصر نشوء الدويلات والإمارات والضعف السياسى لكثرة التنازع بين أبناء الأمة الواحدة فإن هذا العصر كان عصرهضم وتمثيل للعلوم التى ترجموها عن اليونانية والفارسية والهندية ، وقد اتسم القرن الرابع بالتفتح وكثرة الابتكار فى سائر العلوم العقلية والنقلية ، لأن أمراء وحكام الدويلات الجدد تنافسوا مع الخلافة فى «بغداد» فى تشجيع العلماء ودعم النشاط العلمى وفى تقريب الشعراء والأدباء والسخاء عليهم ، ولذا برز علماء وفقهاء وشعراء وحكماء فى معظم المدن والحواضر فى فارس وأفريقية والأندلس ، كما ازدانت الحواضر والمدن فى البلدان العربية بعلمائها وفقهائها ومدارسها ومؤسساتها الطبية والعلمية مما أثرى الحياة العلمية والفكرية والأدبية ورفعوا المشاعل لسائر الأمم .



الرسالة الثانية :

السِّيرة والمغازي والتراجم

والتاريخ العام

(الرِّيادة والسَّبق وطبقات الرُّوّاد)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

[الروم : ٩]

تَذكِرَة بالنابهين فى ظلال حضارة الإسلام

تنوُّع العلوم وازدهار البحوث : ازدهرت الحياةُ الفكريةُ فى ظلال الحضارة الإسلامية أيّما ازدهار ، وأثمر الفكرُ العربيُّ والإسلاميُّ الخصبُ أيّما إثمار ؛ أثمر من فنون الحكمة ، ومن ألوان المعرفةِ ، وضُروب العلم ، ما لم يكن لأمةٍ عهدٌ به .

أمارات وشواهد : وإن من يراجع تاريخَ المدنيّات التى قامت قبل الإسلام ، وأراد أن يُحصى النابهين والمفكرين من أبنائها الذين لهم شأنٌ يُذكر فى تاريخ العلم والحكمة، لكى يقارن بينهم وبين العلماء والحكماء والمفكرين الذين نبغوا فى ظلال حضارة الدولة الإسلامية خلال عشرةِ القُرونِ الأولى منذ فجر الدعوة المحمدية ، إن من يلتفت إلى هذه المقارنة ليأخذُه العجبُ حين يخرج بالنتائج التالية ؛ إذْ إنه سيجد :

* أن عدَد العلماءِ والحكماء الذين نبغوا وصار لهم شأنٌ يذكر فى تاريخ العلم من أبناء أمم المدنيات القديمة قبل الإسلام يمكن للمؤرخ أن يُشير إليهم مُحصيًا عددَهم فى يُسْر وبدون عناء .
* أما النابهون والعباقرةُ من علماء الأمة الإسلامية فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية فإحصاؤهم أمرٌ شاقٌّ وعَسير ويحتاج إلى مثابرة وتصنيف وإحصاء طويل الأمد كثير العدد .
* إذا لجأ المؤرخُ إلى التصنيف ، فإنه سيجد أمامه مئات من العلماء قد نبغوا فى الرياضيات ، ومئات من الأطباء بزُّوا السابقين ، وتفوقوا عليهم ، وعشراتٍ من الفلاسفة والحكماء لايقلُّ شأنُهم فى تاريخ الفكر عن شأن مشاهير الحكماء والفلاسفة فى العصر الإغريقى عمقًا وأصالةً ، كابن طفيل ،وابنِ رُشد ،

والفارابى، وابن سينا، وابن باجّه ، وابن حَزْم ، وغيرهم مِـمَّن سلمت أفكارُهم وبحوثُهم من الزيغ والانحراف وممن قاموا بمراجعة الفلسفة الإغريقية ونبَّهوا على ما فيها من انحراف فى الفكر أو فى العقيدة .

* ومثل ذلك يقال عن علماء الطبيعيات ، وعن المحققين من المؤرخين ، وعلماء الفلك ، والجغرافيا ، والرحّالة .

* أما المحدّثون ، وعلماءُ الحديث ، والفقهاء ، أو رجال القانون . فإننا لانجد لهم نظيرًا فى أمة من الأمم غير الإسلامية قديمًا أوحديثًا لا من حيث الدِّقة والضَّبط واستقامة الفِكر والمنهج ولا من حيث العدد وتوافُر الإخلاص وبذل الجهود فى خدمة العِلم على نورٍ وبصيرة .

* أما علماءُ اللغة من نحويين وبلاغيين وعروضيين فقد بلغوا الغاية فى نُضْج الفكر ودقَّته ، مع تعدُّد مدارسهم ، وتنوّع مذاهبهم ، وكثرة عددهم ، ومنهم الفارسى والأُفريقى والعربى والتركى والهندى والسندى كما هو الشأن فى سائر فروع العلم والمعرفة فالجميع تضافرت جهودهم فى نور توجيه القرآن الكريم والسنة النبوية .

* بل إننا لا نجاوز الحقيقةَ ، إذا قررنا أن علماءَ مدينة إسلامية واحدة ، وفى جيل واحد من أجيال الأمة الإسلامية فى عصر ازدهارها ، يفوق عددُهم عددَ مَنْ يُحصيهم التاريخُ لأى أمة من أمم الحضارات القديمة .

* فكم من الفقهاء ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، والأطباء ، والفلكيين ، والرياضيين ، والمُحدِّثين، وعلماء الطبيعيات واللغويين ، هذا ما عدا الأدباءَ من كُتَّاب وشعراءَ، كانت تضمهم بغدادُ – مثلاً – فى القرن الأول من العصر العباسى ومثل ذلك يقال عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وقرطبة ، وإشبيليةَ ، وفاس ، والقاهرة ، وحلبَ ، ودمشقَ ، والكوفةِ والبصرةِ ونيسابور ، والرىِّ ، وغيرِهذه المدن من

الحواضر الإسلامية فى القرون التى ازدانت بحضارة الإسلام .

* وكم تخرّج فى المدينة المنورة من أعلام عظماء من المحدِّثين ، والفقهاء ومن المؤرّخين ممَّن ازدان بأسمائهم وثرائهم الفكرى تاريخُ الفكر الإنسانىّ ، وقُل ما شئت عن مراكز البحث العلمى فى مشرق الأمة وَغربها .

ومن الأمثلة : وإن الخبر الواحدَ ، فى مرحلة محدودة من الزمن ، ليؤكّد لنا تلك الحقائق التاريخية ، وإن تاريخَ العلم لايُنكِرها ،ولايتجاهلُها ، ألم نقرأ أن شيخ الإسلام ابن تيمية – مثلاً – قرأ الحديثَ أو سمعه على **مائتى شيخ وعالم ؟** وإن شيخ الإسلام ابن تيميةَ لم يتلقّ الحديثَ الشريفَ فحسب ، بل تلقّى الفقه ودرس الفلسفة ، والرياضة، والمنطق ، والنحو ، والعقائد إمَّا على أعلام الرجال ، وإمَّا من الكتب التى ألفها علماءُ المسلمين قبل عصره .

وقد أحصى ابنُ عساكر لنفسه أساتذته وشيوخَه الذين تلقَّى وأخذ عنهم العلم ، **فكان من بين هؤلاء الأساتذة إحدى وثمانون امرأة** ، فكم رجلٍ إذن تلقى عليهم علومه! ، وهذا الخبر جاء فى «مُعجم الأدباء» لياقوت ونقله الدكتورُ أحمد شلبى فى كتابه عن «تاريخ التربية الإسلامية» ، وإن من يطالع كتب التراجم – ومأأكثرها – لتأخذه الدهشةُ لكثرة العلماء والحكماء والأطباء الذين أنجبتهم أمةُ الإسلام وأظلتهم سماءُ الحضارة الإسلامية ومنهم المسلمُ واليهودىُّ والنصرانىُّ والصابئىُّ :

ففى كتاب **«عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»** تحدث مؤلفه ابنُ أبى أصيبعةَ عن حياة ومؤلَّفات أربعمائة من نوابغ الأطباءِ المسلمين ، وفى كتاب **«تراث العرب العلمى فى الفلك والرياضيات»** تكلم مؤلفُه الأستاذ قدرى حافظ طوقان عن حياة ومؤلفات أكثر من مائةوخمسين عالمًا من علماء الفلك والرياضيات ، هذا عدا من ضمّتهم كتبُ التراجم الأخرى .

ولقد خلّف لنا هؤلاء العلماءُ والحكماءُ ثروةً فكريةً وذخائر علميةً تَجِلُّ عن الإحصاء والعدِّ فى مختلف الفنون ، والعلوم ، ومازالت المكتباتُ العلميةُ فى معظم البلدان العربية والإسلامية والأوربية تزدان بعشرات الألوف من المخطوطات العلمية الإسلامية ، حتى قدَّر بعضهم ما تضمه مكتبةُ المُتْحَفِ البريطانى فى لندن وحدها بربع مليون مخطوط عربى، فكم من المخطوطات تضمها مكتباتُ باريس وفيينَّا وبرلينَ والقاهرةِ واستنبول وغيرها من الحواضر فى الشرق والغرب ، ذلك عدا ما أضاعته يدُ الإهمال فى عصور الظلام ، وما دمرته يدُ التخريب أيام الغزو التترى الهمجى وهَجْمتِهِم الشرسة على كل مظاهر الحضارة فى مشرق الأمة ، مع حقدهم الشديد على العلم وأهله، وما تمَّ انتهابُه ونقلُه أوتدميره فى فترة الغزو الأوربى المتعصب ، وما سلَبتْه أو دمَّرته وأحرقَته أيدى المتعصبين فى قرطبة وغيرها بعد انحسار الحكم العربى الإسلامى فى الأندلس .

إن ذلك التراث العظيم ليدلُّ دلالةً أكيدةً على حيوية الأمةِ الإسلاميةِ وعلى ذكاء أبنائها ، وعلى قدرتهم على التفكير العلمى المبدع ، كما يدل على أثر الإسلام فى بناء الرجال كأعظم وأفخم مايكون البناء، وعلى أثر تعاليمه الهادية فى صنع حياة أفضل وأكرم لبنى الإنسان: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] .



في التمهيد ينبغى لنا الحديث عن :

القرآن الكريم
مصدر الإلهام الأول والتوجيه للعلماء

مكة المكرمة ثم المدينة المنوَّرة :

بعث الله عز وجل نبيَّه وخاتم رسله محمدًا ﷺ هاديًا ورحمة عامّة ، ومكث فى موطنه مكة المكرمة ثلاثَ عشرةَ سنةً يدعو إلى الله على نور وهداية ، وصارت مكةُ بفضل هدايته وأنوارِ الوحى الإلهى أعظم مركزٍ لحقائق البرهانِ ولنور العلم بالله ومنها كانت بداية مراحل الخروج من مضايق الجهل إلى سعة آفاق العلم ، ومن ظلام الضلالة إلى نور الهداية .

ثم انتقل ﷺ إلى المدينة المنورة ، وبدأت مرحلةٌ جديدة ومجيدة فى بناء الإنسان وحضارته القائمة على أسس ثابتة وقواعدَ ملائمة لحاجات فطرته السليمة النقيّة ، وصارت المدينة المنورة مركزَ إشعاع عظيم لنور العلم والإيمان ، وكان علماء الصحابة يحملون الأمانة ويتحدّثون بها حيثما ارتحلوا أوحلُّوا لا يكتمون العلمَ ولا يبخلون بالمعرفة ، حتى شعر الناسُ فى أطراف بلاد العرب وما وراءها أن نورًا جديدًا يَسرى فَيَقْشَعُ الظلمات ، وبرزت هنا وهناك محاوراتٌ ومجادلات ومسائل ، ووفدت وفودٌ إلى المدينة يحملون الأسئلة ، أويجادلون فى مسألة ، فيسمعون ما يَشفى الصدر وينير للعقل طريقه ، ثم ينتقلون ومعهم الجديد من العلم والبرهان وحَفْزِ العقل على التأمل والتفكُّر الصحيح .

وكانت سيرة النبى الهادى ﷺ حيّةً بينهم من جميع جوانب حياته وعلاقاتِه الخاصة والعامة ، وإذا دقَّقنا وجدنا أصحابه ومَن خالطوه ؛ وجدناهم علماءَ فى سيرته العطرة ، وفى قلوبهم سطورُها واضحةٌ ، وعنها انتقلت فيما بعد إلى الآفاق ثم

إلى التدوين والكتابة منذ القرن الأول من الهجرة الشريفة ، واقتضى الحديثُ فى سيرته العطرة التنبيه على ما كانت عليه أحوالُ الناس قبل البعثة النبوية الشريفة ثم على مواقف المعاندين فى مكة وغيرها ، وبدأت بذورُ التاريخ تأتى فى المناسبات والمقارنات ، وفُتح الباب أمام ظهور علم عظيم حمل رايةَ ريادته علماءُ المسلمين ، فعُنوا أشدَّ العناية بالتأليف فى السيرة والتاريخ ، ولم يعرف تاريخُ العِلم للأمم السابقة سوى عدد قليلٍ من المورِّخين يَسْهُلُ إحصاؤه بيُسرٍ ، ولم تتفتَّح أمامهم الآفاقُ العظيمةُ والمناهجُ السديدةُ التى صارت لعلماء المسلمين بفضل تأثُّرهم بالقرآن الكريم والسُّنة المُطهَّرة ، حتى صار عِلمُ «التاريخ» قائمًا على أصول ومناهجَ وقواعدَ واتجاهاتٍ وتخصُّصات ، وانتقلت ثمراتُ ذلك إلى غرب أوربا وكثر السفراء الأوربيون الذين عكفوا على الترجمة إلى اللاتينية ، ثم إلى غيرها من اللغات الأوربية.

رائدهم وهاديهم القرآن :

إن القرآن الكريم جعل التاريخ مصدرًا عظيمًا من مصادر المعرفة والعبرة ودعا المسلمين إلى النظر والتأمل مُستلهمين العبرةَ والعظة من أحوال الماضين .

وقصَّ القرآنُ الكريم قصصَ الأوَّلين ليلتفتَ المسلمون إلى ما فيها من الآيات والعِبَرِ والعظات كى يتجنَّبوا المزالق ، ويلتزموا الصراطَ المستقيم والمنهجَ القويم .

كما حثَّ القرآن على التدقيق فى رواية الحوادث والأخبار ، وأمَرَ بالصدق فى نَقْل الوقائع ، وقد نهاهم لذلك عن الأخذ عمَّن بَدَا منه وظهر بالتجربة عدمُ تحرِّى الصِّدق فى روايته إلا بعد التثبُّت والتأكُّد من الحقيقة ، وفى سورة الحجرات : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الآية :٦] ، فكان للتوجيه القرآنى أعظمُ الأثر فيما عرفناه عن المسلمين الأول من الصدق فى الرواية ، وفى تمحيص العلماء للأخبار والروايات لتمييز الصدق من الكذب الزائف الذى لا يمكن الاستناد إليه ، ثم أخذوا فى تقويم الرواة أنفسهم فيما بعدُ

لمعرفة العُدول أهل الثقة الذين يمكن قبولُ روايتهم للأخبار والآثار والأحاديث النبوية الشريفة وسائر أعماله ﷺ وخصائصه .

مُصطلح الحديث افاد المؤرخين ومناهجهم :

ومن هنا فإن علم مصطلح الحديث كان أعظمَ مُدرِّبٍ لهم على أساليب النقد والتمحيص ومعرفة الصحيح من الزائف ، وعلى عُمْق النظر فى الرجال وأحوالهم ، وانتقل ذلك إلى قوّتهم فى نقد الروايات التاريخية ؛ حتى قال المحدِّثون : «إنه لم يجئ بعد هيرودوت - المؤرِّخ الإغريقى - مَن يضارع المؤرِّخين المسلمين فى دقّتهم وعظمتهم» .

بل إن علم التاريخ نفسه صار يَدينُ بوجوده للقواعد التى وضعها علماءُ المسلمين لضبط الأحاديث ، وقد نشأ هذا العلمُ فى أول الأمر ليساعد على ضبط تاريخ وَسِيَرِ الذين نقلوا الأحاديث ، وضبط أحوالهم ووجودهم أيام النبى ﷺ وتحقيق أحوال الصحابة ، والتابعين ، وتابعى التابعين وغير ذلك .

كما ظهر علم «الجَرْح والتَّعْديل» للبحث فى أنساب الرواةِ والحُفَّاظ ، وفى درجة الاتصال أو الانقطاع وفى سلامِة السلسلة ، وأحوالِ كلِّ راوٍ ودرجة الثقة فيه ونحو ذلك .

وفى ضوء توجيه القرآن الكريم ظهر لدى علماء المسلمين قواعدُ النقد التاريخى ونمتْ ، كما نمت الحاسَّةُ التاريخية فصاروا بفضل هداية القرآن وتوجيهاتِ السُّنَّة المطهرة وإخلاصهم فى خدمتها صاروا روادَ هذا العلم ، وحاملى رايةِ فلسفته ومناهجه للعالمين .

اخلاق الراوى :

وإن من أعظم قواعد النقد التاريخى القاعدةَ التى تُقرِّر أن أخلاق الراوى عاملٌ

مُهمٌّ فى الحكم على روايته ، وكان لهذه القاعدة أثر بارز فى جهود علماء الحديث والمؤرخين المسلمين لتزويد الخلف بمصادر دائمة للتوجيه والإلهام والتدبُّر والإنعام .

لقد دعا القرآنُ المسلمين إلى التأمل والنظر فى أحوال الأمم الخالية ، وقصَّ عليهم أحسنَ القصص داعيًا إلى الاعتبار بتجارب الماضى فى حاضر الناس .

التاريخ من مصادر الإلهام :

وإذا كان علم السيرة والتاريخ أعظمَ مُلهم للتدرُّج فى مراقى التقدُّم والثبات على الطريق الصحيح ؛ فإن علماء المسلمين ومؤرِّخيهم كانوا الروَّادَ الأعاظم من حيث الموادُّ العلميةُ ودِقَّتُها فى كتبهم ، ومن حيث المناهجُ والطرق والاتجاهاتُ العظيمة التى عرضوا بها حوادثَ التاريخ ، وتراجمَ الأعلام ، ووصْفَ البلدان وأحوال أهلها، وتاريخَ العلوم ونـموِّها .

وظلت رايةُ الريادة فى علم التاريخ عاليةً فى أيدى علماء العربية حتى القرن التاسع من الهجرة «نحو السادسَ عشرَ من الميلاد» ثم بقيت هكذا فى أشدِّ عصور الانحدار الذى أصاب الأمة العظيمة ، وظل كثير من العلماء على صبرهم ومثابرتهم، وعلى مُواصلة الجهود فكانت ثمراتُ أعمالهم ومثابرتهم نورٌ يسطع ويضىء فى الظلمات .

وفيما يلى لمحات عن طبقات المؤلفين فى السيرة النبوية ورجالها وطبقات المؤرخين ونـموِّ أعمالهم ، وطوبى لمن استدرك أو صَحَّح ، للذكرى والاعتبار .

أحمد بن محمد طاحون

القاهرة فى : ١٤٢٢هـ
٢٠٠١م

السيرة والتاريخ العام

أولاً : [قبل مرحلة الجمع والتدوين وَعَتْها القلوبُ وكانت على الألسنة]

ريادة شاملة ونبدأ بإشارة إلى علم الجغرافيا :

لقد نهض المسلمون بكلِّ فروع المعرفة ، ووضع علماؤهم الأسس التى قامت عليها نهضةُ العلوم فى العصور الحديثة ، وكانت جهودُهم فى ميدان «علمِ الجغرافيا» لا تَقِلُّ فى أهميتها عن جهودهم فى ميادين العلوم الطبيعيةِ ، وما زالت معلوماتُ المسلمين الجغرافيةُ مَعينًا للباحثين والدارسين .

شهادات عربية وأجنبية : يقول الدكتور حسين فوزى عن جهود المسلمين وأثرِها فى نجاح الرحالةِ الأوربِّيِّين : «.. لقد حققت الجغرافيا العربيةُ منذُ عصرِ المأمون الخليفة العباسىِّ بَدْءًا بترجمةِ كتبِ «بطليموسَ» ، سواء فى هذا الجغرافيا الوصفيةُ ، أو الجغرافيا الفلكيةُ الرياضيةُ ، حققت لعصرِ النهضةِ الأوربيةِ فى فلورنسا وجمهوريات البنادقةِ ، ثم فى ممالِك قشتالةَ والبرتغالِ - حينما اتجهت هذه الممالكُ إلى الأسفارِ للكشفِ عن أرجاءِ العالم - أقول حققت الجغرافيةُ العربيةُ ذخرًا علميًّا مُهمًّا أعان رُوَّادهم الكبارَ على اقتحامِ البحارِ ..» .

والمستشرقُ الكبيرُ «جوزيف توسان رينو» [القرن ١٩] الذى ترجم ونشر كتاب «تقويم البلدان» فى الجغرافيا الوصفية للأميرِ عماد الدين أبى الفداءِ إسماعيل الأيوبى [المتوفى ٧٣٢هـ - ١٣٣١م] يؤكِّد فضلَ المسلمين فى ميدان الكشوفِ الجغرافيةِ وأثرَهم العظيمَ فى نهضة العلومِ فيقول : « .. كي يكونَ حكمنا على أعمال المسلمين سليمًا ، يجبُ أن نُصعِّدَ فى التاريخِ إلى ما قبلَ

اكتشافِ رأسِ الرجاءِ الصالح والقارّةِ الأميريكية ؛ لأننا حينئذ سوف نتبيّنُ المكانةَ العظيمةَ لتلك الأعمالِ – الجغرافية – ونتبيّنُ نصيبَها من المكتشَفَاتِ التى تمت فيما بعدُ..» ، ثم يقول هذا المستشرق : « .. لقد تناول العربُ مشعلَ العلوم ، وذُبالتَه – فتيلة مصباحه – وشيكةُ الانطفاءِ ، ورَعَوْا شُعلتَها ؛ فكانوا بذلك أدلّاءَ ومرشدين لرجالِ البحرِ الأوربيين فى القرنين الرابعَ عشرَ ، والخامسَ عشرَ الميلاديين ..» . ويضيفُ العلامةُ الهندىُّ محمدُ شريف بعضَ مآثرِ المسلمين فى تقدُّمِ البحوثِ الجغرافيةِ وأثرِها فى الفكر الأوربىِّ فيقول : «.. وبالإضافة إلى ما أضافه المسلمون من معلومات جغرافية لا تزالُ مَعِينًا للباحثين والدارسين ، فقد كان المسلمون مَعْبرًا انتقلت بواسطته إلى أوربا أفكارُ اليونانِ الجغرافيةُ ، والفكرةُ الهنديةُ عن صورةِ الأرضِ ، وفكرةُ استدارةِ الكرةِ الأرضيةِ ، والنظريةُ الصائبةُ عن أسبابِ المدِّ والجزرِ ..» .

تلكم بعضُ الشهادات عن الصفحات المشرقةِ التى أضافها المسلمون إلى علم الجغرافيا ، نضيفُها إلى سجلِّ المفاخرِ العلميةِ التى نهض بمسؤولياتِها الفكرُ الإسلامىُّ المستنيرُ ، فى ظلال الحضارة الإسلاميةِ التى ازدهرت خلالَ العصرِ الذهبىِّ للدولة الإسلاميةِ .

مع نشأة علم التاريخ وفلسفته : ونحن إذا تتبعنا – بمشيئةِ اللهِ – نشأةَ علم «التاريخ، وفلسفتِه» وتتبعنا نموَّه ، وتطوُّره عند المسلمين ، فسوف يتأكَّدُ لدينا – أيضًا – فضلُ المسلمين فى وضع أسس هذا العلمِ ، والإسهامِ فى تطوُّرِه ، كما وضعوا أسسَ غيرِه من العلوم .

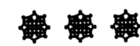
سجلّ العرب التاريخى كان على ألسنتهم فى شعرهم ونثرهم :

الرواية : لم يكنْ للعربِ قبل مَبْعَثِ النبىِّ ﷺ من مادَّةِ التاريخ إلا الذى توارثوه بالروايةِ ؛ ممّا كان شائعًا بينهم من أخبار الجاهليةِ الأولى، كحديثهم عن

آبائهم ، وأجدادِهم ، وأنسابِهم ، وما يتصل بحياة الآباء والأجداد من قصصٍ ؛ فيها البطولةُ ، وفيها الكرمُ ، وفيها الوفاءُ ؛ كما دارت أحاديثُهم عن البيتِ الحرامِ ، وعن زمزمَ ، وعن جُرْهُم وما كان من أمرها وعن نشأة الصِّلة بين هذه القبيلة ورسول الله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ثم ما كان من خبرِ البيوتاتِ التى تناوبت الإمْرَةَ على قريش ، وكانت تتصلُ أحاديثُهم بما جرى لسدِّ مأربَ وما تبعه من هجرة الناسِ من اليمن وتَفَرُّقهم فى البلادِ ، كما كان للعربِ فى الجاهلية ولعٌ بالحديث عن أيام العرب ، وما جرى من معاركَ ، وما تمخَّضت عنه من بطولاتٍ تعتزُّ بها القبيلةُ ، ويُلقِّنها الآباءُ للأبناء ، إلى أمثالِ هذا مِـمَّا قامت فيه الذاكرةُ مقامَ الكتابِ ، وقام اللسانُ مقامَ القلمِ ، يحفظُه الناسُ ، ويردِّدونه على ألسنتهم فى نثرهم وشعرهم وأحاديثهم فى مجالسهم، وقد أعانهم على حفظِه بيئتُهم الصحراويةُ الطليقةُ التى ليس فيها تعقيد .

واستمرَّت الرواية والحفظ فى القرن الأول من الهجرة : ثم ظهر موردٌ جديدٌ بظهورِ النبىِّ ﷺ، وظهورِ دعوتِه ، حيثُ دارت أحاديثُ الصحابةِ - رضوانُ اللهِ عليهم - وأحاديثُ التابعين عن ولادته ﷺ ، وعن نشأته ، وأخلاقِه العظيمة، وعن دعوته إلى التوحيد وإلى العدل والإخاء الإنسانى والمحبة والسلام ، وعن حياته وما مُلئتْ به هذه الحياةُ الشريفة من جهاد فى سبيل اللهِ ، ومن صبر وثبات أمام تَعنُّت المشركين، ومن كانوا يناوئونه ، فهذا وغيره كان مادةً ثريَّة للتاريخ أولًا ، ثم للسيرةِ النبويَّة ثانيًا ، وانقضت الجاهليةُ ، ومضت فترةٌ بعدها من صدر الإسلام ، ولم يُدَوَّن فى تاريخ العربِ أو السيرةِ شىءٌ ، وظل اعتمادُهم حتى عصرِ بنى أميةَ على الذاكرةِ الواعيةِ، واللسان الذى لا يَنِى عن ذكرِ الأحاديث المتصلة بسيرةِ النبىِّ ﷺ وخصائصه وصفاته وأخلاقه العظيمة وجهادِه الكريم ، ومواقفِه الخالدة .

تدوين القرآن الكريم : بل لم يُدوَّن فى هذه الفترةِ غيرُ القرآنِ الكريم ، ومبادئَ لعلم النحوِ ، مع احتفاظ بعض الصحابة بأحاديث نبوية شريفة دوَّنوها عنه ﷺ وقد بقيت صدورهم جميعًا صُحفًا نُقشَتْ عليها بوضوح تامٌ ما رأوه منه ، وما تحدَّث به، وما قرَّره ، فنُقلت إلى مَن بعدهم سُنَّتُه الهاديةُ وأحاديثُه الصحيحةُ الشريفةُ نقلًا أمينًا واضحًا ، فقد حفز المسلمين حرصُهم على حفظِ القرآنِ إلى كتابته فى حياة النبىِّ ، وقد كان له ﷺ عدد من الكُتَّاب يأخذون عنه ﷺ يكتبون ويحفظون ، وبعدَه اجتهد الخلفاء والمسلمون على مرِّ السنين فى كتابة القرآن الكريم ، والإكثار من النُّسخ تُرسل إلى سائر الأقطار ، كما حدث تحت إشراف الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كما حفزتهم مخافتُهم من تفشِّى العُجمةِ على الألسنةِ إلى تدوين مبادئَ لعلم النحوِ .. وذلك لمَّا اختلط العربُ بغيرهم عند اتساعِ رقعةِ الأمة الإسلاميةِ .



ثانيًا : « التأليف والتدوين ، الريادة وطبقات الروّاد »

فى القرن الأول ونظرة شاملة :

إن العرب فى جاهليتهم وأوائلِ عصرِ الإسلام لم يقوموا بتدوين التاريخ ، وإنما كانوا يعتمدون على الذاكرةِ فى حفظ الحوادث ، والوقائع ، وظل الحالُ على هذا النحوِ حتى أيام معاويةَ الخليفة الأموىّ ، فقد أحبَّ أن يُدوَّن فى التاريخ كتابٌ ، فاستقدم لذلك « عُبيدَ بنَ شَرِيَّةَ » من صنعاءَ فكتب له : « كتابَ الملوكِ وأخبار الماضين» ..

البداية والتدوين : بعد هذا بدأ التأليفُ فى التاريخ ، وكانت البدايةُ مرتبطةً بالبحث فى حياة النبىّ ﷺ، وفى أعماله وجهاده ، ونهض للتأليف فى السيرةِ العطرةِ أكثرُ من عالم ، وكلُّهم محدِّثٌ ، فعُنوا بجمع الأحاديثِ المتصلةِ بغزواتِ النبىّ ﷺ .. ومِن ثَمَّ ظهرت فى هذه الفترة كتبُ المغازى .

وكانت المدينةُ المنورةُ موطنَ هذه الدراسةِ ومعهدَها ولم يختصّ أحدٌ فى مواطنَ أخرى غير المدينة بالتأليف فى المغازى قبل القرنِ الثانى من الهجرة – كما جاء فى دائرةِ المعارفِ الإسلامية – وقد عُرِف من المؤلفين فى هذه المرحلة ؛ عُرْوةُ ابنُ الزبير بن العوام الفقيهُ المحدِّثُ الذى مكَّنه نسبُه من قِبل أبيه الزبير بن العوام ، وأمِّه أسماءَ بنتِ أبى بكرٍ من أن يروىَ الكثيرَ من الأخبارِ ، والأحاديث عن النبىّ ﷺ، وحياةِ صدرِ الإسلام ، وقد أكثرَ من الأخذِ عن عروةَ ابن الزُّبير مَنْ جاء بعده من كتَّابِ السيرِ كابن إسحاقَ ، والواقدىّ ، والطبرىّ ولاسيما فيما يتعلق بالهجرة إلى الحبشةِ ، وإلى المدينةِ ، وغزوة بدر ، وقد تُوفى عروةُ سنةَ اثنتين وتسعين من الهجرة .

وتواصلت الجهود :

ومن الذين كتبوا فى المغازى - فى هذه الفترة أيضًا - «أبانُ بنُ عثمانَ بنِ عفّانَ المدنىُّ» المتوفَّى سنةَ خمسٍ بعد المائةِ من الهجرة، وله فى السيرة صحفٌ جمع فيها أحاديثَ متصلةً بحياةِ الرسولِ ﷺ .

ومنهم : وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ اليمنىُّ المتوفَّى عامَ عشرة بعد المائةِ ، وكان فى مدينةِ «هيدلبرجَ» بألمانيا قطعةٌ من كتابهِ الذى ألفه فى المغازى .

وهناك غيرُ هؤلاء كثيرٌ منهم شُرحبيلُ بنُ سعد ، وعاصمُ بنُ عمرَ بن قتادةَ ، وعبدُ اللهِ بنُ أبى بكرِ بنِ حزم ، وابنُ شهابِ الزُّهرىُّ ، وكان هؤلاء الأربعةُ ممَّن عُنُوا بأخبارِ المَغازى وما يتصلُ بها فى أوائل القرنِ الثانى من الهجرة .

ويمتازُ ابنُ شهاب الزهرى فى أنه أولُ مَن قارن بين الأحاديثِ المختلفةِ المصادر لإدماجها فى حديث واحد ، وقد أشارت إلى ذلك دائرةُ المعارف الإسلامية فقالت عنه : «محمدُ بنُ أسلمَ بن شهابِ الزُّهرىُّ ، دوَّن بالكتابةِ موادَّ الحديثِ نزولًا على أمرِ الخليفةِ عمرَ بنِ عبد العزيزِ أو هشامِ بنِ عبدِ الملك - ويُعزَى إليه الفضلُ فى أنه كان أولَ من قارن بين الأحاديث المختلفةِ المصادر لإدماجِها فى حديث واحد ، وهذه خطوةٌ إلى الأمام فى العرضِ التاريخىِّ» .

وقد كانت الأحاديثُ التى رواها الزُّهرىُّ أساسًا للكتب المؤلفةِ فى المغازى ، أمّا أشهرُ مُؤلَّفٍ فى القرنِ الثانى من الهجرة ، فهو السيرةُ المشهورةُ التى ألفها «أبو عبد الله محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يسَار» [المتوفَّى عام ١٥٠هـ - ٧٦٧م]، وقد خطا ابنُ إسحاقَ خطوةً جديدةً فى تأليف السيرةِ قالوا عنها : « .. وقد كان مؤلَّفُ ابن إسحاقَ ثمرةَ تفكيرٍ أبعدَ أُفقًا ، وأوسعَ نطاقًا من تفكير سابقيه ، ومعاصريه ، أما تعليلُ ذلك فيرجع إلى أن ابنَ إسحاقَ لم ينزع فى

مؤلِّفِه إلى تدوين سيرةِ النبى ﷺ - فحسب - بل نزع إلى التأليف فى تاريخ النبوَّةِ ذاتِها ، وهذا الأسلوبِ المبتكَرِ شمل أقسامًا ثلاثة هى :

القسم الأولُ : المبتدأ (أو مبتدأ الخلْق) : وهو يشمل تاريخَ العصرالسابق على الإسلام ومنذ بدءِ الخليقةِ ، وقد استمدَّ أكثرَه من المؤرِّخ وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ ومن المصادر الدينية القديمة .

والثانى : المبعث : وهو تاريخُ حياةِ النبيِّ محمدٍ ﷺ حتى ا لسنةِ الأُولى من الهجرةِ .

والثالث : المغازى : وقد تناول تاريخَ المغازى إلى وفاةِ النبى ﷺ فى العام العاشر وتقول دائرة المعارف الإسلامية : «ولا يزال كتاب المغازى باقيًا حتى اليوم فى الفقرات المُسهبَة التى أوردها «الطبرى» فى كتابه التاريخى ولكنه لا يوجد فى صورة قائمة بذاتها إلا فى اقتباس ابن هشام الذى عرف كتاب المغازى عن طريق تلميذ لابن إسحاق هو «زياد البكَّائى الكوفى»».

وجاء بعدَ ابن إسحاقَ ومَنْ عاصره من المؤلِّفين فى السيرةِ كموسى بنِ عُقْبَةَ ، ومَعمَرِ بنِ راشد ، جاء بعدهم زيادٌ البكَّائىُّ المتوفَّى سنة ثلاثٍ وثمانين بعد المائةِ، والواقدى صاحبُ المغازى المتوفَّى فى أوائل القرنِ الثالث ، ومحمدُ بنُ سعدٍ ، وابنُ هشامٍ ، وإلى الأخيرِ انتهت سيرةُ ابنِ إسحاقَ ، فعُرفت به ، وشاع ذكرُه بها .

أمّا محمدُ بنُ عمرَ الواقدىُّ المتوفَّى سنةَ سبع بعد المائتين فقد ألف كتابًا لم يقتصر فيه على الغزوات ، وإنما تناول كثيرًا من وقائع تاريخ العهودِ الإسلامية التاليةِ ، كما ألّف تاريخًا جامعًا تناول فيه الحوادثَ إلى عهد خلافة هارون الرشيد ، ثم نهض محمدُ بنُ سعدِ بن منيعِ البصرىُّ الزّهرىُّ المتوفَّى عامَ ثلاثين بعد المائتين للتأليف فى السيرةِ ، وكان ابنُ سعدٍ تلميذًا للواقدىِّ لازمه فى بغدادَ مُدَّة

يكتب له ، وقد قيل عن ابنِ سعد : إنه كان كثيرَ الارتحالِ ، ارتحل من البصرة إلى بغداد ، ثم إلى المدينة المنورة والكوفة ، وكان شغلُه الشاغل فى حِلّه وترحالِه ، لقاءَ الشيوخ وكتابةَ الحديثِ وجمْعَ الكتب فروى عن أعلام عصرِه من المُحَدِّثين، وقيَّد مروِيَّاتِه ، وأفاد منها فى تصنيفِ كتبه؛ حتى وُصف بأنه كان كثيرَ العلمِ - كثيرَ الحديثِ - والروايةِ كثيرَ الكتبِ .



مع كتاب «السيرة والمبتدأ والمَغازى»

محمد بن إسحاق رائد فى فنِّ التأليف فى السيرة :

إن مؤلِّف كتاب «السيرة والمبتدأ والمغازى» هو العلامة الجليل المتبحر ؛ «أبوعبد الله محمد بن إسحاق بن يسار» ؛ الذى خطا فى القرن الثانى خُطوةً رائدة لم يسبقه أحد على مدى العصور إلى مثلها فى التأليف التاريخى ، وصار هذا الكتاب الرائد بأقسامه الثلاثة أساسًا لمن جاء بعد مؤلِّفه ؛ لأنه الكتابُ الشاملُ الأول ، فقد نَزَع ابن إسحاق إلى التأليف فى تاريخ النبوَّة نفسها ولم يقتصر على تدوين السيرة النبوية ، ولهذا تناول فى منهجه المبتكَرِ أقسامًا ثلاثة كما سبقت الإشارة :

القسم الأول : «الـمُبتدأ» وهو يشمل تاريخَ العصور القديمة منذ بَدء الخليقة، وقد استمدَّ أكثره من المؤرِّخ العلامة «وهب بن مُنبِّه» الذى كان قارئًا متبحِّرًا فى كتب وروايات الأقدمين ، كما استمدَّ ابنُ إسحاق من المصادر الدينية القديمة باجتهاده .

والقسم الثانى : «المبعث» وهو تاريخُ حياةِ النبى محمدٍ ﷺ حتى السنةِ الأولى من الهجرة النبوية الشريفة .

والقسم الثالث : «المغازى» وقد تناول تاريخَ الـمَغازى إلى انتقال الرسولِ محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى فى العام العاشر .

وفيما يلى لمحات عن جهود عدد من أكابر المؤرخين ؛ ممن عاصروا ابن إسحاق أوجاء بعده :

كان «موسى بن عقبة» معاصرًا لابن إسحاق ، ولموسى فضل زيادة - أيضًا - فى أنه أحدُ واضعى نواةِ التاريخ الإسلامى والعربىّ فى القرن الثانى ، وهو

ممن أَلَّفوا فى المَغازى ، وقد أثنى على جهوده الإمامُ أحمدُ بن حنبل فقال : « عليكم بمغازى ابن عقبة فإنه ثقة ، فإننى قرأتُ مغازِىَ موسى بن عقبة على الشيخ أبى نصر الفارسىّ» . وقد تُوفى ابنُ عقبةَ عام واحد وأربعين بعد المائة ، وقد تُرجمت بعضُ مغازيه إلى الألمانية ، ونُشرت بالعربية فى أوائل القرن العشرين من الميلاد .

وكان «مَعْمَر بن راشد الأزْدى» المتوفَّى فى القرن الثانى سنة خمسين بعد المائة أحد الذين أَلَّفوا فى السيرة النبوية ، وله من الكتب «كتاب المغازى» ، وقد تطرَّق فيه إلى تاريخ ما قبل الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة ، وحدَّث عن الخلفاء الراشدين .

ثم ظهر بعد موت ابن إسحاق عام [١٥٠أو ١٥٣هـ] تلميذه «زيادُ بنُ عبد الله البكَّائىُّ الكوفى» المتوفى فى القرن الثانى سنة ثلاث وثمانين بعد المائة ، وجاء بعد ذلك هشامُ بنُ محمد الكلبى وكانت وفاته فى القرن الثالث سنة ستٍّ بعد المائتين ، ثم ظهر : الواقدىُّ ، ومحمدُ بنُ سعد، وابنُ هشام الذى انتهت إليه سيرةُ ابن إسحاق فَعُرِفت به ، وشاع ذكر ابن هشام بها .

وفيما يلى نبذة وجيزة للتعريف ببعض ثمرات جهود «ابن الكلبى» وعدد ممن عاصروه أو جاءوا بعده :

دائرة معارف «ابن الكلبى المؤرِّخ» : ويذكر المفكِّرون أن هشام بنَ محمد الكلبى يُعدُّ أحدَ عباقرة العلم والأدب والتاريخ على مدى العصور ، فهو أحد الروَّاد الذين أسهموا فى بناء أعظم حضارة وأناروا الطريق أمام بنى الإنسان ، وقد قالوا عنه : « إن لابن الكلبى نيِّفًا ومائةً وخمسين كتابًا فى الأنساب والتاريخ» وهو أخبارِىٌّ علَّامة ، وواسعُ المعرفة بالتاريخ ؛ فكان مَرْجع المؤرِّخين ، وهدفَ المحقِّقين ، كما كان الكلبىُّ من أكثر العلماء تأليفًا فى النسب ، وفى التاريخ

القديم ، وأيام العرب ، وفى تاريخ الإسلام ورجالاته ، وفتوحاته ، كما كان له باعٌ فى تاريخ الشعر ونوابغه وفى علم البلدان ، وفى عجائب البحار ، وغير ذلك مما جعله فى نظر الباحثين «دائرة معارف» .

* **الواقدى :** ومِمَّن عاصروا «هشامَ بنَ محمد الكلبى» محمدُ بنُ عمر الواقدى المتوفى سنة سبع بعد المائتين وهو الذى أ لَّف كتابًا لم يقتصر فيه على الغزوات ؛ لأنه تناول كثيرًا من وقائع التاريخ الإسلامى بعد عصر النبى ﷺ وله كتاب جامع فى التاريخ تناول فيه الحوادث إلى عهد خلافة هارون الرشيد العباسى .

* **ابن سعد :** ومن تلامذة الواقدى الذين لازموه وكتبوا له ما أملاه : المؤرخُ العلامة : أبو عبدالله محمد بنُ سعدٍ بنِ منيع البصريُّ الزهريُّ المولود سنة [١٦٨هـ] والمتوفَّى سنة ثلاثين بعد المائتين من الهجرة ، وقد ألف فى السيرة النبوية وصار مؤلَّفه موضع عناية الباحثين ، ولقد كان من أبرز تلامذة الواقدى وقد ذاع صِيتُه فى الأوساط العلمية ، وهو صاحب « كتاب الطبقات » وقد لازم ابنُ سعد شيخَه الواقدىَّ يأخذ عنه ويتعلم وهو فى بغداد ، ويكتب له ما يُمليه عليه ، فقرأ ، وسمع ، وكتب ووعى وأضاف حتى صار لقبه «كاتب الواقدى»، فماذا كان من جهوده ؟

جهود ابن سعد والثناء على ثمراتها : لقد كان ومازال ابنُ سعد موضعَ ثقة العلماء والمؤرِّخين وأصحاب السِّيرِ والتراجم ، وصار كتابه «الطبقات الكبرى» رائدًا فى بابه ومدرسةً لكل راغب ، ومما زاد الثناءَ عليه أنه عالم مؤرِّخ يتحرَّى الصدق والأمانةَ والعدالة ، وأثنى عليه الخطيب وابن خِلِّكان واتفقا على أن ابن سعد « كان صدوقًا ثقة» .

منهج ابن سعد : أراد ابن سعد فى « الطبقات الكبرى » أن يخدم الحديثَ

والسنَّة ، فتحدَّث عن الرسول محمد ﷺ وعن الصحابة ، والتابعين إلى عصره . ويذكر له ابن خلكان وحاجّى خليفة إلى جانب هذا الكتاب الكبير «طبقات أخرى صغرى» .

وقد اقتفى خُطى أستاذه «الواقدى» الذى ألف كتابًا فى السيرة باسم «الطبقات» وكان تأثير مرويات الواقدى واضحًا فى كتاب ابن سعد الذى اعتمد فيه على الكثير من الموادِّ التى جمعها الواقدىُّ فى كتابه ، ونجد ذلك مما يتصل بسيرة النبى الهادى ﷺ وصحبه والتابعين .

قيمة منهجه : وإن منهج ابن سعد فى كتابه يؤكد الارتباط الوثيق بين منهج علم التاريخ وعلم الحديث منذ تلك الحقب ، إذ كان الاعتماد على السند والرواية وتحرِّى الأخبار بقصد نقد الأحاديث وتمحيصها لمعرفة الصحيح من الزائف ، ولمعرفة درجات الحديث حسب القواعد العلمية ، وقد قال بعض المستشرقين عن ابن سعد: «وإن فكرة تصنيف مُعجم للتراجم كهذا - أى الطبقات الكبرى - تدلُّ بذاتها على تطوُّر جديد فى فنِّ التاريخ ، وتؤيِّد الارتباط الوثيقَ بينه وبين علم الحديث ، إذ إن هذه الموادَّ جُمعت فى الأصل بقصد نقد الأحاديث وتمحيصها ، وقد تناولت صفةَ أخلاق النبى ﷺ ، وعلامات النبوّة ، وذلك قد مهَّد لما أنشئ بعد ذلك من الكتب فى شمائل النبى ﷺ» .

لفتة : صدرت فى الربع الأول من القرن الخامس عشر من الهجرة أول طبعة كاملة لكتاب «الطبقات الكبرى» فى القاهرة فى أحد عشر جُزءًا مُحقَّقة وقد أضيف إليها نحو (١٣٥٨) ترجمة لم ترد فى الطبعات السابقة استمدَّها المحققُ من مخطوطة للكتاب محفوظة فى مكتبة أحمد الثالث فى تركيا وقد كُتبت فى القرن السابع من الهجرة [١] .

---

(١) جريدة «صوت الأزهر» ١٦ من شعبان ١٤٢٢ من الهجرة .

رجال أخلصوا وتعبوا : لقد كان ابن سعد كثيرَ الارتحال لطلب العلم وجَمْع الأخبار وقد حضر مجالس العلماء فى حواضر النور والمعرفة فى «البصرة» وفى «بغداد» وفى «المدينة المنورة» و «الكوفة» ولم يكن له شُغل سوى ؛ لقاء الشيوخ، وكتابةِ الحديث ، وجمع الكتب ، وقد روى عن أعلام عصره من المحدِّثين ، وقيَّد مرويَّاته ، وأفاد منها فى مصنَّفاته ، وفى تأليف كتبه ، حتى وصفوه : بأنه كثير العلم كثير الحديث والرواية ، كثير الكتب ، رضى الله عنه .

إنها الجهود البانية التى أيقظت العالم من سُباته فكانوا أساتذة الدنيا ، ورواد نهضة الفكر والتفكير العلمى والبحث ، ومهَّد هؤلاء الأكابر لظهور علم قائم على أصول فنية وأسس سليمة فى «التاريخ العام» ، وتتلمذ على هذه الثمرات العلمية أهلُ الغرب وأهلُ الشرق ، وشهد لها القريب والبعيد بالريادة والأصالة والصدق .



مع علم التاريخ العام وروّاده العظام

كلمـة :

عرف التاريخُ القديم قبل ظهور الإسلام عددًا من المؤرّخين يمكن لنا أن نُحصيهم بسهولة ويُسرٍ مثل «هيرودوت » الإغريقى ، وكان بعضهم يخرج فى تصوير البطولات القومية لبلادهم إلى حدّ الخيال الجامح والذى نُسمّيه «الأسطورة» مثل «الإلياذة والأوديسّه» لهوميروس اليونانى ، فمثل هذا اللون من التأليف إنما هو من قَبيل العمل القصصى لإمتاع الخيال والأحاسيس والواقع فيه قد ذاب فى رسم صور البطولات عن طريق خيال الأديب القاصّ .

« علم التاريخ » :

تلك إشارةٌ نعود منها إلى مسيرة رُوَّاد علم «التاريخ» فى ظل حضارة الإسلام ، والذى بدأ بالعناية بسيرة النبى محمد ﷺ ؛ حيث اتجهت جهودُ العلماء منذ القرن الأول من الهجرة النبوية نحو جمع وتبويب كل ما يتصل بحياته ﷺ ، وجمع أقواله ، ووصفِ أعماله وتدوين علاقاته وتوجيهاته مع دقة التحرّى عن كل شأن من شئونه ومايتعلق بحياته منذ مولده وإلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى .

لقد نجح هؤلاء الأجلاء المخلصون نجاحًا عظيم الشأن ؛ لأن غايتهم كانت سامية وأهدافَهم كانت نبيلةً عالية يرجون خدمة الحق ، وإرشادَ الخلق ، وتوجيه المسيرة الإنسانية نحو العلا والرشاد بالاقتداء بصاحب السيرة العطرة واتخاذِ العبرة من حياته وجهاده وغزواته وأخلاقه ؛ فكيف بدأت مسيرة هذا العلم المبارك وكيف نمت؟

فمنذ القرن الأول : بدأت جهودُ المفكرين والعلماءِ تتجه إلى جمع سيرة

الحبيب الهادى ﷺ وهى حيَّةٌ فى صدور أصحابِه ، وينطقُ ويتحدَّث بكلامه أحبابُه الذين أحاطوا به ، وعرفوا دقائق حياته ، لِمَا فى ذلك من العِبَر والهداية وبيان الطريق العملى الصحيح لأمة الإسلام .

وقد ظهرت طبقة من رجال السيرة فى القرن الثانى ، ثم تلتها طبقةٌ فى القرن الثالث ، كما سبقت الإشارة إلى بعض ثمرات جهودهم ، وقد مهَّد هؤلاء السبيلَ أمام من جاء بعدهم من المؤلفين فى القرن الرابع وما بعده ، ولم تنقطع - بفضل الله - العنايةُ بالتأليف فى السيرة النبويَّة حتى عصرنا الحاضر .

إلقاء ضوء على جوانب من هذه الجهود :

بدأت العنايةُ منذ الصدر الأول بجمع الأخبار المتصلة بسيرة النبى محمد ﷺ ، وبالسؤال عن أحواله وحِفظِ ما يجرى فى مجالسه ، والعناية بكل ما تتضمنه هذه السيرةُ العطرة؛ من تشريع بَنَّاء ، وتخطيط هادف، وجهادٍ وقيادة ، وريادةٍ وقضاء ، وتربية وتعليم، وعلاقاتٍ إنسانية وأسريَّة وغير ذلك ، وكانت تلك الجهودُ هى نقطةَ البداية فى تصنيف التاريخ الإسلامى ، وعلاقات الأمة بالأمم الأخرى وغير ذلك .

وكما هو معلوم فقد كانت البداية **فى المدينة المنورة** :

أما البداية فكانت فى المدينة المنورة إذ أخذ الروَّاد من علماء الطبقة الأولى فى جمع وتبويب الأحاديث النبوية وجمع الأخبارِ المأثورة التى لها علاقةٌ بالسيرة العَطِرة قبل البعثة وبعدها ، كما عُنوا بجمع أخبار المَغازى والسَّرايا وأسبابِها ومواقعها وما أسفرت عنه وغير ذلك، كما عُنوا عناية عظيمة بأخبار الأنصار وقادتهم من الأوس والخزرج وبمواقف أهل الكتابِ والقبائل حول المدينة وبأحوال المهاجرين من قريش وغيرها، وقد سعَوا إلى جَمع الأخبار من أصحابها الذين

أدركوهم أو ممَّن عاصرهم، مثل أخبارِ أهلِ الهجرة إلى الحبشة يأخذونها من أفواههم ، كما أخذوا وقائعَ وأحوالَ الذين عذَّبهم المشركون فى مكة المكرمة وهى حيَّة على الألسنة ، وكما جمعوا الأخبار من الذين بايعوا تحت شجرة الرضوان بالحديبية ، وأخبار الفتح العظيم ممن كانوا مع الرسول ﷺ فى غزوة فتح مكة المكرمة ، ونحو ذلك من الوقائع والحوادث التى تحدَّث بها الصحابةُ رضوان الله عليهم ومن نقلوا عنهم من التابعين ، وكلُّهم كانوا أهل يقظة وأمانة وصِدق ، ولم يعرف أصحابُ رسول الله ﷺ إلا الصدق والأمانة ولم يعرفوا الكذِبَ ولا التهوينَ ولا التهويل بل عرفوا الحق ينطقون به مُجرَّدًا، ومن ذلك - أيضًا - اتجاهُ جامعى الأخبار لتدوينها إلى الأخذ عن الذين حضروا لقاءات وفودِ العرب الذين جَاءوا إلى المدينة المنورة للمبايعة أو لطلب الأمان والمُوادَعَة ، أو للحوار فى مسائل تَعنيهم، يسألونهم ويأخذون دقائق الأخبار والأحوال من أفواه شهود هذه الأمور، كما سألوا من أدركوهم من فقهاء الصحابة وعلمائهم وفقهاء التابعين من تلامذة أكابر الصحابة عن دقائق سيرته فى أهله ومع الناس ، وعن نصوص التشريع والتطبيقات التى تمت من أحكام وعقوبات وغيرها ، وماذا غيَّر الجاهليون وبدَّلوا من مِلَّة إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكانت تلك وغيرها ثروةً علمية عظيمة الشأن عاليةَ القدر بلغت أقصى غاية فى الدقَّة والأمانةِ والصدقِ فجعلوا اللاحقين يُعايشون الأحوالَ والحوادث كأنهم شهود لها ، وكانت الجهود العلمية فى القرون الثلاثة الأولى هى الأساس المَكين أمام الباحثين والمؤرِّخين .

ومن هنا بدأ علمُ التاريخ فى الإسلام، ينمو ويزدهر ويزيد شمولًا وتبويبًا **منذ القرن الرابع :**

فمع القرن الرابع يطالعنا التاريخُ بكثرة المؤلَّفات فى السيرة العطرة ، وكذلك المؤلَّفات التى تتناول ناحية خاصةً من السيرة النبوية أو من الخصائص والشمائل

المحمدية ، وهذا اللون الأخير من التأليف يمكن أن نُسمِّيه بلسان عصرنا «ترجمة مختصرة»؛ مثل الترجمة للصدر الأول من حياة الرسول ﷺ بدءًا من الإرهاصات التى سبقت مولده الشريف وانتهاءً ببلوغه الأربعين ، وهى السنُّ التى بدأ فيها نزول الوحى عليه ﷺ .

وكان لنهج ابنِ إسحاقَ فى التأليف وما جمعه فى كتابه **العظيم** ، كان لذلك الأثرُ الكبيرُ ، فقد ظهر عددٌ من المؤلفين سار على نهج ابن إسحاق فى سيرته ، فتابع الحوادثَ والأحوال والأخبار والعلاقاتِ حتى لحق الرسولُ ﷺ بالرفيق الأعلى، ولم يتناولوا ما بعد ذلك فى عهد أبى بكر الصديق ومَن بعده رضى الله عنهم.

أمَّا مرحلة ما بعد أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى : فقد ظهرت مؤلفاتٌ فى القرن الرابع وما بعده وَاصَل أصحابُها الكتابةَ فيما وقع فيها من الأحوال والحوادثِ وسائر الأمور ذاتِ الشأن فى الأزمان التى بدأت بعهد أبى بكر الخليفة الأول رضى الله عنه والسنين التى توالت بعد ذلك ، حتى صار التأليفُ فى السيرة يُمثِّل حلقةً من حلقات «التاريخ العام»، وقد بدأه بعضُ المؤرخين من بَدء وجودِ الإنسانِ على كوكب الأرض، ونجد مثالًا لذلك فى الكتاب التاريخى لابن جرير الطبرى، كما ترك لنا الإمامُ الحافظ أبو شجاع شِيروَيْه المتوفَّى فى أوائل القرن السادس [٥٠٩هـ] كتابه «رياض الأنس» وقد بدأه بحياة الرسول محمد ﷺ ، وتلك إشاراتٌ خفيفة تدعونا إلى إيراد نُبذة قصيرة عن ابن إسحاق العبقرى المثابر الذى له فضل الأستاذية على كثير ممن جاء بعده .

فمَن ابن إسحاق الأستاذ والعمدة ؟

إن «ابن إسحاق» فى نظر المؤرخِّين هو عمدة المؤرخين ، واسمه أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن يَسار عربى عراقى ، وكان جَدُّه يَسار قد رحل إلى المدينة

المنورة فى العام الثانى عشر من الهجرة ، وفى المدينة المنورة وُلد محمد فى القرن الأول سنةَ خمسٍ وثمانين، وكانت وفاته بعد عمر عامر بالعمل الجادِّ والجهد المشكور فى منتصف القرن الثانى [عام ١٥٠].

شهادة له والصدق فيها : فقد قالوا عن ثروته العلمية : «ما من كتاب تمَّ تأليفُه فى السيرة بعد ابن إسحاق إلا وهو غُرفة من بحره، ولم يستقلّ عنه إلا رجلان هما : الواقديُّ وابنُ سعد» فتأمَّل تلك الشهادةَ العلمية التى هو جدير بها .

ومن جهود ابن إسحاق فى تأليف كتابه :

ففى أول حياته فى المدينة المنورة انصرف فى شبابه إلى جمع الأخبار والقصص المتعلقة بسيرة النبى محمد ﷺ - كما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية - ثم إنه كان يبحث عن مصادر الأخبار فى كل موطن مهما كلَّفه من جهد ؛ ولذا فقد تنقَّل من بلدةٍ إلى أخرى ليسمع بأذنيه ويَعى بعقله، ويضبط بقلمه ، ويُوازن ويتحرَّى، وكانت أولى رحلاته إلى مصر ، وفى الإسكندرية أخذ عن جماعة من أهل مصر وحدَّث عنهم ، ومنهم : عُبيد الله بن المغيرة، ويزيد بن حبيب وغيرهما، وكماجاءت الإشارةُ فيما سبق فقد كان هو وتلامذتُه يسعون إلى أخذ الأخبار من أفواه المشاركين فى صُنعها أو المعاصرين لها أو الناقلين عن ذوى الصدق والأمانة ، مثل التابعين من تلامذة ابن عباس وابن عمر وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم .

ثم تراه بعد ذلك ينتقل إلى : الكوفة، والجزيرة، والرَّى، والحيرة، وفى أوائل العصر العباسى ألقى عصا ترحاله فى حاضرة الدنيا فى هذا الوقت «بغداد» عروس حواضرِ العلم والمعرفة بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق حيث الخليفةُ المنصور العباسى الذى يعرف للعلم قدره وللعلماء منازلهم ، وقد فرح بابن إسحاق لسعة علمه بأحوال وأخبار الماضين وبسيرة خاتم المرسلين ﷺ .

فِقْه الخليفة وجهد المؤرخ :

تأمَّلْ معى ما جرى لكى يتضح معنى هذا العنوان وندرك معًا عظمةَ الرجال فى ظلال نموِّ حضارة الإسلام ، حضارة العلم وكرامة الإنسان، تأمل فى مناخ الراحة النفسية والشعور بتقدير العلم والعلماء، فقد استمع ابنُ إسحاق إلى طلب الخليفة المنصور ،وهو يقترح عليه أن يقوم بتصنيف كتابٍ فى التاريخ يشمل من خلق آدمَ إلى عصر «المنصور العباسى نفسِه» وقيام الدولةِ المنسوبةِ إلى العباس بنِ عبدالمطلب عمِّ النبى ﷺ .

ثم نتأمل ابنَ إسحاق مُنكَبًّا على أوراقه يُقلِّب ويفكِّر ويكتب مستجيبًا لرغبة الخليفة ، وبعد أن أتَمَّ كتابه حمله، وذهب فى تواضُع العلماء ليبشِّر الخليفة بإتمام الكتاب بتوفيق الله وعونه .

وقلَّبه الخليفة بنفسه،وتابع صَفحاتِه، وكان للخليفة رأىٌ مع تقديره لهذا الجهد العلمى العظيم فقال : «لقدطوّلتَ الكتابَ يا ابنَ إسحاق، اذهب فاختَصِره». وتم المراد ثم صار الكتابُ النفيسُ أحدَ الذخائر العلمية فى خزانة كتب الخليفة فى قصره ببغداد .

ثقة أهل العلم : ولقد حظى هذا المؤرخ الرائدُ العالمُ بثقة صفوة أهل العلم ومنهم رجالُ الحديث والسُّنَّة النبويَّة ، فروى عنه الأئمةُ والثقاتُ ومنهم الإمام مسلم «فى الـمُتَابعات» واستشهد به الإمام البخاريُّ فى مواطن، وممَّن نقل عن ابن إسحاق أصحابُ السُّنن : أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة ، مع حدوث جفوة بينه وبين الإمامُ مالك فى المدينة بسبب مارآه الإمام مالك من انتحال ابن إسحاق لعدد من القصص والأشعار التى أذاعها فى المدينة ، وكان ذلك أعظمَ أسبابِ خروج ابن إسحاق من مسقط رأسه - المدينة المنورة - إلى مصر - دائرة المعارف الإسلامية - وواصل مسيرته ونمت خبراته.

شهادة مع نقد نزيه : قال ابن عديٌّ : «من فضل ابن إسحاق أنه صرف الناسَ عن الاشتغال بكتبٍ لا يحصل الإنسانُ منها بشيء؛ صرفهم للاشتغال بمغازى رسول الله ﷺ، وبمبعثه ، وبمبتدأ الخلق، ويكفيه هذا من الفضل» ثم قال : «وربما أخطأ - أى ابن إسحاق - واتُّهم فى الشيء بعد الشيء كما يُخطئ غيره»؛ ويوضح ذلك أن بعض أخبار ابن إسحاق لم تَسْلَم من النقد العلمى التاريخى، كما أن كثيرًا من الشِّعر الذى رواه فى كتابه ثبت أنه موضوعٌ أو منسوب إلى غير صاحبه ، ومن فضل الله فقد أخذ ابنُ هشام هذا السِّفر التاريخىَّ العظيم فهذَّبه، ثم غلب اسمُه على اسم ابن إسحاق فى هذا الكتاب ، فصرنا نقول «سيرة ابن هشام» وحين نستشهد بشىء نقول : «كما جاء عن ابن إسحاق فى سيرة ابن هشام» ونحو ذلك ، فجزاهما الله خيرًا .

فكيف كان ذلك؟



ابن هشام وسيرة ابن إسحاق

صار لقب ابن إسحاق «الأستاذ» كما سمَّاه حكيمُ المؤرِّخين «ابنُ خلدون»، كما صار لقبه لدى بعض المؤرخين : «عمدة المؤرخين هو ابن إسحاق» .

لقد جمع ابنُ إسحاق ، ودوَّن ، وربما لم تُسعفه ظروفُه لكى يُنقِّح على نحوٍ أعظمَ مما فعل ، وقد التفت غيرُه إلى بعض مواطن الخلَلِ فى بعض الروايات وفى الشعر المنسوب إلى بعض الصحابة وغيرهم وهو من وَضع آخرين ، لسبب أو لآخر، وربما كان من أسباب نسبة الشعر الرائع لفظًا ومعنًى وغايةً إلى الصحابى وهو ليس له أن تَزيده هذه النسبةُ ثقةً به لدى قارئه أو المستمع إليه فيسعد لذلك مُنشِئُه، ومع ذلك فقد وُضِعَ الشعر فى سيرة ابن إسحاق فى ميزان النقد والتمييز فجزى الله علماءنا خيرًا .

مَن ابنُ هشام : وهو رجل من حمْير - بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثه - واسمه: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِمْيَرىّ : كانت نشأتُه بالبَصرة ونورُ العلم فيها ساطعٌ كنور الشمس، ثم نزل مصرَ المحروسة بفضل الله، ووفاته كانت فى الفسطاط فى أوائل القرن الثالث [٢١٨هـ :٨٣٤م].

وكان بحرًا فى علم النحو - وإن مدرسَة البصرة فى النحو معروفةٌ ورائدة - كما كان إمامًا فى اللغة ،وله فى التاريخ عن أعلام عرب الجنوب كتاب اسمه : «كتابُ التِّيجان لمعرفة ملوك الزمان». وقد غلب اسمُ ابن هشام على سيرة «ابن إسحاق» بعد أن بذل جهدًا علميًا مشكورًا فى التهذيب والنقد والتخفيف، وأحيانًا يذكرُ روايةً أخرى لم يذكرها ابنُ إسحاق ،كما أن لابن هشام تكملةً فى الكتاب خاصة به ،وله أخبار أتى بها ودوّنها ، فصار جهده فى الكتاب عظيمًا،

وأثره واضحًا، مع حفظه حقَّ أستاذه فهو دومًا يقول فى الكتاب : «قال ابن إسحاق» . فما منهج ابن هشام فى سيرة ابن إسحاق؟

لقد شرح ابن هشام منهجه على النحو التالى ؛ فهو يبدأ بذكر إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام؛ فهو جدُّ رسول الله محمد ﷺ ، وذكر سلسلةَ الأصلابِ من «إسماعيل» حتى «عبد المطلب وابنه عبد الله». يُلقى الضوءَ على هؤلاء الآباء ، ولا يذكر شيئًا عن غيرهم من أولاد إسماعيل عليه السلام ، ثم يتناول حديثَ سيرة الرسول ﷺ ويُلغى بعضَ ما ذكره ابنُ إسحاق فى كتابه لعدم إيمانه بصحَّة بعضِ الروايات - أحيانًا - أو لضَعْف الإسناد .

قال ابن هشام فى هذا الشأن : «تركتُ بعضَ ما ذكره ابنُ إسحاق ، مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذِكْرٌ، ولا نزل فيه من القرآن شىء، وليس سببًا لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه؛ وتركت أشعارًا ذكرها ابنُ إسحاق لم أر أحدًا من أهل العلم يَعرفها» كما ترك ابن هشام أشياء يسوء بعضَ الناس ذكْرُها، وكان زيادٌ البكَّائى فى كتابه الذى نقد فيه بعضَ ما جاء من الأخبار فى سيرة ابن إسحاق من المراجع المهمة لابن هشام فترك روايات لم يُقِرّ البكَّائى - من علماء القرن الثانى كما سبق - بروايتها ، كما أن ابن هشام كان يسمع منه ويروى عنه.

واقتطاع عام : مع ملاحظة أن ابن هشام حذف أمورًا للاختصار ولتقديم نسخة تكون أكثر سهولة فى تناول القارئ لحكمة يراها بعضُ المؤلِّفين بالنظر لرؤيته لنوعية القارئين والباحثين وقد تعلَّمنا منهم ما نُسمِّيه : التهذيب أو التنقيح أو الاختصار وإعادة التبويب ونحو ذلك ؛ من ذلك : أنَّ ابن هشام استبعد من سيرة ابن إسحاق تاريخَ الأنبياء من آدم إلى إبراهيم عليهم السلام ، كما استبعد من ولد إسماعيل عليه السلام من ليسوا فى العمود النبوى، كما حذف من الأخبار ما فيه إساءة، ومن الشعر مالم تَثبُت لديه نِسبتُه لمن ذكَرهم ابنُ إسحاق؛ ثم استقصى

وزاد بما يملك من عِلم، وصارت بذلك تُسمَّى «سيرة ابن هشام» ومازالت بين أيدينا مرجعًا ذا أهمية عظيمة، وقد أخذ منها واختصرها وعَلَّق عليها أكثرُ من مؤرِّخ وعالم وأديب .

ونذكر هنا السُّهيليَّ، والخشَنيَّ : وهما مؤرِّخان عظيمان وعالمان جليلان ولكل واحد منهما تلمذةٌ على ابن إسحاق وابن هشام وقد تفردا بأمور فى نقد كتاب ابن إسحاق ، فليس ابنُ هشام وحده هو الذى قام بتهذيب سيرة ابن إسحاق بطريقته وتوجُّهاته الخاصة به، بل إن هذين الإمامين الجليلين من بين من تناولوا هذه السيرة بالتهذيب :

١ – أمَّا السهيلى (الضرير): فهو عبد الرحمن بنُ عبد الله بنِ أحمد الخثعمى السُّهَيلىُّ الأندلسىُّ المالقىُّ من علماء القرن السادس، وُلد فى وادى سُهيل بالأندلس وأقبل على العلم حتى صارت له مكانة عالية ، ثم رحل إلى مراكش بالمغرب فتولى بها القضاء وأقام ثلاث سنوات فيها ومات بها عام [٥٨١هـ] وكان ضريرًا أضَرَّ فى السابعة عشرة من عمره، وكان عالمًا بحرًا فى التاريخ واللغة والنحو والقراءات وغير ذلك، وكان عمله فى السيرة مرتبطًا بالكتابين : «سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام». واتخذ السُّهيلى لنفسه منهجًا جديدًا يتَّسم بالشرح والتعليق وقد سمَّى كتابه : «الرَّوض الأنف» وفيه تعقَّب الكتابين فيما أخبرا بالتحرير والضبط ثم بالشرح والزيادة .

ولذا جاء عملُه هذا كتابًا آخرَ فى السيرة الطاهرة بكثرة ما حواه من آراء تشهد لصاحبها بطول الباع ، وسَعَة الاطلاع، وقيل : إنه استخرجه من نيِّف وعشرين ومائة كتاب، كما ذكر الصَّفدىُّ فى كتابه «نَكْتِ الهِمْيان» الذى أشاد بهذا الكتاب .

٢ – أما الإمام الخشنىُّ فهو : مصعب بنُ محمد بنِ مسعود الجيَّانىُّ الخُشَنىُّ من علماء القرن السادس وأوائل السابع من الهجرة [٥٣٥:٦٠٤هـ]، وهو عالم

فاضل واسعُ المعرفة ، وتولَّى الخطابةَ فى مسجد إشبيلية بالأندلس، ثم تولى القضاء فى «جيَّان» ثم رحل إلى مدينة «فاس» وتولى تدريس الحديث والعربية فيها، حتى وافته منيَّته ودُفن فى «فاس». فتأمَّل السلسلةَ الذهبية للجهود العلمية العظيمة وكيف كانت تسير من مشرق أمة الإسلام إلى مغربها، وكانت تتضافر الجهود من أجل إثراء حياة الإنسان بالعلم النافع والصِّدق والدِّقَّة فى التحقيق والتنقيح والشرح والزيادة .

عمله فى السيرة : وجَّه الخشنىُّ عنايته لمزيد من التنقيح والضبط فى سيرة ابن هشام ، وله كتاب فى «شرح غريب سيرة ابن إسحاق»، ولفتَ إلى ما رآه خطأ، ونستطيع القول بأن عمله العلمى جاء مُتمِّمًا لعمل السُّهيلى فى تنقيح عمل الرائدين «ابن إسحاق ثم ابن هشام» وهمامذكوران دومًا بالفضل، بل إن علم اللاحق منهم وعمله جاء متممًا ومُضيفًا لعمل السابق مع التقدير والتكريم وحِفْظ المَقام ، مِمَّا أثرى مكتبة السيرة والمغازى والتاريخ العام بما لم يكن لأحد من الأمم قبلهم عهدٌ به ولا سبقٌ إليه .

فهل وقف الأمرُ عند هذا الحدِّ فحسب؟ لا .. فقد واصلت الجهودُ العظيمة المسيرةَ لمزيدٍ من العناية بسيرة «ابن هشام» التى صارت العمدة بعد سيرة «ابن إسحاق» : ففى القرن السابع ظهر كتاب «الذخيرة فى مختصر السيرة» للعلامة بُرهان الدين إبراهيم الشافعى وقد فرغ منه سنة [٦١١هـ] ، ثمَّ ظهر كتاب «مختصر سيرة ابن هشام» للعلامة عماد الدين أبى العباس أحمد الواسطى وفرغ منه عام [٧١١هـ].

والسيرة المنظومة : كما ظهرت السيرةُ فى قالب جديد يُسهِّل الحفظَ عن طريق موسيقى العروض والقوافى، فنظمها من علماء القرن السابع كل من : أبومحمد عبد العزيز بن محمد الدُّمِيْرى المتوفى عام [٦٠٧هـ]، ثم أبو نصر الفتح

ابن موسى الخضراوى المتوفى عام [٦٦٣هـ]، وفى القرن الثامن نظمها : أبو بكر محمد بن الشهيد المتوفى عام [٧٩٣هـ].

وهكذا صارت سيرةُ ابن هشام مصدرًا رئيسًا لمن جاء بعده حتى عصرنا الحاضر - القرن الخامس عشر من الهجرة - ولقد تناول السيرةَ العطرة مئاتٌ من العلماء والباحثين والمؤرِّخين والمترجمين فى الشرق وفى الغرب، وكانت البداية فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى .

فائدة ولفتة: وكُتب المناقب والخصائص : وتجدر الإشارة هنا إلى ظهور كتب متخصِّصة تتناول المناقب الشريفةَ والخصائصَ العظيمة والأحوال التى كان عليها الهادى الحبيب ﷺ ولنا من كل ذلك عِبرٌ وعظات وقدوة حسنة ، من ذلك كتاب «الوفا بفضائل المصطفى» وهو مطبوع فى مجلدين للإمام الفقيه المؤرّخ النحوى الواعظ الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى البغدادى المتوفّى عام [٥٩٧هـ] وله تآليف فى مناقب عدد من الصحابة والتابعين وأهل الفضل. ومن كتب **المناقب والخصائص** كتاب : «المواهب اللّدنيّة بالمِنَح المحمدية» ، فى ثلاثة أجزاء كبار للإمام أحمد بن محمد القسطلانى المصرى المتوفى بالقاهرة عام [٩٢٣هـ :١٥١٧م][1] وقد تناول جوانب كثيرة من السيرة الهادية تجعل القارئ يعيش كأنه يرى ويسمع مع العناية بالخصائص والأخلاق الشريفة الكريمة وما منح الله خاتم رسله من المواهب العظام ، ومع شرح الإعجاز الذى دانت له عقولُ أهلِ الفطنة وأفهامُهم سواء الإعجاز من سيرته وشخصيته والإعجاز فيما جاء به من عند ربه ، ولو خلا هذا الكتاب النفيس من جَمْع بعض

---

(١) وقد شرحه فى سبعة أجزاء كبار تحت «شرح المواهب اللّدنية» فضيلة الشيخ الفقيه المالكى محمد بن عبد الباقى بن يوسف الزُّرقانى المصرى الأزهرى المتوفى عام [١١٢٢هـ : ١٧٢٠م] وقد وُلد فى القاهرة ومات بها وعلى ما اعتاد العلماء منذ العصر المملوكى تجد هذا الكتاب دائرة معارف فى : الفقه واللغة والبلاغة والأدب والإشارات التاريخية والسيرة الهادية فهو مدرسة لمن يُحسن التدبر والانتقاء .

الأحاديث الموضوعة والضعيفة جدًّا وبعض شعر وكلمات الغلاة ، وقد سردها القسطلانى سردًا مع إمكان الاستغناء عنها دون إخلال بالمقصود ، ولو خلا من هذا لكانت نفاسة هذا الكتاب ودقته أعظم.

ومن المختصرات فى عصرنا للتذكرة :

كتاب : «محمد نبيُّ البِرّ» المختار من «سيرة ابن هشام» اختاره وحققه الأستاذ إبراهيم الإبيارى ، وصدرت له طبعة فى سلسلة «كتب الشعب» فى القرن الرابع عشر من الهجرة ، ومن الكتب التى صدرت قبله باتِّجاه عصرى متأثِّر بطرق التحليل الحديث والمقارنات والردّ - أحيانًا - على شُبهات الغربيين بأسلوب علمى مُنظَّم كتاب : «حياة محمد» للدكتور محمد حُسين هيكل «باشا» وكان رئيسًا لمجلس الشيوخ المصرى فى فترة من [القرن الرابع عشر من الهجرة : العشرين من الميلاد]، وحظى هذا الكتاب بطبعات متعددة .

كما أن له كتابًا بعنوان «فى منزل الوحى» جمع بين التأمُّل والسيرة والأخبار بعد عودته إلى مصر من رحلته إلى الأرض الحجازية .

وهكذا كانت العناية بالتأليف فى السيرة عملًا رائدًا ليس لأمة من الأمم مثله وقد جاء التأليف فيها على هذا النحو الرائع الدقيق فى جميع مراحله مِمَّا أثار إعجاب الباحثين من الشرق والغرب وطوَّر مناهجهم وطرقَ تفكيرهم فى التأليف التاريخى، كما أدت تلك العنايةُ بالسيرة وبرجال الحديث - وهم رواتُهُ - إلى أن يتَسَلَّم أهلُ القرآن رايةَ الريادة لعلم التاريخ العام .

وفيما يلى إشارات إلى جهود عدد من العلماء والمؤرِّخين الروَّاد فى هذا الميدان العظيم منذ القرن الثالث من الهجرة .



البلاذرى واليعقوبى والطبرى والمسعودى
من الروَّاد فى التاريخ والجغرافيا من نجوم القرن الرابع

تنوُّع الاتجاهات فى التأليف :

كان للعلماء فى ظلال حضارة الإسلام عنايةٌ عظيمة بالتأليف فى التاريخ، واعتبروه من أنفع العلوم وأمتعها، ومنذ القرون الأولى من ظهور الإسلام صدرت مؤلَّفات كثيرة فى «التاريخ العام» وقد أعطوْها عناوينَ مختلفة تُرشد إلى المحتويات.

وقد ظهرت فى ظلال هذه الحضارة العظيمة طبقاتٌ عديدة من المؤرخين العرب والمسلمين، نهضوا بهذا العلم، وكانوا أساتذة وَرُوَّادًا لأبناء الأمم الأخرى وقد بدأ الاشتغالُ بجمع الأخبار وتدوين الوقائع وسَردِ التاريخ والسِّيَر منذ أواخر القرن الأول، وفى القرن الثانى ظهرت طبقةٌ عظيمة من المؤلفين صرفَت جهودها إلى سيرة رسولِ الله ومَغازيه ﷺ، ومنهم من بدأ كتابه بتقصِّى أحوال الإنسان منذ بَدْءِ الخليقة – كما سبق بيانه – وأعانهم على ذلك القصصُ القرآنى ثم الجهود التى بذلوها فى جمع الأخبار وتقصِّى الحقائق والرجوع إلى المصادر.

تاريخ العالم: ومنذ منتصف القرن الثالث من الهجرة ضاعف العلماءُ الجهودَ فى ميدان التأليف التاريخى بمعناه الأعمِّ، وهو الذى يبدأ منذ نشأة الخليقة، ويقدم تاريخَ العالم فى إيجاز أو على نحو من الإسهاب ، ثم يجعله مقدِّمة لتاريخ أمة الإسلام ذاتها ، وكان لابن إسحاق فى «سيرته» الفضلُ فى توجيه جهود من جاء بعده للتوسُّع فى تناول «التاريخ العام» .

أولا : «تاريخ البلاذرى» :

وفى القرن الثالث ظهر العلامة «أحمد بن يحيى البلاذرى» صاحب الكتاب المعروف باسمه، وهو كتاب «الأنساب والأخبار» كما أنه يأتى تحت اسم : «أنساب الأشراف» وقد اشتمل على تاريخ العرب فى جاهليتهم، وفى إسلامهم، متتبعًا الأخبار والأحوال إلى العصر العباسى الأول .

منهجه والجديد فى هذا الكتاب : لم يرتِّب البلاذرى الحوادثَ والأخبار على سِنى الهجرة الشريفة، أى لم يَتَّبع التسلسُل الزمنىَّ فى ترتيب الكتاب، وإنما اتبع : «أنساب قبائل العرب» فإذا تحدَّث عن رجل من النابهين ذى مكانة فى قومه سرد خبره وما قيل فيه من الشعر، وإن كان له شعرٌ سجَّل منه شواهد له، وهكذا، وإذا تحدَّث البلاذرىُّ فى كتابه عن خليفة من خلفاء المسلمين وسرد سيرته فإنه يُضيف إلى ذلك الحوادثَ التى وقعت فى وقته .

وهذا الكتاب أوسع من كتاب «الطبقات» لابن سعد، ويُعدُّ مرجعًا ذا قيمة عالية للباحثين فى «السيرة النبوية وفى أنساب البطون القرشية»؛ أى البطون المتفرعة عن القبيلة، ويجد فيه الباحث معظم أنساب «مُضَر». بل إنه مرجعٌ للأديب واللغوى ولـمُؤرخ الأدبِ، إلى جانب أنه مرجعٌ للمؤلفين فى السِّير .

إشادة : والفطاحل الذين رجعوا إلى هذا الكتاب فى أعمالهم العلمية والأدبية واللغوية أشادوا به وتحدَّثوا عن فضله ومنهم : المسعودىُّ فى «مروج الذهب» والشريفُ المرتضى فى «الشافى» وابنُ عساكر فى «تاريخ دمشق» وابن الأثير فى «الكامل» وغيرهم .

شهادة عالم أجنبى : أشاد بالبلاذرىِّ العالمُ المستشرق «دى خويه» فقال : «إن البلاذرى جدير بالتصديق؛ لأنه لم يكتفِ بالسماع من أوثق علماء بغداد،

وإنما كان يتكبّد الأسفار ويجوب البحار بحثًا عن الحقيقة التى هى ضالّته المنشودة » .

«كتاب فتوح البلدان» للبلاذرى :

وإن هذا المستشرق الهولندى «دى خويه» عُنى بنشر كتاب البلاذرى المسمى: «فتوح البلدان» لقيمته العلمية العالية فى التاريخ وفى الجغرافيا؛ لأنه يجمع بينهما فصارت له ريادة عظيمة، وقد تمت ترجمتُه إلى اللغة الإنجليزية فى القرن العشرين بعد أن نشره «دى خويه» فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والذى نهض بترجمته رجلٌ مرموق وهو «الدكتور فيليب حَتّى» .

ثانيًا : اليعقوبى والتاريخ العام :

وهو أيضًا من علماء القرن الثالث وتُوفِّى فى الفترة التى توفى فيها «البلاذرى» وهى الربع الأخير من هذا القرن .

وهو : أحمد بن جعفر، المعروف «باليعقوبى» ولقَّبوه : «بالعباسىّ» وله «موسوعة تاريخية» نهج فيها نهجًا فريدًا، لأن كتابه هذا شمل سكان الشمال، وشمل أهل الصين، ومن كتبه الشهيرة «كتاب البلدان» وفى هذا الكتاب وفى مثله – أيضًا – من مؤلفات «البلاذرى» بدأت الخطواتُ الأولى فى علم «الجغرافيا» وهو علمُ الروّاد من علماء المسلمين يقول الدكتور زكى محمد حسن : «إن قارئ «كتاب البلدان» يشعر بأنه أمام كتاب رائد : لعمال الحكومة الموظفين فى مختلف أنحاء الدولة الواسعة الأرجاء، ولغيرهم من التجار، والرحّالة الذين يحرصون على أن يعرفوا شيئًا عن البلاد التى يُزمعون الرحيل إليها ، كما يجد فيه الباحثُ أوصافًا وأخبارًا تدلُّ على أن اليعقوبى رأى بنفسه معظم ما عرض للكتابة فيه» .

إن نفاسة هذا الكتاب وقيمتَه العلميةَ العالية من الناحيتين «التاريخية والجغرافية» حدت بالعلماء الأجانب إلى ترجمته إلى مختلف اللغات؛ تلك نماذج من القرن الثالث :

القرن الرابع : فإذا انتقلنا إلى القرن الرابع فإنه لابدَّ من وقفة أمام الكتاب الذى طار صيتُه فى الآفاق شرقًا وغربًا، وكانت له ريادةٌ وسلطانٌ على العلماء والباحثين وهو كتاب : «تاريخ الأمم والملوك» ومؤلفه أشهرُ من نارٍ على عَلَم وهوالعلامة الموسوعى ابن جرير الطبرى .

ثالثًا : «محمد بن جرير الطبرى» وتلميذه «المسعودى» :

وقد حوى كتابُه النفيسُ : تاريخَ الشرقِ قبل الإسلام وبعده حتى أوائل القرن الرابع من الهجرة فقد كانت وفاته فى عام [٣١٠هـ]، وتلك هى أزهى وأعظم فترات «الحضارة الإسلامية» من جميع النواحى، ويقع تاريخُ ابن جرير الطبرى فى «إحدى وخمسمائة وألفى صفحة» فما بالنا إذا قال بعض المؤرِّخين : «إن القَدر الذى وصلنا من هذا الكتاب الشامل هو ما يوازى العُشر من الكتاب الذى كتبه الطبرى» ، أما قيمته العلميةُ وكونُه أساسًا يرجع إليه الباحثون فأمرٌ مألوف وشهير، وممن أخذ منه العلامة « المسعودى» المتوفى عام [٣٤٥هـ].

فماذا نعرف عن المسعودى؟ لقد عاش فى أزهى العصور العلمية والحضارية فى تاريخ بنى الإنسان حيث ازدهر الأدبُ وفنونُه ، وتوسَّعَت الآفاقُ العلميةُ ، وبرز عباقرةٌ فى كل فنٍّ وعِلم، فتتلمذ المسعوديُّ على الفطاحل، وصار جهبذًا رائدًا .. فمن هو ؟: هو : أبو الحسين عليُّ بنُ الحسين المسعوديُّ من علماء القرن الرابع، وهو الرحَّالة الجغرافى من الطراز الأول، وهو فى التاريخ تلميذ نابه للعلامة ابن جرير الطبرى، وعالمٌ رائد، ومحقِّقٌ عظيم الشأن، وله فى التاريخ كتبٌ ورسائلُ تشهدُ له بسعة الأفق والمعرفة بتاريخ الأمم .

ثناء من الشرق ومديح من الغرب : أثنى عليه المؤرخ العظيم «ابن خلدون» ومنحه لقب «إمام المؤرخين» ومدحه «فون كريمر» فسمَّاه «هيرودتس العرب» ولكن أثر المسعودى أعظم وأوسع بكثير من الأثر الذى تركه المؤرخ القديم «هيرودوت اليونانى» الذى ظهر فى القرن الخامس قبل الميلاد .

وعن مؤلفاته فإن له كتابَ «أخبار الزمان» فى ثلاثين مُجلَّدة وصل منها مُجلدةٌ واحدةٌ، وكانت تُوجد فى مكتبة «فيينا» الأهلية، وله رسائل أخرى فى التاريخ .

قد وضع المسعوديُّ تاريخًا عامًّا شاملًا للإنسانية منذ بدء الخليقة حتى الربع الأول من القرن الرابع، وعالج أمورًا متعددة بصدق وأمانة علمية دون تحيُّز حتى قال الأجانب : «إن كتب المسعودى يقرءوها المسلمون والأوربيون على السواء لِمَا فيها من متعة وَرُوَاء؛ ولذا استحق لقب «هيرودتس العرب» ومنذ القرن الثامن عشر من الميلاد والملأُ العلميُّ فى أوربا له عناية شديدة بالمسعودى وبكتبه ، كما أن له رأيًا عاليًا فى علمه وشخصيته .

رابعاً : ومن ابرز الرواد فى فن التراجم المؤرخ الأديب «الجهشيارى» :

والجهشياريُّ : صاحب أعظم كتاب فى التراجم للوزراء والكتَّاب «رؤساء الدواوين» وكان من المرموقين فى القرن الثالث والرابع من الهجرة ، إنه المؤرخ العظيم، وأحد الرُّواد الأكابر فى فن التراجم ، وأتى بما لم يسبقه إليه أحدٌ ، وهو الترجمة للوزراء وكُتَّاب الدواوين «الرسمية» فى عهد الدولة الإسلامية إلى القرن الثالث من الهجرة النبوية: وقال محققو الكتاب فى ذيل الصفحة رقم (٣٢٠) « انتهى ما وُجد من كتاب الوزراء والكُتَّاب للجهشيارى وقد انتهت الصفحة الأخيرة بأخبار المأمون الخليفة العباسى وعهده» وفى مقدمة الكتاب قالوا : «وقد خلت فهارس خزائن الكتب المعروفة من كل كتب الجهشيارى فلا يوجد منها

شيء إلا هذه القطعة التى ننشرها اليوم من كتاب «الوزراء والكتاب» مما يدل على أن الكتاب لم يصل إلى عصرنا كاملًا كما ضاع غيره من كتبه .

وهو : محمد بن عبدوس الجَهشيارى ، وكُنيتُه أبو عبد الله، نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى بغداد، وكانت وفاته سنة [٣٣١] من الهجرة ، وهو من طبقة (ابن جرير الطبرى المتوفى [٣١٠] من الهجرة، والمسعودى المتوفى [٣٤٥] من الهجرة) .

وإن كتاب ابن عبدوس الجهشيارى وهو «كتاب الوزراء والكتاب» يعد من أدق المصادر فيما تناوله، ولذا قد صار هذا الكتاب موضعَ عناية المستشرقين ومنهم : (ن - س - دونياك) الإنجليزى، الذى شارك بالرأى والخبرة فى إخراج الطبعة العربية الأولى، وقد عكف عليها ثلاثة من أفاضل أهل العلم والتربية والأدب ، الأساتذة : مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى، وذلك فى عام [١٩٣٧] من الميلاد بالقاهرة ، وكتابه هذا من أقدم المصادر التاريخية وأشهرها وأبدعها فى بابه، ويدلُّ على سعة اطلاعه ودرايته بكتب الذين سبقوه من مؤرخى العربية، وإن الأخذ والعطاء من سنن التأليف ومن أسباب النموّ والازدهار .

اتجاهاته : لقد تحدَّث فى كتابه هذا عن فنِّ «كتابة الإنشاء» أى الرسائل الديوانية الرسمية ونحوها، وذلك منذ قيام الدولة الإسلامية فى عهد النبى محمد ﷺ ثم فى عهود الخلفاء من بعده حتى عصر المأمون الخليفة العباسى [القرن الثالث] لأن الكتاب لم يصل إلى المحققين كاملًا، وقد أشار إلى ضياع كتب الجهشيارى المستشرق «بروكلمان» فى ملحق كتابه «تاريخ الآداب العربية»، فصار هذا الكتاب لدقته وشموليته فى بابه من أعظم المصادر التى نقل عنها المؤرخون والباحثون من بعده .

وهو إلى جانب أهميته من ناحية التاريخ السياسى وبعض جوانب الحياة الاجتماعية وما تدُلُّ عليه كثرةُ الفتن فى عصر الدولة العباسية، فإن هذا الكتاب يعد أيضًا أحدَ أهمِّ المصادر للتاريخ الأدبى، ونُظم الدواوين الرسمية.

لفتة : وهذا كتاب اسمه «وصف مصر» جمع بين التاريخ والمناقب والجغرافيا الوصفية والاقتصادية مع صغر حجمه، ومؤلفه هو : الأديب «عمربن محمد بن يوسف الكندى المصرى» القرن الرابع من الهجرة وكان ذلك بتوجيه من «أبى المسك كافور الإخشيدى» المتوفى سنة [٣٥٧هـ] ويقع الكتاب فى (٦٣) صفحة من الحجم المتوسط ، ونال تقدير أفاضل المؤرخين والجغرافيين فاستشهد منه كل من : السيوطى فى «حسن المحاضرة» والقلقشندى فى «صبح الأعشى» ، والنويرى فى كتابه «نهاية الأرب» ، ونجد فى كتاب «النجوم الزاهرة» بعض فقرات يقول فيها مؤلفه «ابن تغربردى» : «قال الكندى» . ثم يستشهد من هذا الكتاب، وكذلك فعل المقريزى فى خططه .

إنه كتاب غايةٌ فى ذكاءِ اختياراتِهِ وإشاراتِهِ ، ودقيقٌ فى إيجازِه فَنَّ الحديثِ عن تُربة مصر وآثارها ومواردها الاقتصادية زراعية وحيوانية ، وفيه لمحات غاية فى الذكاء لتاريخها المرتبط بالأديان السماوية ، فمع الدقة العلمية والوصْفيَّة نجِدُ الإيجاز المفيد الواضح.

ولفتة : وفى القرن الثانى تم تأليف ترجمة للخليفة عمر بن عبدالعزيز تحت اسم: «سيرة عمر بن عبدالعزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه» والمؤلف تلميذ للإمام مالك هو العلامة الفقيه المالكى المصرى: «أبو محمد عبدالله ابن عبدالحكم» المولود فى الإسكندرية سنة [١٥٠ أو ١٥٥هـ] والمتوفى بالقاهرة سنة [٢١٤هـ] وهو يجاور الإمام الشافعىّ فى مقبرته بعد أن صحبه زمنًا .

كتابٌ عظيمُ النَّفْع :

وهذا الكتاب مع صغرحجمه يُعَدُّ وثيقة تاريخيةً ونفسية وحضاريةً دقيقة ، وقد صارت مصدرًا عظيمًا للمؤلفين ، وهو فى نحو (١٣٠ صفحة) دون الفهارس والمقدمات ، وكانت له مخطوطة فى مكتبة باريس وأثنى عليه النويرى فى كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» ثناءً عظيمًا .



من طبقة المؤرّخين والرحّالة المُحققين

فى القرنين الخامس والسادس ولمحات من جهودهم

كلمة وتحية :

إن الثروة العلمية فى ميدان التأليف فى السيرة الشريفة وفى التاريخ العامّ ووصف البلدان على مدى القرون الستة الأولى من الهجرة النبوية لتشهد لعلمائنا بغزارة المعرفة وتحرّى الحق وبالصبر والدأب فى جَمْع الأخبار ومعرفة الطبائع والأحوال، وإن كلَّفهم ذلك بذلَ الجهد والمالِ ومشقَّةَ السفر ولو بعُدت المسافات.

وفى القرنين الخامس والسادس وَاصَل العلماءُ جهودهم، وإن كل طبقة كانت تأخذ الأساسَ والخبرة مما قبلها ثم تفتح آفاقًا جديدة ؛ من حيث الجديدُ من الأخبار والأحوال، أو الصقلُ والتهذيبُ والتنقيةُ والتنقيحُ مع ظهور مناهج بحثية تُرينا تفاوتًا لابدَّ منه بين عالم وآخر، ولو كان اللاحقُ تلميذًا لمن سبقه، فتبرُز كلُّ شخصية من هؤلاء العلماء عملاقة لاغنى لباحث عن ثمرات جهودها ، مع توافر الإخلاص والرغبة لديهم فيما عند الله من الرحمة، والتبرُّؤ من حول الإنسان وقُوَّته واستمدادهم العونَ من الله وحده، وسؤاله المغفرة من الخطأ والزلل إذا وقع ، فليس ذلك من نيَّاتهم ولا مقصودهم، وإنما الكمالُ لله وحده والعصمةُ لرسله وأنبيائه .

ولنتدبر بعض هذه الجهود وثمراتها :

١ - كتاب «تاريخ الهند» لأبى الرَّيحان البيرونى :

هذا الكتاب صار عمدة فى بابه، وكان أشبه بمفتاح للقارة العريقة؛ نقل فيه

مؤلِّفه «البيرونى المتوفَّى عام [٤٤٠] من الهجرة [١٠٤٨] من الميلاد» العالم المدقِّق معلومات صحيحةً عن الهند لم يتوصَّل إليها أحدٌ قبله،وكانت أخباره عن الهند وأحوالها ثمرةَ رؤية بالعين، وتحليلٍ بالعقل، ومخالطةٍ للناس هناك، بعد أن وصل إليها ، وقضى فيها أكثر من أربعين عامًا ، يتجوَّل فى نواحى الهند، ويتعلم لغات أهلها، ويخالطهم، ويأخذ منهم ، ويدرسُ علومَ الهند وآدابها وتلك مرآةُ تاريخها وثقافتها كسائر علوم الأمم وآدابها ، لقد صار العالم «أبو الريحان محمد ابن أحمد البيرونى» أوسعَ علماء عصره اطلاعًا على تاريخ الهند ومعارفها ، فصار كتابه «تاريخ الهند» – وهو مطبوع تحت عنوان : «تحقيق ما للهند من مقُولة مقبولةٍ فى العقل أو مرذولة» – عمدةً للباحثين فى الشرق وفى الغرب، ومنهم المستشرق «سميث» يأخذون عن الكتاب عادات الهنود، ولغاتهم، ورياضة الهند وعلوم علمائها، وقد ترجم هذا الكتابَ المستشرقُ «سخاو» إلى الإنجليزية فى أواخر القرن التاسع عشر من الميلاد.

٢ - « أسامة بن منقذ » :

وفى القرن السادس من الهجرة ظهر عالم بحَّاثةٌ فى الجغرافيا الاقتصادية وفى التاريخ بشمالى سوريةَ وهو : «الأمير أسامةُ بن مرشد من بنى مُنقذ» وصاحب كتاب: «الاعتبار» الذى سجل فيه أخبار رحلتِه التى طاف فيها، بمصر، وبالشام، وبلاد الجزيرة، وبلاد العرب، ويُعتبر كتابه «الاعتبار» وثيقةً إعلامية وإخباريةً لِـمَا جرى فى فترة الحملات الصليبية فى القرن الثانى عشر من الميلاد، فقد رأى بنفسه، وجمع الأخبار، وشاهد الأحوال، وانفعل للحوادث، فجاء كتاب «الاعتبار» غنيًا بأخبار القتال بين جيوش المسلمين والمعتدين الأوربيين وثريًّا بوصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الأمة العربية .

وامتاز منهجه بالدِّقَّة فى أخباره وأوصافه وما أبداه من آراء وانطباعات مع

الصدق فى الرواية وعدم التهويل مما جعل لكتاب «الاعتبار» مكانة علمية مرموقة.

قال الدكتور المهاجر فيليب حتّى : «ومذكراتُ ابنِ منقذ الموسومةُ بكتاب «الاعتبار» مرآة تتجلّى فيها المدنيةُ الشامية فى أجلى مظاهرها». وقوله : «مذكرات ابن منقذ» يشير إلى أنه كتاب يدلنا على المنهج العام للمؤلف ، وهو الذى يجمع بين أدب الرحلات والرؤية المباشرة والانطباعاتِ الشخصية المُتَّسمة بالدقة العقلية، فهى مشاهدات عالم فقيه دقيق النظر .

المخطوط الأصلى : وإن المخطوط الأصلى لكتاب «الاعتبار» وُجد فى مكتبة «أكسفورد» بلندن، ونسخة أخرى من هذا المخطوط كانت فى مكتبة «الأوسكوريال» بأسبانيا، وقد نُشر هذا الكتاب فى «ليدن» فى أواخر القرن التاسع عشر من الميلاد، وقد نشره فى الولايات المتحدة الأمريكية المغتربُ العربىُّ الدكتور «فيليب حتّى» فى القرن العشرين، وطبعه فى مطابع جامعة «برنستون» .

٣ - « ابن الأثير » :

وفى أواخر القرن السادس وأوائل السابع برز فى ميدان الفكر والنظر العلامة المحدِّث المؤرخ النسَّابة المعروف بابن الأثير الجزَرى، وهو : عز الدين أبو الحسن علىُّ بن أبى الكرم محمد بن محمد الشّيبانى، ولفظ «الجزرى» نسبة إلى جزيرة «ابن عمر» فوق الموصل بالعراق [٥٥٥:٦٣٠] من الهجرة.

دائرة معارف فى الأنساب والأيام : كان ابنُ الأثير أعلمَ الناس بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم، وكان حافظًا للحديث عالمًا بالسُّنَّة الشريفة جَمَع فى وعيه وعقله تُراثَ الذين سبقوه فى التاريخ والأخبار وقرأ معظم ما كتبوه، وكان طالبَ عِلم صبورًا مجتهدًا فسمع من علماء عصره بمدينة الموصل، ثم رحل لطلب العلم والجمع وقائع التاريخ والأخبار، وكان أعظم غاياته طلب المزيد من العلم والمعرفة والتدوين والحفظ .

ومن مؤلفاته التى لا غنى لباحث عنها : كتاب : «اللُّباب فى تهذيب الأنساب» وهذا الكتاب مختصرٌ لكتاب «الأنساب» للعلامة السمعانى، أمَّا كتاب « أُسدُ الغابة فى معرفة الصحابة» لابن الأثير فإنه يُعدُّ مرجعًا قيمًا فى تاريخ وأحوال صحابة رسول الله ﷺ . وله أيضًا «تاريخ الدولة الأتابكية» .

ومن أعظم أعماله التى قامت عليها شهرتُه ومنزلتُه العلمية كتابُه «الكامل» فى التاريخ، وقد جمع فيه أخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، وبدأه منذ أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين بعد الستمائة من الهجرة (٦٢٨)، وكان ذلك قبل وفاته بسنتين اثنتين ، وقد ظفر كتاب « الكامل » بعناية كبيرة من المؤرخين العرب والأوربيين ، وكان مرجعًا مهمًّا لهم فى تاريخ الحملات الصليبية التى عاصر «ابنُ الأثير» بعضَها حتى وفاته، وقد دوَّن ما علمه من أمورها، ونقلت عنه كتبُ تاريخ العصور الوسطى الشيءَ الكثير .

أما كتابه «أُسْد الغابة فى معرفة الصحابة» فإنه من أنفس الكتب، ومن أعظمها دلالة على صبر ابن الأثير ودقته وعمق تفكيره،وقد جمع فى هذا الكتاب التعريف بسبعة آلاف وخمسمائة وأربعة وخمسين صحابيًّا (٧٥٥٤) ممن عاصروا رسول الله ﷺ وترجمَ لهم جميعًا، وروى كلَّ ما وصل إلى علمه وحقَّقه بنفسه من أخبارهم وأحاديثهم ، وكان أعظم مَراجعِه ومصادره فى كتابه تاريخ الصحابة ماتركه كلٌّ من الآتى ذكرهم وهم : الحافظ أبو موسى محمد بن أبى بكر بن عيسى، والحافظ أبو عبد الله بن منده، والحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، وهؤلاء الحفاظ الثلاثة من أصفهان بإيران .

أما الرابع فهو : الإمام أبو عمر بن عبد البرّ القرطبى .

وكانت طريقته فى النقل عن هؤلاء الأربعة أن يأخذ من كلامهم أجْوَدَه، وما تدعو إليه الحاجة - كما قال عن منهجه -.

طريقته فى الأخذ عن السابقين : وتأثير المؤرخ العظيم «ابن جرير الطبرى» وغيره من المؤرخين الذين سبقوا ابن الأثير الجزرى واضحٌ فى مؤلفاته ولكن ابن الأثير لم ينقل عنهم الحوادثَ على عِلّتها، وإنما كان يختار منها ما يَتَثَبَّتُ منه، ثم يؤلِّفه تأليفًا جديدًا بما يُضيف إليه، حتى صار كتابه ذا طابع يدل على شخصيته العلمية والمنهجية والموسوعية .

ونرى فى مؤلفاته الخطوات الأُولى لما نُسمِّيه «فلسفة التاريخ» وإن لم تتحقق لديه على الوجه الأتمِّ، ذلك أنه كان يَنقُد ما ينقله، ولم يكن ينقل إلا كل ما رآه صوابًا، كما كان يرفض ما يراه غيرَ موافق للعقل من الروايات التاريخية .

ملحوظة : عِلمًا بأن فلسفة التاريخ بلغت درجةَ نضوج عالية ووضح منهجها على يد العلامة المؤرخ «ابن خلدون» فيما بعد، على نحو صار به أستاذًا ورائدًا لعلم التاريخ المرتبط بالبيئة والمجتمع وسائر المؤثِّرات فى الحدَث التاريخى، وإن جذور منهج ابن خلدون وُجدت لدى ابن الأثير وغيره ممن سبقوه حتى كان النُّضج على يد ابن خلدون - كما سنرى فى ترجمته .

وهذه شهادة لابن الأثير يقدِّمها العلامة الدكتور «عبد الحميد العبادى» يقول فيها: «ابن الأثير مؤرِّخ يمتاز بشدَّة التثبُّتِ فيما ينقل، بل قد يسمو أحيانًا إلى نقد المصادر التى يستمدُّ منها، ولابن الأثير استدراكاتٌ وجيهةٌ على الطبرى وعلى الشهر ستانى «صاحب المِلَل والنِّحَل» وغيرهما من العلماء والمؤرخين الذين نقل عنهم» .

ومن منهج ابن الأثير فى التحقيق، أنه كان يسعى إلى التحقُّق من صحة الأخبار، ومن الأحاديث عن طريق مراجعتها فى ستةَ عشرَ مُؤلَّفا لأعلام جامعى أحاديث رسول الله ﷺ وحُفَّاظه، وكذلك يستعين بما قاله مفسرو القرآن الكريم .

ومن مراجعه ومصادره : صحيحُ البخارى، وصحيحُ مسلم، ومسند الإمام

أحمد بن حنبل، وغيرها من المراجع العظيمة .

التفاتة : رضى الله عن العلماء الأعلام العاملين الذين أناروا الطريق للإنسان وبصَّروه بعبر الحوادثِ وأحوال الأمم، ومنهم – أيضًا على سبيل السَّرد – الطبقة التى تلت هذه الطبقة مثل : ابن الجوزى الحنبلى، وابن عساكر الشافعى، والقفطى، وابن أبى أُصَيبعة الطبيب صاحب أحد أعظم الكتب فى التاريخ التخصصى، وابن خِلِّكان، والقَزوينى، وأبو الفداء إسماعيل بن كثير، وغيرهم وهؤلاء هم صفوة طبقة أعلام المحققين فى أواخر القرن السادس والقرن السابع .

أما القرن الثامن فيُعتبر قرنَ «الموسوعات أو الـمُوَسَّعات العلمية» التى كان أعظمَ غاياتها الجمعُ من الصدور والصُحف ومن المخطوطات والقيامُ بالتدوين ، وذلك للحفاظ على تراث الأمة العظيمة التى قامت بأعظم الأعمال فى كل ميادين الحياة العقلية والروحية والعمرانية ، وأصحابُ هذه الـمُوسَّعاتِ عملوا على إنقاذ أقصى ما يمكن إنقاذُه من العلوم والآداب والشعر والنثر وفروع العلم والفكر المتعددة بعد أن تـمزَّقت الأمةُ ، وطمع فيها «المغولُ» من الشرق يُدمِّرون ويحرقون خزائنَ الكتب ، أو يجمعونها ويطرحونها فى الأنهار ، والأوربيون الحاقدون من الغرب ينهبون وينقلون إلى بلادهم أو يحرقون ويـمزِّقون فاجتهد العلماءُ والمفكرون فى انقاذ هذا التراث العظيم ما وسعهم الجهد من أجل حياة أفضل لبنى الإنسان ، وسنرى طرفًا من ذلك فى الفصول التالية .



ومن قبل القرن الثامن

ظهرت كتب التراجم ومنها كتب تاريخية تخصصية

إشارة : إن حقائق التاريخ تنطق بلسان فصيح بأن لعلماء العربية الريادةَ فى شتى العلوم والمعارف النظرية منها والتجريبية العملية ، وحتى فى فترة الانحدار السياسى والانقسام الذى أصاب الأمةَ العظيمةَ بالتدريج بدءًا من القرن الرابع ؛ كان علماء حضارة الإسلام كالكواكب المضيئة لموكب المسيرة الإنسانية نحو الأمام، فقد ظل الفكر الإسلامىُّ فى نموِّه وازدهاره حتى القرن السادس «الثالث عشر من الميلاد» وظلت شمس العلوم والآداب ساطعة وإن صارت محدودة الآفاق ما بين القرنين السادس والتاسع « الثالث عشر والسادس عشر من الميلاد ».

فهم الذين نقلوا علوم الإغريق إلى اللغة العربية ، وهم الذين هَذَّبوها وصقلُوها فى ضوء تعاليم الوحى الإلهى ، وهم الذين نقلوا الطبَّ من مرحلة التفكير المجرَّد إلى مرحلة التجريب ، ولم تعرف اللاتينيةُ ولا سائرُ اللغات المحلِّية الأوربية شيئًا عن آداب اليونان وعلومها إلا عن طريق الترجمة عن اللغة العربية ، ولولا جهودُ علماءِ العربية ودعمُ الخلفاءِ للنهضة العلمية لاندثرت علوم الإغريق ، ولَـمَا علم عنها الغربُ شيئًا .

وكذلك فعل علماء العربية مع علوم الهند والفرس .

وقد ابتكر علماء العربية فى التاريخ وسائر العلوم والمعارف ما يشهد لهم بالريادة والقيادة وبالفضل فى نقل أوربا من طور التخلُّف والجمود والخضوع للوهم والباطل إلى طور التجديد والسير فى طريق التحضر والتمدُّن .

ومن الرواد فى أواخر القرن السادس وفى القرن السابع :

وإن بحثنا ما زال فى ميدان «التأريخ والتراجم ووصف البلدان» وريادة أعلام العربية ومبتكراتهم التى أفسحت المجال لمن جاء بعدهم، ومن هؤلاء الأعلام :

« **الحافظ أبو الفرج عبدالرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى** » المولود فى مدينة «بغداد بدرب حبيب» وكان واعظًا مرموقًا له تلامذته ومريدوه ، وارتبطت شهرتُه العلميةُ بالتأليف فى التاريخ والمناقب والتراجم، ومن كتبه القيمة : « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » وهو سِفْرٌ للحوادث التى وقعت حتى سنة «خمس وسبعين بعد الخمسمائة » [٥٧٥هـ] أى إلى أوائل الربع الأخير من القرن السادس من الهجرة، وكانت وفاته سنة [٥٩٧هـ] وهو فى نحو السابعة والثمانين.

وقد أسهم فى ميدان التراجم والمناقب فترك لمن جاء بعده عددًا من الكتب فى الرجال ومناقبهم وأحوالهم ومنها : «مناقب عمر بن الخطاب ، ومناقب عمر ابن عبد العزيز ، ومناقب أحمد بن حنبل» . ومجموع ما ذكره عن نفسه فى كتب التراجم ثلاثة وعشرون كتابًا [راجع مقدمة المحقق لكتاب «تاريخ عمر بن الخطاب» لابن الجوزى].

وكتابه فى «تاريخ عمربن الخطاب» يقع فى ثمانين صفحة دون الفهارس ويعد أحد المصادر المهمة الدقيقة التى أخذ عنها المؤلفون بعده ونقرأ له يقول : «إن أخبار الأخيار دواء للقلوب وجلاءٌ للألباب من الدنس والعيوب» ثم قال : «وقد قَسَّمتُ أخبارَ عمر ثمانين بابًا».

إن كتب التراجم التى دوَّنها علماء العربية تُعَدُّ بحقٍّ أبرعَ وأعظمَ ما خلَّفوه من التراث العلمى فى ميدان « التأريخ » وقد سبقت الإشارة إلى ما جاء فى

« كتاب الوزراء والكتّاب » للجهشيارى الذى ترجم فيه للوزراء والكتاب منذ صدر الإسلام حتى القرن الثالث ، وكان الجهشيارى من أرباب مهنة الكتاب فى الدواوين الرسمية فيعتبر كتابه من أسبق النماذج العلمية والأدبية فى بابه .

ثمانون مُجَلَّدة لمؤلف واحد : وفى نهاية القرن السادس أشرقت شمس كتاب : «التاريخ الكبير لدمشق»فى ثمانين مجلَّدةً ، وقد تضمن تراجمَ عديدةً لمشاهير الأعلام بدمشق المحروسة .

أما مؤلفه فهو : العلامة الشافعى المذهب الفقيه الحافظ ابن عساكر «على بن الحسن بن هِبةَ أبوالقاسم» ولد بدمشق سنة [٤٩٩هـ : ١١٠٥م] ودرس فى بغداد ثم فى أمهات المدن ببلاد فارس، وهو الذى جمع الإمامة فى الفقه والحديث وانضم إلى ركب الأعلام فيهما من الذين كانوا قبله مع سعة العلم بأحوال عصره وبِسَيرِ الأعلام الأكابر من قبله ، ويُعدُّ كتابه من أعظم كتب ومراجع التراجم ، وقد جمع فيه كلَّ تراجم الرجال الذين لهم صلةٌ بدمشقَ كما فعل المؤرّخ الخطيب البغدادى فى كتابه: «تاريخ بغداد» وتذكر دائرةُ المعارف الإسلامية أن «تاريخ دمشق »بلغت أجزاؤه الثمانين، والذى تم طَبْع الجزء الأول والجزء الثانى منه ، وذلك فى عامى [١٣٢٩، ١٣٣٠] من الهجرة بدمشق ، وكان عددٌ من هذا الكتاب موزعًا فى خزائن التراث فى أوربا والبلاد العربية وتركيا ثم توالتْ العنايةُ بطبع أجزاءٍ من هذا الكتابِ حتى أرْبَتْ على أربعينَ ، وله فى التراجم كتاب «المعجم» وهو نُبذٌ عن مشاهير الرجال وخاصة الشافعية ، وللمستشرق بروكلمان وغيره عناية كبيرة بكتب «ابن عساكر» .

وإذا كان ابن عساكر ترجم لمشاهير الأعلام الدمشقيين على اختلاف طبقاتهم ومناقبهم وآثارهم العلمية وتنوُّعها ، فإن العلامة جمال الدين أبا الحسن عليَّ بن يوسف القفطيَّ قدَّم مُعجمًا مبتكرًا لم يسبقه إلى فكرته أحدٌ من العلماء

والباحثين وكان بعنوان : « إخبار العلماءِ بأخبار الحكماء » وانظر إلى قوة إدراكه بأن عمله هذا يتوجّه أول ما يتوجّه للعلماء والباحثين ، وبلغة عصرنا فإنه مُوجَّهٌ لأرباب التخصص والدراسات العليا والأطروحات بعد المرحلة الجامعية .

فلماذا ؟ لأن كتابه الرائد فى بابه تضمن تراجم : لعلماء من العرب والمسلمين – إذْ لم يكن أمامه غيرهم فى عصره ؛ لأن الغرب الأوروبى كان ما زال فى مرحلة التلمذة والنقل عن العرب وليس أمامه غيرهم – واختار المؤلف من علماء العربية لكتابه الذين اشتغلوا بالحكمة – وهى العلوم الفلسفية – وبالرياضيات ، وبالفلك ، واختار لكتابه هذا أيضًا نفرًا من المبرّزين من علماء اليونان ومن السريان الذين اشتهروا بالترجمة والنقل ، فجاء كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء» ذا ميزات علمية وتوجُّهات فى التأليف التاريخى والتراجم فريدة ، وصار أحد أهمّ المراجع الأساسية للباحثين فيما يتعلّق بمحتواه .

وعلى غراره لنمط آخر من التراجم : إن العلامة الطبيبَ المؤرخ الأديب المدقِّقَ الشاعرَ المعروف « بابن أبى أصيبعة » المولود فى دمشق عام [٦٠٠هـ:١٢٠٣م] ترك لنا موسوعةً علميةً فريدةً فى مزاياها رائدةً فى بابها ، وجعلها تحت عنوان : « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » وقد نشره فى القاهرة المستشرق «ميلر» عام [١٢٩٩هـ :١٨٨٢م].

فما مزايا هذا الكتاب الرائد ؟ إنه أول كتاب فى التاريخ الإنسانى يتجه نحو العناية بالأطباء وطبقاتهم وحياتهم وبطريقة تفكير كلٍّ منهم ، وقد تحدَّث فى الكتاب عن : حياة أربعمائة طبيب وعن مؤلفاتهم ، وفى قطاع من كتابه هذا أرَّخ لجوانب من العلوم ، والطب ، والشعر ، مع ظهور العناية بأحوال البلاد التى كانت تحت قبضة الصليبيين. ولقد توفى ابن أبى أصيبعة فى القرن السابع وترك هذا السِّفر المرجعىَّ فى بابه أو « أبوابه » ليكون عونًا للباحثين فى تاريخ العلوم وتاريخ الطب بصفة خاصة عند أمة الإسلام ، وفى ظلال ريادة اللغة العربية فى ميادين

العلم والأدب والتاريخ وشتى الفنون .[وستأتى عنه نبذة].

وكتاب وعالم من القرن السابع :

أما الكتاب فهو : « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » :

لفتة : (وفى عصر الأناقة اللفظية التى بدأت فى القرن الرابع ونمت وطغت على الشعر والنثر فى القرون التالية ، فى هذا العصر نجد العلامة المتبحِّر الرائد يتأنق فى لغة عنوان كتابه فتجد فيه موسيقى عَذْبة من التوازن بين «الأعيان والزمان» والتجانس بين «أنباء وأبناء» وذلك فنٌّ يُنبئ عن تمكُّن كبير من زمام اللغة والبلاغة). (ولعلك – أيها القارئ – لاحظت الجرْسَ اللفظى لابن القفطى فى : «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» وتلك مجرَّدُ لفتةٍ نحو لغةِ العصر الذى بدأ بابن العميد ثم القاضى الفاضل ، ثم طغى نمطُ الأناقة على الأدب والشعر وامتدَّ إلى التأليف الذى أمسك فيه العلماء بزمام الدقة مع الجمال والرقَّة) .

ابن خلكان : إن مؤلف «وفيات الأعيان وأنباء الزمان» هو العلامة «ابن خلكان أحمد بن محمد بن إبراهيم شمس الدين أبوالعباس البرمكى الشافعى المولود فى إربل بالعراق» من علماء القرن السابع [٦٠٨:٦٨١هـ] [١٢١١:١٢٨١م] ومن الرواد المرموقين فى تأليف التراجم والذى حظى بتقدير علماء الغرب ، وقال عنه «نيكلسون» : «إن أحسن ما تمَّ تدوينُه فى موضوع التراجم على الإطلاق هو كتاب «ابن خلكان» وفى دائرة المعارف الإسلامية جاء : «وبدأ ابن خلكان فى كتابة مُصَنَّفه الكبير بالقاهرة عام [٦٥٤هـ] وأتـمَّه عام [٦٧٢هـ] وذلك بعد اعتزاله القضاء فى دمشق ، وقد نشره بعض المستشرقين فى القرن التاسع عشر فى إنجلترا [فستنفلد] وفى باريس [ده سلان] وطبع ببولاق عام [١٣١٠] من الهجرة وفى طهران عام [١٢٨٤] من الهجرة] وتُرجم إلى التركية فى إستنبول عام [١٢٨٠ من الهجرة] وقالوا : إنه من أهم المراجع

والمصادر فى التراجم والتاريخ الأدبى . إن ابن خلكان نجم سطع فى سماء الحضارة فى القرن السابع وقد تسارعت الخطى نحو الانحدار ، ولولا إخلاصُ العلماء والأمراء لدينهم وغيرتُهم على العلوم والفنون والآداب وغيرتُهم على الدور الحضارى الذى تقوم به الأمةُ العظيمة لذبُلَت شجرةُ الحياةِ فى الشرق وفى الغرب على السواء قرونًا طوالًا، ولكن بفضل الله استمرَّت جهودُ العقول المفكرة والنفوس الغيورة فقدَّموا عطاءً عظيمًا ونبيلًا ودقيقًا ورائعًا مازلنا نغترف من مَعِينه الذى لا ينضب بفضل الله ورحمته .

إن ابن خلكان الفقيه القاضى المتبحِّر فى علمه والمعلِّم لغيره قد ترجم فى كتابه لأعلام المسلمين الروَّادِ العظام حتى منتصف القرن السابع من الهجرة ، وترك لنا علمًا نافعًا وبحوثًا دقيقة يرجع إليها الراغبون والباحثون فى الغرب والشرق.

ونقلة علمية عظيمة للقزوينى :

إنه «زكريا بن محمد القزوينى» نسبة إلى مسقط رأسه «قزوين» وقد تبحّر وتفقّه وصار عَلَمًا يُشار إليه بالبنان ، وتولى القضاء فى مدينتى واسط والحلّة .

وفى كتابه التاريخى القيم «آثار البلاد وأخبار العباد» فيه نقلة علمية عالمية ؛ لأنه ذكر بعض البلاد الفرنسية ، والألمانية ، والهولندية وفيه اتجاهٌ جغرافىٌّ وعلاقاتٌ دولية ؛ لأنه تحدَّث عن العلاقات التجارية بين المسلمين وسكان أوربا الوسطى الشمالية ، وقد عُنى بهذا الكتاب المستشرقُ الألمانى « جاكوب » فكتب أبحاثًا عِدَّة عمَّا أورده القزوينىُّ من البلاد الأوربية ، والعلاقات التجارية بينها وبين أمة الإسلام ، ومع اشتغال القزوينى فى القرن السابع بالتاريخ وأحوال الأمم والعلاقات التجارية ، فإنه اشتغل بالتأليف فى علم الفلك ، وفى الجغرافيا الطبيعية ، وترك لنا كتابًا يعتبر من أجلِّ ماأثمرته جهودُ العلماء الأكابر فى هذا الميدان على مدى العصور الوسطى .

كلمة وإشارة : تلك إشارات وجيزة - جدًّا - للتعريف ببعض الجهود الريادية القيادية التى قدمتها حضارةُ اللغة العربية إلى بنى الإنسان حتى القرن السابع من الهجرة ، وقد بدأت هذه الوجازات فى هذه الرسالة بالحديث عن التأليف فى «السيرة النبوية العطرة» وعن أعلام من المؤلفين ومناهج كل واحد منهم، ثم عن التأليف فى التاريخ العام، والتراجم، وفى التراجم التخصصية - إن صح هذا التعبير - وعن ظهور مناهج الجغرافيا والاقتصاد من بين ثنايا مؤلفات الأعلام ، ووصف مشاهد الرحالة منهم .

والانتقال إلى القرن الثامن : ويقتضينا الحديث أن تتم الإشارةُ إلى أن العلماء حتى نهاية القرن السابع أسلموا القياد لتلامذتهم فى القرن الثامن فأحسنوا وأجادوا وبذلوا الجهود بقدر المستطاع وسط ظلام المحن الانحدارية القاسية .

فى علم التاريخ : ففى القرن الثامن ظهرت طبقةٌ من الأعلام وجَّهت عنايتها إلى «التاريخ» وتركت للإنسان عِلمًا وثروةً نفيسة من المؤلفات العظيمة ، ومنها الكتاب العالى الشأن وهو : **البداية والنهاية** وحسبنامن الأدلة أن تتم الإشارةُ إلى العلامة العظيم الذى يعيش دومًا فى ضمائر الباحثين وأهلِ العلم ، وهو صاحب الكتاب العظيم المتفرِّد بين التآليف ودوائر المعارف بغزارة الفكر والعلم وروعة التبويب وهو كتاب : «البداية والنهاية» .

ومؤلفه : العلامة «ابن كثير» الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن الخطيب القرشى البُصْرَوى الشافعى مؤرِّخ عربى ولد فى دمشق عام [٧٠١هـ : ١٣٠١م] وتوفى عام [٧٧٤هـ : ١٣٧٣م][1] ، وهو ينتسب إلى

(١) وتجدر الإشارة هنا إلى أن «ابن كثير» هذا غير «ابن كثير» الآخر الذي هو «أحد القراء السبعة» وأن اسمه: عبدُ الله أبو بكر أبو معبد (أو أبو سعيد) وُلد عام [٤٥هـ : ٦٦٥م] فى مكة المكرمة ، وينتسب إلى أسرة فارسيَّة هاجرت إلى اليمن ، وتوفِّى عام [١٢٠هـ - ٧٣٨م] .

قريش ، وموطنه «دمشق» وقد كان حُجَّةً ثَبَتًا فى أعظم العلوم وأنفعها ؛ فهو واحد من رواة الحديث وحفَّاظه الموثوق بهم، أما فى تفسير القرآن فهو واحد من قادة هذا الميدان وروَّاده وأصبح كتابه أستاذًا ومرجعًا عظيمَ القدرِ ، وقد انتفع فيه بسعة علمه بالحديث ، وبالفقه وأحكامه ، وبوقائع التاريخ وبالشعر والأدب وأحوال الأمم الماضية وسير الأنبياء ، ولعلوِّ مقامه فى الكتابة نجد فى تفسيره الأسلوب الأدبى الرائق مع الخضوع للمعنى ، ووضوح الأفكار والسلاسة ، مما جعل تفسيره قريبًا من القلوب .

أمَّا كتابه «البداية والنهاية» فقد تناول فيه الحوادث من بدء الخليقة حتى عام [٧٣٨هـ : ١٣٣٧م] كما أشارت دائرة المعارف الإسلامية ، فهو دائرةُ معارف عظيمة الشأن نجد فيها نَفَسَهُ الموسوعىَّ وغزارةَ اطلاعه ، ونجد فى هذا الكتاب التاريخى القيم أحوالَ الأمم الإسلامية حتى عام [٧٣٨] من الهجرة، وقد جعل لكتابه أقسامًا:

أقسام كتاب : «البداية والنهاية» وهى :

القسم الأول : أورد فيه ابنُ كثير بَدْءَ الخليقة ومختارات من تواريخ الأمم القديمة حتى تاريخ العرب قبل الإسلام «العربىّ الجاهلىّ» .

ثم تناول نشأة الرسول محمدٍ ﷺ و بَدْءَ الوحى الإلهى ، وظهورَ هداية الإسلام حتى الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة .

ومراجع ابن كثير فى هذا القسم هى: القرآنُ الكريم، ثم السنةُ النبوية والأحاديثُ الشريفة ، ثم المؤلفات القيمة التى تركها من سبقوه ومنهم : [أصحاب السير ، وابن جرير الطبرى ، والواقدى ، وابن عسر] .

القسم الثانى : أرَّخَ فيه ابنُ كثير لعهود الخلفاء الراشدين ، فالدولة الأموية فدولة بنى العباس وما تفرَّع عنها فى عهد الانقسام من ممالك وإمارات ودويلات

مما دفع بالأُمَّة العظيمة إلى عهود الانحطاط والانحدار ، وتناول ما تركته آثارُ الغارات المغولية الشرسة على أمة الإسلام ، وتابع الحوادثَ حتى عام [٧٣٨] من الهجرة الشريفة .

وفى القسم الثالث : نطالع أحوالَ الآخرة ومظاهر قُرب القيامة وعلاماتها.

سمة واضحة للقرن الثامن :

إن القرن الثامن من الهجرة معدودٌ فى تاريخ العلوم والآداب العربية والإسلامية بأنه عصر «الموسوعات» أو يمكن التسمية بلفظ «دوائر معارف» أى متعددة الجوانب من المؤلفات التى لاتقتصر فى الغالب على فنٍّ واحد .

ومن أصحاب هذه الكنوز الموسوعية :

شهاب الدين أحمد بن عبد الله الشافعى القلقشندى صاحب «صُبح الأعشى» .

وأحمد بن عبد الوهاب القرشى النويرى صاحب «نهاية الأرب فى فنون الأدب».

وشهاب الدين أحمد العمرى صاحب «مسالك الأبصار» .

وفيما يلى إلمامات بتراثهم العظيم .



نور فى أحلك الظلمات

«وظلّ النور رائدًا»

إن أحلك مرحلة مرّت على أمة الإسلام وحضارتها بدأت تُخَيِّمُ منذ القرن السادس من الهجرة الشريفة [الثالث عشر من الميلاد] ، وقد حدَّثتنا ذاكرةُ التاريخ أن جيوش التتر كانت تجتاز الجبال والأنهار من أقصى مشرق هذه الأمة العظيمة ، يعاونها على الجراءة فى الاقتحام والقساوة فى التنفيس عن الأحقاد يعاونها التمزيقُ الذى أصاب الأمةَ الواحدةَ فصارت أممًا صغيرةً ودويلات وإمارات تتنافس ويُصيب بعضَها المدُّ والجزرُ على حساب أو لحساب بعضٍ آخر ، شغلتهم الدنيا ، وألهتهم المطامعُ وشيوعُ الملذَّات فاسترخوا وبدَّدوا .

فلا عَجَبَ أن كانت جماعات التتر الهمج يسحقون دويلاتِ المسلمين سحقًا بعد أن تمزَّقت الأمة العظيمةُ الواحدة ، فتنافرت القلوبُ ، وتشاحنت النفوس ، وأدبر كلُّ أمير أو والٍ أو سلطان معطيًا قفاه لأخيه على حساب الصالح العام للأمة .

كانت الأهواء الخاصة والنَّزَعَاتُ المَذْهبيَّةُ والنّعرات العرقية والحَسبيَّة من أعظم أسباب ضعف السلطة العباسية المركزية فى بغداد ، وألقت المحنةُ القاسيةُ بظلامها على الحياة الفكرية التى كانت من أعظم أسباب إنهاض الأمم الأوربية وأخْذِها بزمام العمل من أجل حياة أفضل .

وفى مراجعة التاريخ عبر وآيات !!

المؤرخ ابن الأثير ينقلنا إلى المأساة :

ابن الأثير : المؤرخ العلامة عز الدين أبو الحسن على بن محمد [٥٥٥هـ :

١١٦٠م] [٦٣٠هـ : ١٢٣٤م] وكانت وفاته بالموصل ومولده بالجزيرة وهو صاحب الكتاب العظيم «الكامل فى التاريخ» ، وقد نقل لنا ابن الأثير فى كتابه جانبًا من المأساة التى حلّت بالمسلمين قبل سقوط بغداد نفسها بربع قرن من الزمان ووصف بعبارات تُعبِّر عن واقع يمزِّق قلب المتأمل؛ لأنه يدل على ضراوة المأساة ، وعلى عنف الغزاة ، وتحدث فى سطور عن موقعة «إربل» فقال: «فى سنة ثمانٍ وعشرين بعد الستمائة من الهجرة [٦٢٨] وصلت طائفةٌ من التتر من «أذربيجان» إلى أعمال «إربل» - فى العراق - فقتلوا مَن على طريقهم من التركمان والأكراد وغيرهم ، إلى أن دخلوا «إربل» فنهبوا القرى ، وقتلوا من ظَفِروا به ، وعملوا الأعمال الشنيعة التى لم يسمع الناس بمثلها» .

إن كل عبارة من هذه تحمل دلالاتٍ عمليةً فظيعة كل الفظاعة ، وتسهِّل المقارنة بين هذه الوقائع وما وقع بعد قرون تحت سمع الهيئات الدولية والإقليمية فى فلسطين وفى غيرها من أقطار أمة الإسلام فى أوربا وفى آسيا وفى إفريقيا فى القرنين [العشرين والحادى والعشرين من الميلاد] .

وتأمَّل ألفاظ ابن الأثير فى التعبير عن المأساة ولوعة فؤاده يقول : «وهذه مصائبُ وحوادثُ لم ير ويسمع الناسُ مثلها ، أو ما يقاربها من قديم الزمان وحديثه، فالله سبحانه يلطف بالمسلمين ،ويرحمهم ، ويردُّ هذا العدوَّ عنهم ..] . ألا ترى أننا فى حاجة دومًا إلى هذا الدعاء ؟

وسبقتها عاصفة مدمّرة :

إن تلك العاصفةَ التتريةَ العاتية التى هزَّت العالم الإسلامى من أقصى الشرق إلى بغداد ، سبقتها عاصفةٌ مدمِّرةٌ أتت من أقصى الغرب مع حروب الصليبيين وإن العلم والفكرَ كانت محنتهما أعظمَ من المحن الاقتصادية والعمرانية بسبب أحقاد الغزاة وضراوة نفوسهم ؛ فقد نهب الأوربيون نفائس المخطوطات والمؤلفات

كما دمَّر الغُزاة من الفريقين خزائنَ الكتب النفيسة وما أكثرها! وما كان أعظمها! وجمعوا الكتب والمخطوطات وأشعلوا فيها النيران ، وحولها مشاعلُ الفرح والسرور بانتصار الجهل على العلم وعلى حرية الفكر وعلى ثمرات الجهود البانية ، وفى غمرة فرحة التتار بالخراب حملوا أطنانًا من الكتب وجعلوها معبرًا لهم فى النهر ، ولكى يذيبَها الماءُ بعد ذلك تتويجًا لانتصارهم الجاهلى الأحمق على «بغداد» عروس الدنيا وأعظم المراكز الثقافية والعلمية بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم دمشق فى ظلال حضارة أمة القرآن .

إنقاذ ما يمكن إنقاذه : إنَّ العلمَ النافعَ والفكر المستقيم هما روحُ أمة القرآن وحياتُها فانبرت لذلك جهود أهل الغيرة من العلماء والأدباء والمفكرين تؤازوها نفوسٌ غيورة على تراث الأمة من الأمراء وذوى النفوذ ، تضافرت هذه الجهود لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الأمة .

وظهرت نجوم وشموس وكواكبُ فى سماء ظلام المحنة القاسية منهم المجدد بفضل الله عز وجل ، ومنهم المقلِّد ، ومنهم الساعى العامل بجدٍّ وإخلاص فى جَمْعِ ما يُمْكن جمعه من الصدور ومن الأوراق والمخطوطات هنا وهناك ، وأفنوا الليالى والشهور والسنين فى هذه الأعمال الجليلة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا التراث الإنسانى النفيس ، وأعانهم الله بفضله .

ظهور الموسَّعات العلمية والأدبية «دوائر معارف متعدِّدة الفنون» :

وعلى أيدى هؤلاء العلماء وبجهودهم ظهرت الكتبُ الموسوعيةُ الشمولية بين جِلدتى كل كتاب منها كتبٌ ومُصَنَّفات متعددة أفادت وتفيد الأجيال أعظم فائدة .

امثلة للتنوير والتبصير :

١ - كتاب : «نهاية الأرب فى فنون الأدب» :

إن شهاب الدين أحمد القرشى النويرى المتوفَّى فى النصف الأول من القرن الثامن من الهجرة كان أديبًا مبرِّزًا وعالمًا بالحديث وسنَّة الحبيب ﷺ وبالتاريخ ، وإن كتابه الشامل «نهاية الأرب فى فنون الأدب» تركه فى ثلاثين مُجلدة وقد عُنى به وبطبعه المُحدّثون؛ لأنه كتاب جليل القدر عظيمُ الفائدة يحوى كثيرًا من صنوف المعرفة .

أقسامه : وقد جعله صاحبه على خمسة فنون .. فما هى ؟

الفن الأول : وهو يبحث فى السماء ، وفى الأرض ، وما فيها ، وما عليها .

الثانى : يبحث فى الجغرافية البشرية والاجتماعية ؛ إذ يشرح فى هذا الفصل صفاتِ كل جنس ، وعاداته وتقاليده .

الثالث : يبحث فى الحيوان ، وفى أسمائه ،وعاداته وأماكن وجوده ، وطرق صيده .

الرابع : يبحث فى «النبات» وطرق استغلال النباتات ، وأثر عوامل الطبيعة على نموِّها .

الخامس : ويبحث فى الفقه والتاريخ والأدب .

٢ - ومثال آخر «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» :

وإن كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» للعلامة شهاب الدين أحمد القرشى العُمرى الدمشقى المولد ، صدر فى القرن الثامن من الهجرة ويقع فى عشرين مُجَلَّدةً ، وقد نال عناية عظيمة من المستعربين (المستشرقين)، وفى

مقدمته أشار مؤلفُه إلى منهجه وأنه جعله على قسمين :

القسم الأول : فى الأرض . والقسم الثانى : فى سكان الأرض .

أى أن القسم الأول : يبحث فى الجغرافية الطبيعيَّة؛ من رياح ، وأمطار ، وأنهار وبحار ، وجزر ، وجبال ، وصخور ، وغابات .

أما القسم الثانى : فيبحث فى سكان الأرض ، وفى طرق معايشهم ، وعوائدهم ، والطباع ، مع توضيح أخبار مِللهم وممالكهم والتعريف بمشاهير الأعلام .

قال باحث : «إن كتاب : «مسالك الأبصار» قد تضمَّن فوائد قيّمة مع المعلومات الواسعة فى التراجم والتاريخ والجغرافيا ، وقد عثروا على مخطوطة هذا الكتاب فى «أيا صوفيا ،والآستانة» ، وترجموا بعض أجزاء هذه الموسوعة إلى اللغة الفرنسية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ ترجمها المستشرق «كترمير» .

سعة علمه : لقد استوعب العُمرى حضارةَ أمته وذاكرةَ تاريخها وأحوالَ الأقاليم وأنماط المسالك والتوجُّهات البشرية إلى جانب تَبحُّرِه فى علوم العربية ، وفى الحديث والفقه ، وكان من شيوخه الإمامُ أحمدُ بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى ، ودرس على يديه «الأحكام الصغرى» ، وكان العُمرى أمةً وحده فى قوة الذهن والصبر على تحرِّى الأخبار ودقة المعلومات - كما قال عن نفسه - فلنسمع معًا ما قاله : «لم أنقل إلا عن أعيان الثِّقاتِ من ذوى التدقيق فى النظر ، والتحقيقِ للرواية ، واستكثرتُ ما أمكننى من السؤال عن كل مملكة ، فإن أنا نقلتُ بعض الكتب المصنَّفة فى هذا الشأن ، فهو من الموثوق به فيما لابُدَّ منه » .

٣ - ومثال فى هذا المضمار : وهو عن موسوعة ثالثة للعلامة : شهاب الدين أحمد القلقشندى ، الذى تُوفِّى فى الربع الأول من القرن التاسع من الهجرة .

وكان قد تبحَّر فى : الفقه ، والأدب ، والتاريخ، والجغرافيا، وله كتب عدَّةُ

منها كتابه الشهير : «صبح الأعشى» فى أربعَ عشرةَ مُجلدةً تضمنت بحوثًا فى : التاريخ، والجغرافيا، وهو كتاب مُمتع ، ودائرةُ معارفَ كسابِقَيه ، واتجاهاته الأدبية عظيمةٌ مما يشهد لمؤلفه وجامعه بالفطنة والذكاء وطول الباع، وكان للمستشرق الألمانى «هرتمان» عنايةٌ بهذا الكتاب ، وقد ترجم الجزءُ السابع منه إلى الألمانية ، ومن أعاجيب القلقشندى كتابه : «قلائد الجُمان فى التعريف بقبائل عرب زمان» .

أليست هذه الجهود التى ضربنا لها بعض الأمثال تُعدُّ نورًا فى أحلك فترات المحنة التى قادتها الأحقادُ على أمة الحق والإيمان ، وكان لتسلُّط أمراء المسلمين بعضهم على بعض أعظم الأثر فى الخذلان؟

نسأل الله عز وجل أن يحفظ عصا الأمة من دابة الأرض التى تنخر فى الظلام.



مؤرخان رائدان من القرنين الثامن والتاسع :

القاضى الفقيه العلامة رائد فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع

« ابن خلدون »

(٧٣٢/٨٠٨ من الهجرة)

لقَبُه: «وليُّ الدين الحضرميُّ» واسمه : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المعروف باسم: «ابن خلدون الإشبيلى المالكى»

وهو عربيٌّ من قبيلة «وائل» التى نزحت جماعاتٌ منها مع الفتوح الإسلامية إلى الأندلس، ثم انتقلت أسرتُه إلى تونس.

وكان مولده فى تونس فى الثلث الأول من القرن الثامن، أما وفاته ففى القاهرة فى العقد الأول من القرن التاسع من الهجرة.

علومه وخبراته:

بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم، وعلى أئمة عصره فى تونس تلقَّى علومَه، فدرس العلوم اللسانية والشرعيةَ وتفقَّهَ فى مذهب الإمام مالك، وساعده صبره وذكاؤه على التحصيل وسعةِ العلم وتنوع المعارف وعلى النقد والتحليل، وأضافت إليه تجاربُه خبرات عظيمةً، فقد كثرت رحلاته وخالط العلماءَ فى الأندلس، واطلع على أحوالها، وفعل ذلك فى مصر بل وتولَّى القضاءَ فى مصر، وكان له طلابٌ يحضرون دروسه، وفى الحجاز عاش فى الحرمين الشريفين فترة يسمع ويرى أحوالَ المسلمين فى مشاعر الحج، ويعرف أخبار بلادهم وما جرى لهم ؛ إذ كان القرن الثامنُ من أشد القرون ظُلمة فى حياة أمة الإسلام، وكانت

أحوالهم السياسية والاقتصادية لا تسرّ، فكان ابنُ خلدون يتشبَّع بالأخبار والروايات وينفعل معها مُحلّلًا مدقّقًا، وفى فلسطين زار بيتَ المقدس، وكان فى مشواره الطويل بين مغرب الأمة الإسلامية ومشرقها لا ينقطع عن الدرس، والاطلاع والتعرُّف على الأحوال، ولم يكفّ عن الكتابة والتأليف.

مصادر علمه الواسع : فكانت مصادرُ ما عرفنا عنه من سعة العلم، ومن عمق الفكر، وتنوُّع الفنون ثلاثةَ أمورٍ هى: الأول : تلقِّيه العلمَ على شيوخه وأساتذته، والثانى: القراءةُ الواعيةُ والواسعةُ فى أُمَّهات كتب الذين سبقوه فى اللغة، والسيرة، والتاريخ، ووصف البلدان، والفقه وغير ذلك، وثمةَ مصدرٌ ثالثٌ وهو: اطلاعُه بنفسه على أحوال أقطار أمته الإسلامية إمَّا بالزيارة وجمع الأخبار ومعرفة الأمور ، وإمَّا بالسؤال والسماع عمَّا يجرى فى المواطن الأخرى، ولمثله يكون موسمُ الحجِّ مدرسةً جامِعةً لمعرفة ظروف وأحوال أقطارٍ شَتَّى، ومما هو متعارَف أن الشدائد القاسيةَ والمحنَ تنفعل لها العبقريةُ، وتتفتح على نحوٍ أعظمَ فتطلع ، وتقرأ ، وتستوعب ، ومن خلال ظلام المحنة العامة يسطعُ نورُ علوم العبقرية يضع أمام الإنسان العبر والآيات مع بيان الأسباب وثمراتها.

ولقد كان ابن خلدون شمسًا من الشموس التى سطعت فى ظلام محنة الأمةِ العظيمة فى أقسى مراحل الانحدار، ولذا جاء أعظم **كتبه تحت اسم :** «كتاب العِبَر ودِيوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب، والعَجَم، والبربر، ومَن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» فانظر إلى شمولية اسم الكتاب وهو مُستقًى من مضمونه فى الحديث عن جميع أصناف الناس وعوامِّهم وسلاطينهم ويتناول ثلاثةَ أجناسٍ كبيرة هى: العربُ، والعجمُ، والبربرُ .

ثم إنه كتابٌ للعبر، وسِجِلٌّ لأحوال السابقين والذين لحقوا وجاءوا بعدهم هذا من العنوان؟ فيكف خطرت لابن خلدون فكرة كتابه هذا؟

وكيف صارت هذه الفكرةُ لغزارة علمه وعِظم تجاربه عملًا علميًا عظيمَ الشأن واسعَ النطاق؟

إن ابن خلدون حين خطر بباله أن يكتب تجاربه ويسجِّلَ خبراتِه أراد أن تكون عن ذكرياته ، وفى نطاق محدود عن تاريخ أمته من الناحية السياسية فى المغرب حيث وُلد ونشأ ثم أخذ ابنُ خلدون يُعدُّ العُدَّة، ويجمع الأخبار ويراجع مذكراته الخاصةَ وما انطبع فى نفسه من ثمرة قراءاته ومشاهداته ، وعندما بدأ فى التأليف والتدوين لم يستطع أن يردَّ القلم عن انطلاقه، ووجد من نفسه أن مُهمته قد تضخَّمت عليه، وأن موسوعيته فى بحوثه قد غلبته ، فامتدَّ النطاقُ وأفلت الزمامُ عن الطريق المحدود الذى رسمه فى أول الأمر: فماذا كان؟

لقد وجد ابن خلدون نفسه مدفوعًا إلى أن يؤرِّخ للعالم منذ بدء الخليقة حتى نهاية القرن الثامن من الهجرة (الخامس عشر من الميلاد) فأخرج كتابه «العبر» على نحو جديدٍ مبتكر فى المنهج ؛ إذ اقترن ذكرُه للوقائع بالنقد والتمحيص مع ربط الحوادثِ ومُقارنتها بطبيعة العُمران، ولم يَعُد إذن الأمر مقصورًا على سرد الأخبار والمشهد فحسب.

ثم ظهرت خبراتُه وتجاربُه مع الحياة حين كتب عن حوادث عصره فقد اعتمد فى ذلك على مشاهداته فيما كتبه عن المغرب وعن مصر والترك، كما كتب عن الأحداث التى شارك فيها بنفسه، حتى صار كتابه هذا المرجعَ الأساسَ لتاريخ النصارى فى الأندلس، ولتاريخ البربر فى المغرب، وغير ذلك.

منهجه فى كتابة التاريخ: لقد فرَّق ابن خلدون بين التاريخ على أنه سَردٌ للوقائع التى مضت والتاريخِ الذى يشرحُ تلك الوقائعَ من ناحيةِ أنها أحداثٌ إنسانيةٌ فى الواقع مرتبطة بزمان وبمكان أى تؤثِّر فيها البيئةُ الاجتماعيةُ بظروفها الزمانية والمكانية وجذورها، فصار التأليف التاريخىُّ علمًا له فلسفته ؛ لأن الحدثَ

الإنسانيّ لا ينبع من فراغ؛ وإنما توجد عواملُ نفسيةٌ واقتصاديةٌ وثقافيةٌ وسياسيةٌ وبيئيةٌ ، بل وهناك أيضًا جذورٌ ممتدَّةٌ إلى الوراء قد تؤثر فى إبراز الحدث إلى الوجود، ويستوى فى ذلك الحدثُ الضخمُ والحدثُ الصغير.

الفرق بين علم التاريخ و رواية الأخبار: فلم يُصبح التاريخُ عند ابن خلدون «جَمعَ روايات وتدوينَ أخبار» كما عند أصحاب (**الحوْليّات**) الذين يدوِّنون الحوادث فترة بعد فترة، ويجمعون الأخبار ويسردونها سَردًا، فهؤلاء رجالُ رواياتٍ تفيد المؤرِّخَ وغيره، ولكنهم ليسوا أصحابَ بحث تاريخى يبحث عن الأسباب ويفسّر الوقائع والدوافع إليها ، وينظر فى تقويم ثمراتها وما تنتهى إليه، وقد يضع رأيه وَوِجْهةَ نظره، ويحكم على الأشخاص أو الأمة والجماعة.

وإن ابن خلدون وضع المؤرِّخين من بعده على الطريق العلمى السديد فى منهج كتابه التاريخى، وهو رائد هذا المنهج بلا منازع.

وخلاصة منهجه المفهوم عنه:

أن المؤرخ عالمٌ يدرس أوضاعَ البيئة التى ينشأ فيها الحادث، ويبحث عن العوامل المتعددة المتفاعلة مع البيئة ؛ ليساعدَه ذلك على إبراز ظاهرة التطور وشروطه، من الناحيتين الإيجابية والسلبية مع مقوِّمات العمران البشريّ، فميدانُ المؤرِّخ فسيحٌ ومجاله شموليٌّ، وصار بذلك: « النقد التاريخى» من عمل المؤرخ وهو يُسجِّل الوقائعَ مع دراسة الأحداث البشرية من جانبيها التاريخى والمجتمعى، بحيث يدخل التاريخُ فى كيان العمرانِ البشرى، فحياةُ أهلِ الحضَر تختلف عن أحوال البَدو أهلِ الرحلة والانتقال، كما أن طرق المعاش تتباين، وفى كل بيئة مقاييسُ للتعاون وتقسيمِ الأعمال والتخصص اللازم فى الأشغال، وهذا من صميم العمران البشرى فى كل بيئة بحسب ظروفها وثقافتها وطرق معايشها.

فلسفة التاريخ « وظهور مبادئ علم الاجتماع » :

ولذا أطلقوا على منهجه «فلسفة التاريخ» ويدخل فى ذلك: التفسير والتحليل وإبداءُ الآراء، وصار«ابن خلدون» باتفاق معظم الأجانبِ الباحثين هو «رائد علم التاريخ الحديث» ورائدَ «علم الاجتماع».

وإذا كان ابن خلدون هو رائدَ مؤرِّخى الأوربيين الذين تتلمذوا على كتابه ومقدمته، فإنه فى الوقت نفسه رائدُ «علم الاجتماع الحديث» فعن ابن خلدون ومؤلفاته اقتبسوا أصولَ علم الاجتماع، وأصولَ علم الاقتصاد السياسى، كما اقتبسوا «فلسفة التاريخ» ومنهج التأليف العلمى فيه.

وكما قال الأستاذ عبد الكريم غلاب: « وإذا كان ابن خلدون قد سبق المفكرين والمؤرخين العرب والمسلمين فى هذا الاتجاه (وهو فلسفة التاريخ وأصول علم الاجتماع) فقد كان ابن خلدون كذلك رائد التفكير الإنسانى فى هذه الاتجاهات، بل كان أستاذًا للفلاسفة والمؤرخين الأوربيين الذين بحثوا فى الشئون الاجتماعية والسياسية والعمرانية، إنه واضع أصول التأليف العلمى فى علم «التاريخ» ومبتكرُ فلسفة التاريخ التى يسير على هُداها المؤرِّخون المعاصرون، كما أنه مؤسس «علم الاجتماع» وليس «أوغيست كونت» الفرنسى، كما ظن بعضهم !!

«أوغيست كونت»: ظن بعض الباحثين الغربيين أن « أوغيست كونت» الفرنسى هو أولُ من نظر إلى المجتمع نظرةً شاملة، واتخذه موضوعًا لعلم مستقلٍّ فى منتصف القرن التاسع عشر من الميلاد وهو بذلك مؤسس «علم الاجتماع».

ظهور الحقيقة: ثم اتضح الأمر للباحثين بعد أن كشفت البحوثُ الحديثةُ عن المؤسِّس الحقيقى لعلم الاجتماع وهو «ابن خلدون» الإشبيلى التونسى العربى.

بل اتضح أن العالم الفرنسى «أوغيست كونت» نفسه قد سار على هَدى نظريات ابن خلدون التى جاءت فى مقدمة كتاب ابن خلدون، وإن كان بين الأستاذ وتلميذه الفرنسى اختلاف فى التفاصيل.

قال باحث معاصر: «إن حقَّ ابنِ خلدون بلقب مؤسِّس علم الاجتماع أقوى من حق «أوغيست كونت» ذلك لأن ابن خلدون قد سبق الفرنسى فى تأسيس علم الاجتماع ومنهجه بمدة تقرب من خمسة قرون» .

ومن منهجه الرائد: لقد كان ابن خلدون أول من اهتدى فى التأليف إلى الظواهر الاجتماعية الثابتة وأثرها فى بناء المجتمع، فشرح أثر البيئة الجغرافية والطبيعية فى الأجسام والألوان والسلوك.

كما بحث فى كُنه الظواهر الاجتماعية المتغيِّرة كالبداوة والحضارة، والنظم القضائية، والسياسية، والاقتصادية، كما التفتَ إلى الآداب، والفنون، والتربية والتعليم، واتبع منهجًا علميًا منظمًا فى تتبُّع الظواهر الاجتماعية يُحلّلها ويُصنِّفها ليصل إلى استنباط قوانينها، وعلى يديه نضج علمُ الاجتماع، وتحدَّدت مسائله، ومناهجُه وأهدافه شأن بقيةِ العلوم، ولقد بعث «أوغيست كونت» الفرنسى فى منتصف القرن التاسع عشر عِلمَ الاجتماع من جديد فى ضوء نظريات ابن خلدون وعلى هَدى منهجه، متر سِّمًا خُطى الرائد العربى الذى شهد له علمُه وكثرةُ تلامذته فى الشرق والغرب.



الإمام أحمد بن على المقريزى

العلامة الفقيه المؤرخ (٧٦٦: ٨٤٥ من الهجرة)

القرن الرابع عشر من الميلاد

لمحات عن الإمام المقريزى :

الإمام أبو العباس تقىُ الدين أحمدُ بن على المقريزىُّ مصرىُ المولد والنشأة، أزهرىُ العلم والمعرفة، لبنانىُ الجذور والأسرة، فهم من حارة المقارزة فى مدينة «بعلبك» ولايدرى أحدٌ «ما المقارزة؟» وإنَّ الأسماءَ لا علَّةَ لها إلا إذا ظهرت العلَّة .

كان جدُّه من كبار المحدِّثين بلبنان، وشدَّ أبوه الرحال إلى القاهرة وتولى بها بعضَ الوظائف المتعلقة بالقضاء ثم انتقل إلى ديوان الإنشاء .

جمع أحمد المقريزىُّ فى الفقه بين مذهب الشيعة الاثنى عشرية ومذهب الحنابلة ثم الحنفية والشافعية شأن العلماء المجتهدين فى تلك الأزمان، ولكنه كان يأخذ بالنص من الكتاب والسنة على طريقة أهل الظاهر، وكان سلفىَّ العقيدة، وسمع الإمامُ تقى الدين أحمد المقريزى الفقه وغيره من جدِّه لأمه شمس الدين بن الصايغ الحنفى وغيره من العلماء المعاصرين له فى القاهرة مثل البلقينى والهيثمى وغيرهم، كما تلقى على أفاضل العلماء بمكة المكرمة والشام مثل النشاورى وأبى الفضل النويرى القاضى وسعد الدين الإسفراييني وغيرهم، لقد درس الفقه والتاريخ والحديث وعلوم الفلك وتأثر بابن خلدون .

وله كتاب فى التوحيد عظيمُ النفع نَهَج فيه نَهج ابن قيِّم الجوزية فى بعض فصول كتابه «مدارج السالكين»، الذى أخذه ابنُ قيِّم الجوزية نفسُه عن كتاب: «منازل السائرين» بعد أن هذَّبه ونقَّحه ونحَّى عنه بعض ما بدا من شطحات تحتاج

إلى تأويلات بعيدة وتنتهى إلى شيء من الغموض، فجزى الله الجميع خيرًا على حسن النية والمقصد، و«منازل السائرين» لعالم حنبلى متصوّف من بلاد فارس وهو «أبوبكر الهرويُّ»، ونعود للمقريزى المؤرخ : المقريزى مولود فى القاهرة بالجمالية عام ستة وستين بعد السبعمائة، وتوفى سنة خمس وأربعين من القرن التاسع من الهجرة الشريفة، وكان يسكن فى حارة برجوان بالجمالية بالقرب من حيّ الأزهر ويطلب العلم فى الأزهر الشريف، وأعانه ذكاؤه واجتهاده على سعة الاطلاع والمثابرة على القراءة والدرس وجَمع البيانات وتدبُّر الأحوال والتقاط المواقف والحوادث العامة والخاصة ذات الأثر، فكان لذلك ضليعًا فى مادته، متبحِّرًا فى علمه ؛ قال الإمام السخاوى صاحب كتاب «الضوء اللامع» : «لقد قرأت بخط المقريزى أن تصانيفه زادت على مائتى مُجلَّدة كبار، وأن شيوخه بلغت ستمائة نفس»،وكان حسَن المذاكرة فى التاريخ وله نفائس فى التاريخ والرجال، وكانت مصدر إلهام وإشعاع لعلماء الغرب والشرق، وقد زادت مؤلَّفاته على مائة كتاب ورسالة ، ومراجعُه ومصادرُه فى كتبه التاريخية زادت على ثلاثين مرجعًا أما مؤلفاته فمنها :

١ - كتاب : «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» : بحث هذا الكتابُ النفيس فى تاريخ الأقاليم وأخبارها وأحوالها وجغرافيتها .

ولعلوّ قيمته العلمية والتأمُّلية ودقَّته بدأت ترجمتُه إلى اللغات الأوربية منذ القرن الثامن عشر من الميلاد فترجموه إلى اللاتينية، ثم إلى الفرنسية قد تُرجمت منه أجزاء، وفى القرن التاسعَ عشرَ ترجموه إلى الألمانية وتوجد نسخة خطيَّة منه فى برلين وأخرى فى باريس، وهو من أعظم المراجع لأحوال مصر وآثارها حتى عصره .

٢ - وكتاب «نُبذة العقود فى تاريخ النقود» : وهو كتاب رائد لمؤرِّخ قد

وقف رائدًا مع من سبقوه ومن عاصروه من الروَّاد فأسهموا فى إحياء أمم كان الظلام مخيِّمًا على عقول أبنائها، وماذا يقول الاقتصادى والمؤرِّخُ العالمُ عن كتاب ظهر فى تلك الفترة يقدِّم لنا بحوثًا فى النقود، وتاريخها، وتطوُّرها، وفى أثر النقود فى حياة الأمم ، ولقد كانت لهذه الخطوة سوابقُ فى تضاعيف المؤلَّفات العربية لعلماء أفاضل مثل «الماوردى» وغيره ، وقد كانت مخطوطةُ هذا الكتاب فى مكتبات برلين وليون والأسكوريال، ولبالغ أهميته من الناحية التاريخية والمالية والاقتصادية ترجموه إلى الإيطالية فى أواخر القرن الثامنَ عشرَ، وترجمه المستشرق «دى ساس» إلى الفرنسية.

٣ – وكتاب : «البيان والإعراب عَمَّا فى أرض مصر من الأعراب» : وتأمَّل الجرس اللفظىَّ فى عنوان هذا الكتاب وغيره مع الوضوح، وهو كتاب نفيس فى التاريخ والجغرافيا، ومنه نُسَخٌ خطِّيَّةٌ فى مكتبات : باريس، وفيينا، ودار الكتب المصرية «المكتبة الخديوية فى مصر» سابقًا ، وترجمه المستشرق الألمانى «وستيفيلد» فى النصف الأول من القرن التاسعَ عشرَ .

٤ – ومن نفائس المقريزى كتاب «الإلمام بمن فى أرض الحبشة من الإسلام»: وهو كتاب صغير الحجم أو رسالة عظيمة الفائدة من المباحث النادرة فى جغرافية الحبشة وكيفيَّة انتشار الإسلام بين أهلها، مع تقديم تراجم مختصرة لأشهر ملوك المسلمين فى الحبشة، وفى أواخر القرن الثامن عشر ترجموه إلى الفرنسية .

٥ – ومن كتبه التاريخية : «الطُّرفة الغريبة فى أخبار حضرموت العجيبة»: فيه مباحث فى تاريخ حضرموت جنوب اليمن، وبيان لجغرافيتها،وقد ترجموه إلى اللاتينية فى أواخر القرن التاسع عشر .

٦ – كتاب : «تجريد التوحيد المفيد» : وهو كتاب قيم دقيق الفكر سليم

المعانى صحيح المقاصد ، كما سبقت الإشارة ، وقد علّق عليه وضبطه وحققه وأخرجه أحمد بن محمد طاحون فى القرن الرابع عشر من الهجرة .

٧ - وسجل فى كتابه : «إغاثة الأمة لكشف الغمة» ما وقع فى فترة من عصره من مجاعة شديدة وقحط فى مصر استمر سبع سنوات من عام [٨٠٦هـ] وتحدث فيه عن المجاعات التى وقعت فى عصور سابقة حتى عام [٨٠٨هـ] وقت تأليفه كتابه هذا .

٨ - وكتاب : «الإشارة والإعلام ببناء الكعبة البيت الحرام» وكانت توجد منه نسخة فى مكتبة «لايدن» تحت رقم ٢٤٠٨ مع مجموعة كتب مخطوطة له - أيضًا تحتوى على ١٩ كتابًا، وعنوانه فى المخطوطة «كتابٌ فيه ذكرُ ما ورد فى بنيان الكعبة المعظمة» ولعله عنوان المُصنِّفين فى المكتبة ، وقد جاء فيه ذِكرُ بناء «عبدالله بن الزبير» للكعبة وبعد مقتله هدم الحجاجُ بنُ يوسف الثقفى بناءَ الزبير من الكعبة فى سنة [٧٤هـ] وجعلها على ماهى عليه الآن، أى على المساحة التى بنى عليها القرشيون الكعبة قبل بعثة النبى محمد ﷺ بسنين قلائل وقد شارك ﷺ فى وضع الحجر الأسعد فى مكانه بحكمة بالغة قضت على فتنة كانت ستنشب بين بطون قريش، وهذا الكتاب يُعدُّ وثيقة تاريخيةً مهمة للغاية فى بناء الكعبة والحوادث التى عاصرت كل مرحلة .

٩ - كتاب : «الذهب المسبوك فى ذِكر من حجَّ من الخلفاء والملوك» وهو كتاب ذو مزايا ريادية فى بابه، مع الدقة البالغة فى وصف رحلات هؤلاء وما تضمنته من إشارات تاريخية وظواهر اجتماعية،ونشره لأول مرة «الدكتور جمال الدين الشيَّال» وطبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة [عام ١٩٥٥ من الميلاد] ونشرته «مكتبة الخانجى بالقاهرة» و « مكتبة المثنى ببغداد» .

ومخطوطاته فى «الأسكوريال» وإسطنبول وباريس ومن مراجع كتابه هذا: «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير، وكتاب «حجة الرسول ﷺ» و «جمهرة أنساب العرب» وهما للإمام ابن حزم الأندلسى وكتاب «الحلية» لأبى نعيم ، ومن مراجعه كتابه «المقفَّى» وقد ترجم فيه لكل الأعلام الذين برزوا فى تاريخ مصر مِمَّن عاشوا فيها أو قاموا بزيارتها، كماترجم فى معجمه هذا وهو «المقفى» لكثير من الخلفاء والملوك، وقد بدأ كتابه «الذهب المسبوك» بالتأريخ لحجة الرسول ﷺ، وهى حجة الوداع ثم أرَّخ لمن حج من الخلفاء الراشدين مدة خلافته لذا لم يجئ ذكر الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ لأنه لم يحج فى فترة خلافته لاشتغاله بحرب الجمل وصفِّين .

وأما خلفاء بنى أمية فلم يحج منهم فى فترة خلافته سوى خمسة، وأما خلفاء بنى العباس فلم يحج منهم من «بغداد» سوى ثلاثة فى العصر الأول، أما فى العصر العباسى الثانى فلم يحج أحدٌ منهم لأسباب سياسية شغلتهم بالفتن وأخرى اجتماعية شغلتهم بالترف، أما خلفاء بنى العباس فى مصر المحروسة فلم يحج منهم سوى الخليفة الأول منهم «الحاكم بأمر الله العباسى» وحج فى عام [٦٩٧هـ] فى عهد سلطنة الملك المنصور لاجين .

وأمَّا الأندلس فلم يحج من خلفاء بنى أمية هناك أحد، كما لم يحج أحد من خلفاء الفاطميين فى المغرب ولا فى مصر وهذا أمر يدعو إلى الغرابة حقًّا.

وفى هذا الكتاب التفاتاتٌ أخرى تدعو إلى التفكر فى الأسباب منها: عدم خروج أحد من ملوك بنى أيوب فى مصر للحج فى فترة حكمهم، وهذا راجع إلى شدة اشتغالهم بحروب الصليبيين ، وقد عزم «صلاح الدين الأيوبى» على القيام بالحج بعد الفراغ من معركة حطين ومعاهدة الرملة، لولا أن عاجلته المنيَّةُ فلم يتمكن من الخروج . وإن ما ألفه ابن خلدون وما ألفه المقريزى أثرى المكتبة

التاريخيةَ الريادية ، وأعطت نماذجَ لفنٍّ التأليف الدقيق وربْطِ الحوادث بالظواهر السياسية والاجتماعية والنفسية ومن ثنايا كتاب «الذهب المسبوك» نخرج بفوائد جمَّة سياسية واجتماعية وإدارية ونفسية مما كان يحدث فى أثناء خروج الخليفة أو الملك ومسيرهِ حتى يعود ، وكم حدثت من فتن وأمورٍ أخرى منها ماهو خير ومنها ما هو على غير المراد .

١٠ - وللمقريزى كتب ورسائل متعددة الفنون، كما كان شاعرًا وكاتبًا ذا لفظ أنيق وعبارة متينة مع إلمام واسع بالألقاب والأسماء الشائعة فى العصر المملوكى وما قبله ، مما تم تعريبه أو كتابتُه بحروف عربية، مع الاحتفاظ بأصله التركى أو الفارسى القوقازى ، وفى كتاب «الذهب المسبوك» يقترن الاسم باللقب أو الوظيفة وهذه - أيضًا - من الفوائد للدارسين والباحثين.

وكان كمن سبقوه من أهل الفكر والعلم دقيقَ العبارة عظيمَ المعرفة سلمت معانيه وأخباره، وصارت كتبه ورسائله حجةً ومصدرًا للباحثين من الغرب والشرق، وكان المقريزى يشير إلى بعض كتبه ورسائله يستمد منها شواهد وأمثلة لمؤلفاتٍ له أخرى مثل كتابه النادر جدًّا وهو «شارع النجاة» وعنه قال الإمام السخاوى صاحب «التراجم» العظيمة قال : «ويشتمل على جميع ما اختلف فيه البشرُ من أصول دياناتهم وفروعها مع بيان أدلتها وتوجيه الحق منها» قال الدكتور جمال الدين الشيال فى حاشية كتاب «الذهب المسبوك» أى إن كتاب «شارع النجاة» مهم من كتب المِلَل والنِّحل «أى الأديان والعقائد»، وهو من كتب المقريزى المفقودة فإنى رجعت إلى جميع معاجم المراجع فلم أجد بها ما يشير إلى وجود نسخة منه .

١١ - ومن كتبه «إمتاع الأسماع» فى ستة مجلدات و«الورود المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية» و«الخبر عن البشر» وغير ذلك من البحوث والدراسات

والـمؤلفات القيمة، إنه واحد من مئات الأعلام الرواد الذين تركوا تراثًا علميًا يشهد لهذه الأمة بالريادة والأستاذية فى كل فنون الـمعرفة مع الدقة العلمية .

وفاته ودفنه :

وفى حوش الصوفية البيبرسية تـمت مُواراة جثمانه قبل صلاة الجمعة فى شهر رمضان، وكانت وفاته الخميس السادس عشر من الشهر الـمبارك سنة ٨٤٥ من الهجرة.

نسأل الله لنا وله الرحمة والـمغفرة .

والصلاة والسلام على أشرف الـمرسلين وأصحابه وآل بيته وأتباعه الـمخلصين إلى يوم الدين .

القاهـرة : ذو القعدة ١٤٢٢
ينـــاير ٢٠٠٢

ثالثًا : تذييل : وحتى نكون دومًا على بيّنة :

للعظة والاعتبار : ما أسباب الانحدار ؟

كلمة لابدّ منها :

حقق الفكرُ الإسلاميُ تقدمًا رائعًا خلال الفترة التى امتدَّت حتى القرن الثالثَ عشرَ من الميلاد .. فقد تلقى الفكرُ الإسلاميُ ما دوَّنه الباحثون السابقون من دراسات فى الطبيعيات والرياضيات والطب والفلسفة .. ثم هضم هذه العلوم ونقَّحها ونقدها وصحح أخطاءَها وطوَّرها، وأضاف المسلمون ما ابتكروه فى كلِّ فروع المعرفة، مما لم يكن للسابقين عليهم علمٌ به .

وأخيرًا رأينا هذه الثمراتِ العلميةَ يقدمها المسلمون زادًا ناضجًا إلى الغرب، فكان هذا الزادُ أساسًا شُيِّدت عليه النهضةُ الأوربيةُ والمدنية الحاضرة.

فما أسباب ما أصاب الأمةَ العظيمةَ ؟

إن الفكرَ الإسلاميَ أخذ فى الانحدار بالتدريج حتى صار خلالَ الفترة من القرنِ الثالثَ عشرَ حتى القرن السادسَ عشرَ من الميلاد محدودَ الآفاق .

وهذا الانحدارُ يرجعُ إلى عوامل كثيرة ؛ بعضُها داخليٌ يرجعُ إلى أبناء أمة الإسلام أنفسهم وخلفائهم وذوى السلطان منهم ، وبعضها خارجيٌ يرجعُ إلى أعدائهم الكثيرين أى الذين كانوا يتربصون بالأمة العظيمة فى الشرق والغربِ .

ومن العوامل الداخلية : أن خلفاءَ المسلمين وأمراءهم فى تلك الفترة انصرفوا عن رعاية العلمِ، والثقافة، والأدب .. وقد كان الخلفاءُ والأمراءُ الأولُ يشجعون البحوث العلمية والآدابَ ويقدمون الرعايةَ للعلماء والأدباء حتى صار للأمةِ الإسلاميةِ كنزٌ من العلوم والمعارفِ والآداب ازدانت به حضارةُ الإسلام .

ثم أُصيبَ العالم الإسلاميُّ بفتن داخليةٍ، جرَّت عليه الكوارثَ وأطمعت فيه أعداءَه المتربصين به، فتعرضت الأمةُ الإسلامية لألوان من الهجوم الخارجيِّ، فهاجم النورمانڈُ صقليةَ واستولوا عليها، وهاجم الأوربيون الإماراتِ الإسلاميةَ فى الأندلس، وسهُل عليهم ابتلاعُها بسبب التمزق والتشتُّت والفُرقة التى أصابت المسلمين هناك .

ونحن نذكر الحملاتِ الحاقدةَ التى وفدت من أوربا طامعةً فى الشرق العربى وثرواته وتراثه فانشغلت الأمةُ العريقة بالحروب والدفاع، فأهملوا لذلك كثيرًا من أسباب تقدُّمهم وازدهار حياتهم ، كما ظهر المغولُ الوثنيون فى مشرق العالم الإسلامى، وهو فى ذلك الوقت قد تمزقت وحدتُه وأضعفته الخلافاتُ الداخلية، فاستطاع المغول أن يقوموا بعمليات تخريبٍ واسعةِ النطاق وأجروا مذابحَ تقشعرُّ منها الأبدان، ودمَّروا مدنًا، وأحرقوا مكتباتٍ عظيمةَ الشأن، وامتُحن المسلمون امتحانًا عسيرًا فى علومهم وثرواتهم فى تلك الآونة ، ولولا وقوفُ سلاطين المماليك فى مصر أمام تخريب المغول ، وتحقيق النصر عليهم فى موقعة «عين جالوت» وغيرها بفضل الله لامتدت عملياتُ التخريب إلى المحيط الأطلسيِّ .

وبعضُ هذه الغزواتِ اتسم بالقسوة الشديدة، فتباطأ النشاطُ الفكريُّ، وقُيِّدتْ حريةُ التفكير، وأُغلقت مدارسُ وجامعاتُ ، كما حدث فى الأندلس أيضًا على أيدى المتعصبين الأوربيين .

وفى خلال هذه الغيوم والسُّحبِ، كثُرت البدعُ والأباطيلُ وأدخل المغرضون على أبناء المسلمين وعقائدهم ما ليس من دينهم فانخدع كثيرٌ من العوامِّ والبسطاء، فكان ذلك سببًا جوهريًّا فى ضعف المسلمين وفى الانحدار الذى أصاب الأمة العظيمة، أمة السلام والعلم والنور .

كما انحلَّ العالمُ الإسلاميُّ وانقسم إلى دويلات وإمارات وشِيَعٍ، وانحلت

الدويلاتُ إلى عرقيات وقبائل وبطون، وكان أن انتقل مشعلُ التفكير من المسلمين إلى الأوربيين منذ القرن السابعَ عشرَ من الميلاد، وقد سار هؤلاء فى طريقهم يؤمُّهم الفكرُ الإسلامى وتقودهم علومُ المسلمين ونظمُهم الاجتماعية والأخلاقية ينتفعون بما نالوه من ثمار الفكرِ الإسلامىّ .

نموّ الحياة فى أوربا :

ولما انتقل النشاطُ العلمىُّ إلى أوربا تبعه النشاطُ الصناعىُّ، والتجارىُّ، وبالتالى انتقل الرخاءُ من الشرق إلى الغرب، بعد أن كانت الحياةُ الاقتصاديةُ راكدةً فى الغرب وفى غاية الازدهار والنماء فى الشرق، إذ كان فى يد المسلمين زمامُ النمو الاقتصادى والازدهار الاجتماعى .

وظل النور باقيًا :

على أن الفكر الإسلامىَّ لم يمت فى الشرق، بل ظل ضعيفًا مستورًا يتحيَّنُ الفرصَ للنشاطِ والظهورِ، وقد أُتيحت له صحواتٌ من حينٍ إلى آخرَ على أيدى بعض المفكرين المسلمين الذين نهضوا ليجَدِّدوا للحياة الإسلامية شبابَها، ويعيدوا المسلمين إلى سابق عهدهم وعزهم، ويخلِّصوا العقيدةَ الإسلاميةَ من الشوائب التى دخلت عليها، وكان من أبرز هؤلاء المفكرين شيخُ الإسلام ابنُ تيمية، وتلامذته، ومن أبرزهم : ابنُ قيِّم الجوزية وغيره .

ويذكر السيد محمد شريف الهندى مجموعةً من العلماء والمفكرين الذين ظهروا فى تلك الفترة وحاولوا تبصيرَ المسلمين ومنهم : «الكاتبى، والأصفهانى ، وصدر الدين الشيرازى ، والتفتازانى وغيرُهم» ، ثم توالى ظهور أعلام قاموا بجهود مشكورة ، وفى القرنين التاسعَ عشرَ والعشرين من الميلاد بصفة خاصة.

ذلك هو حال الضعف الذى أصاب العالمَ الإسلامىَّ فى المدة من القرن

الثالثَ عشرَ إلى السادس عشر من الميلاد .

أما القرون التالية، فتُعدُّ عصرَ ظلامٍ بالنسبة للعالم الإسلاميّ، حيث ابتُليت البلادُ الإسلاميةُ بالاحتلال الأوربى، وبتوجُّهات العثمانيين وسعيهم لإنهاض تركيا فحسب، فزادت الحالةُ الفكريةُ سوءًا وانتشر الجهل .. وازدادت البدعُ والشعوذَةُ شيوعًا ، وظلم المسلمون أنفسَهم حين تخلَّوا عن جوهر دينهم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] .

تلك لمحة للتذكير والاعتبار ونسأل الله السلامة من أسباب الضعف، وأن يجمع أمة الإسلام على كلمة واحدة .



كلمة :

إن أصول هذه الرسالة وما يليها مُستقاةٌ من مذكرات لى وبحوث كتبتُها قبل نحو ثلاثين عامًا ونحن الآن فى عام ١٤٢٢ من الهجرة وأذيعت على حلقات يومية على مدى ستة شهور تحت عنوان (الإسلام والعلم) تناولت فروع العلم والمعرفة وريادة علماء حضارتنا فيها عن طريق البرنامج العام بالرياض وجدة.

وأضع هذه الرسالة وما يليها بين يدى القارئ يستمتع بما حققته الحضارةُ الإسلامية من خير ورحمة للإنسان فى كل مكان، وما حققه علماءُ المسلمين فى مجال التأليف والبحث فى التاريخ العام، والسيرة والمغازى والتراجم وهو الجانب الذى تم اختياره لهذه الرسالة، ويليها دراسة عن الطب وتطور فروعه ونظمه ثم نماذج لعباقرة فى السياسة والعلم وكل وجهة من هذه الرسائل تفسّر المراد بإيجاز، وقد يجد الباحث من الشباب فيها بداية انطلاق إلى بحث أرحب وأوسع وأوفى فى الأدلة والبيان – والله أعلم .

أحمد بن محمد طاحون

القاهرة ١٤٢٢ – ٢٠٠١م

❋ ❋ ❋

الرسالة الثالثة :

الطب ووسائله ونظمه وتطوره
في ظلال الحضارة الإسلامية

«الرازى هو الطبيب العالمى والمراقب المفكر والبحاثة والكيميائى المستقل والمجرّب الناجح وهو أخيرًا المنهجى فى علمه الذى أضفى على الطب فى عصره نظامًا رائعًا ووضوحًا يثير الإعجاب»

«زيغريد هُونكه الألمانية»

مؤلفة «شمس العرب تشرق على الغرب»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾

[الأعراف : ٣٢]

المدنيّة الأوربية الحديثة

وليدة

الحضارة العربية الإسلامية

القاهرة فى : ١٤٢٣ من الهجرة
٢٠٠٢ من الميلاد

بين يدى هذه الرسالة:

أجمع المفكرون والمتخصصون من الغرب ومن الشرق على أن «عِلمَ الطبِّ» قد تقدَّمت بحوثُه على أيدى العلماء فى ظلال الحضارة الإسلامية ، وإليهم يرجع الفضلُ فى أنهم حافظوا على الطب اليونانى القديم وغيره ونقَّحوه وصحَّحوا أخطاءه، وأضافوا فروعًا جديدةً إليه ، كما أضافوا نظرياتٍ ووسائلَ ذاتَ أهمية عظيمة إلى الموادِّ العلمية التى نقلوها عن الطب الهندى واليونانى والفارسى، ومن ذلك أنهم: كانوا سباقين إلى إنشاء المشافى (البيمارستانات) على أصول وقواعد علمية، وجعلوا من «المَشْفَى» مدرسة طبيةً تجمع بين النظر والتطبيق، إلى جانب المدارس الطبية والمكتبات المتخصصة ومراكز الترجمة الملحقة بها.

هذا إلى جانب تأليف الكتبِ العلمية الطبية الجامعة ومنها «كتاب القانون» لابن سينا، وكتاب «الحاوى» لأبى بكر الرازى، وعن هذين الكتابين وغيرهما أفاد الأوربيون مادة علميةً غزيرة.

كما أخذ الأوربيون عن الكتب العربية علمهم بالعقاقير والأدوية الـمُرَكَّبة والـمُفْرَدَة، وكان كتابُ « ابن البيطار» أحدَ المراجع لديهم منذ القرن الثالثَ عشَرَ حتى أواسط القرنِ الثامنَ عشرَ ، وقد شرح فى كتابه ألفًا وأربعمائة نَبْتَةٍ طبِّية مع ذكر أسمائها وفوائدها ومع شرح فوائدَ موادَّ معدنيةٍ وحيوانيةٍ ، ومن كتبه «المغنى فى الأدوية المفردة» ، ويقول الدكتور سعيد عاشور: «أما فى الصيدلة فيشهد العلماء على أن العرب كانوا أول من وضع: «الأقرباذين أى كتب الأدوية» وأول من أسَّس مدرسة خاصة للصيدلة، وأول من أسس«الحوانيت» لبيع العقاقير والأدوية، ومنذ زمن الخليفة «المأمون العباسى» صار يُفرَض على الصيادلة والأطباء أن يجتازوا امتحانًا خاصًّا» .

ومن الذين اشتملت عليهم قائمةُ التاريخ العلمى فى مجال العقاقير والأدوية

«محمد التميمى المقدسى» الذى تضمن كتابُه الحديثَ عن العقار المضادِّ للتسمُّم والدواء السائغ لمشاكل الهضم وغير ذلك، والطبيب «ابن جزْلة» [القرن الخامس] صاحب كتاب «منهج البيان فيما يستعمله الإنسان» والطبيب الوزير عبد الرحمن ابن شهيد الأندلسى وله كتاب فى الأدوية المفردة، وهناك أيضًا كُتب الطبيب «ابن التلميذ» البغدادى [القرن الخامس] و«الرازى» وما تضمنه كتاب «ابن سينا» فى العقاقير وغيرها ، كما أن هؤلاء فى هذه المرحلة قاموا بفصل حقل مُحضِّر الدواء عن حقل واصف الدواء ، وذلك لأول مرة فى تاريخ العلم.

وهذا إلى جانب الجهود العلمية الكثيرة التى يشهد لها أهلُ العلم فى الشرق والغرب ، وقد اشتملت هذه الجهودُ على ميادين العلوم العقلية والكونية والعملية ؛ فى الكيمياء والجغرافيا والتاريخ والسيرة والرياضيات والفلك وعلم النفس والاقتصاد والعمران، وغير ذلك، وقد أرست هذه العلومُ القواعدَ المتينَةَ لبناء صروح عالية لهذه العلوم التى أخذت تتطور وتزدهر وتنمو بالتدريج.

إن وراء هذه الجهود العلمية لألوف من علماء هذه الأمة الإخلاصَ والرغبةَ فى تحقيق الخير للإنسان مسترشدين بتعاليم القرآن الكريم وتوجيهات النبى الأمين ﷺ ، وإن الأمة العظيمة حين انقسمت وثارت بينهم الفتن لأسبابٍ عِرقية أو حزبية أو سياسية أو غير ذلك أخذت فى التراجع حتى وصل بها الحدُّ إلى مرحلة مراجعة الماضى وعلومه وفنونه ، وقَلَّ الابتكارُ مما يدعونا إلى ضرورة اتجاه حياتنا نحو الترابط والتماسكِ والتساند والرجوع إلى مصدر القوة فى كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ . وقانا الله شرَّ الفتن ما ظهر منها وما بطن.

أحمد بن محمد طاحون

القاهرة فى: المحرم ١٤٢٣

مارس ٢٠٠٢

لمحة عن العناية بنقل علوم الأمم القديمة:

وأحيــــا المسلـــمون
التراث العلمى والفكرى للأمم القديمة

فى العصر الأموى : الترجمة والتسامح : إن حركة اتصال المسلمين بعلوم الأمم القديمة بدأت مبكرة، ففى عهد الدولة الأموية كانت هناك مراكزُ عديدةٌ للثقافة اليونانية منتشرة فى بعض البلدان الإسلامية، وكان من أهمها «الرُّهَا» مقرُّ السريان المسيحيين، و«حَرّان» مقرُّ السريان الذين عُرفوا بالصابئة، وكذلك «أنطاكية والإسكندرية» فضلًا عن عديد من الأديرة فى سورية، وبلاد النهرين، وكلها كانت مزوَّدةً بمكتبات كبيرة مما جعلها مراكز للدراسات العلمية والثقافية، ولقد أبدى خلفاءُ بنى أميةَ تسامحًا عظيمًا عندما تركوا المدارس المسيحية، وكذلك المدارس الصابئية، والفارسية فى الإسكندرية وأنطاكية وغيرها من البلدان التى صارت أجزاء من الدولة الإسلامية، هذا فضلًا عن مدرسة «جنديسابور» التى أسسها فى فارس بعضُ علماء النساطرة الذين فَرُّوا من الدولة البيزنطية بسبب اضطهادها للعلم والعلماء، ولقد اهتمت بعضُ هذه المدارس بنقل علوم اليونان وفلسفتهم إلى اللغة العربية، وبتشجيع من الأمير الأمويّ خالدِ بنِ يزيدَ ، كما تمَّ نقلُ كثير من مؤلفات اليونانيين فى العلوم وبخاصة الكيمياء والطب إلى العربية فى القرن السابع بعد الميلاد.

اتّساع نطاق الترجمة فى العصر العباسى: وإذا كانت حركةُ الترجمة قد اتخذت طابعًا فرديًا فى العصر الأموى، فإنها لم تلبث أن نُظِّمت تحت إشراف الدولة فى العصر العباسى، مما أدى إلى ازدهارها بفضل تشجيع الخلفاء، فقد بعث الخلفاء والأمراء المسلمون بعثات خاصة تجوب أقطار الأرض بحثًا عن المخطوطات

العلمية القديمة، فى بيزنطيّة والهند، ويدفعون مقابل الحصول عليها أثمانًا باهظة. فقد أوفد الخليفة «المنصورُ» – ثانى خلفاء بنى العباس – مبعوثيه إلى ملك الروم يطلب بعضَ الكتب اليونانية، وكذلك فعل الخليفةُ المأمونُ إذ أوفد الرسل إلى الإمبراطور «ليو الأرمنى» صاحبِ القسطنطينية لطلب بعض الكتبِ اليونانية، فكان من جملة ما بعث به ملكُ الروم كتاب «إقليدس» وبعض كتب الطبيعيات، حيث قرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها، وازدادوا حرصًا على الظفر بما بقى منها ، كما يقول ابن خلدون.

تنافس رجال الدولة مع الخلافة: وازدادت رغبةُ المسلمين فى الحصول على المخطوطات العلمية النادرة، وأصبح اقتناء المخطوطات التى لم تُترجم هوايةَ الأمراء والوزراء وسَرَاةِ القوم، فضحُّوا بمبالغ طائلة فى بلاد الإغريق، وفى آسيا الصغرى وفى كل مكان وطئته أقدامُ العلماء الإغريق يومًا ما، وذلك عن طريق بعثات من العلماء أو السماسرة، وكان هؤلاء الرجال يعودون وهم يحملون نفائس الكتب العلمية فى مختلف العلوم بعد أن يدفعوا ثمنًا باهظًا لها.

عمليات إنقاذ لتراث الفكر الإنسانى: وهكذا سلك المسلمون كل سبيل من أجل الحصول على المخطوطات النادرة، من ذلك قيام بعض المسلمين بالتنقيب عن الكتب فى قَبْوٍ أثرى بالإسكندرية حتى عثروا على كتاب فى فنون الحرب وجدوه بين حجرين هائلين، وتحت جدرَان دَيْر قديم فى سورية عثر المنقبون على كتاب موضوع فى قِدر مُغلقة، ويحدثنا محمد بن إسحاق عن محاولة قام بها فى آسيا الصغرى وعلى مسير ثلاثة أيام من بيزنطية من أجل البحث عن كنز من كنوز المعرفة فى معبد يونانى قديم، له باب حديد ضخم فيقول: «لقد رجوتُ الحاكمَ أن يفتح لى هذا المعبد، ولكنه ماطل فى ذلك، لأن أبواب هذا المعبد لم تُفتح منذ انتحلوا المسيحية، ولكننى لم أكفَّ عن إغرائه، فعاوَدْتُه فى مناسبات عِدَّة،

وطلبت إليه ذلك كتابةً ومشافهةً فى جلسة من جلسات بلاطه التى اشتركتُ فيها، وأخيرًا وافق على فتحه ، فرأيتُ فى هذا المبنى المشيَّد بأحجارِ المرمرِ الفاخرة رأيتُ على حوائطه من الكتابات والرسوم، ما لم أر أفخم ولا أجمل منه، ورأيتُ من المخطوطات القديمة ما يُحَمِّل عددًا من الجمال ، إنها تُقارب الألف كتاب، وكان جزء منها ممزقًا والجزء الآخر نصيبًا للديدان».

وارتبط الحصول على الكتب والمخطوطات بالجهود السياسية:

ولقد بلغ من حرص الخلفاء العباسيين على الكتب العلمية القديمة أنهم جعلوا تسليمَ المخطوطات النادرة شرطًا من شروط معاهداتِ الصُّلح التى تتم بينهم وبين أعدائهم ، فكما تطلب الدولةُ المنتصرةُ من الدولة المنهزمة تسليم أسلحتها، وسفنها الحربية كشرط أساسى لعقد الصلح كان خلفاءُ بنى العباس يطلبون تسليمَ المخطوطات الإغريقية القديمة مقابلَ إتمام الصلح، فقد طلب هارونُ الرشيدُ بعد احتلاله لعمُوريَّة وأنقرة تسليم كتب علماء اليونان القديمة، وكذلك فعل الخليفةُ المأمون بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قيصر بيزنطة إذ طالبه بتسليم أعمال علماء اليونان الأقدمين التى لم تتم ترجمتها بعدُ إلى اللغة العربية، واعتبر ذلك بديلًا عن تعويضات الحرب، ولا عجب فى ذلك، لأن الكتب أسلحة تساهم فى بناء مجد الأمة.

شهادة للمسلمين بالتسامح فى استنارة الفكر: تقول «زيغريد هونكه» المستشرقة الألمانية: « لم يكن ما أنقذه المسلمون من ثقافات ليُحفظ فى المتاحف والأقبية بعيدًا عن النور والهواء ، كلا إن كل ما أنقذوه من الفناء قد خرجوا به من عالم النسيان والتعفُّن، وبعثوا فيه حياةً جديدةً، وجعلوه فى متناول كلِّ راغب عن طريق ترجمته، إلى لغة حيَّة فى كل مكان ألا وهى لغة القرآن».

إخضاع فكر الفلاسفة للنقد والمقاييس الصحيحة: أقبل المترجمون فى

ظلال الحرية على نقل الفكر الفلسفى اليونانى وما فيه من تأملات فيما وراء الطبيعة ، أى التفكر فى عالم الغيب دون مرشد من آيات الوحى الإلهى يهدى العقل وينير له الطريق، وإن لدى المسلمين فى كتاب ربِّهم وفى أحاديثِ نبيهم ﷺ ما يُغنيهم عن ضلالات الفكر ومتاهاتِ العقل، ومنذ عصر الخليفة المأمون العباسى توسع المترجمون فى نقل الفكر اليونانى بدعم من الخليفة، وكان يرسل الهدايا إلى ملوك الروم ، كما قال ابنُ أبى أصيبعة ، ويسألهم إمداده بما لديهم من كتب الفلاسفة حتى وصل بغدادَ كتبٌ من مؤلفات (أفلاطون، وأرسططاليس، وأبقراط، وجالينوس، وإقليدس، وبطليموس، وغيرهم) وكان المأمون يتابع المترجمين ويطلب إحكام الترجمة.

ولكن العلماء والمترجمين كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «نظروا فى الفلسفة اليونانية، فانتقدوا منها الباطل، وأظهروا الحق وساهموا فى تكملة صرح الحق على قدر طاقتهم» لقد حولوا الآراء الفلسفية إلى أغذية صالحة بعد أن صححوا أخطاءها، وأضافوا إليها، هذا إلى جانب ما ابتكره العلماء والمفكرون فى فروع المعرفة، ولقد صار لهم منهجُهم الخاصُّ فى «البحث العلمى» يخالف أسلوبَ مفكرى اليونان وغيرهم من الهنود والفرس والسريان، وإن المنهج العلمى للمسلمين هو الذى انتقل إلى أوربا وكان له أعظم الأثر فى بناء العلوم الحديثة .

قال الأستاذ «بلاسيوس»: « إن الإمام الغزالى حينما سمَّى كتابه «تَهافُت الفلاسفة» كان يريد أن يُمثِّل لنا أن العقل الإنسانىَّ يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها، كما يبحث «البعُوضُ» عن ضوء النهار، فإذا أبصر البعوضُ شُعاعًا يُشبهُ نورَ الحقيقة انخدع به فرمى نفسه عليه وتَهافَتَ وسقط فيه، ولكنه يخطئ مخدوعًا بأقيسة منطقية خاطئة فيَهلكُ كما يهلكُ البعوض» وذلك معناه أن العقل الإنسانىَّ فى بحثه فى أمور الغيب والإلهيات لا بدَّ له من نور الوحى الإلهى يرشده

ويُسدِّده فإذا استقلَّ العقلُ بالبحث قَصَّر، أو ضلَّ وضلَّل، وإذا عرف شيئًا فاتته أشياء ، يقول «بلاسيوس» : « إن الفلاسفةَ خُدعوا بأشياء أسرعوا إليها كما يسرع البعوض إلى النار بلا إعمالِ رَوِيَّة ، فتهافتوا وهلكوا الهلاك الأبدىَّ كما قال الغزالى » ، «وقال الأستاذ «دوجا» عن أصالة فلسفة ابن سينا وابتكاره: «هل يظن ظانٌّ أن عقلًا كعقل ابن سينا لم ينتج فى الفلسفة شيئًا طريفًا وجديدًا وأنه لم يكن إلا مقلدًا لليونان؟».

إن الأستاذ «دوجا» يؤكد بهذا استقلاليةَ علماءِ الأمة الإسلامية فى الفكر بعد أن هضموا الفلسفة اليونانيةَ وغيرها ، وأخضعوها للمقاييس الإسلامية الصحيحة وحولوها إلى فكر مستقيم.

إضافة وتنبيه: إنه على مدى قرن ونصف قرن من الزمان: عكف المترجمون على نقل أمَّهاتِ الكتب من اللغات ؛ السريانية ، واليونانية، والفهلويَّة، والهندية إلى اللغَة العربية، ولكى نتصوَّرَ مبلغَ عنايةِ المسلمين بالترجمة نضيف الحقائقَ التاريخية الآتية: إن المكتبات العامَّة التى أنشأها المسلمون فى بغدادَ، أو القاهرةِ، أو قرطبةَ وسائرِ الحواضر الإسلامية، كانت تُلحَقُ بكلٍّ منها قاعةٌ يلتقى فيها المترجمون، وتُوفَّرُ لهم فيها كلُّ الوسائل المُعينة على أداء عملهم.

وإن الخليفةَ العباسىَّ هارون الرشيد أسس فى بغدادَ «بيتَ الحكمة» أو «مدرسة الترجمة». وقد تطورت هذه المدرسةُ فى عهد الخليفةِ المأمونِ، وأخذت صورةَ «أكاديمية للترجمة»، واختار المأمون لإدراتها «يُوحنَّا بن ماسويه»، و هذه المدرسةُ قامت بجهود عظيمة فى ترجمة العلوم والمعارف السابقة، ولم يمض غيرُ وقتٍ قليلٍ على إنشاء هذه المدرسة، حتى أصبحت جميعُ معارف الأمم السابقة تقريبًا فى متناول المسلمين، وفى ترجمات مُتقَنة جيِّدة ودقيقة، هذا إلى جانب تنافُسِ سَرَاةِ القوم فى هذا الميدان، حتى أن أبناءَ «موسى بن شاكر» الثلاثة قد

خصَّصوا ريعَ أملاكهم الضخمة للإنفاق على الترجمة، وشراءِ الكتب، وجَمْعِ المخطوطات، فضربوا بذلك المثل لغيرهم، كما لقى المترجمون كلَّ حفاوة وتقديرٍ من جانب الدولة، فأغدق عليهم الخلفاءُ، وخصصوا لهم رواتبَ سخية، ومنحوهم الهبات والعطايا، تشجيعًا لِمَا يقومون به، وقد قيل: إن راتبَ كلٍّ من : المترجم حُنينَ بن إسحاق، وحُبيش الأعسم، وثَابت بن قُرَّة، بلغ خمسمائة دينار فى الشهر ، وقيل أيضًا إن الخليفةَ المأمونَ كان يقوم بتوزيع جوائزَ سخيةٍ عن الأعمالِ الأدبية والعلمية الممتازةِ فى يوم الثلاثاء من كلِّ أسبوع، ويذكرُ ابن أبى أصيبعةَ أن الخليفةَ المأمون بلغ من تقديره لجهود المترجم «حنينَ بن إسحاق» فى مجال الترجمة أنه كان يُعطيه من الذهب زِنةَ ما كان ينقله من الكتب إلى اللغة العربية، وكان الخلفاء يجالسون المترجمين على اختلاف أديانهم، ويقرِّبونهم، ويأكلون معهم.. وقد ذكر : «ول ديوارنت» « أن المترجم ثابتَ بنَ قُرَّة وهو رئيس جماعة من صابئة حَرَّان أن هذا المترجم قد حظى بعطف الخليفة المعتضد فكان يجالسه، ويؤاكله»

ومدارس للترجمة: ويذكر الدكتور يحيى شريف فى كتابه «تاريخ الطب العربى» : « أن المسلمين أنشأوا مدارسَ لتعليم المترجمين، وقد توفَّر أساتذةُ تلك المدارسِ على الترجمة، إلى جانب التدريس».

يقول «جروينباوم» فى كتابه «حضارة الإسلام» : «وبفضل هذه التراجم ظل جزءٌ كبيرٌ من تراث اليونان حيًّا، لا وجود له إلا فى التراجم العربية» .

وتقول المستشرقة «زيغريد هونكه» : «وبهذا حمى المترجمون العربُ آثارَ القدماءِ العمليةَ من الضياعِ والزوالِ، فكثير من المخطوطات لولا العربُ ما عرفنا اليوم عنها شيئًا، كَكُتب «جالينوس» فى علم التشريح، ومخطوطات «هيرون» و«فيلون» و«مينلاوس» فى الميكانيكا والرياضيات «وبطليموس» فى البصريات،

ومخطوطة «لإقليدس» فى علم التوازن، ومخطوطة فى ساعة الماء وقانون العوم «لأرشميدس» أنقذها «ثابت بن قرة» الطبيب وعالم الرياضيات الكبير، أما حنين ابن إسحاق فإنه لم يمت حتى أتمّ ترجمة أغلب أعمال الكلاسيّين ، وهكذا سار الركبُ قُدُمًا» .

إن الإسلام دعا إلى حرية الفكر والبحث والنقل والأخذ عن الآخرين ولكن دون جمود بل ينبغى النقد والتحليل وبيان الانحراف وتصحيح الأخطاء، فلم يصدَّ الإسلامُ عن علم نافع أو حكمة مفيدة أو فكرة تُثْرى الحياة، وتساعد على التقدُّم والازدهار، مع حماية العقائد، وصيانة الفضائل السامية والآداب العالية التى جاءنا بها دين الله عز وجل وبذلك يجتمع للمؤمنين خيرُ الدنيا وأسبابُ الفوز فى الآخرة ، وتكون هذه الأمة بحق خير أمة أخرجت للناس ونموذجًا عظيمًا للفكر المستقيم والأخلاق الفاضلة والوسطية والقوّة العاقلة العادلة.

إن تلك لمحة موجزة عن الجهود العظيمة التى شهد لها الغرب والشرق.



العناية بالطب والوقاية والنظافة:

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ ، قال: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء» أى ما أصاب الله تعالى أحدًا بداء، إلّا قدَّر الله له دواء، وقال ﷺ : «تداوَوْا يا عبادَ الله، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له شفاء، إلا السَّام» . والسام هو : الموت . وقال عليه السلام: « لكلِّ داءٍ دواءٌ فإذا أُصيب دواءُ الداءِ بَرَأَ بإذن الله عزَّ وجلَّ» [هذا الحديث جاء بعبارات متعددة عند أحمد وابن ماجه وغيرهما عن جمع من الصحابة]

التوكّل مع الأخذ بالأسباب الصحيحة:

أمرنا الإسلام بالأخذ بالأسباب فى كل أمور حياتنا، وحثَّنا على اتخاذ الحيطة لسلامة الأبدان، وحضَّ الإنسانَ على تحرِّى الوقايةِ من المُهلكات، كما عُنيت تعاليمُ الإسلام بالنظافة عنايةً كبيرة، كما نهى الرسول ﷺ عن الدخول إلى أرض ظهرت فيها أمراضٌ منتقلة ؛ كالطاعون والجُذام وألا يخرج واحدٌ من هؤلاء ليخالط قومًا أصحاء، وإن كلَّ ذلك يدخل فى نطاق ما نسميه فى عصرنا الحاضر «بالطب الوقائى» وفى نطاق هذا الطب الوقائى نسمع قوله تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

فى الأحاديث النبوية الشريفة السابقة يدعونا الهادى عليه السلام إلى ضرورة التداوى عند الشعور بالمرض: «تداوَوْا يا عباد الله»؛ لأن الله سبحانه وتعالى كما قدَّر المرض على عباده، قدَّر لكلِّ مرضٍ دواء، وحثَّنا رسوله الكريم الذى لا ينطق عن

الهوى على الأخذ بالأسباب الصحيحة كالابتعاد عن مخالطة المجذوم ونحوه وكالعلاج بالدواء المناسب، فالوقايةُ مأمورٌ بها، وإن تعاطى الدواء لا ينافى حقيقةَ التوكُّلِ على الله سبحانه ، ما دام المؤمنُ يعتقد أن الدواء إنما يساعد على البُرء وأن الشفاء بإذن الله وبتقديره سبحانه: «فإذا أُصيب دواءُ الداء بَرَأ بإذن الله».

رسالة الإسلام لخير الدنيا والآخرة :

ولما كانت رسالة الإسلام تسعى أوَّلًا إلى إصلاح نفوس البشر، وعقائدهم، وأخلاقهم، وتدعوهم إلى إخلاص عبادتهم لله وحده، فإن الإسلام لذلك لم يتوسَّع فى تعرُّضه للأمراض، ولا للتفصيل فى أمور الطب والدواء، واكتفى بالتوجيهات العامة فى هذا المجال، وقد جاء طبُّ الأبدان من تكميل شريعة الإسلام ومقصودًا لغيره، وحثَّ الإسلامُ الناس على ضرورة العناية بالصحة والطهارة والنظافة، والوقاية والأخذ بأسباب الشفاء، ثم تَرَك الإسلامُ للإنسان حريةَ البحث عَمَّا ينفعه، والتنقيب عَمَّا يَصلُح به أمرُه، ولقد أودع الله عز وجلَّ فى الإنسان طاقات عقليةً وذهنيةً وفكريةً تساعده، وقد يسَّر الله له أمورَ البحث والاستنباط.

واجتنب المسلمون المهلكات المعنوية والمادية: ولذا فقد استجاب المسلمون لأمر الإسلام، فأخذوا بالأسباب فى كل ما ينفعهم وابتعدوا عن كل ما يسبب الضرر، فاجتنبوا الخمرَ، ولم يتناولوا المخدِّر، ولم يأكلوا لحم الميتة، ولا لحم الخنزير ونحو ذلك من الخبائث التى تضرُّ بالنفس والعقل والبدن، كما أن المسلمين نبذوا عادات الجاهلية، فحاربوا الكهانة وحرَّموها كما أمرهم دينُهم ، ولم يعتمدوا على الخرافة والشعوذة فى معالجة الأمراض، فأبطلوا السِّحر، وطاردوا السَّحرة، وقضَوا على الاعتقادات الباطلة، فنبذوا «التطيُّر» و«الخرزةَ» والتنجيم وغير ذلك من أساليب المُشَعْوذين والكُهّان والعرَّافين والسحَرة وسائرِ أهل الدجَلِ، ولم يلبثْ أن

ازدادت أهميةُ الطبِّ عند المسلمين، مستجيبين لدعوة نبيِّهم ا لكريم ﷺ مثل ما جاء فى رسائل بعض الحكماء : «اعلمْ يا أخى: أن مداواة العلل الحالَّة بالأجسام وأن العلمَ بذلك من أجلِّ المعلوماتِ الطبيعية والمعارفِ الجسمانية، كما جاء فى الأثر الشريف: «العلمُ عِلمان، عِلمُ الأديان وعلمُ الأبدان» واستمَرَّتْ العنايةُ بالطب وبالنصائح الطبية فى صدر الإسلام، ثم فى عهد الدولة الأموية اتخذ خلفاءُ بنى أمية لأنفسهم أطباءَ خصوصيين، واعتنوا بالطب والأطباء، كما عُنوا ببناء دورٍ للمرضى، وقد حدَّثنا التاريخُ أن معاوية بنَ أبى سفيان - رضى الله عنه - اتخذ لنفسه طبيبًا خاصًّا نصرانيًّا يُدعى «ابن أُثال» ولا غرابة فى أن يتخذ الخليفةُ المسلم، طبيبًا نصرانيًّا ولا يجد حرجًا فى ذلك، فمن المعروف أن النبىَّ ﷺ أمر بأن يلجأ المسلمون إلى أطباءَ من أهل الذمَّة للعلاج حين أمر عليه السلام «الحارث ابن كلدة» وهو نصرانىٌّ بعلاج الصحابى الجليل سعدِ بن أبى وقَّاص - رضى الله عنه - عندما مرض هذا الصحابىُّ الجليلُ فى العام العاشر؛ ولهذا كثُر بعد ذلك عددُ المسيحيين واليهود الذين سُمح لهم بممارسة مهنة الطبِّ فى ظل الدولة الإسلامية، كما استعان بهم الخلفاءُ فى نقل علوم الأمم القديمة إلى اللغة العربية وفى مهامَّ مهنية وإداريةٍ متعددة؛ ولقد كان التسامحُ لهذا السبب ولغيره طابعًا عامًّا فى دولة الإسلام، فالجميع يتعاونون لدفع الضر وجلب النفع وبناء الأمة وازدهارها.

أول مؤسَّسة صحية: ومن مظاهر العناية بالمرضى فى عهد الدولة الأموية أن الخليفة الوليد بنَ عبد الملك، وجَّه عنايته نحو المصابين «بالجذام ، والعمى، والأمراض المزمنة» فرتَّب لهم من يُعنَى بأمرهم، وكان له الفضلُ فى بناء أول مؤسَّسة صحية فى الإسلام وعيَّن لها الأطباء، ورتَّب لهم النفقات، وأمر بعزل مرضى الجُذام فى مكان خاص بهم خوفَ انتشار العدوى، ولم يُهمل أمرهم، بل إنه أجرى عليهم الأرزاق، وقد استقدم الوليد عددًا من الأطباء اليهود والنصارى

للعمل فى هذه المؤسسة الصحية التى أنشئت على عهده، وإن الوليد فى ذلك يعمل بالأثر الإسلامى: «استعينوا على كلِّ صنعة بصالح أهلها» وبالتوجيه الإسلامى: «خُذ الحكمة، ولا يضرُّك من أىِّ وِعاءٍ خرجتْ»، مِمَّا يفتح المجالَ أمام الانتفاع بالـخُبَراء وبالخبرات اللازمة للازدهار والتنمية فى كل جوانب النشاط الحيوىِّ للأخذ بالتقانة (التكنولوجيا) المتقدِّمة ، من أجل تنمية الموارِدِ البشرية والأخذِ بكل سبيل طيب حلالٍ لدفع عجلة التنمية الاقتصادية إلى الأمام ، وكان هؤلاء الأطباءُ منذ العصر الأموى يقومون بعلاج المرضى، وبالإشراف على المؤسسات الطبية التى بدأ إنشاؤها منذ هذا العصر، كما كان بعضُهم يقوم بترجمة علوم الطبِّ إلى اللغة العربية وبتعليم الراغبين فى هذه الصناعة، وكان أول من تعيَّن فى تلك المناصب منهم راهب روميٌّ كان عالـمًا بصناعة الطب يقال له: «مورياتوس» وقد قام هذا الطبيب بتعليم صناعة الطب والكيمياء ليزيد بن الخليفة الأموى معاوية، ثم لأبى هاشم خالد بن يزيد بن معاوية، فانظُر لأولاد بيت السلطان فى دار الخلافة وإقبالهم على التعلُّم من خبير نصرانى غير عربى، .وكان هذا فى الوقت الذى يحتقر فيه الأوربيون مهنةَ الطب ، ولو كانت بالتجارب البدائية المتوارثَة ، كما كانوا يُحرمون التداوى بالأعشاب ونحوها بحجة التوكل.

وبدأ عدد الأطباء يزداد، واشْتُهر منهم فى ذلك الحين: «إسطفانوس» وكان يعمل بالترجمة إلى جانب مزاولة العلاج، وبعده جاء «ماسرجويه» وهو يهودى كان بارعًا فى العلوم الطبية، وقد قام بترجمة كتاب فى الطب من السريانية إلى العربية ، فلم يقتصر أمرُ الترجمة على النقل من اليونانية فحسب بل كانت الترجمة تتم من الفارسية والهندية وكذلك السريانية، هذا إلى جانب الطبيب «ابن أُثال» الذى كان خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، «وعبد الملك بن أبجر»

«وأبو الحكم الدمشقى» وغيرهم، واشتغل بالطب فى عهد بنى أمية أيضًا بعض النساء، اشتهرت من بينهن طبيبة اسمها «زينب» وقد قال عنها ابن أبى أُصيبعة فى كتابه الذى ترجم فيه لأربعمائة طبيب : «كانت «زينب» عارفة بالأعمال الطبية خبيرة بالعلاج ومداواة أمراض العين، والجراحة، ومشهورة بين العرب بذلك».

زادت العناية بالطب وبالترجمة فى العصر العباسى: وانتهى عصرُ بنى أمية، وجاء عصر الدولة العباسية «فى القرن الثانى من الهجرة» ، وازدهرت الترجمةُ التى بدأت بواكيرُها فى العصر الأموى، واتَّسعت آفاقها، وانقطع لها المتخصصون من الأطباء والعلماء، حيث عكفوا على دراسة ما أخرجه «اليونان والسريان والكلدان» فى الطب، وأصلحوا أخطاءه، وزادوا عليه زياداتٍ ذاتَ فاعلية يقول عنها كتاب «تراث الإسلام» : «إن العرب زادوا على الطب اليونانى كثيرًا، وزيادتُهم فيه مبنيةٌ على التجربة» ذلك أن مشاهير علماء الطب اليونانيين كان عملهم فى الطب عن طريق النظر والتفكير دون إجراءِ بحوثٍ عملية أو مزاولة مهنةِ الطبِّ ظنًّا منهم أن التجريب العمليَّ لا يليق بذوى التفكير الفلسفى والذكاء العالى، لذا جاءت ثمراتُ عملهم ناقصةً وقاصرةً ، وفيها أخطاء صححها العلماءُ فى ظلال حضارة الإسلام، وقد أشار كثير من الباحثين الأوربيين إلى ذلك وأشادوا بجهود الدولة وعلمائها فى أمة الإسلام، قال السير: «وليم أوسلر» فى كتابه «تطور الطب»: «إن المسلمين أشعلوا سِراجَهم من القناديل اليونانية، وبلغت مهنةُ الطبِّ عند المسلمين فى أثناء الفترة من القرن الثامن إلى الحادىَ عشرَ من الميلاد من المكانة والأهمية مالا نكاد نجد له مثيلاً فى التاريخ».

وتحت رعاية من الخلفاء العباسيين، استمرت المسيرةُ حتى نقل المترجمون

إلى العربية كل ما كتبه «هيبوقراط، وجالينوس، وبولس الإيجينى» وغيرهم من العلماء القدماء، ولكن العلماء فى الدول الإسلامية، ما لبثوا أن بزُّوا السابقين، وتفوَّقوا عليهم: فصحَّحوا كثيرًا من أخطاء علماء اليونان، ونقلوا علوم الطب من مجال التفكير النظرى، إلى مجال التجريب والممارسة كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ لأن علماء المسلمين فى تلك العصور الذهبية كانوا على قدر كبير من التقدم الفكرى يسمح لهم باستيعاب علوم الأقدمين، كما يسمح لهم بتطويرها والتجديد فيها، والإضافة عليها، ويعلل الدكتور محمد كامل حسين لقدرة علماء المسلمين على ذلك فيقول: «إن التفكير العربىَّ فى ظل الإسلام كان قد بلغ فى تطوره حدًّا يجعله قريبَ الشبه جدًّا بالتفكير اليونانى، وهذا سرُّ نموِّ الفكر اليونانى لدى العلماء العرب، ولو لم يكن الأمر كذلك، لبقى الطبُّ اليونانىُّ فى المسلمين كما كان عند السريان، أو عند اللاتينيين فى «ساليرنو» أى لجَمُدَ على ما كان عليه عند اليونانيين، ولم يتطور على النحو الرائع الذى تم على أيدى المسلمين» ثم يستدلُّ الدكتور كامل حسين على وجهة النظر تلك فيقول: «خُيِّل إلى كثير من مؤرِّخى العلوم والفلسفة والطب عند المسلمين أن الحضارة العربيةَ الإسلاميةَ كانت أرضًا جرداء حتى جاءها العلم اليونانى فروَّاها، وأخصبها» وهذا خطأ، فما الدليل إذن؟ ويسوق الدكتور كامل حسين الدليل فيقول: «إن المسلمين كانت لهم علومهم الخاصةُ بهم، ساروا فيها شوطًا كبيرًا، ووضعوا لها أصولًا مستقرة، ومناهج واضحة، وكان هذا من عملهم وحدهم أى على غير مثال سابق، ومن ذلك علمُ **المسلمين بالفقه**، ولعله أتمُّ العلوم الإسلامية العربية، وأعرقُها أصالة، ولم يقل أحدٌ أنهم نقلوا شيئًا من علمهم **بأصول التشريع وأحكامه** الفقهية عن غيرهم، كما يدلُّ تمكنُهم من هذا العلم على نُضج فى الفكر لم يفطن إليه من تعرَّضوا لتاريخ العلوم الطبيعية وحدها عند المسلمين، ومن ذلك أيضًا علمُهم «**باللغة والنحو والعَروض**» وهذه علوم

خاصة بالعرب والمسلمين ولهم فيها بحوثٌ عميقة وافية وقواعد مستقرة، وشروحٌ مستفيضة، هذا إلى جانب علوم التفسير، وما يتصل بالقرآن الكريم من مفردات وأحكام وأسباب نزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كالإعجاز والبلاغة، وكذلك **علوم الحديث والسنة النبوية** وهذه كلها علوم عربية إسلامية بحتة، وضع العلماء أصولها وفروعها وشروطها، وبالطبع لم يسبقهم إلى ذلك أحدٌ» .

أعظم دافع لنبوغ علماء المسلمين: «إذن فالمسلمون قد أعدَّتهم علومُهم الخاصة بهم، ومنهجُهم فيها، وتَقدُّمُهم فى أصولها وفروعها إلى استقبال العلوم التى لم يكن لهم بها عهدٌ، والتى تقوم فى جوهرها على تفكير قريب جدًّا من تفكيرهم، وهذا هو سِرُّ النجاح الذى أحرزته الفلسفةُ والطبُّ والعلومُ اليونانية لدى المسلمين والعرب، فقد عملوا على تهذيب هذه العلوم وعلى استقامة أفكارها وتنقيتها ، فلم يأخذ المسلمون والعربُ من علوم اليونان مثلًا إلا ما وافق طريقةَ تفكيرهم، وليس صحيحًا أنهم تعلموا هذا النوع من التفكير أى التفكير العلمى بعد أن عرفوا المدنيةَ الإغريقية، بل الصحيح أنهم عرفوا تراثَ هذه المدنية لأنها توافقت مع تفكيرهم حينذاك» .

من جهود علماء المسلمين فى مجال «الطب»: وعن هذه الجهود تقول المستشرقة الألمانية « زيغريد هونكه » : « ومرَّ قرنٌ من الزمان عُنى خلاله المسلمون بمعارف السالفين من : الإغريق ، والهنود ، والسريان ، والفرس ، فاستوعبوها خير استيعاب نحو عام ثمانين بعد الثمانمائة من الميلاد [القرن الثانى من الهجرة] حين رحل «المفكر الطبيب أبو بكر الرازى» لأول مرة إلى بغداد فوجد هناك كلَّ كتبِ الطب القديمة مُنقَّحة، ومترجمة إلى اللغة العربية وإلى جانبها تآليف طبية صنفها الأطباء العرب : كالكندى، والكنانى، ويحيى

ابن مسكويه، وثابت ابن قرة، وحنين بن إسحاق ، أما أبو بكر الرازى فقد استوعب جهودَ هؤلاء ثم دفع بالطب خطواتٍ واسعةً إلى الأمام خطواتٍ مصيريةً فى تاريخ الطب، تمامًا كما كانت خطوات «أبو قراط» اليونانى فى تاريخ الطب الإغريقى، فهما متشابهان فى كثير من الوجوه، ويعطى الأستاذ «قدرى حافظ طوقان» أمثلة تبرز فضل الرواد فى الأمة الإسلامية على إنهاض العلوم فى أوربا فيقول: «ومما يدل على تقدير الغربيين للطب فى الدولة الإسلامية ولرجاله أن جامعة «برنستون الأمريكية» قدَّرت خدمات الحضارة الإسلامية وأفضالها على الإنسانية وعلى الثقافة ، فراحت تُخصِّصُ أفخمَ ناحيةٍ فى أجمل أبنيتها لمآثر عَلَم من أعلام الحضارة الخالدين ، وهو الطبيب «أبو بكر الرازى» العالمُ والمفكر المسلمُ صاحبُ كتابِ « الحاوى فى الطب »، كما راحت تُنشئ دارًا لتدريس العلوم العربية وللبحث عن المخطوطات وإخراجها ونقلها إلى الإنجليزية ، حتى يتمكن العالَمُ من الوقوف على أثر التراث العربى الإسلامىّ فى تقدُّم الطب وازدهار العمران؛ علمًا بأن بحوث علماء المسلمين قد اعتمدت على المشاهدة والتجريب، وامتازت بالدقة والابتكار فكانت هذه البحوث أساسًا للنهضة الطبية المعاصرة، فعلماؤنا هم الذين أعطوا مفاتيحَ هذا العلم وغيره من العلوم للأوربيين وغيرهم، فى حين لم يكن للأوربيين اشتغالٌ بهذه العلوم ولا درايةٌ بالطب اليونانى القديم بل كان السائد فى أوربا أن الطب والعلاجَ يتمُّ باعتراف المريض بذنوبه أمام رجل الدين الذى يحثه على تصفية أمورهِ الدينية والدنيوية معًا على أكمل وجه ، لذا قال بعضهم: «إن علم العقاقير بأشكالها المختلفة يرجعُ فى أصله إلى الفنِّ الباطل الخادع القائم على المادة» وقد اعتبروا تعاطىَ الأدويةِ من الأعشاب والجذور عملًا أرضيًّا فيه تألية للمادة ، ويتنافى مع الإيمان ، ومن نصيحة الواعظ المرموق « برنارد كلارفو » للرهبان المرضى فى القرن الثانى عشر قوله:

«إنه يأبى لخلاص أرواحهم أن تعبث به عقاقيرُ أرضيةٌ فتُهدِّد هذا الخلاص».

تلك لمحات يظهر لنا منها بوضوح أثر المسلمين والعرب فى إيقاظ أوربا والأخذ بيد الأوربيين إلى الأمام، فقد فتحوا مدارسهم فى الأندلس وصقلية وفى مشرق أمة الإسلام وغربها لكل وافد من الأوربيين يطلب العلم ، وينقل إلى لغته ما شاء ، ويجد الدعم والتشجيع والعون من الدولة ومن الناس، ثم خطا الأوربيون خطواتٍ عظيمةً بعد ذلك أدَّتهُم إلى التفوق فى الطب وغيره من سائر العلوم التجريبية وصرنا نحن أهلَ الشرق نأخذ عنهم ونتعلم فى مدارسهم وجامعاتهم، وهكذا العلم أخذٌ وعطاء، فالكشوفُ العلمية لا وطنَ لها.



خبراء أوربيون يوضحون حقائق التاريخ

بالنسبة لجهود العرب العلمية

جاء فى كتاب «تاريخ أوربا العام» «للافيس ورامبو»: « .. وفى الطب أدخل المسلمون تحسيناتٍ عظيمةً على ما كان معروفًا عند الإغريق، ودرسوا علم وظائف الأعضاء «الفسيولوجيا» وعلم الصحة، وتكاد تكون مادتهم الطبية هى نفس ما لدينا اليوم، ولا يبرح كثير من طرق علاج أطباء المسلمين مستعملًا بين ظهرانينا إلى اليوم، وكان جراحو المسلمين يفهمون استعمال التخدير، ويقومون ببعض العمليات الجراحية التى تُعَدُّ من أصعب العمليات المعروفة، فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسةُ تحرم ممارسة الطب، انتظارًا منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التى يقوم بها القساوسة، فى هذا الوقت كان لدى المسلمين والعرب علمٌ طبىٌ حقٌّ.. ». وانظر ما جاء فى كتاب «التاريخ العام» عن إنجلترا وأحوالها فيما بين القرن السابع من الميلاد إلى ما بعد القرن العاشر: «كانت إنجلترا فى القرن السابع إلى ما بعد القرن العاشر: فقيرة فى أرضها منقطعةَ الصلات بغيرها، تعترض الأمراضُ والأوبئة المتكررةُ المواشىَ والسوائم، كما كانت أوربا غاصَّة بالغابات الكثيفة، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة فى المدن روائحُ قتالة، لم يعرف أهلها النظافة..» .

ويقول المفكر الأوربى «درابر» فى تعليقه على الأحوال العامَّة : «فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة، ومات الطب، وانتعشت أحابيلُ وحِيَلُ الدجالين، وكلما دَهَم البلادَ الأوربيةَ وباءٌ فزع رجالُ الدين إلى الصلاة، وأغفلوا أمر النظافة، فكانت الأوبئةُ تفتك بهم فتكًا ذريعًا..»، ويقول الأستاذ جلال مظهر «ويكفى أن يتذكَّر كلُّ إنسان فى هذا المقام أن محكمة التفتيش الدينية قد هدمت

فى القرن السادسَ عشرَ بعد طرد المسلمين من إسبانيا الحمامات التى كان المسلمون قد أنشأوها باعتبارها من مُخلَّفات المسلمين».

وفى ذاك الوقت كان المسلمون مثلًا أعلى فى النظافة، والتقدم العقلى والاجتماعى، فكانت مدنهم تزخر بالحمامات العامة، وأُلحِقت بكل مسجد من ألوف المساجد فى القرى والمدن «دورة المياه»، ذلك لأن النظافة فى الإسلام لازمةٌ من لوازم المسلم، فالوضوء فَرضٌ لا تصحُّ صلاةُ المسلم إلا به، والغسل فريضة فى كثير من الحالات ، كما أنَّ المسلمين أُمِروا بأن يأخذوا زينتهم عند الذهاب إلى المساجد، ونهُوا عن أكل الثوم والبصل وما شابه ذلك مما يُسبب روائحَ كريهة عند اعتزام المسلم الخروج لصلاة الجماعة، أو لحضور اللقاءات العامة فى العيدين أو سائر المناسبات الاجتماعية.

المشافى والمؤسسات الطبية : اطَّلَعَ الأوربيون وقادتُهم على المشافى فى أقطار الأمة الإسلامية فى فترة زحفهم على البلدان الإسلامية فى سنى الحروب الصليبية، ثم بعد هذه الحملات التى اطلع فرسانُ الأوربيين فى أثنائها على المستشفيات فى بلدان الأمة الإسلامية، أخذوا بعد عودتهم إلى بلادهم فى إنشاء مستشفيات مثلها ، وذلك منذ نهاية القرن الثانىَ عشرَ من الميلاد ثم نما علمُهم بالطب وبطرق العلاج والرعاية الطبية شيئًا فشيئًا حتى لقد مرَّ زمنٌ طويل على الأوربيين «حتى استطاعوا أن يقوموا بالمعالجة الطبية على أكمل وجه». كما قالت «زيغريد هُونكه» الألمانية.

ويعطينا الدكتور «إدوارد براون» وهو مستشرق بريطانى صورة عن عناية المسلمين بالطب والعلاج والمستشفيات فى تلك العصور فيقول فى كتابه : «الطب العربى» : « وكانت المستشفيات تقام بأعداد كبيرة فى جميع المدن المهمة بأموال المتقين من المحسنين » ويصف لنا نظام المستشفى الذى أنشأه السلطانُ

قلاوون فى مصر فى القرن الثالثَ عشرَ بعد الميلاد وسُمِّى « المارستان الكبير المنصورى» فيقول براون :« وبلغت المنحةُ السنويةُ للمستشفى مليونًا من الدراهم، وكان يُقبل للعلاج فيه كلُّ المرضى من الأغنياء والفقراء، من النساء والرجال» أما عن النظام الداخلى والتخصصات داخل المستشفى فيقول: « وكان المستشفى يحتوى على أقسام ذات قاعات فسيحة للنساء، وأقسام أخرى منفصلة للرجال، كما عُيِّن به ممرضون وممرضاتٌ لرعاية المرضى، وكان يُفْرَدُ به قسمٌ خاصٌّ وكبير للمرضى بالحُمَّى، وآخر لأمراض العيون، وثالث للحالات الجراحية، وقسمٌ رابع للأمراض المتوطنة والمزمنة كالدوسنتاريا والعلل المشابهة ».

أما عن المرافق الضرورية فيقول : « وبالمستشفى مطبخ، وقاعاتٌ للدرس، ومخازنُ للأدوية والأجهزة، وصيدلية، وغرفٌ للأطباء، وأخرى للموظفين»، أى كان نموذجًا لكلية الطب ومستشفاها حيث تتم دارسةُ الحالات بإشراف الأطباء، ولم يهمل المسلمون شأن مرضى العقول : فقد أُفرِدَت فى أول الأمر فى المستشفيات حُجرٌ خاصة أو خَلواتٌ لمرضى العقول، حتى استقلت تلك المستشفيات فيما بعد .

وعن المستشفى الذى أسَّسه « أحمد بن طولون » فى الفسطاط يقول المؤرخون: «إن ابن طولون أنفق عليه ستين ألفَ دينار، وكانت تُلحق بالمستشفى «خزانة كبيرة» ، **كان فيها ما يزيد على مائة ألف مُجلد من الكتب الطبية والعلمية**، كما بُنى فيه حمامان أحدهما للرجال والآخر للنساء وقد حُبسَا على المرضى، وكان المريض إذا حضر إلى المستشفى تُنزع عنه ثيابه ويُؤخذ منه ما يكون معه من مال ، ثم تُحفظ هذه الأماناتُ عند أمين المستشفى ، ثم يلبس المريضُ ملابسَ بيضاء مخصصة للمرضى، ويُفْرَض له نفقةٌ وطعام مناسب، وتصله الأدويةُ والأغذيةُ فى الأوقات المقرَّرة، ويتناوب الأطباءُ المرور على المريض حتى

يَبْرأ بفضل الله، واشترط ابن طولون على الأطباء أن المريض لا يخرج من المستشفى إلا إذا قَدَرَ على أكل دجاجة ورغيف ، وحينئذ يؤمر بالانصراف ويُعطى ماله وثيابه .

اختيار الموقع المناسب لبناء مستشفى: تقول المستشرقة «زيغريد هونكه»: «وكانت المستشفيات فى الحواضر والمدن الإسلامية تتمتع بموقع تتوافر فيه كلُّ شروط الصحة والجمال ، وتُزوَّدُ بماءٍ جارٍ للحمامات مُدَّ لها من الأنهار أو العيون القريبة».

ولبيان عناية المسلمين باختيار الموقع الذى تُبنى فيه مستشفى جديد نذكر القصة التاريخية الآتية: فقد جاء فى كتاب «طبقات الأطباء»: أن «عضد الدولة» عند ما أراد أن يبنى مستشفى جديدًا فى بغداد أسند إلى الطبيب الكبير «أبى بكر الرازى» وهو من أعظم الرواد فى مجال الطب مهمةَ البحث عن أفضل مكان لإقامته ، فأشار الرازى بأن يُعلَّق فى كل ناحية من أحياء بغداد **شقَّةُ لحم** ، ثم انتظر مدةَ أربع وعشرين ساعة، وبعد ذلك انتقى المكان الذى لم يتغيَّر فيه اللحمُ ولم يُسرع إليه الفساد، وأشار بإقامة المستشفى فيه ، لجفافه ونقاء مناخه ، وهذا النمط من الفكر التجريبى يحدث لأول مرة فى مجال الطب فى حاضرة دار الخلافة وغيرها، كما حدث أن اختار السلطان صلاح الدين أحدَ قصوره الفخمة فى القاهرة وحَوَّله إلى مستشفى ضخم كبير، وانتقى فى اختياره ذاك قصرًا فى موقع هادئ بعيدٍ عن الضوضاء، وكان للأيوبيِّين عناية كبيرةٌ بالطب ومؤسَّساته ورجاله.

إحصاء يؤكد ازدهار الفكر ونمو الحضارة: ولقد انتشر بناء المستشفيات فى الدولة الإسلامية، وتنافس فى بنائها الخلفاء والأمراء، وشيدها أهلُ الخير رغبة فى الثواب، وخدمة للناس، ولذا كثرت المستشفياتُ فى الحواضر والمدن الإسلامية

حتى صار عددها فى العراقِ ثمانيةَ عشرَ مَشْفَى، وفى الشام عشرين، وفى مصر عشرة مستشفيات ، وصار عددها فى قرطبة وحدها خمسين مستشفى وذلك فى أواسط القرن العاشر بعد الميلاد، هذا عدا المستشفيات فى بلاد المغرب وفى بلاد فارس وغيرها.

ومنذ إنشاء أول مستشفى فى الإسلام: الذى تم تأسيسه فى عام ستة وثمانين بعد الهجرة فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك سادس خلفاء بنى أمية الذى أنشأ أيضًا دارًا يُعزل فيها المرضى بالجذام ، وأجرى عليهم الأرزاقَ توالت العنايةُ بإقامة المؤسسات الصحية، ففى صدر الدولة العباسية بَنى الخليفة أبو جعفر المنصور دورًا للعجزة وأخرى لضعاف العقول والمجانين، وقد أُفرِدَت لهؤلاء غُرفٌ خاصة بهم ذاتُ نوافذَ عليها قضبان من حديد، ثم فى سنة إحدى وسبعين بعد المائة من الهجرة أمر الخليفةُ هارونُ الرشيد بإنشاء مستشفى كبير فى بغداد، وزاد الإقبالُ بعد ذلك على إنشاء «المستشفيات» فى كل المدن والحواضر الإسلامية، وكثر عددها مع العناية بتوافر كل الشروط الملائمة والمحققة لأقصى غاية من إقامتها، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر الشروط التى جاءت فى وقفية المستشفى التى بُنيت أيام المنصور «قلاوون» فى القاهرة والتى تضمنت ما يلى:

أولاً: يُعالج الناسُ جميعًا دون تفريق فقد خُصصت المستشفى «البيمارستان» : للحكام والخدم، للأغنياء والفقراء، للجنود والأمراء، للكبار والصغار، للأحرار والعبيد، للرجال والنساء على السواء.

ثانيًا: العلاج بدون مقابل، مع مراعاة حالة المريض، وما يقتضيه علاجُه من الطعام والشراب، والدواء والنوم.

ثالثًا: أن توجد بوفرة جميعُ أنواع الأدوية والأشربة ووسائل العلاج.

رابعًا : مراعاة العدالة فى معاملة المرضى دون النظر إلى مركز أوجاه بل يراعى

حالة المريض على أنه مريض فقط.

خامسًا: أن تكون فى المستشفى أقسام لكل أنواع الأمراض: «من أمراض الأجسام قلَّت أو كثُرت، اتفقت أو اختلفت، ومن أمراض الحواسِّ خفيت أو ظهرت، واختلال العقول، وغير ذلك ممَّا تدعو حاجةُ الإنسان إلى إصلاحه، وذلك مع إصلاحه بالأدوية والعقاقير المتعارفة من أهل صناعة الطب والاشتغال فيه بتعلُّم الطب والاشتغال به » .

سادسًا: يقيم المرضى من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين بُرئِهم وشفائهم، على أن تُقدَّمَ لهم الخدماتُ الطبية ليلًا ونهارًا .

إن عناية أهل الإسلام بالمرضى، ورعايتهم وصلت إلى حدٍّ أثار إعجاب الباحثين فى العصر الحديث، وقد بهرتهم جميعًا تلك الأموالُ الطائلة التى كانت تُغدَقُ على المستشفيات لشراء الأدوية، وللإنفاق على طعام المرضى، ورواتب الأطباء والموظفين، وقد كان مستشفى المنصورى وحده يستهلك فى كل سنة ما قيمته مليون درهم، أما مصادر هذه الأموال الكثيرة فقد كانت من الأوقاف ذات الرِّيع الضخم والتى كانت تُخصَّصُ للمستشفيات لدى تأسيسها ، وربما يحدث فى بعض الأحيان نقصٌ فى الموارد المالية لإحدى المستشفيات، وهنا تتجلَّى روحُ الخير، ويُسرع المسؤولون وذوو اليسَار إلى تلافى هذا النقص، وسدِّ ذاك العجز حتى تتمكن المستشفى من الاستمرار فى القيام بدورها الإنسانى؛ ولقد رُوى عن ثابت بن سنان رئيس الأطباء فى مستشفى عضد الدولة ببغداد أنه أرسل إلى الوزير المختص على بن عيسى بتقرير خَطِّىٍّ يقول له فيه: « إن دَخْلَ المستشفى الثابتَ من الأملاك قد قلَّ كثيرًا » ويصف له بعبارات مُؤَثِّرة فيقول: «كيف أن المرضى قاسَوْا ألوانًا من شدة البرد ومن قلة الطعام ونُدرة العقاقير»، فلما قرأ الوزير الجوادُ هذه الرسالة تأثر تأثرًا شديدًا وكتب على ظهر الرسالة ما يلى: « إلى مدير الأملاك أبى

الصقر: لك أنت رعاك الله أن تقرأ بنفسك ما جاء فى هذا الكتاب، وهو أمر ذو شأن للغاية، فعليك أن تبعث للمستشفى «للبيمارستان» بكامل نصيبه من الأموال مهما كانت الظروفُ، فالأمر جليلٌ يتعلق ببيت المرضى، حيث ينتظرون هناك العون والمساعدة»، ثم قال له: **«ابذلْ ما بوسعك وأسْرِع فى دفع حصة المستشفى من الأموال حتى يتدفأُ المرضى باللحُفِ، وبالألبسة، والفحم، ويصلهم غذاء جيد، وخدمةٌ وعناية طبية سليمة، أخبرنى، كان الله فى عونك بكل ما ستقوم به لتحقيق هذا الأمر».**

وكما عُنى المسلمون ببناء المستشفيات فى المدن، فإن المسلمين أيضًا سبقوا عصرنا الحديث بإنشاء المستوصفات المتنقلة المحمولة بين القرى يقول الدكتور أحمد عيسى فى كتابه «تاريخ البيمارستانات فى الإسلام»: «والمسلمون هم أول من أنشأ البيمارستان المحمول، وهو مستشفى مُجهَّز بجميع ما يلزم للمرضى وللمداواة من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، يتنقل من بلد إلى آخر من البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة، أو التى يظهر فيها وباءٌ أو مرضٌ معْدٍ، وهذا أحدثُ وسائل العلاج السريع فى العصر الحديث».

إن أسبقيات المسلمين لم تقف عند ذاك الحدّ، فقد كان من أسبقياتهم فى **ظلال حضارة الإسلام فى مجال الخدمات الطبية ما يلى:**

١) المستوصفات الطوّافة «المتنقلة» لخدمة الفلاحين وأهل الأطراف:

جاء فى عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة: أن الوزير «على بن عيسى» كتب إلى «سنان بن ثابت» كبير الأطباء يقول: «فكرتُ فى كم فى السواد (القرى) من أهله، فإنه لا يخلو أن يكون فيه مرضى لا يشرف عليهم مُتطبِّبٌ لخُلوِّ السواد من الأطباء، فَتَقدَّم مَدَّ الله فى عمرك بإنفاذ متطببين وخزانة للأدوية والأشربة يطوفون فى السواد (القرى) ويقيمون فى كل صقع (ناحية) منه مدة، حسبما تدعو

الحاجة إليه، ويعالجون الذين فيه من المرضى، ثم ينتقلون إلى غيره»، وبذلك يكون المسلمون قد سبقوا عصرنا الحديث فى إنشاء ما نُسمّيه «المستوصفات المتنقلة».

العناية بالفئات كالمستشفى الحربى وغيره وتوفير الخدمات الطبية: ومن أسبقيّاتهم أيضًا فى هذا المجال أنهم كانوا أول من فكروا فى إنشاء المستشفى الحربى المتنقل أو «المستشفى الميدانى» فقد ذكر ابن خلكان: أن أبا الحكم «عبد الله ابن المظفر » كان طبيب البيمارستان الذى كان يحمله أربعون جملًا ، والـمُستصحَب فى معسكر السلطان محمود السلجوقى حيث خَيَّم وأقام ، وكان البيمارستان مزودًا بالأطباء ووسائل العلاج، كما عُنى المسلمون بمرضى السجون، فكان الأطباء يزورون السجن كل يوم يحملون الأدوية وذلك لفحص المرضى، وتقرير الدواء اللازم.

وإن رسالة الوزير على بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد تكشف لنا عن هذا الجانب الإنسانى النبيل وفيها يقول: «فكَّرتُ مَدَّ الله فى عمرك فى أمر الذين فى الـحُبُوس، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراضُ وهم ممنوعون من التصرف فى منافعهم ومن لقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يَعرِض لهم» ثم أصدر الوزير وصاته بضرورة أن يقوم الأطباء بزيارة السجونِ والعناية بالمرضى من المساجين فقال: «فينبغى أن يُفرَدَ لهم أطباءُ لزيارتهم يدخلون إليهم فى كل يوم، وتُحمَل إليهم الأدويةُ والأشربةُ ويطوفون فى سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى، ويعملون على دفع عِللهم بما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة».

وقد نفذ كبير الأطباء ما أمر به هذا الوزير، وكان عملًا إنسانيًا جليلًا ورحمة عظيمة ، فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون يَحرِقون المرضى بالجذام ويعذّبون المجانين ، ولا يكترثون لصحة المساجين أو حياتهم .

الإسعاف : وكما فكر المسلمون فى مرضى السجون، فإنهم كذلك فكروا فيما يشبه الإسعاف فى عصرنا الحاضر فقد ذكر المقريزى: «أنه كانت تقام بالقرب من الجوامع مراكزُ للإسعاف حيث يزدحم الناس للصلاة، وهناك يقوم الأطباء والصيادلةُ بعلاج المصابين بالحوادث والأُمراض».

العناية بالإشراف الطبى : إن المسلمين أيضًا طوَّروا وسائلَ الإشراف الطبى، ووسائل تعليم الطب، وعرفوا التخصصَ وأيقنوا بأهميته، كما أنهم طاردوا أدعياء الطب، وأخرجوهم من صفوف الأطباء .

ريادة أبى بكر الرازى وغيره فى الإشراف والتنسيق ووضع النظم:

أما الإشراف الطبىُّ على المستشفى فى العصر الإسلامى فقد كان من صلاحية رئيس الأطباء فقط، وكان يُختار من بين العديد من زملائه بعد اجتياز امتحان دقيقٍ لكفايته العلمية ، ومثالُ ذلك أن الطبيبَ الكبير «أبا بكر الرازى» أُسندت إليه مسؤوليات إدارة المستشفى «العضُدى» فى بغداد ، وكان له معاونون من الأطباء يجاوز عددهم الأربعة والعشرين طبيبًا، كل واحد منهم يعمل فى تخصصه، فمنهم المتخصص بالأمراض العصبية، ومنهم الجراحون البارعون، ومنهم المتخصصون فى أمراض المفاصل والعظام، ومنهم أطباء العيون، وهكذا، وكان كل واحد منهم يتسلم إدارةَ قسم يناسب تخصصه، كما كانت له عنايةٌ بتيسير لما نُسميه الثقافة الطبية ، إذ قد وضع الرازىُّ لذلك كتابًا أسماه «كتاب من لا يحضره الطبيب» ويسميه العلماء « كتاب طبُّ الفقراء» لقد مات هذا الرجل العظيم أبو الطب الحديث فى عام [٩٢٥] بعد الميلاد فقيرًا معدمًا منزويًا فى دار أخته خديجة فى إحدى قرى بلاد فارس.

أما عمل رئيس الأطباء فيوضحه الطبيب ابن أبى أصيبعة فى كتابه فيقول:

« كان دأبُ أبى الحكَم، رئيس أطباءِ مستشفى النورى فى دمشق: القيام

بزيارته للمرضى صباح كل يوم، ليستخبر عن أحوالهم، ويستعلمَ عن رغباتهم وكان يصحبه فى تجواله هذا رهطٌ كبير من مُساعديه الأطباء والقُوَّام لخدمة المرضى « يعنى الممرضين » وكان كلُّ ما يصفه الطبيبُ لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخَّر عنه وبلا توانٍ فى ذلك، ثم يجلس فى الإيوان الكبير الذى بالبيمارستان ، وجميعُه مفروش، ويُحضِرُ كتبَ الطب، وكانت جماعةٌ من الأطباء والمُشتغلين يأتون إليه يقعدون بين يديه ثم تجرى مُبَاحَثَةٌ طبية، ويُقرئُ التلاميذ، ولا يزال معهم فى اشتغال ومُبَاحثة ونظرٍ فى الكتب مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب إلى داره » وكانت الدارسة فى المستشفى لا تقتصر على الجانب النظرى، بل كانت التجربة العملية هناك تسير مع العلم جنبًا إلى جنب، وعلى أسِرَّة المرضى يتمُّ إشباعُ الحالاتِ المرضية بحثًا ونقاشًا بين الأساتذة الكبار ومعاونيهم وطلابهم قبل تقرير العلاج المناسب .

كما يحدثنا ابن أبى أصيبعة عن الطبيب الكبير «الرازى» فيقول عن جهوده العظيمة ومبتكراته فى المستشفى العضُدى ببغداد : « كان الرازى شيخًا كبيرًا، وكان يجلس فى مجلسه ودونه التلاميذ، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ آخرون [**وهو تقسيم لطبقات العاملين فى المجال الطبى والتلاميذ فى مرحلة التأهيل وتأمَّل نظام المعيد فى عصرنا وطلاب الامتياز والسنة النهائية**]، فكان يجىء المريضُ فيصف ما يجده لأول مَن يلقاه، فإن كان عندهم علم، وإلا تعدَّاهم إلى غيرهم، فإن أصابوا كان بها وإلا تكلم الطبيبُ الرازىُّ نفسُه فى ذلك» وكان الرازى يطلب إلى تلامذته تدوينَ ما يسمعونه، وتجمع طريقتُه فى التدريس بين «الدراسة النظرية والتطبيق العملى والتجريب»، وكان يحاضر تلامذته كل يوم ثلاث ساعات فى الإيوان الكبير المعدِّ لذلك، وكانت مؤلفاته فى الطب مراجعَ قيمةً وأساسية فى أوربا ، ولها أثر كبيرٌ فى تقدم الطب وفى طرق المداواة ، وهى تمتاز بالجمع من مؤلفات القدامى ومن آرائه الشخصية وتجاربه ووصاياه ، وتمتاز

بالأمانة العلمية وقد أحصى له ابنُ النديم فى كتابه «الفهرست» (١١) مؤلفًا كبيرًا و(٢٨) مؤلفًا صغيرًا منها عشرون مؤلفًا فى الكيمياء، وقد تمت ترجمةُ معظم هذه المؤلفات إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية، وأوسع مؤلفاته شهرة فى عالم الطب والجامعات هى رسالته عن «الجدرى والحصبة» ونشرها «شاننج» فى لندن عام [٧٦٦م] مترجمة إلى اللاتينية ومصحوبة بالنص العربى ، كما تُرجمت إلى لغات عدة ، وهو أول من فَرَّقَ بين الجدرى والحصبة ، وقد طُبعت أربعين مرة بالإنجليزية بين القرن الخامسَ عشرَ والقرنِ التاسعَ عشرَ وتُرجمت إلى الفرنسية وفى فيينا، وعن طريقتهم التى اتبعوها وعنايتهم بالتطبيق العملى والشرح النظرى كتب طبيب مسلم عن نفسه فى مذكراته قال : «كنتُ بعد ما يفرغ الحكيم مهذَّب الدين»، والحكيم «عمران» من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ «رضىّ الدين الرّحبى» فأُعاين كيفيةَ استدلاله على الأمراض، وجُلَّ ما يصفه للمرضى، وما يكتب لهم، وأبحث معه فى كثير من الأمراض ومداواتها».

وتؤكد المستشرقة «زيغريد هونكه» فى كتابها القيم «شمس العرب تشرق على الغرب» مطابقة ما كان يجرى فى المستشفيات فى الدولة الإسلامية لما يجرى عليه العمل فى زماننا من وجوه كثيرة، وبخاصة فى طريقة تدريس الطب، وأساليب التجريب فتقول: «اتبع المسلمون فى تدريس الطب طريقةً عملية تقضى على طلاب الطب أن يدخلوا مع المرضى فى احتكاك دائم مثمر، فيقابلوا ما قد تلقّنوه نظريًا بما يشاهدونه بأُمّ أعينهم، وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم لهم مثيلًا إلا فى عصرنا الحديث» .

وعن تدريس الطب فى المستشفيات فى البلدان الإسلامية وطريقة توزيع الطلاب يذكر المستشرق «إدوارد براون» أن الطبيب «رشيد الدين فضل الله»

المولود فى همذان فى القرن الثالثَ عشرَ بعد الميلاد كان قد أسس عدةَ مستشفيات من ماله الخاص وأغدق عليها، ومنها مستشفى «فى تبريز» وتقع فى «ربع الرشيد» ، ينقل هذا المستشرق حاكيًا بعضَ ما كان يجرى هناك : « وفى أحياء الطلاب المجاورة كان يسكن ألفُ طالب من الطلاب المتحمسين للعلم قادمين من مختلف البلدان الإسلامية، وكانوا يتلقَّون إعاناتٍ دراسية، ويُوَجَّهون فى دراساتهم طبقًا لقدراتهم، ويُختار لهم عددٌ من مهرة الأطباء قد يبلغ الخمسين من أنحاء متفرقة من البلاد الإسلامية من الهند والصين ومصر وسورية وغيرها، وقد خُصِّص لكل طبيب منهم عشرةٌ من التلاميذ الممتلئين حماسة، ليدرسوا فى المرحلة الأولى على ذوى الاختصاص المحدَّد فى المستشفى الذى كان يضم أيضًا عددًا من الجراحين وأطباء العيون، وجابرى العظام، وكان كل واحد من هؤلاء مسؤولًا أيضًا عن خمسة من التلاميذ» أى فى مراحل التخصص.

ويقول الدكتور «عاشور»: « وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين فكرة إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حتى تكون دراسةُ الطلبة عمليةً واقعية، بحيث لا يُصَرَّح لأحد بمباشرة مهنة الطب إلا بتصريح من الدولة».

وكان الطبيب «على بن العباس» فى القرن العاشر من الميلاد ينصح طلاب الطب: بالملاحظة ودراسة الأمراض دارسةً تجريبية عمليةً فيقول لهم فى كتابه العظيم «الملكى» : « ومما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازمًا للبيمارستان، ومواضع المرضى، كثيرَ المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأساتذة من الحُذَّاق من الأطباء، كثيرَ التفقُّد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم، متذكِّرًا لما كان قد قرأه من تلك الأحوال ، أى يطابق العلم على العمل والمشاهدة ، فإنه إن فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغًا حسنًا ، وكانت مداواتُه للمرضى مداواةَ صواب، ووثق الناس به ومالوا إليه، ونال المحبةَ والكرامةَ منهم والذكر الجميل».

استقبال المرضى: أما نظام استقبال المرضى فى هذه المستشفيات: فهو يشبه إلى حد كبير، ما هو معمول به فى زماننا الحاضر، ويوضح لنا ذلك ابن أبى أصيبعة فيقول: « كان المرضى يُفحصون أولًا فى القاعة الخارجية، فمن كان منهم بحالة مرض خفيفٍ يُكتب لهم أوراقٌ (أى روشتة)، ويعتمدون عليها ويأخذون بها من المستشفى الأشربةَ والأدويةَ التى يصفها الطبيب، أما المرضى الذين يحتاجون إلى المعالجة فى المستشفى فكانوا يُوزَّعون على القاعات حسب أمراضهم بعد قيد أسمائهم، وإعطائهم الحماماتِ، والثيابَ النظيفة، وكان لكل قسم طبيبٌ خاص، أو اثنان، أو ثلاثة حسب اتساعه، وكثرةِ المرضى فيه».

العناية بالتخصص والاختبار والإجازة: وفى ميدان الطب عُنى المسلمون بالتخصص وَقَدَّرُوه، ولم يُجيزوا لأحد أن يشتغلَ بالطب إلا بعد اجتياز امتحان دقيق، والحصولِ على إجازة «تصريح» من كبير الأطباء، ولم يكن بإمكان أحد أن يتعاطى مهنةَ الطب دون سابق دراسة، فإذا ما فعل ذلك كان هذا بمثابة تعدٍّ على القانون وعلى حرمة واجب الطب، « وقد حدث فى سنة تسعَ عشرةَ بعد الثلاثمائة (القرن العاشر من الميلاد)»، أن قام رئيسُ الأطباء «سنان بنُ ثابت» بتنفيذ أمر الخليفة العباسى «المقتدر بالله» وامتحن الأطباء، وأجاز لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرفَ فيه؛ لأن الخليفة كان قد بلغه أن غلطًا وقع من بعض المشتغلين بالتطبيب على رجل من عامة الناس، وقد بلغ عددُ المصرَّح لهم بعد هذا الاختبار فى بغداد وحدها ثمانمائة وستين طبيبًا ما عدا الأطباءَ المنتشرين فى كل المدن الإسلامية: « فى الوقت الذى لم يكن فى كل مقاطعات الرَّاين أى فى أوربا طبيب واحد» كما يقول المستشرقون، وبعد أن يحصل الطبيب بعد الاختبار على «الإجازة أو تصريح العمل» يصير له الحق فى ممارسة المهنة وفى حدود حقلٍ معلوم يُحدّد له فى شهادته، ولا يجوز له الخروج عن نطاق حدوده أَلبته.

فحص المرضى: أما فحص المرضى عند هؤلاء الأطباء الرواد فإنه لا يختلف كثيرًا عَمَّا هو عليه فى عصرنا الحديث ، فقد كان الأطباء يجسُّون النبض، ويفحصون البول ويُحلِّلونه، وكان الفحص يشمل الجسمَ كُلَّه ولا يتناول العضوَ المريض فحسب، ثم إن الطبيب يسجل ملاحظاته عن المريض، ويسأله عن بيئته، وعن الأمراض السابقة، وعن حالة عائلته الصحية، والأمراض المُتوارثَة، وهذا ابن رضوان رئيس الأطباء فى القيروان يرشد الأطباء ويعلمهم الطريقة المثلى فى فحص المرضى فيقول : «ولا تَنْسَ يا بنى أن تفحصَ حالةَ المريض النفسية، اسأله عن بعض الأمور وتيقَّن إن كان يُجيب عن وَعْى أم لا، مُره بالقيام ببعض الأعمال لتمتحنَ طاقته وطاعته، لتعرفَ إذا كنتَ تستطيع الاعتمادَ على كلمته فى تناول الدواء بنظام، وابحث عن ميوله كاشفًا عن أسباب إثارته، ومواضع أذنيه.» ثم بعد هذا الفحص للحالة النفسية يبدأ فحص الناحية الجسدية فيقول: «وحَقِّقْ يا بنى مدى قوة أذنيه بأن تُسِرَّ إليه عن بُعد، ببعض الكلمات، وامتحِنْ حالةَ عينيه، بأن تطلب من المريض أن ينظرَ إلى بُعْد وإلى قُرب، واكشِفْ عن اللسان، ثم اختبِرْ قوةَ المريض نفسها بأن تُحَمِّلَهُ أثقالًا ينقلها، أو أن يُحضر بعض الأشياء، وراقِب حركاته فى مشيته جيئةً وذهابًا، ودقِّق فى جسِّ نَبْضِه بعناية فائقة، وَدَع المريض يستلقى على ظهره لتتأكدَ من حالة عضلاته، ثم افحص الكبد، والكلى، بأن تتلمسَ مواضعها بأصابعك،وافحَص ماءه وبُرازه..» هذا بعض ما قاله الطبيب «ابنُ رضوان»، وقال الدكتور «أمين خير الله» « ولا يسعُنا إلا أن نعجب من النتائج الصائبة والمعلومات القيمة التى كانوا يستخرجونها من فحص النبض والبول».

ومن تعليمات الطبيب العظيم «ابن سينا» فيما يُراعى فى عملية فحص البول يقول: «علينا ألا نثقَ بنتائج تحليل البول إلا إذا توافرت لدينا الشروط التالية: «أن يكون البولُ أولَ بول من المريض - أى بول الصباح - على ألا يكون المريض قد شرب ماء بكثرة، أو يكون أكل ما يمكنه تلوينُ بوله كالزعفران» كذلك يجب

على المريض ألا يقوم بحركات خاصة أو يتبع نظامًا على غير عاداته اليومية كالصيام، والتأخر فى النهوض، أو الإمعان فى التعب، لأن كل هذا يؤثر كثيرًا فى تركيب البول، كما أن القيء، والدوخةَ يؤثران على تركيبه» إذن فالنتائج التى نصل إليها من تحليلنا للبول تعتمد على لونه، وكثافته، ومدى صفائه أو تعكُّره، وعلى رائحته، ورغوته.

تاريخ المريض مع مرضه: وكان «تاريخ المرض» يُسجَّل فى محضر خاص، كما يفعل الأطباءُ فى زماننا، وكان لدى المستشفى فى تلك العصور سجلٌّ كامل عن كل مريض ، قد دُوِّنت فيه الفحوصُ بكاملها ومُختلفُ العقاقير التى وُصِفتْ وتأثير كل منها، وتطورُ حالة المريض.

كتاب «الحاوى» فى الطب: وفى الربع الأول من القرن العاشر بعد الميلاد تم جمعُ التقارير الطبية من مستشفيات بغداد الكبيرة، وألَّف منها «الطبيبُ الكبير أبو بكر الرازى» موسوعته الطبيةَ التى سُميت باسم «الحاوى» والتى كانت مرجعًا أساسيًا للأطباء الأوربيين خلال مئات السنين للتعليم والدراسة.

والتفاتة وتنبيه على أسبقيات: بعد تلك الرحلة التى طُفنا فى أثنائها فى المستشفيات فى دولة الإسلام، بعد تلك الرحلة نرى أن المسلمين كانوا السبّاقين إلى وضع كثير من الأنظمة التى يجرى بها العملُ فى زماننا إذا استثنينا تطورَ الآلات، واختراعَ الأجهزة الطبية المتنوعة، وحَسْبُ المسلمين أنهم ابتكروا فى زمانهم ما لم يُسْبَقُوا به فى عالم الطب والعلاج، وأن ما ابتكروه كان هو الأساسَ الذى بَنَى عليه الطبُّ الحديثُ نظرياته، وأساليبه ، وقد ثبت من مؤلفات أطباء تلك العصور الذهبية أن علماء المسلمين وأطباءهم لم يكونوا حاذقين فى التشخيص فحسب، بل إنهم صححوا كثيرًا من معلومات أطباء اليونان وعلمائهم، وكتبوا أبوابًا جديدة فى الطب والصيدلة لم يسبقهم إليها إنسان،

معتمدين فى ذلك على دراساتهم، ومشاهداتهم، وتجاربهم الخاصة.

مثال: ويذكر الباحثون من علماء الشرق والغرب أدلة كثيرة على ذلك منها:

كان «جالينوس» الطبيب اليونانى المعروف يقول: بأن الفكَّ الأسفلَ مُؤَلَّف من قطعتين من العظم يجمع بينهما تدريز،فجاء الطبيبُ العلامة «عبد اللطيف البغدادى» فى أوائل القرن الثالثَ عشرَ بعد الميلاد وصحح هذا الخطأ عن طريق تجربة تحدَّث هو بها فقال ما معناه: «لقد رأينا عند مرورنا بمصر، مكانًا فيه آلاف من العظام والأرجل، فذهبنا إليه فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها، وكيفية اتصالها، وتناسبها وأوصافها ما أفادنا علمًا لا نستفيده من الكتب، فمِنْ ذلك عَظْمُ الفكِّ السُّفْلِى، وقد علمنا من جالينوس بأن الفكَّ الأسفل مؤلف من قطعتين من العظم يجمع بينهما تدريز، ولكننا فحصنا أكثرَ من ألفين منها ولم نجد فكًّا سُفليًّا واحدًا له عظمتان، إنه عظمٌ واحدٌ ليس فيه مفصل ولادِرز أصلًا».

وكان أبو قراط اليونانى يقول: بأن الطفل فى جوف الأم يتحرك بنفسه تلقائيًّا ويخرج بواسطة هذه الحركة من الرَّحِم، فجاء «على بن العباس» فى القرن العاشر بعد الميلاد وبرهن على أن الطفل لا يخرج عند الولادة من تلقاء نفسه وإنما يخرج نتيجةً لتقلُّصات عضلية فى الرحم، وكتب هذا الطبيب العربىُّ أيضًا عن الـخُرَّاج فى رحم الأم، وفى حلقه، وعن سرطان الجوف الداخلى، كما أشار إلى الدورة الدموية فى العروق والشعيرات.

وقال أطباء اليونان: بأن الأنسجة الطَّرية كالدماغ، والأنسجة القاسيةَ كالعظم لا تلتهب بتاتًا وجاء ابنُ سينا وعارض القُدامى وكان هو أولَ من كشف التهابات غشاء الدماغ المعدية، وميزها عن غيرها من الالتهابات المزمنة، وغير ذلك من الكشوف العلمية فى عالم الطب التى كانت نبراسًا لعصرنا الحاضر.

أما الطبيب «الطبرى» «عبدالله بن سهل السريانى» [القرن الثالث] وأسلم فى

عهد الخليفة المتوكل العباسى فهو الذى عرف اللقاح الميكروبى لداء الحكَّة «الجرب» وقد تمكن الطبيب الأندلسى «ابن زُهْر» من علاجه علاجًا شافيًا ويَدين علمُ الطب لابن زُهر باكتشاف الحقنة الشرجيَّة المُغذية، وبالغذاء الاصطناعى لمختلف حالات شلل عضلات المعدة، التى توسَّع فيها كلَّ التوسُّع، وهو الذى قدَّم وصفًا كاملًا لسرطان المعدة بعد أن تابع حالاتٍ مَرَضِيةً من هذا النوع.

وإذا كانت محاولة إدخال مبدأ التطعيم ضد الجدرى بدأت فى أوربا فى نهاية القرن الثامن عشر بعد الميلاد فإن المسلمين فى ظلال حضارة الإسلام قاموا بالتطعيم ضد الجدرى مُتَّبِعين فى ذلك نَمط التفكير والأسلوب الـمُتَّبَعَيْن فى عصرنا اليوم، وذلك بالتلقيح بواسطة جراثيم ضعيفة، وإيجاد المناعة بطرق اصطناعية.

وفى الوقت الذى كان الأوربيون يرون أن مرض الجُذام من عمل الشيطان فى هذا الوقت وصَف أطباءُ المسلمين مرضَ الجذام، وقالوا بإمكانية انتقاله عن طريق العدوى، وبينوا أسبابه، ووسائلَ علاجه، وقد كتب فى هذا المرض أطباءُ كثيرون منهم « ابن مِسكَوْيه [المتوفى عام ٤٢١ من الهجرة] وأبو جعفر الجزار الأندلسى [المتوفى عام ١٠٠٤م]، وفى ذلك تقول المستشرقة «زيغريد هونكه»: «فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون يقفون أمام الأمراض الخطرة كالجذام والطاعون مكتوفى الأيدى، وقد سيطرت على عقولهم اعتقاداتٌ باطلة ضعيفةٌ أعمت أبصارهم، فى هذا الوقت كان المسلمون ينظرون إلى مثل هذه العوارض المرَضِيَّة نظرة علميةً بحتة تدعمها التجربة، ويُغذِّيها البحثُ والتدقيق، وهذا دليل على ثقافة المسلمين الواسعة آنذاك، وعلى التأخُّر الفكرى للسكان فى أوربة».

رسالة علمية عن العَدْوَى :

ففى الوقت الذى كان الأوربيون ينسبون فيه مرض الطاعون إلى الكواكب والنجوم فقالوا: إنه يحدث نتيجة التقاء الكواكب ؛ المشترى وعطارد والمريخ،

وعالجوا هذا الوباء الخطر فى القرن الرابعَ عشرَ بعد الميلاد باللجوء إلى الكنائس للصلاة، وإحراق البخور، حتى انتشر الوباء فيهم انتشار النار فى الهشيم، فى ذاك الوقت الذى كان حال الأوربيين فيه على هذا النحو ، كان علماء المسلمين يتحدَّثون عن مرض الطاعون حديثًا علميًا ، ويبينون أسبابَ ظهوره ، وطرقَ العدوى به ، فقد كتب الطبيب الوزير «ابن الخطيب» رسالة علمية منطقية عن العدوى وعن انتشارها بواسطة الاتصال بالمرضى، فقال: «لقد ثبت وجودُ العدوى بالتجربة، والاستقراء والحس ، وبالمشاهَدَة والأخبار المتواردة هذه هى موادُّ البرهان» ثم بين بعد ذلك وسائل انتشار العدوى وحَذَّر منها ولقد لقيت رسالته فى «الطاعون» عناية كبيرةً لدى العلماء الأوربيين فقد نشر «ميلر» وترجم رسالة «المقالة» عن المرض الهائل التى كتبها ابن الخطيب وقت انتشار الطاعون فى الأندلس عام [٧٤٩] ونشرها «بروكلمان» باسم : «منفعة السائل» و «ابن الخطيب أو لسان الدين بن الخطيب عبقرية عربيةٌ نبغ فى الفلسفة والأدب والتاريخ والطبِّ وترك ستين كتابًا لم يصل إلا ثلثُها وله فى التراجم «الإحاطة فى تاريخ غرناطة» وغيره وكان وزيرًا مرموقًا فى القرن الثامن من الهجرة بغرناطة، كما نقلوا عن أحد الأطباء قوله عن العدوى: «إن نتائج تجاربى الطويلة تشير إلى أنه من خالط أحدَ المصابين بَمِرضٍ سارٍ أو لبِسَ من ثيابه ابتُلى مباشرةً بالداء، ووقع فريسةَ عوارضِه نفسها».

فالكشفُ عن العدوى وبيانُ أخطارها والدعوةُ إلى الوقاية من الأمراض المعدية يُعتبر ذلك من أعظم الفتوحات العلمية التى حققها الفكر فى أمَّة الإسلام وحقق بواسطتها للإنسانية جمعاء أكبر الخدمات التى لا تُقدر بثمن.

والتخدير والجراحة: وأطباء المسلمين هم أول من استخدم المرقِّد (المخدِّر) فى الطب وفى العمليات الجراحية والكاويات فى الجراحة، كما أنهم بلغوا فى فن الجراحة شأوًا بعيدًا.

الجراح الطبيب أبو القاسم الزهراوى
وكتابه فى الجراحة

ويشهد التاريخُ للجراح الكبير «أبى القاسم الزهراوى» المتوفَّى فى أوائل القرن الحادىَ عشرَ بعد الميلاد يشهد له بأنه أدخل تجديداتٍ كثيرةً على علم الجراحة، وطرق مداواة الجروح، وتفتيتِ الحصاة فى المثانة، وفى التشريح، وإجراء العمليات وغير ذلك مما تضمنه «كتاب الجراحة» يقول الدكتور سامى حداد: « أما كتاب الجراحة للزهراوى فهو أطيبُ ما أنتجه المسلمون فى هذا الفن، وهو يبحث فى العلاج بالكَىّ، وفى الجراحة العامة، وفى وصف العمليات الجراحية، وفى علاج كَسْر العظام وخَلْعها، وفيه ما يزيد على مائتى شكل للآلات الجراحية التى كان يستعملها المؤلف» وفيه أيضًا إشارة إلى تفتيت الحصا فى المثانة، وقد تُرجم هذا الكتابُ إلى اللاتينية وبقى مدة طويلة مَنهلًا لكثير من أطباء أوربا» ويذكر الأستاذ جلال مظهر أن أبا القاسم الزهراوى، هو أول من استخدم أصنافًا من الإبر وخيوط الجراحة ووصفها فى كتابه، كما تكلم عن جراحة الأسنان، وطريقة تنظيفها وخلعها، وطريقة صُنع الكبارى لتثبيت الأسنان الضعيفة، كما أنه استعمل للكشف على اللوزتين والحلق ملعقةً لتخفيض اللسان، ثم يقول: « وأما وَصْفُه لاستخراج حَصاةِ المثانة فيعتبر من الإنجازات المهمة التى قدمها أبو القاسم الزهراوى لجراحة المثانة » .

وعن جهود علماء المسلمين فى فن الجراحة ونظرة الأوربيين إليها فى تلك العصور يقول الأستاذ «طوقان» : « يمكن القول بأنه حينما كانت الجراحةُ فى ذِورتها عند المسلمين فى أثناء ازدهار دولتهم، كانت الجراحةُ نفسها مُحتقرةً فى أوربا، وكان الجراحون منظورًا إليهم كأنجاس، وكانت المدارس الأوربية الطبيةُ

بعد إنشائها تتحاشى تعليمَ الجراحة حتى نهاية القرن الخامسَ عشرَ بعد الميلاد، وذلك لأن الأوربيين كانوا يعتقدون أن الجراحة لا تليق بالأطباء المحترمين، وأنه لا يجوز لهم أن يغيروا ما خلق الله!! وفى القرن الثانىَ عشرَ أصدر مجلس «نورس البابوى» قرارًا بمنع تدريس الجراحة فى المدارس الطبية ، وكان كل هذا يحدث بينما كان الأطباء فى الدولة الإسلامية ينون للطب مقامًا عاليًا ويعتبرون الجراحة قسمًا محترمًا من الطب » .

* * *

وفيما يلى نجد نماذج أخرى من جهود أفاضل العلماء والأطباء مثل ابن النفيس وغيره للتذكير والتنبيه على ماحققوه من فتوحات علمية لخدمة الإنسان فى ميدان الطب والعلاج وما وصلوا إليه من ثمرات طيبة وكشوف مباركة كانت الأسس والركائز لاشتغال الأوربيين بالطب وعنايتهم بفروعه وبناء مؤسساته وازدهار هذا العلم فى الشرق والغرب .



وعن الأسبقيات العلمية فى الطب وفروعه نشير إلى كشف الطبيب الفقيه ابن النفيس العربى القُرشى الدمشقىّ عن «الدورة الدمويَّة الصُّغرى» وما يتعلق بها، لذا تَجدُرُ الإشارةُ إلى جهود هذا الفقيه الطبيب النحوى اللغوى المشهود له بالريادة والدقة العلمية، فهو واحد من عظماء الرواد فى مسيرة الإنسان نحو ما هو أفضل إنه: علاء الدين أبو العلاء علىُّ بنُ أبى الحَزْمِ القرشىُّ الجذور الدمشقىُّ المولد والنشأة، من النابهين الأكابر، وازدانت بجهوده «دمشقُ» إحدى حواضر العلم والعدل والأدب، وكان مولده فى عام [٦٠٧ من الهجرة : ١٢١٠ بعد الميلاد]، وكان من معاصريه الطبيبُ الأديبُ «ابن أبى أُصيبعة» الذى ترجم لأربعمائة طبيب فى كتابه وليس منهم «ابن النفيس» وقد يرجع ذلك إلى أن «ابن النفيس» كان مقبلًا على التوسُّع فى طلب العلم غيرَ مُلتفتٍ إلى التنبيه على وقائع حياته وسيرته، فقد تبحَّر ابن النفيس فى الطب، وفى النحو والمنطق، وفى الفقه، وكان حُجَّةً فى فقه الإمام الشافعى، ولم يكتف بما درسه على أعلام عصره فى دمشق بل انتقل إلى «القاهرة» وأقبل على طلب العلم فدرس الفقه فى المدرسة «المشروريَّة» وصار حجةً فى اللغة العربية حتى صار موضع تقدير من علماء عصره ومنهم: «بهاء الدين محمد بن النحاس» وظل فى نشاط علمى يتعلم ويُعلِّم فى القاهرة حتى وافته المنية فى عام [٦٨٧هـ : ١٢٨٨م] وهو فى نحو الثمانين بالشهور القمرية.

نبوغه فى الطب أسبابه وثمراته العظيمة: لقد وجد ابنُ النفيس فى دمشق «المستشفى التعليمى» الذى أنشأه [نور الدين زَنْكى] فى القرن السادس الهجرى [الثانىَ عشرَ بعد الميلاد] المعروف فى تاريخ الطب باسم «البيمارستان النورى»

فدرس «ابنُ النفيس» على أكابر أطباء عصره فى هذا الـمَشْفَى، وكان أول أساتذته هو : «مُهذِّب الدين عبد الرحيم بن على المعروف «بالدّخوار» وكان طالبًا مجدًّا راغبًا فلما انتقل «ابن النفيس» إلى القاهرة اختاروه رئيسًا لأطباء مصر، وقام بتعليم عددٍ من التلاميذ من أشهرهم «ابنُ القُفّ» صاحب كتاب الجراحة، وكما انتفع المستشفى «المنصورى» الذى أنشأه « السلطان قلاوون فى عام (٦٨٣هـ) بجهود ابن النفيس العلمية فإنه انتفع أيضًا بمكتبته العلمية بعد موته، ومنها كتابه فى الطب وهو «كتاب الشامل فى الطب» وكان فى ثلاثمائة مجلد، ولكن تذكر دائرةُ المعارف الإسلامية أن هذا الكتاب «ظل ناقصًا ولم يصل إلينا منه شيء» ولابن النفيس كتابٌ كان محفوظًا فى «الفاتيكان» فى أمراض العين اسمه «كتاب المُهذَّب فى الكُحل» وكان أكثر كتبه انتشارًا هو المسمى «الموجز لقانون ابن سينا» وطبع لأول مرة عام [١٨٢٨ بعد الميلاد]، وقد لقى هذا الكتاب عناية من المتخصصين على مرِّ القرون، وقد أقبل الأطباء الهنود على دراسته بعناية حتى عصور قريبة .

ومن أسبقياته وكشوفه الطبية: يذكرُ تاريخ العلوم الطبية أن الفقيه الطبيب «ابن النفيس» هو أولُ من وصف الدورةَ الدموية الصغرى وصفًا صحيحًا يخالف وصفَ الطبيب «ابن سينا» و«جالينوس» كلَّ المخالفة، تقول «زيغريد هونكه»: « إن ابن النفيس وصل إلى هذا الكشف العلمى قبل العالم الإنجليزى «هارفى» بأربعمائة عام، وقبل الإسبانى «ميكويل سارفيتو [١٥٥٦م] بثلاثمائة عام تقريبًا» كذلك وقبل الأوربى «ريالدوكولومبو» [١٥٥٩م] .

وقال الأستاذ جلال مظهر: « إن ابن النفيس كان أول - بل أشهر - وأعظم عالم بوظائف الأعضاء، استطاع أن يفهم جيدًا الدورة الدموية الصغرى، ويصفُها لأول مرة، وكان رائدًا لمن أتوْا بعده» وفى ذلك يقول الدكتور محمد كامل

حسين: «إن كشف ابن النفيس عن الدورة الدموية الصغرى هو كشفٌ على جانب كبير من الأهمية، وبخاصة أنه أول مَن أَقْدَمَ على بيان خطأ «جالينوس اليونانى»، لقد فهم ابنُ النفيس وظائفَ الأوعية، وكيف تَنقُلُ الدمَ لتغذِّى القلبَ به ، وشرح كلَّ ذلك شرحًا وافيًا» تلكم إشارات عن جهود هذا الرائد العبقرى الذى ترك كتبًا وشروحًا فى الطب وغيره منها: «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية»، وهو موجود فى «دار الكتب المصرية» وكتاب: «مختصر فى علم أصول الحديث» وله فى علم الكلام رسالة باسم «فاضل بن ناطق» عَارضَ فيها كتابَ ابن سينا «حىّ بن يقظان» وهى فى مكتبة «إستنبول» وله فى الفقه شرح على كتاب «التنبيه» للشيرازى.

وفى طب العيون: وكما كان علماؤنا فى تلك العهود سبَّاقين فى: الطب العام وفى الجراحة وفى التشريح والصيدلة والطب النفسى والوقائى فإنهم بلغوا شأوًا عظيمًا فى طب العيون ، وكما قال الباحث الأستاذ جلال مظهر: « ولم يطاولهم فى طب «العيون» لا اليونان من قبلهم، ولا اللاتين الذين عاصروهم أو أتوْا بعدهم، وظلت المؤلفات العربيةُ فى هذا الفرع من الطب تُدرس فى جميع الجامعات الأوربية باعتبارها أى فى تلك الحقب الكلمة الأخيرة، وذلك حتى بداية القرن الثامنَ عشرَ بعد الميلاد».

وتجدر الإشارة فى مجال طب «العيون» إلى أسماء لها فى تاريخ العلم إشادة وريادة منهم : **«حنين بن إسحاق»** المسيحى و**«على بن عيسى ، وعمار الموصلى»** وقد ترجم «مايرهوف الإنجليزى كتاب»العشر مقالات فى العين «لحنين بن إسحاق وهو من مواليد «الحيرة» بالعراق عام [١٩٤هـ :٨٠٩م] من قبيلة العبَّاد العربية ، وطلب الطبَّ فى «بغداد» تحت إشراف **«يوحنا بن ماسويه»** الذى جعل قسمًا من بيته معهدًا لتعليم الطب ، وهو ابن «ماسويه» الذى انتقل من بلده

«جنديسابور» بفارس وعمل طبيبًا فى بلاط الخليفة هارون الرشيد، وقد أتقن حنينُ ابن إسحاق أربع لغات [العربية والفارسية ، واليونانية والسريانية] وفى بغداد ترجم بعض الكتب الطبية اليونانية لمعاونة الأطباء الكبار فى «بغداد» ومنهم «جبرائيل بن بختيشوع» المسيحى النسطورى الذى كان طبيبًا للخليفة المأمون ، ثم صار «حنين» المشرف على الترجمة فى «بيت الحكمة» فى عهد المأمون وفى عهد الخليفة المتوكل [المتوفى فى ٢٤٧هـ] وقرر هذا الخليفةُ لحنين بن إسحاق راتبًا سخيًا - خمسةَ عشرَ ألفَ درهم «فضة» - لكل شهر غير الهبات والعطايا، ومات الطبيب حنين بن إسحاق عام [٢٦٤هـ:٨٧٩م] وهوموضع ثقة الخليفة ، وقد ترجم «جيرار الكريمونى» فى القرن [الثانى عشرمن الميلاد] إلى اللاتينية معظم كتب حنين.

وقد وصف «عمار الموصلى» ألوانًا من العلاج لعدد من أمراض العيون وشرح فى كتاب له شرحًا وافيًا ستَّ عمليات جراحية لإظلام العدسة ، أما «علىُّ بن عيسى» [القرن الخامس: الحادى عشر] فهو نابغة طب العيون فى العصور الوسطى وفى كتابه «تذكرة الكَحّالين» تكلم عن تشريح وعلم وظائف «العين» ووصف مائةً وعشرين مرضًا من أمراض العيون، واجتهد فى وصف الدواء لكل مرض منها، فتحدَّث عن «مائة واثنين وأربعين دواء» وهو أول من استخدم التخدير فى جراحة العيون وشرح طريقته فى كتابه - أى عن طريق الاستنشاق أو عقار مُنوِّم - وقد تُرجمت كتبه إلى لغات متعددة ، وهو مِمّن تتلمذوا على كتب «حنين بن إسحاق» وكانت له شهرة عظيمة فى طب العيون .

وتجدر الإشارة إلى الطبيب النابه: «صلاح الكحّال» الذى يقول عنه الأستاذ «طوقان» «ولعل كتاب «صلاح بن يوسف الكحّال» فى العين هو أكبر مرجع جامع فى أمراض العيون، وقد جعله على فصول فى وصف العين، فقد وصف

البصر، وأمراض العين وأسبابها وأعراضها، وطرق حفظ الصحة «وقاية العين» ووصف أمراض الجفون، وأمراض الملتحمة والقرنيّة والحَدَقة، وأشار إلى الأدوية التى اجتهد فى الوصول إليها».

تلك وَجازات وإشارات للجهود العلمية التى أنارت الطريق لأوربا وغيرها والتى اتسمت بالإخلاص وصبر أصحابها وحرصهم على تحقيق الخير والاستقرار والطمأنينة للإنسان.

إشارة إلى جهودهم فى الطب النفسى والعقلى: ونكتفى بشهادة وتقارير بعض المفكرين ومنهم «زيغريد هونكه» الألمانية فى كتابها «شمس العرب تشرق على الغرب» ومما قالته: «كما أن المسلمين أبدعوا فى المعالجة النفسانية، التى مثلت دورًا مُهمًّا فى مداواتهم الآلام الجسدية، وَوُضِعَتْ كتبٌ خاصة بهذا الموضوع ككتاب «تأثير الموسيقى فى الإنسان والحيوان» للعالم الفيزيائى العظيم والطبيب: «ابن الهيثم» وهذا إن دل على شَىْء فإنما يدل على تضلُّع علماءِ المسلمين من علم النفس، وإدراكهم للدور الذى يمثله فى الحياة العادية، ولأثر الوهم على المرضى».

ويقول الأستاذ «طوقان» عن جهودهم فى مجال العلاج النفسى، وعلاج الأمراض العقلية: «وكان من الأطباء من يرى الوهمَ والأحداثَ النفسيةَ من العلل التى تؤثر فى البدن، ومن الأمور التى يتحتم على الطبيب أن يحسب حسابها، وعلى هذا فقد سار الكثير من أطباء المسلمين فى معالجة مرضاهم على أساسِ رَفْع الوهم المسيطر عليهم، وتصغير شأنِ المرض» ثم يقول: « كما عالجوا الأمراض العقلية بطرق إنسانية ومبتكرة، وكانوا يخصصون فى كل مستشفى كبير جناحًا للأمراض العصبية والعقلية، ووضَع بعضُ أطبائهم الرسائل والمؤلفات فى الأمراض العقلية، فكتب ابن عمران كتابًا «عن المالنخوليا» كما كتب ابن الهيثم عن تأثير الموسيقى فى الإنسان والحيوان، وكثيرًا ما عالجوا هذه الأمراض العصبية والعقلية

بطرق فيها حِذْقٌ ومهارة، تدلل على علم بالنفس؟ وإدراكٍ لأثر الوهم فى المرضى».

وتؤكد المستشرقة «زيغريد هونكه» تفوق أطباء المسلمين فى علاج حالات الأمراض العصبية بوسائل ما زالت مستخدمة فى العصر الحديث فتقول: « وللعرب فضل آخر على علم الطب، كان فتحًا مجيدًا فى عالمه، وهو معالجتهم للأمراض العقلية والعصبية، إذ عالجوا هذا الأمراضَ بوسائلَ مازالت متبعة حديثًا، ولجأوا أيضًا إلى طرق فيها حِذق ومهارة تقوم على شعور الطبيب بحالة المريض، ومحاولة التأثير فيه نفسيًّا » .

إن تلك الفتوحات العظيمة فى عالم الطب والعلاج، والتى نهض بها أفذاذُ العلماء فى ظل الدولة الإسلامية، كانت هى الأساسَ العلمى السليم، الذى بُنيت عليه أركانُ الطب الحديث، فعلماء الأمة الإسلامية هم الذين نقلوا فنَّ الطب من مرحلة «النظر المجرد» والعلم القائم على التفكير النظرى البحت إلى مرحلة التجريب والممارسة والنظرة العلمية الشاملة، كما صار للطب الإسلامىِّ هدفٌ اجتماعىٌّ وإنسانىٌّ نبيلٌ ، لأن الأطباء سَخَّروا فنهم وعلمهم وتجاربهم فى الكفاح ضد الأمراض بصورة عملية، وهنا كانت المستشفيات فى الأمة الإسلامية على مستوى عظيم من حيث: طريقتُهم فى استقبال المرضى وتنظيمها، ومن حيث توافُر الأدوية والعقاقير، وعنايةُ الأطباء بالمرضى وسهرهم على راحتهم، كما صارت المستشفيات الكبيرة فى تلك العهود بمثابة «معاهد عليا» لدراسة الطب، ولأول مرة فى التاريخ، تمَّ التطبيقُ العملى للنظريات العلمية الطبية التى يُلقيها الأساتذة على الطلاب، فإنهم ينسابون بين المرضى ليتفحصوا الأمراض وليعالجوها تحت إشراف أساتذتهم، وقد خلَّف لنا سجلُّ تاريخ الطب الإسلامى أسماء عملاقة فى الطب ، وقد أشاد بذكرهم العلماء والباحثون والمؤرخون من

الغرب والشرق ، وعلى كتبهم ومؤلفاتهم تتلمذت طوائفُ الأطباء فى أوربا حتى القرنِ الثامنَ عشر بعد الميلاد، وما زالوا موضع تقدير من جميع المفكرين والمتخصصين.

ونذكر لمحةً عن اربعة منهم للتذكُّر:

أمَّا أحدُهم فهو أستاذٌ معلمٌ لأبى بكر الرازى ، والثانى تلميذٌ نابغة له وهو « على بن العباس » ، أمَّا الثالثُ فهو « ابنُ الهيثم » الرائدُ العالمُ فى الطب والطبيعة وغيرهما ثم «ابن سينا» .

أما الأول فهو صاحب **«كتاب فردوس الحكمة»** وهو من الكتب الطبية الجامعة التى نالت عنايةَ الأوربيين وإعجابهم، ويذكر مؤلِّفه وهو الطبيب **«ابنُ رَبّن الطبرستانىُّ»** الفارسىُّ أن مصادره الأساسية التى رجع إليها مع تجاربه الخاصة هى: كتب أبوقراط، وأرسطوطاليس وجالينوس، ويوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق، كما أنه قدَّم فى أحد أبوابه خلاصة للطب الهندى، وكانت من هذا الكتاب نسخةٌ فى المتحف البريطانى ، وقد قام المفكِّر الأوربىُّ «براون» بتصويرها، وأشار «براون» إلى نسخة أخرى فى «مكتبة برلين» معتقدًا أنها مختصرة من الأصل، وقد قال مؤلف الكتاب عن أهميته لدارسى الطب: « إن الذى يُتقن العلمَ بهذا الكتاب ويتعمقه بفهم كامل سيجد فيه أكبر قَدْر يحتاج إليه الشابُّ المتخرجُ من علوم الطب » .

وإن الطبيب أبا بكر الرازىَّ كان أحدَ تلاميذ «ابن رَبّن الطبرستانى وكتابه فِرْدَوسِ الحكمة » وقد قدم الدكتور «براون» بيانًا لمشتملات هذا الكتاب فقال: «إنه تناول بالبحث : الأجِنَّةَ ، والحمْل ، ووظائفَ الأعضاء المختلفة ، والسيكولوجيا، والحواسَّ الخارجية والداخليةَ، والأمزجةَ، والعواطف، والغرائز الشخصيةَ، وبعضَ الأمراض العصبية، كما تناول: الأغذيةَ، وعلمَ الصحة،

والغُددَ وعددَ العضلات ، والأعضاءَ والأوردةَ والشرايين، وتكلم عن : الفَصْد والنَّبض وفحص البول، وفى هذا الكتاب بحث عن البيئة وصلتها بالصحة مثل المناخ والمياه وفصول السنة، وتناول شيئًا قليلًا من التشريح والجراحة، وتناول الصداعَ والدُّوَار ، وفقدانَ الذاكرة ، وأمراضَ المخِّ ، والعيون والجفون ، والأذن والفم والأسنان ، فهو من الكتب الشاملة».

تلك إشارة إلى جهد علمى لأحد أساتذة الرازى، ونشير هنا إلى أحد تلامذة أبى بكرٍ الرازى المشهودِ لهم بالكفاية ، وقد اكتملت شخصيته فى ظلال الدولة الإسلامية وهو «**على بن العباس**» الذى عاصر «عَضُدَ الدولة» مؤسسَ المستشفى العضُدىِّ ببغداد الذى ازدهرت فيه دراسةُ الطب فى النصف الثانى من القرن العاشر بعد الميلاد ، وقاد العمل فيه بعد إنشائه «أبو بكر الرازى» أما مولد «الطبيب على بن العباس» فكان فى الأهواز التى تقع فى الجنوب الغربى من فارس.

طالب مجتهد وعالم ناقد :

أما ثقافته فيقول عنها أبو الحسن على القفطى الصعيدى المصرى المؤرخ [٥٦٨:٦٤٦هـ]: «وقد درس على بن العباس على شيخ فارسىٍّ يعرف بأبى ماهر موسى بن سيَّار، كما تابع دارسته بنفسه، واطلع على كل ما كتبه القدماء..» وعن على بن العباس يقول الدكتور محمد كامل حسين: «ثم جاء على بن العباس، وهو من تلامذة الرازى فوجد فى عصره علمًا نظريًّا غزيرًا، وعلمًا عميقًا مستقرًّا، فبدا له أن يؤلِّف كتابًا جامعًا فى الطب، يكون أوضحَ من كتب أبقراط التى كان اختصارها سببًا فى غموضها، ويكون أقلَّ إطنابًا من كتب جالينوس، وهذا تطور طبيعىٌ فى تقدُّم الطب ، ذلك أن كتب المراجع لا تكون لها قيمة إلا أن تكون مصداقًا لخبرة مستقرة، وعلم غزير، وعكف علىُّ بنُ العباس على تأليف كتابه الذى سماه «**كامل الصناعة فى الطب**» وهو المعروف فى اللاتينية باسم «**الملكى**»

وعن هذا الكتاب يقول المؤرخ القفطىُّ: « وهو كتاب بديع، وذخيرةٌ تحتوى على علم الطب والتطبيب، مُرتَّبة خير ترتيب» وحظى هذا الكتابُ بشهرة واسعة فى أيامه، وكان موضع دراسة جادَّة إلى أن ظهر كتاب «القانون» لابن سينا الذى اغتصب شهرته، وتسبب فى إهمال «الملكى» إلى حدٍّ ما ؛ إذ إن كتاب القانون يمتاز فى الناحية العملية ، وكتاب «الملكى» متميز فى الناحية العلمية ، ويقول الدكتور محمد كامل حسين: «وهو كتاب جيد، ولعله أول كتاب عربى كبير ترجم إلى اللاتينية»، وعنه يقول الدكتور «براون»: «إن كتابه الملكى هو أسهل كتب الطب العربية العظيمة منالًا، وأكثرها صلاحيةً للقراءة»، ولأهمية هذا الكتاب العلمية فقد تُرجم مرات عديدة إلى اللاتينية وغيرها، وأول من ترجمه إلى اللاتينية هو قسطنطين الأفريقى دون أن يذكر اسم مؤلفه، بل نشره تحت عنوان آخر، وفى القرن الثانى عشر ترجمه: أسطفان الأنطاكى، وأعطاه أيضًا عنوانًا آخر دون ذكر مؤلفه، وقد أثرت هذه الترجمةُ فى دراسة الطب فى الغرب اللاتينى ، وقد تُرجم الجزء الخاص بالتشريح إلى اللغة الفرنسية عام ١٩٠٣م وتحت عنوان: «ثلاث مقالات فى التشريح العربى».

ولقد دلت آراء ابن العباس فى الكتب الطبية على سعة ثقافته، وعلى قدرته الفائقة على النقد والتمحيص وعلى إلمام واسع بالطب فقد قال عن «أبقراط» : إن كتبه حوت كثيرًا مما يحتاج إليه الطالب، وبيَّن عيوبَ عددٍ من كتب الطب القديمة مثل كتاب جالينوس وغيره، وهذا يؤكد أن العلماء فى الدولة الإسلامية لم يكونوا مجرد نقلة لكتب القدامى وإنما نقدوها نقدًا سليمًا، وصححوا كثيرًا من أخطائها، وأضافوا إليها إضافات جليلة، كما نقد «علىُّ بنُ العباس» كتب المحدثين من العلماء الذين ظهروا حتى عصره فقال مثلًا عن كتاب الحاوى لأستاذه الرازى: « وجدته قد ذكر فيه جميعَ ما يحتاج إليه المتطببون من حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل، ولم يغفل عن ذكر شىء مما يحتاج إليه طالبُ الطب»

إلا أنه عاب عليه ضخامة الكتاب، وكثرةَ تكاليفه حتى عجز أكثرُ الناس عن نَسْخه واقتنائه ، ولم يقدر على ذلك سوى أهل اليسار، ثم أخذ بعد ذلك في إيضاح خطة كتابه الذى حاول فيه أن يجد طريقًا وسطًا بين الإيجاز المخلّ والإسهاب ، فكان من أحسن الكتب الطبية فى عصره ، وقد أثنت عليه «زيغريد هونكه» الألمانية ومما قالته: « إن الكتاب «الملكى» يمنح الأطباء والطبَّ هديةً لم يسبق أن حقق القدماء مثيلاً لها».

وإن ابن الهيثم أبو على الحسن بنُ الحسن من علماء القرنين الرابع والخامس من الهجرة [٣٥٤ - ٤٣٠هـ] [٩٦٥ - ١٠٣٩م] : كان من أبرز علماء العرب فى الطبيعيات والرياضيات وله مُشاركة قيّمة فى الطب، وفى كتابه «المناظر» فى علم الضوء الشهير فى أوربا وغيرها كَتَبَ عن انكسار الضوء، وعن تشريح العين ، وكيفية تكَوُّن الصور على شبكة العين ، وقد كتب فى السُّموم والعقاقير عدة مؤلفات ، وكان مولده بالبصرة عام [٣٥٤هـ] وكانت وفاته بالقاهرة عام [٤٣٠هـ : ١٠٣٩م] وذكر له ابنُ أبى أصيبعة ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة فى : الرياضيات والفلك والطبيعيات والفلسفة والطب ، وقال عنه المفكرون الأوربيون: «إن ابن الهيثم أعظمُ عالم ظهر عند المسلمين فى الطبيعة بل هو أعظمُ علماء الطبيعة فى القرون الوسطى»، وهو من علماء البصريَّات القليلين المعروفين فى الأوساط العلمية فى العالم كله، وإن له فى علم النفس و الأخلاق ما يزيد على أربعين كتابًا، وفى كتاب «العلوم عند العرب» يقول مؤلفه الدكتور عبد الحليم منتصر:«ومن بين علماء الطبيعة يعتبر ابنُ الهيثم فى مقدمة علماء الطبيعة فى جميع العصور» وقد تُرجمت معظمُ كتبه إلى اللغات الأوربية وكان لكتابه «المناظر» فى الطبيعيات أثر بالغٌ فى معارف الأوربيين لهذا العلم فى العصور الوسطى من «روجر بيكون حتى كبلر» (Kepler) وقد حظيت كتبه الأخرى بعناية كبيرة جدًّا فى أوربا حتى أن بعضها لا يوجد إلا مُترجمًا، ولم يبق له فى الطبِّ

سوى كتابين لأن معظم كتبه التى أشار إليها «ابن أبى أصيبعة»[1] فى كتابه عن «طبقات الأطباء» قد اختفت أو فُقدت.

لفتة : وكان كتاب « الملكى » لعلى بن العباس أحد المصادر الرئيسة التى رجع إليها العالمُ الصيدلى ، أبو المُنى داود بن أبى نصر المعروف بالعطار الإسرائيلى الهارونى القاهرى « القرن السابع » . وذلك فى كتابه النفيس : « منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان » [٢٩٦ صفحة بالبنط الصغير والحجم ١٣,٥x١٩] ومن مصادره العلمية أيضًا كما أشار فى المقدمة : كتاب الإرشاد ، والملكى ، والمنهاج ، وأقرباذين ابن التلميذ ، والدستور المارستانى ، وغير ذلك من كتب الطب النفيسة ، إلى جانب « ما امتحنه بنفسه وجربه بيده وأخذه عن الثقة من المجربين والمشايخ الذين عاصرهم » وبدأ الأبواب بتقديم النصيحة للعاملين فى حقل الصيدلة ، صناعة وبيعًا بأن يضعوا أنفسهم فى موضع المريض فيراقبوا الله ، وقسمه إلى خمسة وعشرين بابًا وقسَّم الأدوية على حروف المعجم ، واختتمها بباب فى امتحان الأدوية المفردة والمركبة ، [والكتاب مطبوع فى القاهرة والناشر مكتبة الجمهورية العربية] .

وفيما يلى خلاصة عن حياة عبقرى «الطب والفلسفة» الطبيب العظيم «ابن سينا» تضاف إلى ما سبقت الإشارة إليه عن ريادته وأسبقياته.

---

(١) ابن أبى أصيبعة الذى تكرر ذكره فى هذه الدراسة هو : «الطبيب الأديب المؤرخ العربى واسمه أبو العباس أحمد بن القاسم السعدى مولود بدمشق عام [٦٠٠: ١٢٠٣] وتعلم الطب فى دمشق ثم فى القاهرة بمستشفى الناصرى ومن أساتذته ابن البيطار ثم انتقل إلى «صرخد» ومات بها عام [٦٦٨: ١٢٣٦] كانت دراسة الطب مزدهرة فى هذا العصر وبنوع خاص فى مصر والشام بفضل الدولة الأيوبية فقد كان للبطل صلاح الدين الأيوبى وأسرته عناية كبيرة بالطب وعلومه وإنشاء المستشفيات وشجعوا رجال الطب من اليهود والمسيحيين والمسلمين بكل الوسائل الممكنة وإن كتاب ابن أبى أصيبعة «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» يُعد من أهم المراجع لأربعمائة طبيب مـمَّن عاصروه أو كانوا قبله وحتى عام [٦٦٧] إلى جانب النواحى الاجتماعية والعلمية ، وقد ترجمه الأوربيون إلى لغات متعددة لعنايتهم به .

ابن سينا

الطبيب، الفيلسوف أشهر مشاهير الحكماء والأطباء العالميين

«المتوفى فى أوائل القرن الخامس» «الحادى عشر من الميلاد» .

[٣٧٠ : ٤٢٨]

ظهر ابنُ سينا فى مشرق الأمة العظيمة فى ظلال الدولة العباسية راعية العلم والأدب، ومن خلفائها مفكرون وأدباء وشعراء، وكُنيته «أبو على» واسمه: «الحسن بن عبد الله بن سينا» وهو رائد عبقرى، ارتبطت أبحاثه العلميةُ بعلم التوحيد وإقامة البراهين على عظمة الخالق ووجوده وَتفرُّده بالألوهية، وذلك من خلال النظر فى خلق الإنسان وآيات الكون والنفس الإنسانية، ومازال اسمه وعلمه موضعَ تقدير وعناية فى الشرق والغرب:

وصار طبُّه لدى الباحثين يفوق طبَّ فلاسفة اليونان ويحظى بثقة أعظم، وهو من العلماء الذين يحتلون مكانًا ساميًا فى تاريخ تقدم الفكرِ والطبِّ والفلسفة، كما أنه من أصحاب الثقافاتِ العالية، والاطلاع الواسع، ومن ذوى المواهبِ النادرةِ والعبقرية الفذة، فحياتُه كانت تحفلُ بالإنتاج والتأليفِ والإبداع، وكان إنتاجُه متنوعًا وغزيرًا فكتب فى الفلسفةِ، وفى الطب والطبيعيات، والإلهياتِ، والنفسِ، والمنطقِ والأخلاق وتُوفِّى بهمذان عام [٤٢٨ من الهجرة] .

مؤلفاته: ومؤلفاتُ ابن سينا تزيد على مائة مؤلَّف ورسالة ، ويُعتبر بعضُها موسوعات ودوائرَ معارف، إذْ جمع فيها شتاتَ الحكمة والفلسفة، وما اختاره من أفكار ومؤلفات المفكرين الأقدمين، وأضاف إلى ما قاله الأُولون إضافاتٍ أساسيةً وذاتَ أهمية عظيمة جعلته من القلائل المقدَّمين فى تاريخ العلمِ والفكرِ، ومازال كتابه «القانون» موضع عناية الباحثين فى الطب والأدوية المفردة ، وكان لهذا الكتاب أثر عظيم فى تطور هذا العلم وله فيه بحوث وآراء و تجارب طبية لم يسبقه

أحدٌ بها.

منزلته : ولقد أجمع علماءُ الشرق والغربِ على تقديرِ ابن سينا واستقوا من رشْح عبقريته، وفيضِ إنتاجه إذ كان من الذين ساهموا مساهمةً ذات فاعلية فى تقدُّم العلوم الطبيةِ والفلسفيةِ والنفسية، واحتل فى تاريخ العلوم والفلسفةِ مكانةً لا تقل عن مكانةِ فلاسفةِ اليونان، وقد لقَّبه بعضُ المستشرقين «بأرسطو الإسلام وأبوقراطِه» وكان المفكرُ الأوربى «سكا ليجر» يرى أن ابن سينا نِدٌّ فى الطب «لجالينوس الطبيب والفيلسوف اليونانى» ولكن ابن سينا متفوقٌ فى الفلسفةِ، أما المستشرق «أوبرفيك» فكان يرى: «أن ابن سينا اشْتُهر فى العصور الوسطى، وتردَّد اسمُه على كلِّ شفةٍ ولسان، ولقد كانت قيمتُه قيمةَ مفكِّرٍ ملأ عصَره، وكان من كبار عظماءِ الإنسانيةِ على الإطلاق».

إن ذكاءَه وحُبَّه للعلم وحِرصَه وصبرَه على تحصيل كلِّ نافع ومفيد، مع انكبابه على التدوين والإملاء وقُدرته على التحليل والموازنَة والابتكار، إن كل ذلك جعله فى مصافِّ أعظم الروَّادِ فى مسيرة الإنسان نحو ما هو أفضل، فلقد أتمَّ حفظ القرآن الكريم، ودرس الأدبَ واللغة ببخارى وهو فى العاشرة، وبدأ فى التأليف وتصنيف الكتب فى سنِّ الواحدة والعشرين أينما حَلَّ سواء فى جُرجان أو الرّىِّ وهمذان وأصفهان ، وغيرها من مراكز العلم والحضارة فى أمة الإسلام.

استقلالية شخصيته العلمية: لم يكن ابنُ سينا مقلدًا لفلاسفة اليونان، لأنه خالف أرسطو وأفلاطونَ وغيرَهما من الفلاسفةِ فى كثير من النظريات والآراء، فلم يتقيد بها، بل أخذ منها ما وافق مزاجه، وانسجم مع تفكيره، وأعلن أن الفلاسفةَ يُخطئون ويُصيبون كسائر الناسِ، وهم ليسوا معصومين من الخطأ والزللِ، وهذا الرأىُ لم يجرؤ على التصريح به إلا النادرُ القليل من الذين يملكون عقلًا راجحًا واستقلالًا فى التفكير .

عناية الغرب بآرائه وبمؤلفاته: وقد تُرجمت كتبُ ابن سينا إلى اللغاتِ الأوربية وظلت تدرس فى الجامعاتِ الأوربية إلى القرن السابعَ عشرَ من الميلاد ومازالت بعضُ آرائه ونظرياته فى الفلسفة يدرس فى أوربا ، ولابن سينا تلاميذُ كثيرون من الغرب ساروا على منهجه وتأثروا به ، ومن هؤلاء الفيلسوفُ « موسى ابن ميمون ، وألبرتُ العظيم » وغيرُهم ، يقول : « دى بور » : « وكان تأثيرُ ابن سينا فى الفلسفةِ الأوربيةِ فى العصور الوسطى عظيمَ الشأنِ ، واعتُبر فى المقام الأول كأرسطو اليونانى » . وقال « سارطون » : « إن ابن سينا من أشهر مشاهير العلماء العالميين » ، وقد جاء فى « دائرة المعارف الإسلامية » : « وقد حلَّتْ كتبه فى الفلسفة مَحلَّ كُتب أرسطو عند فلاسفة الأجيال اللاحقة » وقد أتم تأليف كتابه « الشفاء » عام [٤١٨هـ] وهو دائرة معارفه الفلسفية.

الرائد العبقرى وكتابه «القانون»: وفى هذا الكتاب بدأ الطبُّ النفسىُّ يظهر إلى الوجود ولقد مارسه فكرًا وعملًا ، وعالج حالات الاكتئاب ، وأوصى الأطباء بضرورة ضم الوسائل النفسية إلى التداوى بالعقاقير وله توجيهات فى تحليل بول المريض غاية فى الدقة لم يسبقه بها أحد ، إلى جانب أنه أول من اكتشف التهابات غشاء الدماغ المُعدية ، وميَّزها عن بعضها، ووصَفَ مرضَ تصلُّب الرقبة والتهاب السحايا والحمى الفارسية، والدودة المُستديرة المسببة للإنكلستوما والتى عرفها «دوبينى الإيطالى» فى القرن التاسعَ عشرَ كما سبق ابنُ سينا الأطباءَ فى وضع تشخيص التهاب الرئة وخُرَّاج الكبد ، ووصفَ داءَ الفيلاريا «مرض الفيل» كما تعرض لشلل الوجه وأسبابه، وفرق بين المغص الكلوى والمغص المعوى، وتحدث عن إمكانية انتقال مرض السل وغير ذلك من المسائل الطبية التى كانت بمثابة النبراس للذين جاءوا من بعده ، وما زال ابن سينا يحتل مكانة مرموقة فى الشرق والغرب ومؤلفاته وطبُّه وحكمته موضع عناية، وقد تم إطلاقُ اسمه على عدد من المؤسسات الطبية والعلمية وقاعات البحث فى آسيا وأوربا وإفريقيا تقديراً لعبقريته.

ومِمَّا يؤكد سَعَةَ انتشار كتابه «القانون فى الطب» فى أوربا أنه تم طبعه كاملاً باللاتينية ستَّ عشرةَ مرة فى الثُلث الأخير من القرن الخامسَ عشرَ من الميلاد، وأعيد طبعُه كاملاً عشرين مرّةً فى القرن السادسَ عشرَ، أمّا الطبعات التى اقتصرت على أقسام وأجزاءِ مختارة منه فليس لها حصرٌ لكثرتها، وقد ظل هذا الكتاب أهمَّ مراجع جامعة «مونبلييه» حتى أواخر القرن التاسع عشرَ .

* * *

ولفْتةٌ إلى طبيب اندلسىٍّ رحّالةٍ بحّاثة فى النبات :

ابن الروميّة عالم الطب والنبات .. «أمُّه مسيحية أوربية وأبوه عربى مسلم» .

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الخليل، ولد فى أشبيلية بالأندلس من أمّ أوربية مسيحيّة وأب عربيّ مسلم وذلك عام ٥٦٠ من الهجرة (١١٦٥ من الميلاد) ونشأ وتوفى بها فى عام ٦٣٧ (١٢٤٠) عاش إبان حكم الموحّدين ، وتوفى قبل سقوط قرطبة فى أيدى القشتاليين بتسعة أعوام، ينتسب إلى أسرة من موالى بنى أمية، وهى أسرة اعتنت بالأدب والشعر والعلم والفلسفة والسياسة، وتتلمذ على أيدى جمهرة من كبار علماء الأندلس فى عصره، وقد جاب بلاد الأندلس والبرتغال وفرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولندا وجزر البحر المتوسط، وهى الرحلات التى كان يجمع خلالها النباتات التى يقابلها ، ويطلع على ما هو متوافر بشأنها فى تلك البلاد .

هذا بالإضافة إلى رحلاته العربية، فلقد رحل إلى مصر والشام والحجاز والمغرب والجزائر وليبيا والسودان وفلسطين .. وقضى فى هذه الرحلات ما يقرب من ثلاثين عامًا ، ثم عاد إلى مسقط رأسه إشبيلية واستقر بها ، وكان له متجر للنباتات الطبية «الأعشاب» ، ولم يكن متجرًا عاديًّا ، بل كان محفلًا للأطباء ، وكعبةً لعلماء النبات وجميع القاصدين إليه من أجل العلاج من أنحاء الدنيا ..

اهتم ابن الرومية بعلم النبات وخصوصًا بالنباتات الطبية ، وهو الاهتمام الذى جعله يجوب البلاد ويرحل إلى دول مختلفة ، أوربية وأفريقية وآسيوية ، فكان رحالة ممتازًا ، كتب ما رآه ، ودَوَّن ما سمعه بعد تمحيصه ، واطلع على ما كُتب من قبله ، بالعربية أو بلغات أخرى ، ولمع فى هذا المجال ، بالرغم من أن شمس الحضارة فى الأندلس مالت إلى الغروب فى تلك الفترة ، حين سقطت أكبرُ مدنها ومعظمُ قواعدها فى أيدى الغزاة ..!! **وقد كتب ابن الرومية فى الطب والصيدلة والنبات والحديث والفقه** ، وغير ذلك من العلوم ، ويذكر مؤرخو العلم لابن الرومية مؤلفاتٍ فى العلوم الطبيعية ، منها : كتاب الرحلة النباتية ، كتاب فى الأدوية المفردة ، كتاب المستدرك ، ومقالة فى تركيب الأدوية ، والتنبيه على أغلاط الغافقى ، وكتاب : (تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس) أما كتابه الشهير (الرحلة النباتية) فلقد فُقد معظمُه ، ولم يبق منه سوى نُتف ذكرها تلميذُه ابن البيطار .

وقد صنف ابنُ الرومية هذا الكتاب على حروف المعجم ، وأودع فيه ملاحظاته ، وخواص النباتات الطبية واستعمالاتها ، وكذلك الأدوية المفردة ، يقول الدومييلى فى كتابه العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى : «إن كتاب الرحلة النباتية لابن مفرج بن الرومية يعد بحق كتابًا ذا قيمة علمية مرموقة فى النبات والصيدلة» .

(د. كارم غنيم : الأهرام القاهرية) (فى ٢٥ يناير ٢٠٠٣)

* * *

وهيّا إلى الأندلس التى نشأ فيها ابنُ الرُّومية ، وازدهرت فيها العلوم والآداب ، وكان للطب والصيدلة صَرْحٌ عالٍ :

❋ ❋ ❋

وللأندلس دور عظيم

وَجَازة عن الطب وروّاده فى الأندلس

كان حظ أهل الأندلس من العلوم والآداب كبيرًا للغاية، فتقدمت تقدمًا ملموسًا منذ العهد الأموى، واشتغل منهم كثيرون فى الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية والفلك، ونبغوا فى الفلسفة والتصوف والنحو والشعر والتاريخ والسيرة والتراجم ووصف البلدان ، كما كان الحال فى مشرق الأمة الإسلامية فى دمشق وبغداد ونيسابور والقاهرة وغيرها من حواضر ومراكز الثقافة فى تلك العهود، وكانت الأندلس تنافس غيرها من الأقطار فى مجال العلوم والآداب تنافسًا عظيمًا، كما كان يبادر أمراؤها وعلماؤها إلى الحصول على كل جديد يظهر من المؤلفات فى الوطن العربى أو فى بلاد فارس، وكان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فى الأندلس يكرمون العلماء، ويحيطونهم برعايتهم أيضًا، فازدهرت العلوم والآداب وبلغ هذا الازدهار أَوْجَهُ فى عصر الموحِّدين، قال المؤرخ المفكر الإنجليزى : « جون دوا نبورت » عن أثر الحضارة الأندلسية فى إنهاض أوربا وأخْذِها بأسباب التمدُّن والارتقاء : « لو لم تقم فى جنوب أوربا الحضارةُ الأندلسيةُ الإسلاميةُ لظلَّت هذه القارَّةُ الأوربية تسبح إلى اليوم مع شعوبها المختلفى العقائد والنَّزعات فى حُلْكَةٍ من ظُلمة الجهل والبداوة ولَمَا ظهر للمدنية الأوربية الحاليَّة من أثر فى الوجود » .

فى الطب والصيدلة: أول من اشتهر فى الطب فى الأندلس: أحمد بنُ إياس القرطبى فى عهد الأمير محمد، ونبغ بعده كثيرونِ فى عهد بنى أمية، منهم يحيى ابن إسحق الذى كان طبيبًا للأمير عبد الله بن محمد، وقد استوزره الخليفة «عبد الرحمن الناصر» ، وله فى الطب مؤلفات كثيرة، وازدهر الطب فى عهد هذا

الخليفة، واشتهر به كثير من العلماء ؛ منهم أبو عبد الله محمد بن عبدون العُذرى القرطبى، الذى رحل إلى مصر سنة [٣٣٧هـ:٩٤٨م]، ودبَّر وتولَّى إدارة مارستان «مستشفى» مصر، ومنهم الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد، مصنف الأدوية المفردة، ويقول عنه المقَّرِىُّ صاحب «نفح الطِّيب» إنه كان « آية الله تعالى فى الطب وغيره ، وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن، بل بالأغذية أو ما يقرب منها».

تقول دائرة معارف الشعب عنه: ولعله ابن وافد المشهور الذى ترجم له القاضى أبو القاسم صاعد، وذكر أنه : « ألف كتابًا جليلاً لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس الـمُؤلَّفين فى الأدوية المفردة، ورتَّبه أحسن ترتيب».

الجراح العظيم أبو القاسم الزهراوى : واشتهر فى عهد الخليفة الأموى الأندلسى الحكم المستنصر [القرن الرابع] الطبيبُ العالم أبو القاسم الزهراوى (من مدينة الزهراء)، الذى اتخذه الـحَكَمُ طبيبًا خاصًّا له ، ويشهد له تاريخُ العلم بأنه أدخل تجديدات كثيرة على علم الجراحة وتفتيت الحصاة فى المثانة، وإن كتابه فى الجراحة تمت ترجمتُه إلى اللاتينية وظل منهلًا علميًّا للأطباء فى أوربا زمنًا طويلًا ، وقد توفى الزهراوى فى أوائل القرن الحادىَ عشرَ من الميلاد ، وقد ترك فى كتابه مائتى شكل للآلات الجراحية التى كان يستعملها كما استخدم أصنافًا من الإبر والخيوط ووصفها فى كتابه وغير ذلك ، وقد سبقت الإشارة إليه فى صفحة (١٦٦). ونبغ فى ذلك الوقت الطبيب أبو داود سليمان بن حسان، المعروف «بابن جلجل»، وقد شرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، وأوضح ما غمض منها فى كتابه «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس» .

العصر الذهبى لعلم الطب: وهو عصر الموحِّدين إذ نبغ فيه كثير من الأطباء

فى الأندلس نخص بالذكر منهم: ابن البيطار، وهو عبد الله بن أحمد المالقى، الملقب بضياء الدين، وقد رحل إلى مصر فى أيام الملك الكامل الأيوبى، وعَيَّنَهُ طبيبًا فى خدمته «ورئيسًا على سائر العشَّابين» ، ثم صار طبيبًا للملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشقَ بعد موت أبيه الملك الكامل، وعُنى وهو فى دمشق بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام وآسيا الصغرى ، وله عدة مصنفات فى الحشائش لم يُسبق إليها، منها كتابه «الجامع فى الأدوية المفردة»، وقد ترجمه «لكليرك» وكتاب «المغنى فى الأدوية المفردة» ، فى العقاقير، وكتاب «الأفعال الغريبة والخواص العجيبة». وقد استفاد فى كتبه من تصانيف الأدوية المفردة، ككتاب الغافقى وأبى الحسن الزهراوى ، ومن تلامذته الطبيبُ المؤرخُ «ابن أبى أصيبعة» وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة [٦٤٦هـ :١٢٤٨م] ، إذ تجرع عقارًا قاتلًا فمات من ساعته.

وأسرة بنى زُهر العربية القرشية وجهودها فى نهضة الطب: واشتهر بنوزُهْرٍ، من أشراف إشبيلية، بصناعة الطب التى توارثوها ابنًا عن أب، وكان جدهم الأكبر، عبد الجبار بنُ أبى سلمة القرشى الزهرى، قد دخل الأندلس مع موسى بن نصير، واشْتُهر منهم الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، الذى مال إلى التفنن فى أنواع التعليم من الطب وغيره، ورحل إلى المشرق، ونشأ ابنه أبو العلاء زهر بن عبد الملك بشرق الأندلس، ومال إلى علم الأبدان، ولم يزل مقيمًا بشرق الأندلس إلى أن استولى يوسف بن تاشفين على الأندلس، وكان «أبو العلاء زهر» عالمًا فى الطب عارفًا بالعلاجات مطلعًا على دقائقها؛ واستدعاه أمير المسلمين «يوسف بن تاشفين» إليه فى مراكش لعلاجه، ولابنه أبى مروان عبدالملك بن أبى العلاء [القرن السادس] كتاب «التيسير فى المداوة والتدبير» وهو موسوعة طبية وله أثر فى تطور الطب فى أوربا وله كتاب «الأغذية» وقال عنه تلميذه الفيلسوف ابن رشد : «إنه أعظم الأطباء بعد جالينوس» ، كذلك

ألف لخليفة الموحّدين عبد المؤمن كتاب «الترياق السبعينى».

وكان حفيدُه أبو بكر محمد بن أبى مروان عبدالملك بن زهر طبيبَ إشبيلية الأوحد، واستوزره خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب المنصور، وتوفى سنة [٥٩٥هـ/١١٩٨م].

وذاع فى الطب، فى عهد الموحّدين أيضًا، أمرُ أبى محمد عبد الملك المشذونى، وأبى العباس بن الرومية الإشبيلى العلّامة الرحّالة عالم الطب والنبات المتوفى عام (٦٣٧هـ) كما سبقت الإشارة إليه والذى ألف كتابًا فى الأدوية المفردة.

نبذة عن نقل مؤلفاتهم إلى اللغات الأوربية: وقد استفاد الأوربيون من كتب الطب الأندلسية وترجموا أغلب هذه الكتب إلى اللاتينية واليونانية، مثل كتاب «زاد المسافر وقوت الحاضر» وهو مختصر فى الطب وجعلوه تحت عنوان (Viaticum Peregrinantis) الذى ألفه الطبيب أبو جعفر بن الجزار المتوفى سنة[١٠٠٤]، والذى ترجمه كنستنتينو (قسطنطين) الأفريقى، وكتاب (Liber Servitoris) لأبى القاسم الزهراوى، المعروف باسم (Alsaharavius) وله كتاب : «التصريف لمن عجز عن التأليف» وقد ترجمه «جيراردو دى كريمونا» إلى اللاتينية، وترجم «جيدو دى كاولياك» سنة [١٤٧٩م] كتاب الزهراوى عن الجراحة إلى اللاتينية تحت عنوان (Chirurgia parva).

وعُرف أبو مروان بن زهر فى الأوساط العلمية الأوربية باسم (Avenzoar)، وتُرجم كتابه «التيسير» إلى اللاتينية عام [١٤٩٦م]، وظلت هذه الترجمة سارية المفعول فى الطب الإيطالى حتى القرن السابعَ عشرَ، وكذلك تُرجم «كتاب الكليات فى الطب» لابن رشد [القرن السادس] إلى اللاتينية تحت عنوان (Colliget) وله فى الفلسفة وفى الطب العام وطب الأطفال وفى الصحة الغذائية

بحوث ودراسات كثيرة ، وساهمت مدرسة الترجمة بطليطلة فى القرن الثانىَ عشرَ بنصيب وافر فى ترجمة كتب الطب الأندلسية التى تجاوزت شهرتُها آفاق أوربا، ودُرست علومُ الطب فى باريس على أساس التواليف الإسلامية، فكما استفاد الأوربيون من جهود العلماء فى مشرق أمة الإسلام فقد اجتهدوا أيضًا فى أقصى إفادة من جهود الأندلسيين وظل كتاب «القانون» لابن سينا ، وكتاب «الحاوى» للطبيب العظيم أبى بكر الرازى مؤسس المستشفى التعليمى ببغداد ، وكتاب الزهراوى الأندلسى فى الجراحة ظلت هذه الكتب وغيرها أعظم المراجع فى الجامعات الأوربية لعشرات من السنين.

وهكذا العلم أخذٌ وإعطاءٌ وثمراتُه دومًا لخيرِ بنى الإنسان فكن دائمًا «عالمًا أو متعلِّمًا» كثير الاطلاع عميق التفكير، ومع طلب العلم التجريبى العملى ينبغى لنا دومًا الحرص على تذوق الأدب والإلمام بفنونه وتنمية اللغة والأسلوب بالحرص على قراءة الجيِّد منه شعرًا ونثرًا، فالعالم المفكر ينبغى له أن يكون عظيم الاطلاع واسع الثقافة.



خاتـمة:

« وقطْرة من بحر »

خلاصة القول فى الجهود المباركة

عناية المسلمين بالطب :

ازدادت العناية بالطب فى ظل حضارة الإسلام إذ نهى الإسلامُ عن الكهانة وحرَّم اللجوء إلى العرَّافين والسحَرة والمشعوذين وبيَّن للناس أن لكل داء دواءً بفضل الله، وناداهم بالأخذ بالأسباب الصحيحة، ومنها التداوى بالطرق السليمة؛ لهذا نشطت حركةُ البحث فى الطب والتأليف فيه فى ظل حضارة الإسلام، وظهر عدد كبير من الأطباء ، ولقد تحدَّث العلامة الطبيب ابن أبى أصيبعة فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» عن أربعمائة طبيب منهم حتى أوائل القرن السابع من الهجرة ، هذا إلى جانب اشتغال بعض النساء به، كما أُقيمت المصحات والمشافى والمدراس.

الطب اليونانى : بدأ الباحثون فى دولة الإسلام بترجمة الطب اليونانى، ولكن هذا الطب لم يُقنعهم بعد أن نَضجت الملكات وتقدم الفكر والبحث فاجتهدوا فى تعديل المعلومات الطبية القديمة وتصحيحها ، وأضافوا إليها ما لم يعرفه اليونانيون ، وكتَب علماءُ المسلمين أبوابًا جديدة فى الطب والصيدلة وفروعًا لم يسبق لأحد أن اشتغل بها بعد الدراسة والبحث مع إثبات تجاربهم الخاصة فى الميدان .

امتحان الأطباء : فى عهد الخليفة المقتدر بالله عُقد امتحانٌ للأطباء فى بغداد، ووجهوا الدعوة فى كل مكان لحضوره فحضره نحو تسعمائة طبيب، وهذا عددٌ لم تشهده أى حاضرة من حواضر العالم القديم ؛ وكان ذلك عام

[٩٣١] من الميلاد، وسبب هذا الامتحان أن رجلًا من العامة تداوى عند طبيب فلحقه ضررٌ من الدواء فلما علم الخليفة بالحادث أمر «سنان بن ثابت بن قرة» بامتحان الأطباء وإجازة مَن ينجح منهم، وأن يُطرد من هذه الصناعة من تتضح قلَّةُ درايته بأمور الطب والعلاج .

وتم الامتحان وأجيز أكثر من ثمانمائة طبيب وستين طبيبًا .

الرعاية الطبية : عُنى حكام المسلمين بالرعاية الطبية الشاملة ولم يقصروها على المدن الكبرى أو حاضرة الدولة، وعلى سبيل المثال فإن الوزير «عيسى» على عهد المقتدر أمر بأن تقوم بعثة من الأطباء بالطواف فى أنحاء البلاد ومعهم خزانة للأدوية والأشربة لعلاج المرضى، كما خصصوا عددًا من الأطباء للسجون لرعاية نزلائها وتقديم العلاج اللازم لهم .

الطب فى أوربا :

كانت أوربا حتى نهاية القرن الثانى عشر من الميلاد [السادس من الهجرة تقريبًا] لا تعرف المستشفى ولا الطبيب ولا الصيدلية وكان المريض يلجأ إلى الكهنة فى الكنيسة أو إلى المشعوذين الذين يزيدون المرضى آلامًا أو يتسببون فى إزهاق أرواحهم ، وكان من المقرر فى أوربا أن من العيب حقًّا أن يعمل طبيبٌ بيديه فى معالجة المرضى، لذا فقد حَرَّمت الكنيسةُ تعاطى الجراحة، كما كانوا ينقمون على من يشتغل بطب بدائى متوارث كمن يعالجون الجراح المدمَّاة بالخبرةِ والتوارث ، و«إن الكنيسة - كما قالت الألمانية زيغريد هونكه - لم تثق بمثل هؤلاء الناس أَلْبتَّة، كما أنها لم تكن لتثق بجميع أنواع العلاج غير الكنسية» ، وهذا راهب كبير يرفض أن يعالجه طبيبٌ يهودى قد تعلَّم الطب فى المدارس العربية ومما قال له : «أنا بِغِنًى عن طبّك عندما أعْتمِد على الله وأسلِّم أمرى له ولسيدنا يسوع المسيح» .

وخطأُ هذا الراهب أن التوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب الصحيحة، وهذه هى إحدى مزايا تعاليم دين الله عز وجل فى بيان معنى التوكل على الله، ففى الطب يبين الحبيب المصطفى ﷺ أنه ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء «فتداووا يا عباد الله» مع الإيمان بأن الدواء إنما يحقق الغرض المنشود إذا شاء الله تعالى، وإن رسل الله عليهم الصلاة والسلام كانوا جميعًا يأخذون بالأسباب ، وهم أعظم الناس توكلًا على الله .

وكذلك أوجبت الكنيسةُ على المرضى فى ذاك الزمان أن يمتنعوا عن تناول العقاقير الطبية إلا إذا اعترف المريض أمام الكاهن بذنوبه ، وبالتالى يقبل دواء الكاهن ، وفى التعليمات التى صدرت عام [٨٩٥] من الميلاد ما يبين لنا هذا الجانب وفيها : على الكاهن أن يرشَّ مريضَه بالمياه المقدَّسة وأن يشاركه الصلاة ، وأن يسمع منه اعترافه منفردًا، وليس ثَمَّةَ علاجٌ بدون اعتراف، وذلك لِمَا كانوا يعتقدونه فى ذاك الزمان من أن المرض وكلَّ شرٍّ يرجع إلى الخطيئة ، وبدون الاعتراف لا يجوز للكاهن أن يعالج مرضاه ، إذ بعد الاعتراف تختفى الآلام الجسدية، وتلك معتقداتٌ غير صحيحة ومجافية للتعاليم الإلهية التى جاء بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

تلك صورة سريعة عن حال الأوربيين بعد ظهور الإسلام وازدهار الحياة لدى المسلمين بفضل الإسلام وتعاليمه وتوجيهاته، ولم يعرف الأوربيون المشافى التى تستقبل المرضى إلا بعد الحروب الصليبية إذْ رأوا عند المسلمين ما راعهم وأدهشهم .

وما زال البَوْنُ شاسعًا : وبدأ الغرب يتفتَّح على حضارة المسلمين وينقل عنها وبدأ الأوربيون يقيمون المشافى منذ نهاية القرن الثانى عشر، ولكن ظل هناك فرقٌ شاسع فى الفهم وفى تطور الفكر وفى سُبل العلاج بين المسلمين

والأوربيين لفترة طويلة من الزمان، وإن الوقت الذى وضع فيه الأوربيون أقدامهم على أول الطريق كان للعرب والمسلمين مؤلفات قيمة، وموسّعات عظيمة فى الطب تقوم على أساس التشخيص ومعرفة أسباب الداء ومظاهره قبل وصف الدواء، كما كانت لهم مدارسهم وتجاربهم إلى جانب تعدد الفنون الطبية إذا صحّ هذا التعبير فظهر عند المسلمين :

- أطباء العيون وكتب فى طب العيون .
- وفرّقوا بين الحصبة والجدرىّ .
- وصَحَّحوا الأخطاء الطبية التى وقع فيها جالينوس اليونانى وغيره .
- وعرفوا السلّ الرئوى .
- ووصَفوا دورة الإنكلستوما .

إلى جانب الكشف عن «الدورة الدموية فى الرئتين»، وعلاج الصدمات العصبية والأمراض النفسية ، وتفوقوا فى الجراحة بالنسبة لعصرهم وغير ذلك من أبواب الطب وفنونه مع ما امتاز به الأطباء من سعة أفق وإخلاص للمهنة وشرفها .

وفى العصر الإسلامى الزاهر - أيضًا - كثرت المشافى «البيمارستانات» :

فقد كان فى مدينة قرطبة وحدها خمسون «مشفى» فى أواسط القرن العاشر من الميلاد ، وكان فى كل مصحّة فى بغداد وغيرها حمامات وأسِرَّة إلى جانب العناية باختيار الموقع الملائم لبناء المشافى .

وكانت هذه المشافى تفتح أبوابها للناس كلهم بلا تمييز ، وهذا السلطان قلاوون يقول فى وصيته : «إنى وهبتُ هذا المشفى «البيمارستان» إلى أندادى وأتباعى وخصصته : للحكام والخدم والجنود والأمراء ، والكبار والصغار، والأفراد والرجال والنساء على السواء» .

وكان للحكام والأمراء والسلاطين عناية كبيرة بإقامة هذه المشافى وتجهيزها ومدِّها بالمياه ووسائل الراحة الكافية ، كما أن الأغنياء نافسوا فى هذا الميدان ، وأقام الأطباء عددًا منها - أيضًا - ومنهم سنان بن ثابت،وابنه وحفيده .

المستوصفات المتنقلة : وكان للمسلمين عناية - كما سبق - بالقرى ونواحى الدولة ؛ لهذا ظهرت عندهم فكرة المشافى المتنقِّلة تُحمل بين القرى وإلى جانبها مستوصفات خاصة بالسجون .

مشافى الفئات : وكما تقام فى عصرنا الحاضر مشافى ومصحَّات لفئات خاصة كالمعلمين والمهندسين وغيرهما ، فقد عرف المسلمون هذا النظام بدافع العناية بالموظفين ، فهذا الوزير ابن الفرات أقام فى القرن العاشر من الميلاد عيادة جامعة على نفقته الخاصة وخصصها للموظفين العاملين تحت إمرته، وكان لهم الحق فى التداوى ونيل كل أسباب العلاج والعناية بلا مقابل .

الرواتب والنفقات : كان المسلمون يُنفقون على المصحَّات بالتبرعات النقدية وعن طريق الوقف فكان لكل مصحَّة ومشفى ريع يُنفق منه على رواتب العاملين وعلى شراء العقاقير والطعام والأسرة وسائر ما تحتاجه هذه المؤسسات الطبية، وإن كل المرافق المتصلة بحياة الناس كانت تجد الدعم والسخاء من الحكام والأمراء والقواد والأغنياء كالمدارس ونحوها .

العناية بالمكتبات العلمية :

وكان فى هذه المشافى مكتبات ليرجع إليها الأطباءُ وتصف «زيغريد هونكه» المكتبة التى أقامها «نور الدين» فى المستشفى فتقول: «كان فيها مكتبةٌ ضخمة جمعت كتبًا ومخطوطات قيمة رُتِّبت على رفوف عالية فى القاعة

الكبيرة، وكان يأتى إليه أطباء وطلاب كُثُرٌ فيجلسون بين يديه ، ويسمعون له ويحفظون عنه ، ويجادلونه فى الأمور المستعصية والحالات النادرة التى صادفتهم فى مستشفاهم» .

التخصص : وكان لكل مَشفَى رئيس يُختار بعد اختبار علمى دقيق، كما كان لكل مرض أطباء يتفرغون لمرضاهم فمنهم المختص بالأمراض الداخلية (الباطنية) ومنهم بالأمراض العصبية، ومنهم الجراحون، ومنهم المتخصصون فى أمراض المفاصل والعظام، هذا إلى جانب أطباء العيون وكانت رئاسة كل قسم دورية .

التجربة العلمية والعملية:

وعرفت المشافى والمدارس الطبية التجارب العلميةَ العملية كما وصف ابن أبى أصيبعة سنى دراسته فى دمشق، وكيف كانوا يقومون بما يقوم به رئيسُ القسم أو الأستاذ مع تلاميذه اليوم فى عصرنا الحاضر، إذ كان الطلاب يتجمعون حول المريض ويقوم واحد بالتشخيص ، ثم تدور مناقشةٌ مع رئيسهم، وكان الطلاب يتدافعون على الرئيس ليسمعوا منه حين يتحدث عن المريض وحالته ويدوِّنون ذلك ، وتُعقِّب «زيغريد هونكه» الألمانية على كلام ابن أبى أصيبعة فتقول : «وهكذا تَخرَّجت طبقةٌ من الأطباء الذين لم يشهد لهم العالم مثيلًا آنذاك إلا فى عصرنا الحديث » .

تصريح العمل :

ومنذ أن أخطأ طبيبٌ فى معالجة مريضه ببغداد فى القرن العاشر من الميلاد صدرت التعليماتُ بأن لا يمارسَ مهنةَ الطبِّ والعلاج أحدٌ إلا بعد اختبار يحصل الناجحُ بمقتضاه على تصريح بمزاولة المهنة، وبدأ ذلك منذ عهد الخليفة

المقتدر وكان الجراح مثلًا يُختبر فى مادتى علم التشريح وعلم الجراحة للتأكد من أن الطالب قد درس كُتبَ «باولس فون أجينا» أو كُتب «على بن العباس» وهذه جملة من شهادةٍ صلاحيةٍ وتصريح بالمزاولة : «بإذن البارى العظيم نسمح له بممارسة فن الجراحة لِمَا يعلمه حقَّ العلم وَيُتقنه حقَّ الإتقان ... وبناءً عليه : فإن بإمكانه معالجة الجروحات .. وبفتح الشرايين .. واستئصال البواسير .. إلخ » .

وهذا رأى طِبّىٌ للعالم المسلم «على بن العباس» دوَّنه فى كتبه : «وأما السرطان فأمره عجب، وشفاؤه صعب، وهو حقل لم يُفلح فيه الطبُّ والتطبيب إلا نادرًا .. إلخ » ، وأعتقد أن الأمر مازال كذلك حتى اليوم .

والخلاصة :

تلك لمحات سريعة، وخطوط لمَّاحة عن الطب وعلومه وأسلوبه ومؤسَّساته فى الدولة التى صنعت الحضارةَ لكل الناس ، ونقلتهم من طور التأخُّر الفكرى والاجتماعى والعلمى إلى مرحلة الانتعاش فى كل جوانب الحياة، وصححت أخطاء اليونان وغيرهم فى الطبِّ والفلسفة والرياضيات وغيرها، وعلَّمت أوربا كيف تحترم الإنسانَ وتؤدِّى له الخدمات اللازمة ، كما عرفت أوربا كيف تسير نحو الازدهار والتقدم .

ويكفى أن تعرف أن كلية الطب الباريسية قبل ستمائة عام كان فيها مكتبةٌ لا تحتوى إلا على كتاب واحد من تأليف طبيب عربى هو «أبو بكر محمد بن زكريا الرازى» وكان هذا الكتابُ مرجعَ أطبائهم ودُرَّةً فى جبين حياتهم فى تلك الأيام حتى أن بعض الملوك استعاره مقابلَ مبلغ من الفضة والذهبِ دفعها «لويسُ الحادىَ عشرَ » الملكُ الأوربى وقتها لكى ينسخ له أطباؤه نسخةً منه ، وظل هذا الكتابُ مرجعَ الطب فى أوربا لمدة أربعمائة عام ، ولذا ما زال الباريسيون

يذكرون فى أكاديمية الطب عندهم «الرازىّ وإخوانه» من رجال الطب الأول بالفضل والخير، ويُقرُّون لهم بالرّيادة .

إن الأمة التى صنعت أساسَ التقدم العلمى ووصلت قبل غيرها من الأمم إلى الأسلوب العلمى التجريبى وعَلَّمتْهُ لغيرها رحمةً بالناس جميعًا بلا تـمييز لهى قادرةٌ على أن تعود إلى أصالتها ، لتقود العالم من جديد فى مسيرة الخير والحب والبناء والـمساواة الإنسانية الصحيحة على نحو يخالف ما عليه حضارةُ الـماديين التى إن نجحت فى جانب فقد فشلت فى الجوهر والرُّوح ، وفى بناء الإنسان وتربيته تربيةً وافيةً شاملة فى الطريق الصحيح ، الذى يوازن بين العقل والروح والجسم والنفس : وكما تقول الحكمةُ العربية : فأنت بالنفس لاباالجسم إنسان .



أَقبِلْ على النفس واستكمِلْ فضائلَها   فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

والتأثير فى المعنويات والطبائع :

تفاعُل عناصر الأمَّة

مع التعاون والتسامح والمواساة

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

« من آذى ذمِّيًا فقد آذانى » . وفى نور تعاليم القرآن وتوجيهاتِ الرسول الكريم ﷺ قام المسلمون برعاية حقوقِ أهل الذمة الماديَّة والمعنويَّة فلا ظُلمَ ولا أذًى ، وإنما العدلُ والإحسان ، فهم إخوانٌ فى الوطن يساهمون فى بنائه وازدهاره وإعلاء شأنه .

تأثير المسلمين فى الأخلاق والطبائع : نقل الأوربيون عن علماء الأمة الإسلامية ومفكِّريها شتَّى أنواع العلوم والمعارفِ العقلية والعملية التطبيقية ، ودأب الأوربيون على مواصلة البحثِ والدراسة والتجريبِ حتى بَنَوْا مدنيتَهُم الحديثةَ ، وإنه بفضل مخالطة الأوربيين للعرب والمسلمين فى تلك العصور فى بلاد الأندلس وفى جزيرة صقلية ، وفى بلادنا الشرقية فى مرحلة العدوان الهمجىّ الصليبى على الشام ومصر وغيرهما ، بفضل هذه المخالطة ورؤيتهم عن قرب لأحوال المسلمين والعرب ومزايا أخلاقهم وأعمالهم وإنسانيتهم تأثَّرت طبائعُ الأوربيين وأخلاقهم وعلاقاتهم الاجتماعية إلى الحدِّ الذى جعلهم أفضل مِمّا كانوا عليه من ذى قبل، فلم يقف التأثُّر عند قيامهم بالترجمة عن العربية والتعلم فى الأندلس وغيرها ، بل تعدَّى ذلك إلى المعنويات والأخلاق والعلاقات

الإنسانية ، فقد أدهشتهم فضائلُ المسلمين والعرب وأخلاقُهم وشهامتُهم ، وكيف أن المسلمين يعيشون مع إخوانهم من أصحاب الأديانِ والملل الأخرى فى تعاون وَبِرٍّ ومرحمة ، وقد امتزجت عناصر الأمة فى جوٍّ من الاحترام والمساواة فى الحقوق والواجبات .

وقد تحدث المفكِّر الأوربى «ديورانت» فى كتابه «حضارة الإسلام» عن مناخ التسامح والتعاون الذى عاش فيه جميعُ المواطنين فى أمة الإسلام وأثار إعجاب الأوربيين وقادتهم فيقول : **«لقد أجمعت المراجعُ والوثائقُ الأوربية على أن المسيحيين واليهودَ والصابئةَ قد تمتَّعوا فى ظلِّ الحُكم الإسلامى بدرجة من التسامح ليس لها نظير فى البلاد المسيحية المعاصرة، ذلك أن هؤلاء عاشوا فى الأمة الإسلامية أحرارًا فى مباشرة شعائرهم الدينية، واحتفظوا بكنائسهم وبمعابدهم، ولم تُفرض عليهم سوى جِزية ضئيلة تراوحت قيمتُها بين دينار وأربعة دنانير، مع إعفاء الرهبان والنساء والذكورِ الذين هم دُون سنِّ البلوغ من هذه الجزية ، كما تم إعفاءُ الأرقَّاء والشيوخ والعجزة والمُعدمين منها، هذا إلى جانب إعفائهم من زكاة المال التى فُرضت على المسلمين وحدهم، وهكذا أخذ المسيحيُّون فى جميع البلدان الإسلامية يمارسون شعائر دينهم فى حرية تامَّة »** .

حرية العبادة وزيارة الأماكن المقدَّسة : ثم يقول هذا المفكر الأوربى : **«وكان المسيحيون أحرارًا فى الاحتفال بأعيادهم، وكان حُجاجهم يأتون آمنين لزيارة الأماكن المقدَّسة فى فلسطين، هذا بعد أن كان المسيحيون الخارجون على الكنيسة الشرقية قبل انتشار الإسلام يَلقَوْن كثيرًا من العَنَت فى بلاد الشام ومصر، إذ بهم – بعد انتشار الإسلام – يُصبحون أحرارًا آمنين فى ظل الحكم الإسلامى »** .

التفاعل فى الأعمال والوظائف والمهامِّ: ولقد استخدمت الدولةُ

الإسلاميةُ موظفين من المسيحيين وغيرهم ووصل كثيرٌ منهم إلى مراتبَ ذاتِ أهمية علمية وإدارية ، ومن الأمثلة كما يقول «ديورانت» « أن «سرجيوس» والد «القديس يوحنًا» تولّى منصب «خازن بيت المال» فى عهد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان ، كما أن «القديس يوحنا» نفسَه تولّى منصبًا مُهمًّا فى حكومة دمشق، وهكذا بَلغت المودَّةُ بين أصحاب الديانتين الإسلامية والمسيحية درجةً أباحت للمسيحيين الحرّية فى أن يتردَّدوا على المساجد ليجتمعوا فيها مع إخوانهم المسلمين » .

وذاق المستضعفون حلاوة الأمن والتسامح : إن مظلّة العدالة والحرية والتعاون والتسامح هى التى جعلت «أسقف بيت المقدس صفرنيوس» يفتح صَدْرَه ويرحِّب بالخليفة الثانى «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه الذى أقرهم وكتب لهم بالأمن والأمان على أموالهم وعقائدهم وأنفسهم ، لا يُضارُّ أحدٌ منهم بسبب دينه ولا يُكره على شىءٍ من أمره ، فى حين كان الرومان المسيحيون يعملون على إكراه نصارى بيت المقدس وفلسطين على ترك مذهبهم إلى مذهب الدولة الرومانية ، ومن رفَضَ تَرْكَ مذهبِه «جُدع أنفُه ، وصُلمتْ أُذُناه ، وهُدم بيتُه» وفى عهد «هرقل الرومانى» اشتد الأذى بالناس فضاقوا ذرعًا بالرومان.

وإن هذا العهد الذى أعطاه الخليفةُ لأهل بيت المقدس جعل أهل المدن الأخرى مثل «اللدِّ والرَّملة وغيرهما» يسعَون بأنفسهم للحصول على عهدٍ مثله والخلاصِ مِمَّا كانوا فيه من المشقَّة والعَنَت فى إسارِحُكم الرومان، وقد حصلوا على العهد والأمان على **الدين والنفس والمال والكنائس والصُلبان وحماية المريض والبرىء** وسائر أصحاب مذاهبهم ، وعاش الجميع آمنين فى سلام وتعاون فى بلاد الشام وغيرها .

وفى أسبانيا : ومن صُور هذا التسامح والبِرّ أن الدولة الإسلاميةَ فى الأندلس

شملت الجميعَ بالرعاية والمواساة والعدالة، وسمحوا للأساقفة بعقد مؤتمراتهم ومجامعهم الدينية ، ومثال لذلك «مجمع إشبيلية» الذى انعقد فى أواخر القرن الثامن من الهجرة [الرابعَ عشرَ من الميلاد] كذلك «مجمع قرطبة» الذى انعقد فى منتصف القرن [التاسع من الهجرة تقريبًا] وقد تمتع اليهودُ فى أسبانيا وفى سائر الدول الإسلامية بحقوقهم كاملة وبرعاية الدولة مع الاستعانة بموظفين وخبراء منهم، ولم يُضارَّ اليهودُ فى أى طرف من البلدان الإسلامية، ولم يحدث لهم من المشاق والتضييق والعنت بل ومن العُدوان على النفوس والأموال كما حدث لهم فى روسيا وفى ألمانيا وإيطاليا وسائر الدول الأوربية، بل عاشوا مع المسلمين والعرب على قدم المساواة أمام العدالة ، وعاشوا آمنين أحرارًا فى عباداتهم ومساكنهم وتجاراتهم ، بل صاروا فى الصدارة فى المجالين التجارى والصناعى وسائر الأعمال[1] .

ومازالت الآثار المعنويةُ باقيةً شاهدةً لأمة الإسلام ولخُطواتها الرائدة وجهودها للرقىّ بالإنسان بجانبيه المادى والمعنوى العقلى والروحى ، وكان مِمَّا انطبع لدى الأوربيين من مخالطتهم أهلَ الإسلام وقُربهم منهم فى العصور الوسطى أن الأوربيين تخلَّصوا كما قال «جوستاف لوبون» صاحبُ كتاب «حضارة العرب» «تخلصوا من فظاظتهم وخُشونتهم بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم الطبائعَ النبيلةَ ومبادئَ فروسيتهم التى منها : احترامُ العهود والوفاءُ بالوعود » ، ويا حبذا لو فعلوا بعد ما نقلوا.

---

(١) ومن العجب العُجاب أن جلادي اليهود بالأمس صاروا أعوانًا لهم فى تحقيق مطامعهم وفى البطش والتقتيل والتخريب فى أعزّ بقاع العرب والمسلمين وقد أعطى اليهود فى القرنين العشرين والواحد والعشرين أعطوا بحماقاتهم وبسوء تفكيرهم وأظهروا لكل إنسان أبشع صور الحقد والقسوة والإفراط فى الأثرة وفى حب القتل والتدمير وحب الاستعلاء مما ستكون له أوخمُ العواقب فهم فى سكرتهم يعمهون وإن ربَّك لبالمرصاد .

وعن مدى تأثر الأوربيين فى الجانب المعنوى والأخلاقى يقول الدكتور «فيليب حتّى» : «ولم يكن تأثيرالمسلمين والعرب على أوربا فى المعنويات والأخلاق أقلَّ وضوحًا - أى من التأثير العلمى والفنى - والمعروف أن المثُل العليا للتربية الأخلاقية عند العرب هى : الشجاعةُ والصبر ومراعاةُ الجوار والمروءةُ والكرمُ، وحسنُ الضيافة، ومساعدةُ النساء ، والوفاءُ بالعهود » ويؤكد «جوستاف لوبون» ذلك بقوله : «إن المقدار الموجودَ فى أوربا من التسامُح المحدود قد تعلموه من المسلمين الذين وصلوا إلى أعلى حَدٍّ فى التسامح الذى لم يعرفه العالمُ الغربى حتى اليوم» وينقل الدكتور «الحجّى» فى كتابه عن حضارة الإسلام قول «لوبون» : «ومن المسلمين فى الأندلس تعلَّمت أوربا قواعدَ الفروسية وتقاليدَها وخصالَها» ويوضح ذلك الدكتور «سعيد عاشور» فى كتابه فيقول : «وكان للفروسية العربية شروطها، فلايكون المرءُ فارسًا إلا إذا تحلَّى بخصال عشر هى : « التقوى، الشجاعة، رقةُ الشمائل، القريحةُ الشعرية، الفصاحة، القوةُ، المهارةُ فى ركوب الخيل، والقدرةُ على استعمال كل من ؛ «السيف والرمح والنُّشَّاب».

وكما نلاحظ فإن «التقوى» عاصمٌ من الاندفاع والبطش ومن استخدام الشجاعة والقوة والسلاح فى ترويع الآمنين ، قال «بارثلمى سانت هيلبر» المفكر الأوربى : «لقد هُذِّبت طبائعُ أمرائنا الخشنة فى العصور الوسطى بفضل علاقتهم بالعرب وتقليدهم لهم ، فتعلَّم أشرافُنا وفرسانُنا رقَّةَ العواطف ولينَ الطبائع، وحُسْنَ الأخلاق » .

ويؤكد ذلك كله «جوستاف لوبون» فيقول ما معناه : «لماذا ينكرُ بعضُ علماء الوقت الحاضر تأثير العرب ؟ إنه ليس من العار أن نعترف بأن أوربا مَدِينة فى خروجها من دَور الهمجيّة (البدائية) للعرب».

الضمير الإسلامى : والأديب الحكيم « مصطفى صادق الرافعى » [القرن

الرابع عشر من الهجرة] قدّم لنا صورة صادقة للمسلم تحكُمه مبادئُ دينهِ ورقابةُ عقيدته وضميره الذى هذَّبه صدقُ يقينه فيقول: «كان المسلمون هم العقلَ الجديد الذى يضع فى العالم تمييزَ الحقِّ من الباطل، وكانوا جميعًا ينبعثون من حدود دينهم وفضائله لا من حدود أنفُسهم وشهواتهم، فإذا سَلُّوا السيف سَلُّوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون، ويكاد الضمير الإسلاميُّ فى الرجل منهم يكون حاملًا سلاحًا يَضربُ صاحِبَه إذا هَمَّ بمخالفته».

نعم: إن العالم كلَّه فى أشدِّ الحاجة إلى «القوة العاقلة والأمة العادلة» التى بسطت يدها بالخير والرحمة والتسامح لجميع بنى الإنسان، وأعانت الضعفاء والمهضومين والمستضعفين، ومن أجل الحق والخير وكرامة الإنسان كان جهادها ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعد.

تلك هى أمة الإسلام كانت خيرًا ونورًا وعلمًا وعدلًا ورحمةً لجميع بنى الإنسان.

* * *

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

[المائدة: ١٥، ١٦]

❋ ❋ ❋

قال المستشرق «بريفولت» فى كتابه: «بناء الإنسانية»: «لقد كان العلمُ أهمَّ ما جادت به الحضارةُ الإسلامية على العالم الحديث، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١ – ٤]

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١]

الرسالة الرابعة :

علوم رائدة

في ظلال القرآن الكريم
نشأت
علوم لغوية عظيمة الشأن

(القراءات ، المعاجم اللغوية ، النحو ، الصرف ، أصول اللغة وعلوم الإعجاز والبلاغة)

اللغة الحيَّة الخالدة

لغة العلم العالـمية على مدى عشرة قرون

* * *

كلمة :

– إن ظهور اللحن والشعور بالـمسؤولية تجاه لغة القرآن الكريـم أدى إلى ابتكار علم النحو .

– علمُ النحو العربى نشأ وترعرع ونـما واتضحت أقسامه فى ظلال العناية بلغة القرآن .

– رجال لهم باع فى نشأة ونـموّ هذا العلم منهم : علىّ بن أبى طالب ، عمر بن الخطاب ، أبو الأسود الدؤلى وغيرهم .

– لم يكن علم النحو العربى ثمرةً من ثمرات الامتزاج بين الثقافة العربية والثقافات الوافدة وربـما أفاد من هذه الثقافات فى مرحلة أتت بعد نُضْجه واستوائه على عُوده.

– إن العناية بعلم النحو حلقةٌ فى سلسلة العناية بالقرآن الكريـم التى أدت إلى ظهور علوم متعددة كالصرف وعلم القراءات والبلاغة والتفسير والـمعاجم وقبل ذلك كانت العناية بجَمْع الـمصحف ونسْخه والعناية بالنقط والشكل .

* * *

اللغة الحيَّة الغنية لغة العلم والأدب :

كانت اللغة العربيةُ هى الأدَاةَ التى حملتْ الثقافةَ الإسلاميةَ الراقية ، وجوانبها وفروعها الـمتعددة ، وظلت تلك اللغةُ هى لغةَ العلم العالـميةَ أكثر من

عشرة قرون، إنها لغةُ العلم والأدب النثرِ والشعرِ التى استوعبت علومَ الأمم القديمة وهضمتها، وعبَّرت عنها بوضوح وجلاء ودقة كما كانت هى الأداةَ المعبرةَ عن العلوم التى ابتكرها المسلمون ، وقد حملت بقوة واقتدارٍ تلك الثمارَ الناضجةَ كلها إلى العالم الظامئ إلى المعرفة فى الشرق والغرب، ولقد أجمع الباحثون على أن العربيةَ هى أغنى اللغات الساميةِ ، وأوسعُها أفقًا وقد أنضجها الزمانُ المتطاولُ فى البقاع الشاسعةِ من الجزيرة وأخرجتها الفطرةُ السليمةُ ، والإحساسُ المرهفُ ، والإدراكُ الناقدُ لغةً كاملةً مُعْجِبةً وعجيبة : وقد عبَّرت هذه اللغةُ عن أدقِّ المشاعرِ والأحاسيس الإنسانية ، وإن ثروةَ العربيةِ قبل نزول القرآن الكريم كانت تقدم للشاعر تعابيرَ شتَّى يُصور بها خلجاتِ نفسه ، ويلوِّن بها عواطفه .

وقد ظهر ذلك فى الشعر الذى صوَّر الحياةَ قبل الإسلام وعلى مدى نحو مائة وخمسين عامًا ، هذا الشعر ذو القافية المُحْكَمةَ ، والموسيقى التى يحكمها جَرْسُ الوزن والألفاظ المُعبِّرة والعبارات المتينة القوية ، مع خياله الجميل القريب الذى يُلوِّن المعانِيَ بلون العواطف .

وقد أراد الله عز وجل للعربية أن تكون لغةَ كتابه العزيز ، وترجمان وحيه إلى النبى محمد ﷺ و بلاغَ رسالته إلى الناس كافة ، فاشتملت لغةُ الكتاب العزيز على العالم الحسىِّ والعقلى مُصَوَّرًا فى كلماتٍ وآياتٍ بيِّنات ، وقد جُوزيت - العربيةُ - على هذا خلودًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ما بقى للإنسان عقلٌ وقلبٌ وما استقام له إحساسٌ وإدراك ، وكم انزوتْ لهجاتٌ ولغات ، وكم انقرضت لغاتٌ على مدى يزيد على خمسةَ عشرَ قرنًا أمَّا العربية ففى نماء واتساع وزيادة ، بفضل ما أودع الخالقُ الحكيمُ فيها من مزايا : الدقَّةِ والرقَّةِ والترادُفِ والتضادِّ والاشتقاق والتعبيرِ عن المعنى الواحد بأكثر من عبارة ، مع

قبولها الجديدَ من المصطلحات والأسماءِ والمفردات وإخضاعِ هذا الوافدِ لذوق العربية ونُطقها وتعابيرها .

وحسبُ العربية شرفًا أن الله أنزل كتابه الكريم بلسانٍ عربى مبين ، وقد أراد اللهُ عز وجل لها الخلود ، فهى باقيةٌ إلى يوم الدين : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر :٩] . يقول الدكتور عبدالوهاب عزام فى كتابه : «مهد العرب» «..وتقلّب الزمنُ ، وتوالت المحنُ ، والعربيةُ ثابتةٌ ناضرةٌ رائعةٌ ثباتَ قوانين الله وروعةَ كواكِبه ، مرَّ عليها خمسةَ عشرَ قرنًا وقد مُحيتْ لغاتٌ ، وبُدِّلَت لغاتٌ ، وحُرِّفَتْ لغاتٌ ، والعربيةُ هى العربيةُ لم تُمح ولم تُغيَّر ولم تُبَدَّل ، ما آيةُ الخلودِ بعد هذا؟» .

فقد أقبل أبناء الشعوب فى آسيا وفى أفريقيا وفى أوربا على كتاب الله عز وجل ، وهو دستورُ هؤلاء الذين دخلوا فى دين الله أفواجًا فرحين راضين بما هداهم الله إليه من خيرى الدنيا والآخرة ، أقبلوا على كتاب ربهم يتعبدون ويحفظون ، ويتفقَّهون ويتعلمون منه ومن سُنةِ نبيِّهم ﷺ أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، فلم يمضِ قرنٌ من الزمان حتى صارت العربيةُ هى لغةَ الشعوب من أقصى الشرقِ إلى أقصى الغربِ الإسلامىّ ، ثم إنها لغةٌ دقيقةٌ مؤهَّلَةٌ : فهى غنيةٌ بمُفرداتها ومترادفاتها ومُشتقاتها ، بحيث اعتُبرتْ تامَّةَ الحروفِ ، تختصُّ بحروف لا مثيلَ لها فى أية لغةٍ أخرى .. كاملةَ الألفاظ لم ينقصها شىءٌ .. فأثبتت جدارتها ، وعالميتها واستيعابها لكل ثمرات العقول والعواطف .

والدكتور عبدالمنعم ماجد يقارن بينها وبين لغات أخرى فيقول : « ..كانت لغاتُ الشعوب المفتوحة فى فقر مُدقع بينما كان اللسانُ العربىُّ فى ذرْوته ، فمثلًا: اللغةُ الفارسيةُ لكثرة حروبِ الفرس كانت مهملةً ، والقبطيةُ كانت مضطهدةً ، والأندلسيةُ كانت ناشئةً ، .. وحتى السريانية أو العبرية كانتا فى مركزٍ ضعيف..» وسرعان ما حلَّت العربيةُ مَحِلَّ : الفارسيةِ والبربرية

والأندلسية واليونانية ولغاتٍ سامية مثل السُّريانية والعبرانية ، وأغنت العلماءَ من جميع الأديان والعقائد للتعبير عن كل ما يُسطِّرونه ويقولونه ، وصارت العربيةُ وحدها شائعةً فى دار الإسلام ، كما أن الأمم أو الجماعاتِ التى احتفظت بلغاتها ولهجاتها المتوارثة كلغةٍ تخاطُبٍ فيما بين أفرادها اتخذت اللغةَ العربيةَ لغةً للعلم والأدب ، وفى ذلك ينقل الدكتور سعيد عاشور عن «جوستاف لوبون» صاحب كتاب «حضارة العرب» قوله : «.. حتى الشعوب التى احتفظت بلغتها ورغم اعتناقها الإسلامَ مثل الفرس والترك اتخذت - هذه الشعوبُ - اللغةَ العربيةَ أداةً للعلم والأدب ، ففى بلاد فارس ظلت اللغةُ العربيةُ أمدًا طويلًا لغةَ العلم والأدب وأخذ الفرسُ يكتبون لغتهم بالحروف العربية ، كما تم تدوينُ ما عرفته بلادُ فارس من عِلم الكلام ، والعلوم الأخرى باللغة العربية ، أما التركُ فقد انتحلوا الخطَّ العربىَّ بحيث لا تجد فى تركيا إنسانًا على شىء من التعليم لا يستطيع أن يفهمَ لغة القرآن فى سهولة ، وهكذا صار للغة العربية فى هذا الجزء من آسيا ما كان للغة اللاتينية من شأن فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ..» .

« وما تزال العربيةُ على تبدُّل الأحوالِ وتوالى الغِيَرِ لغةَ أدب وعلمٍ فى الأمم الإسلامية غير العربية ، وما تزال لغاتُ هذه الأمم مُتْرَعَةً بألفاظها، وما تزال تستمدُّ من العربية ..» (كما يقول الدكتور عزام) ، بل لقد أصبحت نسبةٌ كبيرةٌ من اللغة الفارسية واللغة التركية من أصل عربىٍّ ، بل إن العربيةَ نجدها فى لغاتٍ كثيرة مثل : الأوردية اللغة الغالبة فى شبه القارة الهندية بدولها الثلاث والمالويةِ فى آسيا (فى أندونسيا وماليزيا وكمبوديا وسنغافورة وغيرها) حيث يوجد «المالاوى» أصحاب البلاد ومُعْظَمُهم مسلمون ، والسواحلية فى أفريقيا ، وكلُّها تضم مفرداتٍ عربيةً كثيرةً جدًّا ، شبهها بعضُ العلماء فى كثرتها بالعناصر اليونانية واللاتينية فى اللغة الإنجليزية- كما قال المستشرق «برناردلويس» والمفكر «عبدالمنعم ماجد» .

وفى أوربا :

لقد أقبل النابهون فى أوربا كما نعلم على المراكز الثقافية الإسلامية فى الأندلس ثم فى صقلية وغيرهما يتعلمون العربيةَ ، ويتزوّدون من علومها منذ القرن الثامن والتاسع بعد الميلاد ، أقبلوا من إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا حتى ظهرت طبقةُ المُشتعربين الذين قدَّموا لبلادهم أعظم الأعمال العلمية بعدأن ترجموها من اللغة العربية ؛ **ومن أشهر هؤلاء المستعربين** : «روبرت الشسترى» الإنجليزى ، و«جيرار الكريمونى» الإيطالى ، ومنهم - أيضًا - «روجر بيكون» و«أدلارد أف بات» و «ميشيل سكوت» .. وغيرهم . ممن كانوا فى الحقيقة استمرارًا للشعلة التى أشعلها العربُ أولًا فى بغدادَ ثم فى قرطبةَ بالأندلس ، وكانت العاملَ الحاسمَ فى صَدِّ الظلماتِ وردِّها عن أوربا (كما قال الباحث جلال مظهر) : « .. لقد حملت تلك اللغةُ بفضل الله أمانةَ العلم والمعرفة ولم تَعْجَز أبدًا عن استيعاب مُختلفِ فروعِ العلم » . وكما قال الدكتور سعيد عاشور : «.. ولم يكن عسيرًا على لغةٍ كاللغة العربية عُرفت بالأصالة والخصب والغنى أن تُصبحَ أداةَ حضارةٍ عظيمة فقامت بمهمتها على خير وجهٍ فى التعبير عن الأفكار ونقلها ، كما استطاعت العربيةُ أن تكون أداةً طيبةً لكل ما نُقل من علوم الفرس والهنود واليونان ، إذْ لم يكد يمرُّ ثمانون عامًا على بداية العصر العباسىّ حتى كانت خلاصةُ هذه الثقافاتِ قد دُونتْ كلُّها باللغة العربية، وإن العربَ الذين كانوا - قبل الإسلام - لايعلمون شيئًا عن مصطلحات الحساب والهندسة والطب والمنطق وغير ذلك من العلوم العقلية والكونية .. أصبحوا - أى بعد الإسلام - وفى قليل من الزمن يعبرون بالعربية عن أدق النظريات العلمية فى الطب و فى الفلك و فى الفلسفة وغير ذلك من العلوم ، إنها - والحمد لله - لغةٌ مَرِنَةٌ قادرةٌ على التعبير العلمىّ قادرةٌ على مواجهة مقتضياتِ الحضارة وأعباءِ

التطور العقلى والفنى ، ولا أدلَّ على قدرة العربية ومرونتها من أن المسلمين عندما بدأوا حركة الترجمة عن اليونانية أخذوا كثيرًا من المصطلحات اليونانية بألفاظها العربية ، وسرعان ما استعملوا المُرادِف العربىّ بدلًا من الأجنبى فقالوا بدلاً من : «أنالوطوقيا» كلمة « التحليل » وبدلًا من «سوفسطيفا» كلمة «المغالطة» (والسفسطة تَعنى الجدَلَ والمغالطة بالباطل لإظاهر البراعة وليس لإحقاق الحق) وهذه مجرد أمثلة ومن ذلك كثير .

وهنا أظهرت اللغةُ العربية مقدرةً عجيبةً على مسايرة الأوضاع الجديدة والتطور لتنهض بالأعباء الضخمة التى كان عليها أن تواجهها فى عهدها الجديد لذلك لم تلبث العربيةُ أن اشْتَقَّت من مفرادتها ألفاظًا جديدةً ، وأكسبت بعض الألفاظ معانىَ ودلالاتٍ جديدةً ، ولم تُمانع فى تعريب بعض الألفاظ غير العربية ، وبذلك جعلت من نفسها لغةً حيةً عالميةً تصلح للتعبير عن الفكر والعقل والعاطفة فى كل زمان وفى كل مكان .

ظهور علم النحو وعلوم الوسائل الأخرى

إن اللغة العربية المُضريَّةَ المتمثلةَ فى لغة القرآن الكريم لغةٌ مُعْرَبةٌ مكتملةٌ وكانت العربُ قبل الإسلام وفى صدرِ الإسلام حتى الدولة الأموية تنطقُ العربيةَ على سجيَّتها فصيحةً مُعْرَبة .

ولما انتشر الإسلامُ ودخل الناسُ فى دين اللهِ أفواجًا وأقبلوا إليه أرسالًا .. نشأت حياةٌ جديدة وامَّحتْ بينهم فوارقُ الجنس والوطن واللون ؛ دينُهم الإسلامُ ، وكتابُهم القرآنُ ، ولغتُهم العربية ، واندمج معهم مواطنوهم من نصارى ويهود وصابئةٍ وسائرِ المِلل والنِّحَل فى مناخ التسامح والتعاون من أجل العدالة والرخاء للجميع ، وكذلك فقد اختلط العربُ بإخوانهم فى بقاع الدولةِ الإسلامية اختلاطًا مستمرًّا فى المساكن والأحياء والأسواق وفى المساجد ،

ومع إخوانهم المسلمين فى مشاعر الحج والعمرة .

وأزال الإسلامُ فوارق الجنس والوطن بين الناس، فتصاهروا واندمجوا فى بعضهم حتى تكوَّن منهم شعبٌ واحدٌ .

بداية تَسَرُّبِ اللحن إلى الألسنة :

واقتضت الحياةُ الجديدةُ فى ظل الأخوة الإسلامية أن يستمعَ الناسُ بعضُهم من بعض ، وأن يتفاهموا فى كل ما يتصل بهم ، وإن لغةَ التخاطبِ الوحيدةَ بينهم فى كل ما يحيط بهم هى العربية وتولَّد من هذا كلِّه أن اللغةَ العربيةَ تسرَّبَ إليها اللحنُ ووهنتْ وضَعُفت الملاحظةُ الدقيقةُ التى تمتاز بها وهى اختلافُ المعانى طوعًا لاختلاف شكل آخر الكلمة ، ومن هنا بدأ التفكيرُ فى وضع علم جديد يعصمُ اللسانَ عن الخطأ ، ويحمى القلمَ من الزلل ، ويُعين المسلمين على قراءة القرآن الكريم والأحاديثِ النبوية الشريفة قراءةً صحيحةً وسليمةً تساعدهم على الفهم ، واستنباط الأحكام ، وكان لذلك قصةٌ نذكر طرفًا منها :

نقل أستاذُنا الشيخُ محمد طنطاوى فى كتابه «.. نشأة النحو» عن أبى الطيب قوله : « .. واعلم أنَّ الإعرابَ هو أولُ ما اختلَّ من كلام العرب وأحْوَجَ إلى ضرورة التعلُّم ؛ لأن اللحنَ ظهر فى كلام الموالى والمتعرِّبين من عهد النبىِّ ﷺ .. فقد روينا : «.. أن رجلًا لحنَ بحضرته فقال : – عليه السلام – « **أرشِدُوا أخاكم فقد ضَلَّ..**» .. وقال أبو بكر – رضى الله عنه– « ..لأنْ أقرأ فأسقُطَ أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ فألْحَن» وقال ياقوت : « .. ومرَّ عمر بنُ الخطاب رضى اللهُ عنه على قوم يُسيئون الرمىَ فقرَّعهم ، فقالوا : إنَّا قومٌ – متعلمين – فأعرض مُغضَبًا وقال : والله لخطؤُكم فى لسانكم أشدُّ علىَّ من خطئكم فى رميكم» ، وقال ابن جِنِّى : «ورووْا أيضًا أن أحدَ ولاةِ عمرَ رضى اللهُ عنه كتب إليه كتابًا لحنَ فيه ، فكتب إليه عمرُ : « أنْ قَنِّع كاتبك سوطًا ..» أى اضربْه . وقيل إن الوالى هو «أبو موسى

الأشعرى» ، كان واليًا على البصرة وإن اللحنَ هو قولُ كاتبه: « .. مِنْ أبو موسى الأشعرى » بدلًا من أن يقول من أبى موسى - وقال ابنُ قتيبةَ : «سمع أعرابيٌّ مؤذنًا يقول : أشهد أن محمدًا رسولَ الله - بنصب رسول - فقال : ويحك .. يفعلُ ماذا ؟ ، أى ما هذا الخطأ الفادح ؟ وقيل دخل أعرابيٌّ السوقَ فسمع الناسَ يلحَنُون - أى يُخطئون فى علامات الإعراب برفع المنصوب وجَرِّ المرفوع وهكذا - فقال : « سبحان الله يَلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح ..» .

قصةُ نشْأةِ علم النحو ووضعِ قواعده :

ورُوى أن عليَّ بن أبى طالب رضى اللهُ عنه سمع أعرابيًا يقرأ آيةً من كتاب الله.. فأخطأ ولحنَ ، ففكر فى وضْع قواعدَ تضبطُ اللسانَ ، وأرشد «أبا الأسود الدُّؤَلىَّ» إلى وضع علم العربية - الذى سُمِّى (النَّحو) وأعانه ووجَّهه ، ومن الطرائف التى رُويت فى هذا المجال ما رواه عاصم قال : جاء أبوالأسود الدؤلى إلى الوالى «زياد بن أبيه» فى عصْر بنى أمية ، وهو أمير البصرة فقال : « إنى أرى العربَ قد فسدت ألسنتُها أفتأذَنُ لى أن أضعَ للعرب ما يعرفون به كلامهم؟ فقال له زياد : لا تفعلْ، قال : فجاء رجلٌ إلى زياد يتكلَّم عن أمرٍ وحاجةٍ له ، فقال أصلح اللهُ الأمير، تُوفِّى - أبانا - وتَرَكَ - بنونا- فقال له زياد - فى دهشة وعَجَب - «.. تُوفى «أبانا» وترك «بنونا»-» يستغرب نصبَ نائب الفاعل ورفْع المفعول بدلًا من أن يقول : تُوفِّى أبونا وترك بنين ، وهى الفصحى القرشيَّةُ ، ثم قال زياد : ادعُ لى أبا الأسود ، فلما جاءه ، قال له زياد : ضع للناس ما كنتُ نهيتُك عنه .. ففعل ، ويُروى أيضًا أن أبا الأسود قالت له ابنتُه : ما أحسنُ السماءِ!. بضم «أحسن» بعد ما الاستفهامية وجرِّ السماءِ بالإضَافة ، فقال لها مُجيبًا عن هذا السؤال : نجومُها - ظانًّا أنها تسأله - فقالت : إنى لم أُردْ هذا؟ . وإنما تعجبتُ من حُسنها .. فقال لها إذن فقولى : ما أحسنَ السماءَ !- ببناء «أحسن» على

الفتح لأنه فعل ماض للتعجُّب بعد «ما» التعجبية و«ما» هنا اسم فى محل رفع مبتدأ والجملة بعدها خبر و«السماء» مفعول به والفاعل ضمير مستتر - .. فحينئذ بدأ فى وضْع النحو.. وأول ما رَسَمَ منه بابَ التعجبِ ».

وهكذا بدأت قصةُ ظهور علم جديد ، (وسيأتى تفصيلٌ إن شاء الله) .

ظهور علم النحو والمعاجم اللغوية

لم يكن ظهور «علم النحو» فى اللغة العربية مُقتبسًا من لغة أخرى لا فى نشأته ، ولا فى نُموّه وتنوُّع أبوابه ، ولا فى تَدرُّجه حتى اكتماله على هذا النحو الرائع الدقيق المنطقى الشامل لكل مايحتاجه العالمُ والمتعلمُ لفهم آياتِ الكتاب العزيز والأحاديثِ النبوية وروائع الشعر القديم ، فقد وُفق العربُ بفضل الله لاختراع علم «النحو» من أواسط القرن الأول من الهجرة ، وقد نشأ هذا العلمُ نشأةً عربيةً محْضَةً على مُقتضى الفطرة .. ثم تدرَّج به النُّمو والتطور حتى كملت أبوابُه .

وإن كان بعضُ المستشرقين يزعم أن علمَ النحو العربى منقول من لغة اليونان ، زاعمين أنه ثمرة لمعرفة العرب بالنحو «السريانى» ؛ لأن علم النحو العربى كانت نشأتُه فى العراق بعد اختلاط العرب بالسريان وترجمتهم علومهم وتعلمهم ثقافتهم، وكان للسريان نحوٌ «قديم» ورثوه عن اليونان ، ويحاول الأستاذ «ليتمان» التوفيق بين الرأيين المطروحين فيقول «ليتمان» : « اختلف الأوربيون فى أصل هذا العلمِ ، فمنهم من قال إنه نُقل عن اليونان إلى بلاد العرب ، وقال آخرون ليس كذلك وإنما كما تنبت الشجرةُ فى أرضها ، كذلك نَبَتَ علمُ النحو عند العرب ، وهذا هو الذى جاء فى كتب العرب من زمن طويل ، ونحن نذهب فى هذه المسألة مذهبًا وسطًا ، وهو أن العربَ قد أبدعوا

علمَ النحو فى الابتداء ، وأنه لا يوجد فى كتاب «سيبويه» إلا ما اخترعه هو بنفسه ، وكذلك الذين تقدَّموه وسبقوه ، ولكن لـما تعلم العربُ الفلسفةَ اليونانيةَ من السُّريان فى بلاد العراق تعلموا أيضًا شيئًا من النحو» ثم يقول «ليتمان»: «وبرهان هذا الكلام أن تقسيم الكلمةِ مُختلف فهو عند سيبويه : (الكلمة **اسم وفعل وحرف جاء لـمعنى)** وهذا تقسيمٌ أصلىٌّ ، أما الفلسفةُ اليونانيةُ فينقسم فيها الكلامُ إلى (اسم وكلمة وَرِباط) وهذه الكلمات تُرجمت من اليونانى إلى السريانى ومن السريانى إلى العربى ، فسميت هكذا فى كتب الفلسفة لا فى كتب النحو ، أما كلمات : **(اسم وفعل وحرف)** ، فإنها مصطلحات عربية ما تُرجمت، ولا نُقلت » ، ويقول شيخنا محمد طنطاوى المحقِّق النحوى [القرن ١٤ من الهجرة]: «والمعوَّل عليه أن النحو علمٌ عربىٌّ غير مقتبس من لغة أخرى ، والقول بأنه منقول عن السُّريانية مجردُ اختراص وتخمين ولا سرَّ له إلاالولُوع بالانتقاص للعرب ، وإننا لا نُسلِّم أن يكون علماءُ العربِ عيالًا على غيرهم فيما يتصل بتنظيم هذا العلم وتبويبه بعد اهتدائهم إلى اختراعه وابتكاره» .

البصرة هى المدرسة الأولى

وكانت البصرةُ مدينة العلوم والآداب فى العراق قبل بغدادَ نفسها ، وفيها كان مولدُ علم النحو ومهدُه ، وقد استأثرت بهذا العلم زهاء مائةِ عامٍ ، إذ فيها ظهرت الطبقةُ الأولى والطبقة الثانية من النحاة ، ثم شاركتها مدينةُ « الكوفة » بعد ذلك .

أما **الطبقةُ الأولى من النحاة** : وهم الذين يرجع إليهم الفضلُ فى ابتكار هذا العلم ومولدِه فمنهم :

أبوالأسود الدؤلى ، وهو ظالم بن عمرو الدؤلى ، الذى يرجع نسبُه إلى كِنانةَ ، وكان أبو الأسود من سادات التابعين ، وقد ورد البصرةَ من عهد عمر بن

الخطاب رضى الله عنه ، وقد فاق أبوالأسود أهل البصرة ذكاءً وعلمًا وأدبًا، وكان أعلمَ أهلِ زمانه بكلام العرب مع أنهم نَسبوا إليه شعرًا فيه ركاكة ، وقد كان على رأس الطبقة الأولى من النحاة البصريين ، وتوفى سنةَ سبع وستين ، وقيل سنة [٦٩هـ : ٦٨٨م كما فى دائرة المعارف الإسلامية] .

ومنهم نصرُ بن عاصم الليثى الـمتوفَّى سنة تسع وثمانين ، وأستاذُه يحيى بنُ يعْمُر العُدوانى الـمتوفى سنةَ تسع وعشرين بعد الـمائة من الهجرة ، وهذان العالمان اشتغلا بإعجام الـمصحف بالنُّقط بعد جُهد أستاذهما أبى الأسود الدؤلىّ لدفْع اللَّبس فى الحروف الـمتشابهة ، وللمساعدة على صحة النطق ، ومن هذه الطبقة : عنبسةُ بنُ مَعدان المهرى ، وعبدُ الرحمن بن هرمز أبو داود الأعرج ، وكان من علماءِ المدينة ، كما كان من أعلم الناسِ بالنحو وبأنسابِ قريش ، وتُوفى سنةَ سبعَ عشرةَ بعد الـمائة .

وتلتْ هذه الطبقةَ طبقاتٌ من أعلام الـمحققين بصريين وكوفيين وعلى أيديهم اتَّسعت مباحثُ علم النحو وعلم الصرف ، وتحددت مسائلُهما ، وكان ما وضعوه أساسًا لـمن جاء بعدهم ، يقول الأستاذ : مصطفى السقا وآخرون فى مقدمة كتاب «سرِّ صناعةِ الإعراب» للشيخ أبى الفتح عثمان بن جِنِّيّ .. « وُفِّق العربُ لاختراع النحو من أواسط القرن الأول من الهجرة ، وساروا فيه سيرًا حثيثًا ، ولكن مضى نحو قرن على أهل البصرة، ولم يُؤْثَر عنهم فيه كتابٌ مُدوَّن إلى أن ظهر فى القرن الثانى من الهجرة رجلان عبقريان هما : الخليلُ بنُ أحمدَ الفراهيدىُّ الأزدىُّ ، وتلميذهُ أبو بشر عمرو بنُ عثمان بن قنْبر الـملقَّب «بسيبويه» فاستطاعا أن يجمعا الـمتناثر من النحو البصرىِّ فى كتاب ضخم اتخذه النحويون دستورًا ، فقامت عليه الدراساتُ النحويةُ واللغويةُ فى شتى البلادِ أحقابًا طويلة ..» . وإلى الخليل بن أحمد يرجع الفضلُ فى النهوض بعلم النحو

واستخراج مسائله ، وعنه أخذ تلميذُه سيبويه ، فما الجهود التى بذلها العالـمان الجليلان؟ .

الخليل بن أحمد (الـمتوفى عام [١٧٥هـ] :

سأل الكسائيُ – مرةً – الخليلَ بن أحمدَ : من أين عِلْمُك هذا ؟ فقال الخليل : من بوادى الحجاز ، ونجْد ، وتهامة ؛ أى إنه استقى الفصاحةَ وثبَّتها وتوسَّع فى معرفة لهجات العرب وألفاظها فى صميم شبه الجزيرة العربية، وإنَّ الخليلَ بنَ أحمدَ إمامٌ فى اللغة والأدب والنحو ، عاش منقطعًا للعلم مخلصًا له زاهدًا على الرغم من ثرائه حتى نبغ فى العربية نبوغًا لم يُسبق إليه ، وهو أولُ من وضع قواعد العروض للشعر العربى – كما قال أبوهلال العسكرى فى كتابه «الأوائل» – وقد وُلِدَ هذا العالمُ الجليل فى مدينة «البصرة» وهى فى ذاك الزمانِ تَعجُ بالعلماء والأدباء والمحقّقين ، فشبَّ الخليلُ على حب العلم، وتلقَّى على أعلام عصره ومنهم أبو عمرو بنُ العلاء ، وعيسى بنُ عمرَ الثقفى ، وكانت الباديةُ تقوم بدور الـمدرسة فى وقتنا الحاضر، يؤمُّها طلابُ اللغة والأدب ، والـمحققون من العلماء الأعلام .

سياحته للعلم وطلب الـمزيد من لهجات العرب :

خرج الخليلُ من البصرة وساح فى مدرسة الصحراء .. حيث شافَه الأعرابَ فى الحجاز ونجد وتهامةَ إلى أن ملأ جُعْبته ، ثم آب ورجع إلى البصرة ، واعتكف فى داره دائبًا على الدرس والتمحيص والتأليف ليله ونهاره لايشغله عن العلم شاغل ، فكان أحدَ العباقرة فى اللغة وآدابها ومعانى ألفاظها .

ولذا اتفقت كلمةُ العلماء والباحثين على أن الخليل هو : واضع فنِّ الـموسيقى العربية وأوزان الشعر وقوافيه على النحو الذى نطقت به العرب ، فهو

واضع علم «**العروضِ والقافية**» ، وهو أولُ من دوَّن مُعجمًا فى اللغة العربية ، وله بعدئذ مأثرةُ الشكلِ العربيّ الذى نستعمله ، وفى مقدمة كتاب « تهذيب الصحاح» للعلامة محمود بن أحمد الزنجانى يقول المحقق الشيخ أحمد بن عبد الغفور عطّار [فى القرن الرابع عشر من الهجرة] صاحب مقدمة الكتاب يقول عن سَبْق الخليل إلى وضع أول معجم لغوى : «ورأينا من وضعوا المعاجم اللغوية ، وهؤلاء أعلى الأئمة مقامًا فى خدمة اللغة وأعظمُهم اضطلاعًا بالأمانةِ العلمية وأكثرهم استيعابًا لكلام العربِ وفهمًا لمعانيه ، وإن أشهرَ هؤلاء الأئمة بلا منازع «الإمامُ الخليلُ بنُ أحمدَ» الذى يُعزَى إليه وضع «كتاب العَيْن ..» ويُعدُّ الخليلُ أولَ مؤلِّفٍ جمع اللغةَ ، وهو فاتحُ هذا الميدانِ لمن جاء بعده ، فسلك بعضُهم طريقَه فى ترتيب معجمه الذى رتَّبه على مخارج الحروفِ ، فله فضلُ «الأولية» والسبقِ فى ميدان تأليف المعاجم» .

أما عن جهود الخليل فى علم النحو .. فيقول عنها «الزبيدى» : «.. فهو الذى بسط النحو ، ومدَّ أطنابَهُ ، وسبَّب عِللَه وفَتَق معانيه ، وأوضح الحِجاجَ فيه حتى بلغ أقصى حدوده ، وانتهى إلى أبعد غاية ..».

لماذا امْلَى ولم يكتب بنفسه ؟ :

ولكن الخليل مع ذلك أملى عِلْمه فى النحو على تلميذه «سيبويه» ولم يؤلف فيه كتابًا ، أما علةُ ذلك فيحدثنا عنها الزبيدى : قال « .. ثم لم يرض أن يؤلفَ فيه حرفًا، أو يَرسمَ منه رسمًا ، ترفُّعًا بنفسه ، وترفُّعًا بقدْرِه ؛ إذْ كان قد تقدَّم آخرون عليه إلى القول والتأليفِ فيه ، فكرِهَ أن يكونَ لمن تقدَّمه تاليًا وعلى نَظر مَن سَبَقَه مُحتذيًا ، واكتفى فى ذلك بما أوحى إلى سيبويه من عِلْمِه ، ولقَّنه من دقائق نظره ونتائج فِكره ولطائف حكمته فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلَّده ، وألّف فيه : « .. **الكتاب** .. » فى علم النحو الذى أعجز من تقدَّم قبله ، كما امتنع على من تأخر

بعده..» ، وعن فضل الخليل بن أحمد على علم النحو يقول شيخنا محمدٌ الطنطاوى (بكلية اللغة العربية) يرحمه الله : « .. فلا غَرْو أنه لولا تعهُّد الخليل النحوَ فى نشأته لبعُد عنه طورُ النضوج والكمالِ فللخليل فضلُ النهوضِ به ، كما لأبى الأسود الدؤلى فضلُ تكوينه ..».

وفى سنة [١٧٥هـ] خمسٍ وسبعين بعد المائةِ من الهجرة ، تُوفِّى «أبو عبد الرحمن الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدى الأزدى» وبعده لمع نجمُ تلميذه وحاملِ علمه سيبويه الذى استقى من مَعين أستاذه فى مؤلفه «الكتاب فى النحو» فمن سيبويه ؟!

وسيبويه هو : أبو بشر عمرو بنُ عثمانَ مولى بنى الحارث بن كعب المتوفى فى القرن الثانى [١٨٨هـ] وهو فارسىُّ الأصل ، ولكنه نشأ بالبصرة ، وتلقى فيها الحديثَ والفقه ، ثم لزم الخليلَ وغيرَه من علماء اللغة والنحو حتى برع فى النحو ، وبزَّ أترابَه فيه ، فاحتفى به علماءُ البصرة التى صار إمامَها فى النحو غير مُدَافَع ، وهو معدود فى الطبقة الرابعة البصرية ، وأخرج سيبويه للناس «كتابَه» الذى أكسبه فخار الأبد ، ودَلَّ به على سعة اطلاع وطول باع ، إذ ضمَّنه ما تلقاه عن أستاذه الخليل بن أحمد وجمع إلى ذلك ما تفرَّق من أقوال مَنْ تقدمه من العلماء مثل : عيسى بن عمرَ الثقفىّ المتوفى عام [١٤٩هـ] ، وأبى عمرو بن العلاء المتوفى [١٥٤هـ] ، وأبى الخطاب الأخفش المتوفى عام [١٧٧هـ] ، ويونسَ ابن حبيب المتوفى عام [١٨٢هـ] . وغيرهم .

ومن جهود سيبويه : ولم يكن سيبويه جَمَّاعًا لأقوال السابقين فحسب ، بل إن له شخصيةً قوية ظهرت فى ابتداع بعض القواعد وفى ترتيب الكتاب حاويًا عناصرَ الفنِّ كلِّها ، وظهرت شخصيتُه فى تبويبه واضعًا كل شىءٍ وما يتصل به معه ، ذلك مع حُسن التعليل للقواعد ، وجودةِ الترجيح عند الاختلاف ومع جمْع الشواهد الوثيقة لدعم الأحكام التى قررها ، وكما قال الدكتور «أحمد أمين» فى

الجزء الثانى من كتابه «ضحى الإسلام» [القرن الرابع عشر] « .. ويظهر أن «سيبويه» جمع فى كتابه ما تفرق من أقوال العلماء قبله ، ورتبها ، وبوبها ، وجمع مااستشهد به العلماءُ من الشعر ، وما سمعه هو بنفسه مما يدلُّ على سعة اطلاع ، ففى الكتاب ألفُ بيتٍ وخمسون من شعر العرب ، وفيه كثيرٌ من كلام العرب وأمثالهم ، ولم يكن جامعًا فقط بل كانت له شخصيةٌ قوية فى التعليل والترجيح مع جودة فى العبارة ، فإذا علمنا أنه مات وله بضعٌ وثلاثون سنةً أدركنا مقدار نبوغه ، وقد حاز كتابه ثقة العلماء وتداولوه بالشرح ، وكلُّ ما أُلِّف فى النحو بعده فمبنيٌّ عليه ومستمدٌّ منه..» . وقد قرأتُ من فترة أنه كان لابن تيمية الفقيه استدراكات قليلة على بعض المواطن تحدَّث بها مع تلاميذه ، ولكنها لا تنقص من قيمة كتاب سيبويه وقوته ، فالكمال لله وحده .

المعاجم وأسبقياتهم :

عُنى المسلمون باللغة العربية عنايةً كبيرةً ، وفى ظل هذه العناية ابتكروا علومًا كثيرة تساعد على فهم أسرارها ، وتذوُّق أدبها ، ولم يقصر المسلمون جهودهم عند اختراع علم النحو والصرف ، بل إنهم وضعوا «المعاجم اللغوية» . وجمعوا فيها ألوفَ المواد والكلمات ؛ ليرجعَ إليها من أراد البحث عن معنى كلمة ، أو لضبط بِنْيتها وبفضل هذه الجهودِ المثمرة ظهرت كذلك علومُ (البلاغةِ ، والنقدِ، والقراءاتِ ، والعروضِ ، والأدب) وفى هذه العلوم تجلَّت أصالةُ الفكرِ العربىِّ والإسلامى وعمقُه ومقدرته على التحقيق والتمحيص والموازنة والاستنباط كما تَجلَّت قدرتُه على الابتكار .

ومنذ القرن الثانى من الهجرة اتَّسع نطاقُ التنافس بين العلماء ، والمُحقِّقين والأدباء لخدمة لغة كتابِ ربهم ، وامتد نطاقُ هذا التنافسِ من «البصرة» إلى «الكوفة» إلى «بغداد» وغيرها من سائر الحواضر الإسلامية ، فبرَّز عشراتٌ من

أعلام النحويين واللغويين والبلاغيين والعروضيين ممن تزدانُ بمؤلفاتهم المكتبات العلمية حتى عصرنا الحاضر ، ومن بواعث ذلك ما جاء فى مقدمة كتاب «.. سرّ صناعة الإعراب» « .. وكان لتشجيع الخلفاء العباسيين وللتنافس بين أهل الأمصارِ الإسلامية فى تدوين الثقافةِ العربية وخاصة البصرةَ ، والكوفة ، وبغداد أكبرُ الأثر فى حرص العلماءِ على اختراع الموضوعات واتساع المُدَوَّناتِ فى النحوِ واللغة، وسائرِ فروع الثقافة اللسانية : كالقراءاتِ ، والنقد ، والبلاغة ، والأدب ، فظهر فى كلِّ فنٍّ من هذه الفنون رجالٌ وقفوا مواهبهم وجهودهم على خدمة اللغة العربية وآدابها ، فأخرجت بغدادُ والبصرةُ والكوفةُ فى القرنين [الثالث والرابع] أعلامًا من الأدباء منهم : المازنى [بصرى من الطبقة السادسة] المتوفى عام [٢٤٩هـ] ، والمبردُ [بصرى من الطبقة السابعة ٢٨٥هـ]، وأبو على القالى إسماعيل البغدادى صاحب كتاب الأمالى [القرن الرابع] [٩٠١: ٩٦٧م] مولده «أرمينيا» وقام بتدريس اللغة فى «بغداد وقرطبة» وتوفى فى قرطبة، وابن دريد [بصرى (٣٢١)] والكسائى [كوفى من الطبقة الثانية ، ١٨٩هـ] والفراءُ [كوفى من الطبقة الثالثة] المتوفى عام [٢٠٧هـ]، وثعلب [كوفى من الطبقة الخامسة (ت ٢٩١)] ، وابنُ قتيبة [كوفى ت ٢٧٦أو ٢٧١هـ] وقد خلط بين مذهب البصريين والكوفيين وصار إمامًا فى اللغة والأدب ببغداد ، وأبوحنيفة الدينورى من معاصرى ابن دريد ، وأبو على الفارسىّ [القرن الرابع] ، وابن جِنِّى أبو الفتح عثمان [ت ٣٩٢] تلميذ أبى على الفارسى البصرى علّامة فى أصول العربية وفقه اللغة والتصريفات واتخذ لنفسه مذهبًا وسطًا بين مدرستى البصرة والكوفة ، وقد وقف ابن جِنِّى حياته على الاشتغال بالنحو وأصول اللغة ، وكثيرٌ من النابغين الذين خَلَّفوا لنا ثروة كبيرةً من التآليف الخالدة فى اللغة والنحو والأدب » .

الدافع للجهود المباركة فى خدمة اللغة :

ومما هو معروف أن الجهود التى بذَلها هؤلاء الأعلام فى خدمة لغتهم وابتكار علوم وفنون لغوية مختلفة كان من أعظم أسبابها حِرْصُهم على سلامة النُّطقُ بآيات الكتاب العزيز وخاصَّة فى الصلوات والحرصُ على جودة تلاوتها وصحتها ، هذا مع ما تُوجبُه المحافظةُ على القرآن الكريم وعلى السُّنة النبويَّة والأحاديث الشريفة ؛ لأنهما مصدرُ الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والفضائل والعلاقات فى الأسرة وفى سائر الشئون الإنسانية ، فكما أن صحَّةَ النطق بالقرآن فى الصلاة أمرٌ لازمٌ وضروريٌّ لصحة الصلاة ، فكذلك فإن صحة القراءة للكتاب العزيز والأحاديث الشريفة أساسٌ للقدرة على معرفة أوامر الشرع ونواهيه واستنباط الأحكام على نحو صحيح سليم ، فإن تفهُّم المعانى يتوقف على سلامة القراءة وصحتها ، كما أن التذوقَ البلاغىَّ والأدبىَّ من أهم العوامل المُعينة فى هذا السبيل فلا بُدَّ -- مثلًا - من القدرة على التفرقة بين المعنى المَجازى والحقيقىَ والمقاصد من التشبيهات والاستعارات والأمثال والكنايات ، ونحو ذلك ، مما يُعين المُفسِّر والباحثَ والراغبَ فى استكمال أدوات الفهم للمعانى والأسرار والألفاظ والتراكيب ، لذا فإن أئمة اللغةِ المحققين الثقات الذين وهبوا أنفسَهم لخدمتها ويسَّروا للناس طرق تعلمها ومدارستها قد احتملوا العناء فى مخالطة الأعراب فى البوادى ، وتحمَّلوا السفر وخشونةَ العيش ، وصبروا على كل ما يَلْقَوْن من مكروه ، كل هذا وغيره من الجهود فى البحث والتأليف يدعونا إلى الإعجاب بهم والثناء على ثمرات أعمالهم ، يقول الدكتور أحمد أمين :«وقال الأصمعى : قال عيسى بنُ عمر :

كنتُ أنسخُ بالليل حتى ينقطع سَوائى أى وسطى» ، وكان أبو العباس ابنُ عم الأصمعى يَهْلَع ويتكدَّر من الغُربة فى البادية ويشتاق أهله ، فَيُهمُّ بالرجوع إليهم ، ثم يرى عربيًّا فيتوسَّل إليه أن يُسهِّل له سبيلَ الأخذ عن الأعراب فيفعل ، ويصحَبُه ويساعده فإذا سمع قصيدةً من أعرابى قال : «..قد واللهِ أُنسِيتُ أهلى ، وهان علىَّ طولُ الغُربة وشظفُ العيش سرورًا بما سمعت» .

وتلك إشارات خفيفة ومثل ذلك كثير يشهد بأنهم عانَوْا فى سبيل العلم أشدَّ مما يعانى الجندىُّ فى صف القتال .



وجَازَة مع نشأة علم النحو

ودعوة إلى العناية بلغتنا :

وفيما يلي يتمُّ إيراد وجَازة للتذكير بعدد من الرجال الذين نشأ علمُ النحو ونـما وتم ضبطُ أصوله وقواعده على أيديهم ، ومراحل نشأةِ النحو نفسِه ونضجِه وازدهارِ مدارسه للتنبيه على فضل هذا العلم ورجاله ، ويا حبذا أن يُعنَى أهلُ العلم بتغذية الفكر الـمعاصر بـما يتصل بهذا العلم وتاريخه وقواعده وأن تُفسح الصحفُ والـمجلاتُ صدورَها لـما فى ذلك من الفوائد والعوائد الجليلة ما لا يخفى ، ويساعد فى هذا الـمجال استخدامُ مُقتنيات التقانة الحديثة ، فإلى جانب الإذاعة مسموعة ومرئية صار لدينا برامجُ الحاسب الآلى وشبكات «الإنترنت» مـما يقتضى تضافر جهود العلماء الـمتخصصين مع الفنيين العاملين فى هذه الحقول لخدمة الناطقين بالعربية وغيرهم من الدارسين والراغبين من شتى الأقطار والألسنة .

* * *

« رحم الله امرأ أصلح لسانَه »

[حديث شريف رواه ابن عمرو وأخرجه ابن عدى]

وفى عصرنا يدعو أهلُ الفكر والعلم والغيرة إلى ضرورة العناية باللغة العربية ، وبصحة النطق وسلامة التعبير على ألسنة الـمتحدثين والخطباء وفى جميع مراحل التعليم ، وفيما تتناوله أقلامُ الكتاب والأدباءِ على صفحات الـمجلات والصحف وغيرها .

وهذه الدعوة الـمباركةُ إنـما هى بدافع الغيرة على لغة القرآن الكريم ؛ إذ شاع

اللحنُ ، وانبثَّتْ العاميةُ على ألسنة المعلمين وفى وسائل الإعلام وفى التقارير والمذكرات وعلى ألسنة الخطباء والمتحدثين ، وفى هذا من الخطر والضرر ما فيه على ثقافة الأمة ونموها الفكرى والعلمى؛ إذ اللغةُ هى أداةُ التعبير عن الفكر والشعور ، وهى الصورةُ التى تتضح منها مكانةُ الأمة وتَقدُّمها وريادتُها فى مجالى العلم والأدب.

وفى هذه الوجازة سيرى القارئُ كيف كان اللحنُ مبعثَ أسًى وإزعاج منذ عصر الراشدين وَمَنْ بعدهم ، لعل فى ذلك ما ينبِّه ويلفت إلى ضرورة العناية بالعربية على ألسنة المعلمين والطلاب والمتحدثين ، وفيما تقدمه الأقلامُ ، إلى جانب عناية المناهج التعليمية والخطط وطرق التدريس بلغة القرآن ، بل إن الواجب يقتضى ألّا تنقطع صلةُ الطالب بتعلُّم ما يتصل بلغته وقواعدها وبلاغتها فى أى مرحلة وصفٍّ ، وكلُّ شىءٍ بِقَدْرِه ، لأن لغتنا هى حياةُ أمتنا العظيمة والمعبرة عن أصالتها وريادتها فى مجالى العلم والأدب .

* * *

رجال بَنَوْا عِلمَ النحو :

(أ) أبو الأسود الدؤلى

مؤسس علم النحو

سُئل أبو الأسود الدؤلى فقيل له : من أين لك هذا النحو ؟ فقال : لُقِّنتُ حدودَه من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، أى أنه أخذ أصول علم النحو من أمير المؤمنين على رضى الله عنه . [انظر وفيات الأعيان لابن خِلِّكان ٢/٥٣٥]

أبو الأسود الدؤلى هو واضعُ علم النحو على الصحيح ؛ لأنه أولُ من أرسى حدودَ بعض أبوابه الأساسية ، وكان أحدَ الأسباب القوية الدافعة له أن الإمام علىّ

ابن أبى طالب رضى الله عنه دعاه وطلب إليه ضرورةَ العناية بوضع علم يصون اللسان عن الخطأ بعد أن بدأ اللحنُ يفشو بسبب اختلاط العرب بالعجم .

وبدأت الجهود العملية :

١ – يقول أبو الأسود : دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فوجدت فى يده رُقعة ، فقلت : ما هذا يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : إنى تأملتُ كلامَ العرب فوجدتُه قد فسد بمخالطة هذه الحمراء – أى المتكلمين بغير العربية– فأردتُ أن أضعَ شيئًا يرجعون إليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى الرقعة وفيها مكتوب: «الكلام كله ، اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ » [فالاسم ما أنبأ عن المُسَمَّى ، والفعلُ ما أُنبِئ به، والحرفُ ما أفاد معنى] . وقال لى : انْحُ هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك ، واعلمْ يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة : «ظاهرٌ ، ومُضمَرٌ ، واسمٌ لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناسُ يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر وأراد بذلك الاسم المُبْهَم» .

قال أبو الأسود : ثم وضعتُ بابَىْ العطفِ والنعتِ ثم بابى التعجُّب والاستفهام إلى أن وصلتُ إلى باب إنَّ وأخواتها .

ثم يقول : وكنتُ كُلَّما وضعتُ بابًا من أبواب النحو عرضتُه عليه إلى أن حصّلتُ ما فيه الكافية ، فقال الإمام : ما أحسَنَ هذا النحْوَ الذى قد نَحَوتَ ! .

والذى دفع الإمامَ الراشدَ علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى هذه الإيجابية الرشيدةِ التى أدَّت إلى ظهور علم عربى جديد متناسق بَيِّنِ الحدودِ واضح الأقسام على أيدى طبقات العلماء التى ظهرت بَعْدُ ، إن الذى دفعه إلى هذه السنَّة الحسنة أنه سمع قارئًا يقرأ (لا يأكله إلا «الخاطئين») فكان ذلك باعثًا على قوة الشعور بالمسؤولية نحو القرآن الكريم ولغته والعناية بتوضيح الحدود والقواعد التى تمكِّن الناسَ من البيان والإعرابِ والإفصاح بسلامة وصحَّة .

٢ – ويُروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع ممَّن سمع أن رجلًا لحن فى القرآن لحنًا أدَّى إلى تغيير جوهرى فى المعنى إذ قرأ : (إنّ الله برىءٌ من المشركين ورسولِه) [من سورة التوبة] بكسر اللام فى رسوله بدلًا من ضمها : أى «ورسولُه» فأزعج ذلك عمرَ وأمرَ ألّا يُقرئَ الناسَ القرآنَ إلّا عالمٌ باللغة ، وأمر رضى الله عنه أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو[1] .

٣ – ووقعت حوادث أخرى كما ذكروا فى هذا السياق كانت أيضًا من البواعث الدافعة إلى وضع علم العربية ، منها –كما قالوا –: أنّ زياد ابنَ أبيه وهو أمير البصرة لـمَّا عرف من أبى الأسود نيته إلى وضع هذا العلم أعرض عنه ، ثم جاء رجل إلى زياد يَعرض حاجتَه فكان مما قاله أمام زياد : «تُوفِّى أبانا وترك بنونا[2] فأزعج هذا اللحنُ زيادًا فشجّع أبا الأسود على المُضىِّ فيما أراده من وضع علم للعرب يعرفون به كلامهم» ، وقيل «كما جاء فى تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى السورى» : إن زيادًا ألحَّ على أبى الأسود من أول الأمر حتى أجاب ، وبدأ أبو الأسود «بإعراب القرآن» وأعانه زياد بثلاثين كاتبًا فاختار منهم واحدًا من قبيلة عبد القيس وأملاه على أساسٍ اتفقا عليه ، ولكن الأمر تغيَّر فى طريقة الشكل حتى صار على ما نحن عليه الآن بجهود هؤلاء السلف . انتهى ملخصًا .

٤ – وأصاب اللحنُ بيتَ أبى الأسود نفسِه فكان ذلك باعثًا له أيضًا إذ قالت

---

(١) ومن اللطائف : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد مَرَّ برجلين يرميان فسمعَ أحدَهما يقول : أسَبْتَ – أى بالسين بدلًا من «أصبت» بالصاد – وفى رواية : «أسنتَ» بدلًا من «أحسنتَ» فقال عمر : «سوءُ اللَّحن أشدُّ من سوء الرمى [أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وراويه : عبد الرحمن بن عجلان] . وفى رواية ابن عدىّ : (أنَّ عمر مرّ على قوم يرمون بالسهام ، فلم يُصيبوا ، فقال لهم : إنكم لا تعرفون الرمى ، فقالوا : إنا قوم متعلمين – أى بدلًا من «متعلمون» فأعرض عنهم ، وقال : لخطؤُكم فى لسانكم أشد من خطئكم فى رميكم ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «رحم الله امرأً أصلح لسانه» .

(٢) بدلًا من أن يقول : توفى أبونا وترك بنين .

له ابنتُه يومًا : ما أحسنُ السماءِ ! بضم النون من «أحسن» فأجابها : «نجومُها» ظانًّا أنها تسأله عن أحسن ما فى السماء ؟ فقالت له البنتُ : لم أرِدْ هذا – أى أنا لم أسألك يا أبى وإنما تَعجَّبْتُ من حُسنها ، فقال لها : إذن قولى : ما أحسنَ السماءَ ! أى بفتح النون من «أحسن» وبنصب الاسم الظاهر بعد فعل التعجب ، لأنه مفعول به والفاعل ضمير مستتر وجوبًا تقديره «هو» يعود إلى «ما» ، والمعنى : شىءٌ عظيمٌ حَسَّنَ السماءَ فأثار تَعجُّبنا .

فحينئذ كما جاء فى هذه الرواية وضع النحو أبو الأسود وأول ما رسم منه التعجب .

كل هذه الروايات جاء بها تاريخ هذا العلم ولا مانع من الجمع بينها وأنها حوادثُ وقعت فى المحيط الذى عاش فيه هذا الرجل العظيم ، وكانت بواعثَ قوَّت الاتجاه الذى أدى إلى نشأة هذا العلم فى اللسان العربى .

وأبو الأسود الدؤلى : هو ظالم بنُ عمرو والدته قرشيةٌ من عشيرة عبد الدار ابن قُصىٍّ وهو «مولى علىٍّ بن أبى طالب» وقد وُلد بمكة قبل الهجرة ، وانتقل إلى البصرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعاش فترة بين أفراد قبيلته «دُئِل بن بكر من بنى كنانة ، وتوفى بالبصرة عام [٦٩هـ : ٦٨٨م] وتشير دائرة المعارف الإسلامية إلى أنَّ لأبى الأسود أشعارًا ضعيفة لغةً وأسلوبًا وإلى أن بعض أشعاره موضوع أى منسوب إليه وهو لغيره ثم تقول : « ويصدق هذا على القول الشائع الذى اخترعه بعضُ فقهاء لغة المذهب البصرى وهو أن أبا الأسود أول من وضع قواعد النحو العربى وابتدع ضبط كلمات القرآن » .

علم النحو بعد ابى الأسود :

لاشك أن علم النحو تطور بعد أبى الأسود بمسايرة الزمن ، وأضيف إليه من كل طبقة بعد أخرى ما أدى به إلى تنوع الأبواب ، وتعدُّد المذاهب ، حتى

صار فنًّا عظيمًا ذا رَوْعةٍ مع ترتيب أبوابه ووضوح أقسامه ، إلى جانب التعاريف التى امتازت بها الأبواب ، والتقاسيم والاصطلاحات العلمية الخاصة .

وحَسْبُ أبى الأسود أنه وَضَع الأساس ، وأرسى القواعدَ لبعض الأبواب ، فهو رائد مُجَدِّدٌ مجتهد ، فلأبى الأسود الفضلُ الوافرُ فى بدء الغرس الذى نما وترعرع وازدهر على كَرِّ الزمان بإضافة اللاحق إلى السابق ما استدركه وما ابتدعه فازداد فيه التدوينُ والتصنيف شيئًا فشيئًا ، حتى صار لدينا علمٌ عظيمُ الشأن ، متينُ الأركان ، دقيقُ الترتيب ، مُتَّسقةٌ أبوابُه مع الشمول والصحةِ والسلامةِ ، وزادته الشروحُ التى أُلِّفَتْ تألُّقًا ووضوحًا ، ويسَّرت لنا الفهم والدقة ، وهى إلى جانب إعانتها على استقامة الفكر ، وصيانة اللسان ، أكَّدت لنا ضرورةَ الحفاظ على حُسن الأداء والتزام الفصحى التى هى اللغةُ المشتركةُ بين أهل العربية والقرآن ، وهى أعظمُ مِعوانٍ لهم على التفاهم والإفهام وعلى سلامة الاتصال بكنوز التراث .

(ب) طبقات البصريين والكوفيين

ورجال عاصروا أبا الأسود أو كانوا بعده :

لقد نما علمُ النحو وترعرع وقوى عودُه ونضج على أيدى رجال تتابعوا فى فترة من الزمان قصيرة ، كان دافعهم الغيرةَ على الدين والحرصَ على لغة القرآن الكريم ، لذا بذلوا الجهدَ وأَفْنَوْا العُمر حتى أَثْرَوْا الحياة بعلم هو غُرَّةٌ بين العلوم ، وكانت مدينةُ البصرة بالعراق هى المركز الأعظمَ حيويَّةً وعملًا لأكابر النحويين وعلماء الصرفِ وفقه اللغةِ حتى شاركتها مدينة الكوفة بعد نحو قرن من الزمان ومن هؤلاء :

الطبقة الأولى من البصريين وتواريخ الوفاة : نصر بنُ عاصم الليثى [٨٩هـ] وعنبسةُ بن معدان الفيل المَهْرى (نحو المائة الأولى) وعبد الرحمنُ بنُ هرمز

أبو داود الأعرَج [١١٧هـ] ويحيى بنُ يعمر العدوانى : أبو سليمان [١٢٩هـ] .

والطبقة الثانية : أبو بحر عبد الله بنُ أبى إسحاق زيد الحضرمى البصرى (أستاذ أبى عمرو بن العلاء) [١١٧هـ] و عيسى بن عمر الثّقفى البصرى (أبو سليمان) [١٤٩هـ] وأبو عمرو بن العلاء وهو زبان بن العلاء بن عمار التميمى المازنى وهو من القُرّاء المشهورين ومن أكابر علماء مدرسة البصرة فى «علم النحو» ومولده فى عام [٧٠هـ] ثم انتقل إلى العراق (من مكة المكرمة) أو من (كازرون جنوبى فارس على الخلاف فى موطن ولادته) [١٥٤هـ] .

الطبقة الثالثة : الأخفش الأكبر : أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس بن ثعلبة [١٧٧هـ] والخليل بن أحمد العبقرى فريد عصره هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى [١٧٥هـ] ويونس هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضَّبِّىّ [١٨٢هـ] .

الطبقة الرابعة : سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان مولى بنى الحارث بن كعب وسيبويه من الطبقة الرابعة من البصريين [١٨٨هـ] ومنهم اليزيدى [٢٠٢هـ] وأبو زيد [٢٠٥هـ] .

الطبقة الخامسة : الأخفش الأوسط وقطرب [٢٠٦هـ] .

الطبقة السادسة : الجَرْمى [٢٢٥هـ] والتَّوزى [٢٣٨هـ] والمازنى [٢٤٩هـ] وأبو حاتم السجستانى [٢٥٠هـ] والرياشى [٢٥٧هـ] .

الطبقة السابعة : المُبَرِّد [٢٨٥هـ] .

طبقات الكوفيين : الطبقة الأولى : « عام الوفاة » الرؤاس ومعاذ الهراء [١٨٧هـ] .

الطبقة الثانية : الكسائى أبو الحسن على بن حمزة فارسى من سواد العراق [١٨٩هـ].

الطبقة الثالثة : الأحمر (أبو الحسن الأحمر) [١٩٤هـ] والفَرَّاء [٢٠٧هـ] واللحيانى [٢٢٠هـ] .

الطبقة الرابعة : ابن سعدان [٢٣١هـ] والطُّوال (أبو عبد الله) [٢٤٣هـ] وابن السِّكِّيت (أبو يوسف) [٢٤٣هـ] وابن قادم (أبو جعفر) [٢٥١هـ] .

الطبقة الخامسة : ثعلب (أبو العباس) [٢٩١هـ] .

* * *

التفاتة : وأود أن أشير هنا إلى بعض جهود المتأخرين فى مجال تيسير ترتيب كتب القواعد النحوية والصرفية ممن اشتغلوا بالتدريس وأرادوا خدمة المعلم والمتعلم ، وقد جمعوا بين «العلم والتربية» وكان لجهودهم أثر بالغ فى مجال التعليم فيمن جاءوا بعدهم ، ومنهم صاحب « الآجُرُّومية » وصاحب « شذور الذهب» .

* * *

ابن آجُرُّوم والآجُرُّوميَّة

هو : محمَّد بن داودَ الصِّنهاجيُّ [٦٧٢بفاس وتوفى بها عام ٧٢٣هـ] [١٢٧٤: ١٣٢٣م] وكان متبحِّرًا فى النحو والتجويد فقيها أديبًا عالـمًا بالرياضيات ، وعرفوه فى تاريخ علم النحو بـ (ابن آجُرُّوم وهى كلمة (بربرية) «أَجُرُّم» تفيد معنى (شلحة) أى «الفقير أو الصوفى» وكانت هذه الكلمةُ لقبًا لجدِّه «داود» وقد أصبح هذا اللقبُ أشهرَ من «نار على عَلَم» فى الخافقين ، بعد أن صار عنوانًا لقواعد علم «النحو» الأساسية تحت اسم «الآجُرُّوميَّة» وكان الرجلُ معلِّمًا تربويًّا مخلصًا ، فوضع لطالبى علم النحو القواعد الأُساسيةَ فى عبارات دقيقة وألفاظُها على مقدار معانيها ، تُعطينا فى صورة مختصَرة علاماتِ الإعراب

الأصلية والفرعية والجملة وتكوينها (اسمية وفعلية) وأنواع الـمُعربات من الأسماء وغير ذلك من الركائز الأساسية ، وبطريقة تساعد على حفظها عن ظهر قلب بسهولة ثم يتولى المعلِّم أو الكِتّاب الشارح لها بيان التفصيل :

إن «الآجرُّومية» رسالة صغيرةٌ ، اشتملت على ضوابط القواعدِ النحوية الأساسية ، وهى مع شَرْح لها تلقَّيناها فى الصف الأول من المرحلة الابتدائية فى الأزهر الشريف، كنا نحفظ الـمتْنَ ونُتقن الشرحَ على أيدى مُربِّين علماء أفاضل ، وقد صدر هذا الـمتْنُ عن صاحبه ، وهو فى مكة الـمكرمة حاجًا ، وكان يكتب وهو مستقبلٌ الكعبةَ الـمشرَّفة يرجو عملًا يضبط للطلاب والراغبين القواعدَ الأساسية للنحو وجعل متنه تحت عنوان : « الـمُقدِّمة الآجُرُّوميَّة فى مبادئ علم العربية » وكان لهذا الكتاب فضلٌ علينا ، إذ هيّأَ أذهاننا لتلقِّى التفصيل والشروح بالتدريج ، كما كان هذا الكتاب لفتةً تربويةً من صاحبه ، وقد استمدَّ عناصره من كتاب فى النحو «للعلاَّمة أبى القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى» ، وسرعان ما ذاعت شهرةُ «الآجُرومية» منذ صدورها فى القرن الثامن [١٣:١٤م] من المحيط الأطلسى حتى نهر الفرات ، وقد اتخذوها أساسًا للدراسات النحوية ، بل كثر شارحوها فى مشرق الأمة ومغربها وصارت مَحِلَّ عناية الغربيين ، وترجموها إلى اللاتينية وأفادوا منها فى تقنين قواعد «اللغة» عندهم ، بل وتأثروا باسمها فوضعوا للقواعد لفظ «جرامر : Grammar» متأثرين بهذا المتن المتين فى دقَّته وهدفه ، ولقد ترجموه وطبعوه بالعربية وبلغات أوربية منها : اللاتينيه فى «روما [١٥٩٢م وفى ١٦٣١م] وفى ترجمة لاتينية فى «برسلاو» عام [١٦١٠م] وفى «ليدن» [١٦١٧م] وفى : «أمستردام» [١٧٥٥م] بالعربية واللاتينية ، ومع شرح الأزهرى خالد بن عبد الله عام [١٧٥٦م] ، وفى باريس والجزائر وكمبردج وميونخ وبرلين ، واستمرت هذه العناية حتى عام [١٩١١م] وقد صدرت طبعة وترجمة ثالثة فى «روما» .

عبقريّ النحو والصرف

ابن هشام : جمال الدين أبو محمد عبد الله الأنصارى المصرى

(٧٠٨هـ بالقاهرة وتوفى بها عام ٧٦٠هـ)

وكانت كتبه زاد الأزهريين بدءًا من الصف الثالث بالمرحلة الابتدائية حيث تتلمذوا على كتبه إلى شطر من المرحلة الثانوية ، وهى كتب مختارة عن بصيرة ودراية بعبقرية النحوى المربّى الأديب الذى قال عنه ابنُ خلدون فى المقدمه : «إن ابن هشام على عِلْمٍ جمٍّ يشهد له بعلوّ قدْره فى صناعة النحو » ومن كتبه التى كانت موضع عناية الأزهر الشريف «قطر النّدا وبلُّ الصَّدا » وهو متن شَرَحَه بنفسه فى الحدود التى رسمها لهذا الكتاب الذى يلائم مستوى من المبتدئين ، وقد كان عمدةَ التكوين فى الصف الثالث من المرحلة الابتدائية بالأزهر ، تلاه فى الصف الرابع كتابُه «شذور الذهب فى معرفة كلام العرب» وهو أكثر بسطًا للمسائل النحوية وإسهابًا من سابقه، ويمتاز الكتابان بالدقة وبالتدريج مع الشواهد الأدبية الممتازة من شعر العرب ونثرهم والتطبيق مع آية أو آيات من كتاب الله عز وجل ، ويرحم الله عز وجل الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد [القرن الرابع عشر] الذى قام بتحقيق كتب ابن هشام والتعليق عليها بما يناسب، وفى المرحلة الثانوية بالأزهر كان كتابه «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» هو دليلَ الدارس لفهم ألفية ابن مالك التى جمعت فنَّى النحو والصرف فى أبياتٍ سهلةِ الحفظ فنثرها ابنُ هشام وزادها يسرًا ووضوحًا ، ثم تناول هذا الكتابَ بالتعليق الموضِّح المفيد الشيخان الأزهريان (محمد عبد العزيز النجار وعبد العزيز حسن عام [١٣٤٤هـ : ١٩٢٥م] تحت عنوان «منار السالك إلى أوضح المسالك» فزاده وضوحًا وتفصيلًا مع التطبيقات للتدريب ، والعلامة (ابن مالك هو: جمال الدين محمد صاحبُ الألفية أندلسيُّ المولدِ ، وانتقل إلى دمشقَ وَدَرسَ بها وعلّم تلاميذه فيها وفى غيرها من المدن السورية حتى توفى بدمشق

عام [٦٧٢هـ] وهو من علماء [القرن السابع : الثالث عشر] ، وألفيَّتُه ذاعت ونالت التقدير) وإن كُتب العلامة ابن هشام الأنصارى نالت التقدير والعناية من العلماء وَطلاب العلم ، وقد تتلمذ على كتبه العظيمة من جاء بعده ، ومن كتبه ذات الأهمية اللغوية والنحوية كتابه العظيم : «مُغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» الذى قام بتأليفه وهو فى مكة المكرمة عام [٧٥٦هـ : ١٣٥٣م] وهو يجمع بطريقةٍ ريادية فَذَّة بين ما تُعطيه المعاجم اللغوية وكتب الأعاريب النحوية فيما يَعْرِضه من معانى الحروف والأدوات والأسماء ذات الدلالات الخاصة واستعمالاتها ، وله كتب أخرى عظيمة الشأن كانت وما زالت موضعَ عناية فى الغرب والشرق على السواء ، فهى تجمع بين الدقة العلمية والعرض التربوى والذوق الأدبى ، مما يُعَدُّ به صاحبه رائدًا عظيمًا فى تاريخ تطور العلوم .

وكان ابنُ هشام فقيهًا معلمًا لفقه الإمام الشافعى ثم فقه الإمام أحمد بن حنبل ومعلمًا «لعلم التفسير» بالقبَّة المنصورية بالقاهرة .

لقد كان هؤلاء وغيرهم من المتأخرين عيالًا على البصريين والكوفيين من القرون الثلاثة الأولى ، ثم صار كل واحد منهم إمامًا بطريقته فى بسط المسائل وتوضيح القواعد على نحوٍ تربوى رائع مع التفنُّن فى اختيار الشواهد ونحوها ولا ينكر اللاحقُ فضل السابق .

خـاتمـة :

وبهذه الإشارات الموجزة يتم الوفاء بحجم هذه الوَجازة لا بما ينبغى لهؤلاء الأعلام وغيرهم ممن حملوا مشاعل الحضارة والنور للناس فى كل مكان وأناروا الطريق أمام من جاءوا بعدهم .

ويرحم الله عز وجل مشايخنا الأفاضل فى الأزهر الشريف وكلية اللغة

العربية مثل الشيخ محمد طنطاوى ، والشيخ أحمد عمارة ، والشيخ محمد خضير ، والشيخ عنتر ، والشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد [القرن الرابع عشر من الهجرة] وغيرهم من أهل العلم ممن سبقوهم أو عاصروهم أو كانوا بعدهم الذين أفنوا أعمارهم فى خدمة العلوم التى تضبط اللسان وتقوِّمه ، وتُعين بالدرجة الأولى على إجادة تلاوة القرآن وقراءته قراءةً صحيحةً ، وتساعد الدارسَ والباحثَ على الفهم والإفهام مع الوضوح والبيان .

إنهم قوم أخلصوا نياتهم لله وخافوه كما بدا من اجتهاداتهم ومثابرتهم وطول باعهم فى هذه العلوم فعلَّمهم الله بفضله وإحسانه ، إنهم بذلوا الجهد وعاشوا لغايات كريمة ، فكانوا مشاعل تحترق لتنير للعقول والنفوس .

إنهم أحبوا القرآن الكريم ، وعضُّوا بالنواجذ على سنة نبيهم ﷺ فخدَموا لغة القرآن الكريم ولغةَ السنة المطهرة كلٌّ فى ميدانه : إنها العلوم التى يجب على أمتنا أن تُوجِّه إليها أقصى عناية فى كل مراحل التعليم ، وأن يعطيها الأُزهر الشريف فى جميع المراحل وجميع الكلياتِ بلا استثناء عناية كبرى ؛ النحو والصرف والبلاغة والإعجاز وعلم التجويد والقراءات مع العناية بالمعاجم اللغوية ومعرفة اتجاهاتها والاتصال بها دومًا[1] .

---

(١) جاء عن نافع كما عند البخارى فى الأدب المفرد وأبى داود قال: «كان ابن عمر رضى الله عنهما يضربُ ولدَه على اللَّحن» وزاد أبو دواد فقال رجل لنافع : «لو آخذناك بهذا ما رفعنا عنك العصا» قاله الآجرى .

ويرى الماوردى فى أدب الدنيا والدين : أن اللحن فى العربية إثمٌ نؤاخذ عليه ، لأنها لغة كتاب الله عز وجل ، وإن اللحن هو خطأ اللسان حين لم يؤد الحروف من مخارجها وبصفاتها ، أو حين ينصب المرفوع ، ويجر المنصوب ونحو ذلك مما يُعرِّض للخطأ فى المعنى المقصود . فتمت الإشارة – هنا – إلى هذا لأن أهل العلم تكفيهم الإشارة ، فينبغى التوجه بعزم وهمة نحو تصحيح اللسان فى الكتابة والخطابة ونحوهما ، ومن قصد خيرًا وثابر وأخلص أعانه الله ويَسره له .

إن الذى يصول ويجول من أهل العربية فى ميادين الخطابة أو التوجيه والتحدث عبر الوسائل المتاحة وكذلك فى ميادين التعليم، من غير دراية ودراسة لعلم النحو والصرف ونحوهما، أو يكون على ضعفٍ ظاهرٍ فيهما، فهو مثل الذى يركض إلى الهيجا قبل أن يستكمل الأُهبة ويُعدَّ العُدةَ والعتاد، ولاشك أن الذى يتحدث فى التفسير أو الحديث ومعانيه وله عناية بدراستهما يكون شديد الحاجة إلى إتقان النحو والصرف والبلاغة ونحوها من العلوم، وإن الفقيه والمفتى والمعنىَّ بأصول الفقه لايقل حاجة عن هؤلاء إلى هذه العلوم والله عز وجل يقول: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وإن اللغة والنحو والصرف لَمِن آكدِ الأبواب لكل طالب علم.

إن الوفاء يقتضى أن يدعو اللاحق للسابق، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فاللهم اغفر لنا ولهم ولجميع من علّمونا من أهل التوحيد يا أرحم الراحمين.



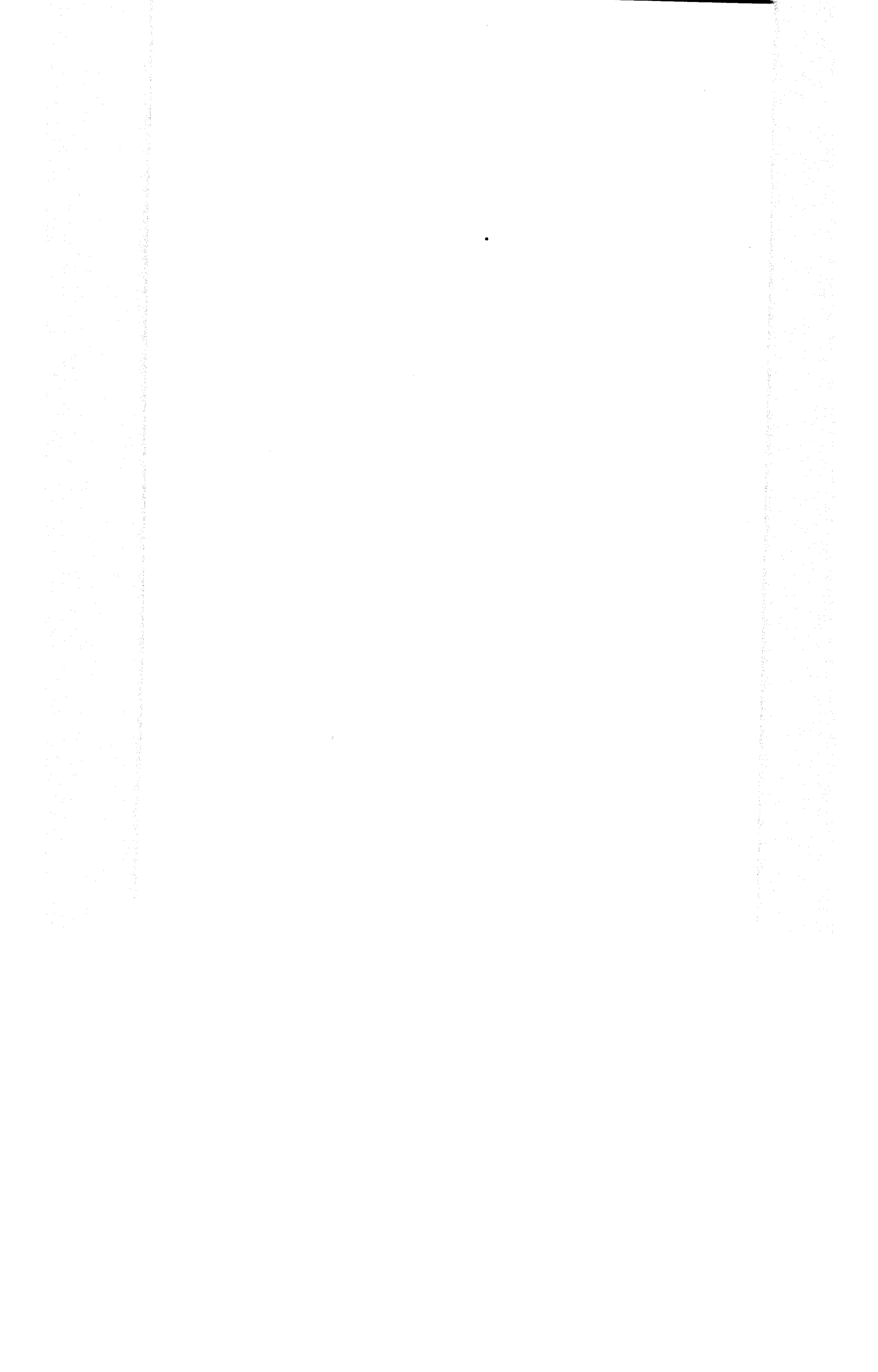
الرسالة الخامسة :

عباقرة روّاد في العلم والسياسة

قطوف من سيرهم وتوجهاتهم

* * *

* الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز
* أبو يوسف يعقوب الكندى الفيلسوف المفكّر العلامة
* الفارابى الفيلسوف الأديب الطبيب الموسيقى
* الإمام ابن حزم الأندلسى الفقيه الأديب الفيلسوف
* العلامة ابن تيميةَ أحمد الحرّانى الإمام الفقيه
* ابن بطوطة العالم الفقيه الرحّالة
* كلمة يسيرة : المرأة كرّمها الإسلام
* **وليس آخرًا : الحضارة التى أخذت بيد الإنسان في مدارج الرقى هى النموذج الصحيح**



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

كلمـة:

أما بعد: فإن حضارة الإسلام أظلت العالم بالعدل والرحمة والمؤاخاة وحققت الازدهار والنماء فى جميع قطاعات الحياة الإنسانية ، فانتشر العلم وازدهرت فروعه وفنونه ، كما ازدهرت الزراعة والعمران ، وظهرت المؤسسات التى تخدم الناس وتنظم شئون حياتهم ، وقد ظهر فى أثناء القرون الأولى وحتى القرن السابع بل والثامن من الهجرة [الخامسَ عشرَ والسادسَ عشرَ من الميلاد] ألوفٌ من العلماء : الفقهاء والمفسرين والنحويين وعلماء الإعجاز والبلاغة والمُحدثين والمؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع ، إلى جانب الرواد العظماء فى العلوم العملية والكونية : الطب وفروعه والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات وعلم النفس ، وغير ذلك من العلوم التى ساعدت على إنهاض الأمم التى اتصلت بالمسلمين فى الأندلس وفى المشرق، وهذا مما تؤكده حقائقُ التاريخ ويتحدث به المفكرون فى الغرب والشرق .

وكان للمرأة فى الإسلام دور ريادى فقد أسهمت فى النهضة العلمية والأدبية ، فكان هناك الفقيهات والشاعرات والأديبات والطبيبات ، ونجد فى كتب التراجم أسماء مئات منهن وقد كانت أم المؤمنين الفقيهة الأديبة عائشة رضى الله عنها مرجعًا للنساء ولغيرهن ، تُفتى فى أمور الدين ، وتُجيب عما يسألون عنه ، وكم نبغ فى عصرها وبعدها الألوف منهن.

وهذه الرسالة تقدم نماذج من عباقرة العلم والسياسة ممن نبغوا فى ظلال حضارة الإسلام ، وكانت تحكمهم آداب دينهم وتعاليمه ، فكانوا وأمثالهم

كالشمس للدنيا والعافية للناس.

أرجو أن يتأمل القارئ العزيز ويتحدث بذلك إلى أهله وإخوانه فإن الذكرى تنفع، وهذه الرسالة موجهة إلى كل إنسان.

القاهرة فى : ١٤٢٣ من الهجرة
٢٠٠٢ من الميلاد

أحمد بن محمد طاحون

* * *

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾

[فاطر :٢٨]

* * *

« كن عالـمًا أو متعلّمًا »

[أثر شريف]

❁ ❁ ❁

الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز

ملامح عن شخصيته وتوجُّهاته

[٦١ أو ٦٣ : ١٠١هـ]

عمر بن عبد العزيز قُرشىٌّ من جهة أبيه ووالدته:

فأبوه عبد العزيز بن مروان من بنى أمية، ووالدته حفصة بنتُ عاصم بن عمر ابن الخطاب من بنى عَدىٍّ، واسمها أيضًا : ليلى أو « قريبة» أو «عُتبة» وكنيتها : «أمُّ عاصم» بنت عاصم ، وأمُّها زوجُ عاصم بنِ عمر وهى من بنى هلال ، وقد صارت هذه الأمُّ الهلالية عظيمةَ القدر لدى عمر بن الخطاب لأمانتها ومراقبتها ربَّها وخشيتها يوم الحساب، وقد وُلد عمر بن عبد العزيز فى حلوان بمصر المحروسة عام [٦١ من الهجرة أوْ ٦٣هـ] وكان أبوه واليًا على مصر، وقيل : وُلد بالمدينة المنورة ، ثم وفد إلى مصر فأقام مع أبيه ما تيسَّر له حتى بعثه أبوه إلى المدينة ليتلقَّى العلم والأدب يؤهله بذلك لِمَا يُرجى له .

وَلِىَ عمر المدينة المنورة، ثم صار سنة تسع وتسعين خليفةً مسؤولًا عن أمة الإسلام، وتوفِّى سنة إحدى بعد المائة لَم يستكملها ، أى ظل خليفة نحو سنتين وخمسة أشهر وعشرين يومًا حفلت بجلائل الأعمال وسديد الآراء، وأُغلقت آخرُ صفحات عُمره وخلافتِه عن سيرة عطرة رشيدة اشتملت عليها كتبٌ وبحوث عظيمةُ النفع : للحاكم، وللشاب وللشيخ، وللمعلم والمتعلم، ولطالب الفقه والفقيه، وللوالد والولد، والمخدوم وللخادم، والصديق وصديقه، وللبائع والمشترى، وللغنى والفقير ، فهو إنسانٌ عظيم قُدوةٌ فى الحق والرفق والخير والعدل وحسن السياسة.

ومن اللفتات العذْبة الـمُونقَة ذات الدلالات الـمؤثِّرة وقد تَـمُرّ مرورًا سريعًا

على القارئ لا يلتفت إليها: قولُه حين مات خادمُه «قارون» وقد ترك هذا الخادمُ ألفَ دينار، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين: هلك قارونُ وترك ألفَ دينار فقال عمر: « ألفُ دينارٍ من كسب طيِّب» فتأمَّل توجُّهاتِ عُمر ومتابعته لأحوال خدمه ورعيته وبيته، ثم تدبَّر رعايته الأمةَ وحرصَه على سلامتها وازدهارها:

عمر بن عبد العزيز وشئون الخلافة: هو تابعيٌّ ، وبينه وبين الخلفاء الراشدين الأربعة رضى الله عنهم عددٌ من خلفاء بنى أمية ، أولهم معاويةُ وآخرُهم سليمانُ ابن عبد الملك رضى الله عنهم، وهو الذى أوصى وعَهد وهو فى مرض موته لعمرَ ابنِ عبد العزيز بالخلافة من بعده وذلك بسبب صغَر سِنِّ أولادِه، ولأنه كان يعرف من حال عمر بن عبد العزيز بن مروان وتوجُّهاته الطيبة وخبراته العظيمة وحبه للحق والعدل ما يجعله أهلًا للثقة، ولذا قال سليمانُ بن عبد الملك : «لأعقدنَّ عقدًا ليس للشيطان فيه نصيبٌ» لشدَّة ثقته فى تقوى عمر بن عبد العزيز وفى أخلاقه واستقامة طبعه ونفسه، وفى الليلة التى مات فيها الخليفة سليمانُ رأى رجلٌ من الرعيةِ فى منامه كأَنَّ من السماء قائلًا يقول: «أتاكم العدلُ واللِّينُ وإظهارُ العمل الصالح فى المصلِّين» أى فى أهل القبلة، وقد مكث عمرُ فى الخلافة سنتين ونحو ستة أشهر ، ومات فى شهر رجب عام [١٠١ من الهجرة] .

أسرته ونشأته: كان عمر رضى الله عنه فقيهًا صالحًا حكيمًا، محبًا للخير عَزُوفًا عن الشرّ، زاهدًا وكريمًا وعادلًا شفيقًا على الأمة وحَسَنَ السيرةِ فيهم، وكان أبوه واليًا على مصر وسكن حُلوان، وأمُّه حفْصةُ بنتُ عاصم بن عمر بن الخطاب واسمها «ليلى» أو «قريبة» وجدَّتُه لأمِّه هى الهلاليةُ المدنيةُ الصالحة التى أبت أن تخلطَ الصدق بالكذب فرفضتْ خلطَ اللبن المُعَدِّ للبيع بالماء، فأغضبتْ والدتَها، وطلبت مرضاةَ ربِّها، فتزوَّجها عاصمٌ بتوجيه من أبيه أمير المؤمنين رضى الله عنهم.

تعليمه وشخصيته: كان من الصفوة حقًّا نشأ فى بيت أمير مصر، وتأدب وتعلم بدار العلم والفقه وهى المدينة المنورة ، إذْ بعثه أبوه إليها وهى كعبةُ العلوم والحكمة، كان خلقه متينًا عَفًّا، وكان شديدَ العناية بثيابه وعِطرِه فتُوجد رائحةُ العنبر فى المكان الذى يمرُّ فيه ،ويمشى فى شبابه مشيةً سماها الناسُ العُمريَّة، ولكنها كانت تلك طبيعته فى المَشْى لم يتصنَّعها أو يتكلَّفها قاصدًا حتى عَوَّد نفْسَهُ بالتدريج على تقويمها، واعتدالها، وماذا تقول فى شابٍّ أمويٍّ نشأ فى المُلك، ولكن لم تُؤخذ عليه زلَّة، ولا سقط سقطة ولم يجد منه مُعاشروه ما يُخلُّ بمروءته .

هذا جانب قبل خلافته ثم بعد أن صار واليًا على المدينة كان دومًا حسنَ السيرة عظيم الرفق حازمًا عادلًا، فلما صار خليفةً مسؤولًا عن الأمة زهد فى متاع الدنيا وزخرفها ورفض لنفسه زينتها وبهرجها، وكان أكثر الناس تواضعًا فى طعامه وفى ملبسه ومُخالطته للناس حتى صار كالغريب فى الوسط الذى نشأ فيه ، وقد سمع بنفسه من امرأته فاطمةَ بنتِ عبد الملك بن مروان تقول له: «أراحنا الله منك» لِمَا كان عليه من شدَّة الورع والزهد، فقال: «آمين» ! ولم يَزِدْ ، لقد كان عمرُ قبل تولِّيه الخلافة أكثر بنى أمية ترفُّهًا ومن أعطر الناس وأكثرهم عناية بملابسه، فلما صار خليفةً ما كان ثوبُه يزيد ثمنُه على اثنى عشرَ دِرهمًا، وهو بعون ربِّه وتوفيقه كان المجدِّد على رأس المائة الأولى للإسلام، ولقد تحقَّقت فِراسةُ جَدِّه عمرَ بن الخطاب الخليفةِ الثانى حين قال لولده عاصم: «تزوَّجْ هذه الهلاليةَ بائعةَ اللبن ، واللهِ ليُوشكنَّ أن تأتىَ بفارس يسودُ العرب» . (فسبحان الله الذى ألهم ابنَ الخطاب هذا القول) كما تحققت فيه فِراسةُ الخليفة سليمان بن عبد الملك حين أوصى بالخلافة له من بعده وقال: «واللهِ لأعْقدنَّ

عَقدًا ليس للشيطان فيه نصيب»)، فعقد لعمر بن عبد العزيز يكون الخليفة من بعده، وذاتَ ليلة قام عمرُ بن عبد العزيز من نومه وهو يَفْرُكُ عينيه ويقول بعد رؤيا رآها وهو يتعجب: «**مَن هذا الذى مِن وَلد عُمر يُسمَّى عمر يسير بسيرة عمر !**» وأخذ يردِّد هذه العبارة مرات مُتعجبًا من هذه الرؤيا !! لقد عاش الخليفة عمر بن العزيز للفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، ولذى المال القليل والعيال الكثير وأشباه هؤلاء من أهل الضعف والحاجة ، وكان مصباحُ بيته من ماله الخاص.

الخليفة الخامس ورَفْعُ العَنَتِ والمشقَّة عن الناس: ليلةَ أن تولَّى عمرُ بن العزيز الحُكم ، وبعد أن تمَّ دَفْنُ الخليفة سليمان بن عبد الملك كتب عمرُ بن عبد العزيز قبل أن يعودَ إلى منزله ثلاثةَ كتب تضمَّنتْ ثلاثةَ أوامر، الغرضُ منها جميعًا إزالةُ المشقَّة عن الناس ورفعُ العنَت عنهم ، وإن اختلفت المواقفُ ، ورأى أن ذلك أوّلُ واجباته، إذ لم يكن راضيًا عن سياسة «سليمان» ووجْهَةِ نَظَره حيالَ هذه الأمور الثلاثة ، وكان يرقب ذلك، ويسكت على ألم فى نفسه، فماذا تضَمَّن كلُّ أمرٍ منها:

١ - كتب برجوع «القائد مَسْلمةَ بن عبد الملك» من القسطنطينية، وكان الخليفة سليمانُ قد ولَّاه قيادةَ جيش برِّىٍّ وبحَرىٍّ لإنقاذ أهلها من المظالم والضلال ، وأوشك القائدُ مَسْلمةُ بن عبد الملك على دخولها والتمكُّن منها، ولكنَّ أهلها استمهلوه خداعًا حتى قاموا بتخزين طعامهم وحوائجهم ، ثم أغلقوا المدينةَ دونه بعد أن كادت تُسلِّم، فلمَّا علم سليمانُ بالخديعة غضب وحلف ألَّا يعود قائدُه منها ما دام حيًّا، فلقى مسلمةُ ورجالُه من التعب والمشقة والجوع الشىء الكثير، وطال بهم التعبُ وازدادت المشقةُ فكان ذلك يغمُّ عمرَ بن عبد العزيز أن يسمع بجوع الرجال وشدةِ حاجتهم، وهم ليسوا أهلَ نَهْب وسَلْب، لذا كانوا

يذبحون دوابَّهم ودوابَّ الأرض لطعامهم، فلما وَلى عمرُ أمورَ الأمة دفعتْه الرحمةُ والحكمةُ والخوفُ من الله أن يكتب برجوع مسلمةَ ورجاله وإزالةِ هذا العنت وتلك المشقَّة الشديدة عنهم.

٢ – وكتب رسالة بعزل «أسامةَ بنِ زيد التَّنوخى»، وكان مسؤولًا عن خَراج مصر وجَمْعه، بل وأمر عُمر بن عبد العزيز بحبْسه، وبأن يُقيَّد ويُحلَّ قيدُه عند كلِّ صلاة، ثم يُردّ إلى القيْد، والسببُ فى ذلك أن هذا المسؤول عن الخراج فى مصر استعمل القوةَ ، ولقى منه كثيرٌ من المصريين العنتَ والمشقة، وكان هذا الرجلُ التنوخىُّ كما وصفه الناس: « كان غاشمًا ظلومًا معتديًا فى العقوبات بغير ما أنزل الله، يقطع الأيدى فى خِلافِ ما يُؤمر به» أى كان يقطع اليد فى غير الجناية التى تقتضى ذلك ، ويبالغ فى إقامة الحدود وإنزالِ العقوبات على غير ما يَقضى به دستورُ الأمة، وربَّما كان ذلك لتخويف الناس ، يتقَرّبُ بذلك إلى السلطان فى دمشق ويُغضبُ الرحمن، فحبسه عمرُ بن عبد العزيز سنةً بمصر، وسنةً أخرى بفلسطين، وكفَّ شرَّه ورفَع عن الناس غشَمة وقساوته وإفراطَه فى العقوبات على غير مقتضى الشريعة، ثم بعد موت عمر بن عبد العزيز أعاده يزيدُ بنُ عبد الملك إلى عمله فى مصر.

٣– وكان على أفريقيةَ عاملُ سوءٍ يشتطُّ فى العقوبات ، ويبالغ فى إقامة الحدود، وربما كان أفظع وأقسى من أسامة التَّنوخى فى مصر، فاتسمت سيرتُه فى أفريقية بالجَوْر وبالمخالفة للحق ظنًّا منه أن ذلك فى رِضَى السلطان، ومع ذلك كان كثير الذِّكر والدعاء، وكان يُشرف بنفسه على تعذيب مَن يراهم مُخطئين، وهو يقول: سبحانَ الله والحمدُ لله، شُدَّ يا غلامُ موضِعَ كذا وموضعَ كذا لبعض مواضع العذاب فى جسم الشخص، فكانت حالتُه هذه شرَّ الحالاتِ مع ما فيها من المتناقضات كما هو واضح، فهو يتعبَّدُ ويذكر الله وفى الوقت نفسه يعاقب

بقسوة وعلى نحو يخالفُ مقتضى الحدود الشرعية وبلا رحمة .

فكتب عمر بن عبد العزيز بعزل «يزيدَ بن أبى مسلم» عن إفريقية رحمةً بالناس ولإزالة المشقة والعنَتِ عنهم ، وكبته وكبَت أمثالَهُ من الـمُغالين حتى استقرت أمورُ الناس ، وشعر الجميع بالأمن والطمأنينة والرعاية والكياسة مع إقامة العدل، وكانت الرحمةُ بالناس والرفقُ بهم أولَ ما شغل باله من غير تفريط ولا إفراط، وطلب إلى الناس فى أول بيان له أن يكونوا عونًا له على الحق ، وأن يدلوه من العدل إلى مالا يهتدِى إليه بنفسه ، وأن يوصِّلوا إليه حاجةَ الذى لا يقدر على توصيل حاجته بنفسه، وأن يؤدوا الأمانة للخليفة وللناس ، وأن لا يغتابوا عنده أحدًا ، رضى الله عنه.



سياسته فى المال: (وواجب كل مسؤول عن خزانة مالٍ عامَّة):

(ليقرأ بتأمل كلُّ مسؤول عن الصَّرف فى المصارف والمؤسسات والدوائر وكلُّ صاحب توقيع بالموافقة على الصَّرْف أو المراجعة) :

* كان عمر بن عبد العزيز فى صُحبة الخليفة سليمانَ بن عبد الملك عند زيارته المدينةَ المنورة فأعطى سليمانُ بها مالًا عظيمًا، وأنفق بسخاء، ثم قال لعمر: «كيف رأيتَ ما فعلنا يا أبا حفص؟» قال عمرُ: «رأيتُك زِدْتَ أهلَ الغنى غِنًى، وتركْتَ أهلَ الفقر بفقرهم» فتعجَّبْ لقول هذا الأمير لخليفة المسلمين!! .

* لقد كان سليمانُ يتوقَّع الثناءَ من عمَرَ على سخائه ولكنَّ النفسَ الطيبةَ لا تعرف النفاق، ولا تقول إلا الحقَّ ولو كان مُرًّا ، لأن البذْخَ فى غير موضعه عيبٌ، والتقتيرَ على المستحقِّ من القادر الذى لايضرُّه تقديم العَوْن أشدُّ عيبًا، وقد جمع سليمانُ فى قصته هذه بين العَيْبَيْنْ فسخا على من ليس بحاجة وبَخِلَ على أهل الحاجة ، وقريب من هذا نشير إلى :

١ - الدرس الذى أعطاه عمر بن عبد العزيز لعنبسةَ بنِ سعيد بن العاص وكان صديقَه وكان وجيهًا مُقَرَّبًا إلى الخلفاء والأمراء، وقد سأل عنبسةُ عمرَ بنَ العزيز مالًا؟ فقال له عمر: «ياعنبسةُ، إن كان مالُك الذى أصبح عندك حلالًا فهو كافيك، وإن كان مالك حرامًا فلا تزيدنَّ إليه حرامًا، ألا تُخبرنى يا عنبسةُ أمُحتاجٌ أنت ؟ قال : لا ، قال : أو فعليك دَيْنٌ؟ قال : لا ، قال عمرُ: أفتأمرنى أن أمدَّ يدى إلى مالِ اللهِ فأعطيكَهُ من غير حاجةٍ بك إليه وأترك فقراءَ المسلمين؟» ثم زاده عُمر موعظةً وبيانًا مما يؤكِّد الاعتدالَ والاتزانَ والإحسانَ والعدلَ فى سياسة عمر تجاه أموال المسلمين، فقال لعنبسة: «لو كان عليك دين أدَّيتُ عنك دينَكَ، ولو كنتَ

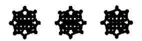
محتاجًا أمرتُ لك بما يُصلحك، فعليك يا عنبسةُ بمالك الذى عندك فكُله واتّقِ الله، وانظُر يا عنبسة: أولًا: من أين جمعتَهُ ، وانظُر لنفسك قبل أن ينظرَ إليك مَن ليس لك عنده هوادةٌ ولا مُراجعة» أى حاسب نفسك قبل أن يحاسبك ربُّك، فتأمل قوّةَ الوازع الحىّ والمراقبة خوفًا من عالم السرّ والنَّجْوَى .

٢- وكان لعمرَ غلامٌ «خادم» وبِرْذَوْنٌ «بغلٌ» وذاتَ يوم سأل عمرُ غلامه عن حاله، فقال الغلام: «الناسُ كلهم بخير يا عمرُ إلا أنا وأنت يا أميرَ المؤمنين وهذا البِرْذَوْن»، قال عمر: اذهبْ يا غلام فأنت حرٌّ ، أى أعتقتُك لوجه الله .

٣- وكان الخليفة سليمانُ بنُ عبد الملك قبل موته قد كتب لعنبسة بن سعيد بعشرين ألف دينارٍ، ومات سليمانُ والورقةُ ما زالت تدورُ فى الدواوين لتنتهى وتعود إلى أمير المؤمنين لختمها، فتوقَّف الصَّرفُ بطبيعة الحال بموت الخليفة، فذهب عنبسةُ إلى صديقه عمر بن عبد العزيز يطلب إنهاء إجراءات الصَّرْف وهو مطمئنٌّ لِما بينه وبين عُمرَ من المودَّة وحسن الصلة والصداقة، فقال له عمر : كم المطلوب لك يا عنبسةُ؟ قال : عشرون ألفَ دينار، قال عمر بنُ عبد العزيز: « إن عشرين ألفَ دينار تُغنى أربعةَ آلاف بيت من بيوت الأمّة، وأدفعُها إلى رجل واحد، وأُقسِمُ بالله يا عنبسةُ مالى إلى ذلك من سبيل» أى لا توافقنى نفسى ولا أستطيع أن آمُرَ بالصَّرف لك أبدًا !! فلم يجد عنبسةُ حاجةً إلى هذا الصَّكِّ الذى لم تتم موافقةُ الخليفةِ عليه فرماه، فقال له عمر فى هدوء واتزان: «لا عليك يا عنبسةُ أن يكون الصكُّ معك، فلعله أن يأتيك[من بعدى] مَن هو أَجْرَأُ منى على هذا المال فيأمر لك به - أى انتظِرَ يا عنبسةُ من يتولَّى بعدى - أمَّا أنا فلا أستطيع أن أوافق على الصرف، فخجل عنبسةُ، وأخذ الورقة تبركا برأى عُمرَ»، وقد أفاده هذا الدرس !.

لقد كان عمر يذكر الفقير الجائعَ، والغريبَ والأسيرَ المقهورَ ، وذا المال القليل

والعيال الكثير وأشباه هؤلاء من أهل الحاجة والضعف فى أطراف البلاد فيَبْكى عمر ، ويُبْكى السامعين لكلامه، وكان يأمر بأداء ديون من يموتون وهم فقراء، وبمعاونة من يعجز من أهل الذمّة اليهود والنصارى عن عمله أو عن زراعة أرضه، فما أنفع هذه التوجُّهاتِ العظيمة .!!



فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكهم

الأديب المفكر الحكيم العبقرى

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى القحطانى

«القرن الثالث» «التاسع من الميلاد»

لقد عرف مفكرو الغرب والشرق للكندى فضله وسعةَ علومه وابتكارَه وريادتَه فى تصحيح انحرافات الفكر الفلسفى اليونانى حتى قال عنه فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق[القرن الرابع عشر]: «كان الكندى فى خلقه وعقله من أعظم ما عرف البشر» ومن أوربا قال الفيلسوف «دكوردان»: «إن الكندىَّ واحدٌ من اثنى عشر هم أنفَذُ الناس عقلًا » .

الموطن والأجداد: إنه قحطانىٌّ يمنىٌّ من بيت حُكْم وسُلطان ، فقد كان أجداده من ملوك «كِندَة» فى جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن) ، وكان أبوه أميرًا على الكوفة فى عهد الخليفة العباسى المهدى ثم فى عهد الخليفة هارون الرشيد، وفى مدينة الكوفة كان مولد «الكندى» الفيلسوف فى أواخر القرن الثانى (أوائل القرن التاسع) وقد ازدهت الكوفةُ بالعلماء والفقهاء والشعراء والنحويين والمترجمين، وازدهرت الحياةُ الفكرية والعلميةُ، تُنافس بذلك أخواتها من مراكز البحث العلمى والشعر والنثر الفنى وسائر ضروب المعرفة مثل: البصرة وبغداد، ودمشق والقاهرة ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة، ونيسابور والرىِّ، وقرطبة وفاس وغيرها من الحواضر الإسلامية التى دفعت بركب الحضارة الإنسانية إلى الأمام.

تكوين الكندى الفيلسوف:

كان إقباله عظيمًا على طلب العلم والإحاطة بعلوم عصره وأعانه على ذلك

نبوغُه وذكاؤه وحبُّه لدينه وإخلاصُه لعقيدة التوحيد النقى الخالص: فحفظ القرآن الكريم، ودرس الحديث الشريفَ والفقه وتبحَّر فى النحو والبلاغة، وفى العلوم العقلية والكونية التى ازدهرت فى أمة الإسلام؛ فدرس الفلسفة اليونانية بعد ترجمتها إلى اللغة العربية وكذلك الفلسفة الهندية وكان على علم باللغة اليونانية وباللغة السريانية، ودرس وألف فى الرياضة والطب والفلك بل وفى الموسيقى.

عبقريته وعلومه: إن ابن النديم صاحب كتاب «الفهرست» أحصى لنا مؤلفات العلامة «الكندى» فى مختلف فروع المعرفة فبلغ عددها مائتين وواحدًا وأربعين كتابًا، غير أن كثيرًا من هذه المؤلفات تناولتها يدُ الضياع، فلم يَبْقَ منها سوى بضْعة وخمسين كتابًا طُبع منها إلى عهد ليس بالبعيد أربعون كتابًا، ولا يزال الباقى مخطوطًا.

أمَّا كتُب الكندى فى الفلسفة فقد بلغت اثنين وعشرين كتابًا، وله فى المنطق ثمانيةُ كتبٍ، وفى الجدل سبعةَ عشرَ كتابًا، وقد درس الكندىُّ مؤلفاتِ حكماءِ اليونان وفلاسفتهم ومنهم: أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفةِ، وقدَّم الكندى دراسات فى المعرفة ووسائلها، وفى الأخلاق ، والإلهيات، وقد بدت فى هذه الدراسات أصالتُه وأثرُ الإسلام فى تقويم الفكر واستقامة العقل إذ إنه صحح كثيرًا من أوهام وأخطاء الفلاسفة الأقدمين، وبيَّن شطحاتهم، ونبَّه على ما يجب أن يعتقده المؤمنُ والإنسانُ البصير، قال فضيلة الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود [القرن الرابع عشر من الهجرة] بعد مقدمة قارن فيها بين آراء الكندىّ فى الإلهيات وآراءِ أرسطو: «رأينا مما سبق أن الكندىَّ يقول بحدوث العالم، وإنه ليُثبتُ بالدليل حدوثَ الزمانِ والحركةِ والجرم، أما أرسطو فإنه كان يقول بقدَمها، أمَّا الكندىُّ فقد أثبت حدوث العالم، وأثبتَ أنّ الله خلق هذا العالم من العَدَم، وإنّ كلَّ ذلك خلافٌ أصيلٌ فى وجْهَةِ النظرِ بينه وبين أرسطو».

على أن الخلافَ الذى لا يقلُّ عن ذلك أصالةً فهو: تدبيرُ اللهِ للعالم، وعنايتُه سبحانه به، وتصرُّفه فيه، وعلمُه بجزئياته وكلياته، يُثبتُ الكنديُّ ذلك، وينفيه أرسطو أى فى فلسفته وتصوراته التى لم تستند إلى دين الله الذى يُرشد العقل ويَهديه ويُنير له السبيل، وإن الكنديَّ كذلك يُثبتُ الوحىَ والنبوةَ، وما الوحىُ والنبوةُ إلا مظهران من مظاهر عناية الله سبحانه وتعالى بالعالم، أما أرسطو فقد كان ينفى هذه العنايةَ، وبالتالى فإنه لا يثبت الوحىَ ولا النبوةَ، ولذلك اقتصر أرسطو فى مصادر المعرفةِ على الحسِّ والعقلِ، أمَّا الكنديُّ فقد زاد المصدرَ الإلهىَّ، وهو الوحى أى الكتاب الكريم والسنَّة النبويةُ ، والكنديُّ فى كلِّ ذلك منسجمٌ مع الإسلام، سائرٌ فى طريقه.

وخالف أفلاطون: وكما خالف الكنديُّ أرسطو فى كثير من آرائه وبيَّن أخطاءها ، فإنه كذلك خالف أفلاطونَ فيما رآه من اعوجاج فى بعض آرائه وفى ذلك يقول الدكتور «أبو ريدة» [القرن الرابع عشرمن الهجرة] «ونستطيع أن نلاحظ من قراءةِ رسائل الكندى أن أمرَ الخَلقِ و كيفيته أوضحُ عند الكندى مما هو عند أفلاطونَ، الذى لم يتخلَّص من خيال الفنّان - الشاعر - فى آرائه، أمّا الكنديُّ فَبِحُكمِ نزعته العربية ونزعتهِ الإسلامية الواضحة فإنه لا تُرضيه ضُروبُ الخيال الموجود عند فلاسفة اليونان» أى لأن فلاسفة اليونان كان الخيالُ يشطح بهم فى تصوراتهم لحقائق الكون والخلْق والزمان والمكان والأجرام ، ولم يستندوا فى أمور الغيب إلى كتاب سماوى.

والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى [القرن ١٤هـ] فى كتابه «الكندى» فيلسوف العرب، يقول عن هذه العبقرية : «ذكرنا أن الكنديَّ باعتبار أنه فيلسوف كان مسجِّلًا لحضارة عصره من جميع نواحيها، بل يمكن القولُ بحق إنه كان فيلسوف الحضارة العربية فى النصف الأول من القرن الثالث من الهجرة، فما كان يمكن أن يظفر بلقب «فيْلسوفِ العرب» لولا إحاطتُه بجميع العلوم والفنون

والتآليف فى أصولها النظرية ، ومعرفة أسبابها ، إلى جانب الصلةِ بين بعضها والبعض الآخر ، وكيف يستخدمها الناس ويستفيدون منها» ثم يقول الأهوانى عن الحضارة الحقّة التى تجمع بين المادّة والروح : «وللحضارةِ وجهان لا ينفصلان هما المادىُّ والروحىُّ ، وقد بلغت الحضارةُ العباسيةُ فى بغداد الأوجَ فى كلا الجانبين كانت بغدادُ عاصمةَ أكبرِ دولةٍ على ظهر الأرضِ فى ذلك الزمان وتدفقت عليها الأموالُ، ووفد إليها العلماءُ والتجارُ وطلابُ العلمِ وغيرُهم من جميع أطرافِ الدولة الإسلامية، وتعددتْ الحرفُ والصناعاتُ، وازدهر الأدبُ والفنُّ، وكثُرت مدارسُ العلم، وكلُّ ذلك بترتيبٍ تعليميٍّ يقوم على قواعدَ تُعَدُّ أصولًا يقاسُ عليها فى كل علمٍ أو أدب أو فنٍّ أو حرفة» .

وإن الفيلسوفَ الذى نظر فى هذه الفروع كلِّها من أبواب الحضارةِ الإسلامية السائدة فى عصره هو الكندى نفسُه، فألَّف فى الفلسفةِ الأولى كما ألف فى : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى والطبيعة والأخلاقِ والسياسة وغير ذلك من العلوم ، وليس لنا أن نعجبَ من مثل هذه التآليف ونعدَّها خارجةً عن نطاق الفلسفة ؛ لأن الكندىَّ كان يسجل معارفَ زمانه ويضعُ لكلِّ لونٍ منها تأليفًا خاصًّا يُبيِّن فيه منزلةَ هذا الضرب من المعرفة بالنسبة لغيره من العلوم ، ويرتبه ترتيبًا تعليميًّا يردُّه إلى قواعدَ وأصول، حتى لا يضلَّ المتعلمُ.

وإن هذه الصورةَ التعليميةَ على رأس الصفات التى يمتازُ بها الفيلسوفُ على الحقيقة والتى تجعله ناطقًا بلسان الحضارةِ، ولقد كان الكندىُّ صاحبَ مدرسة بمعنى الكلمةِ، وكان أولَ فيلسوف مسلمٍ استطاع أن ينتزعَ الفلسفةَ من أربابها وأن يتربَّى على يديه جيلٌ من التلاميذ أصبح أحدُهم رئيسًا لمدرسة بغدادَ، وهذا كان أحدَ أسبابِ شُهرته فى العالم الأوربى .

ثم عن أثر الكندى فى إخضاع العلوم والحضارةِ لمبادئ الدين يقول الدكتور الأهوانى: «لم يكن الكندىُّ فيلسوفَ الحضارة الإسلامية بمعنى الإحاطة بجميع

العلوم والفنونِ وبمعنى إشاعةِ هذه الحضارةِ بطريقٍ تعليميٍّ فقط بل بمعنى إخضاع هذه الحضارةِ للقيم الدينية والأخلاقيةِ كذلك» .

المقومات الأساسية للحضارةِ: فالحضارةُ كما يقول الدكتور الأهوانى : «تأخذ بالنافع والجميل، والجميلُ يجمعُ بين الجمالِ والخيرِ، ولا يقتصرُ على الجمال فقط، والحضارةُ إذا تقدمت فى المادياتِ ونواحى العمران دون أن تعتمدَ على أساسٍ من الدين المستقيم والـخُلق القويم لاجَرَمَ تكونُ سريعةَ الانهيار، وقد استمرت الحضارةُ الإسلاميةُ مزدهرةً عاليةً أكثرَ من عشرة قرونٍ من الزمان، بفضل تمسكها بهذا الجانبِ الدينيّ الخُلُقيّ، فجمعت بين المادية والنواحى الروحية» .

تفكير الكندى فى الطريق الصحيح:

وكان الكنديُّ حريصًا على تقديم هذا المثلِ الأعلى الروحى فى كلِّ رسالةٍ يكتبها، حتى لو كانت فى العلوم الفلسفية البحتةِ، أو الرياضيةِ أو الطبيعية، فهو حريصٌ على تثبيتِ الوحدانيةِ، وإقامةِ الأدلةِ على أن الله هو الخالقُ المبدعُ المدبِّرُ، الممسكُ كلَّ ما أبدَعَ بتمام حكمتهِ، كما كان الكنديُّ حريصًا على تثبيت دلائلِ النبوة، وإعلاء شأن الرسل عليهم السلام وبيانِ فضلهم على الفلاسفة الذين يتَّبعون المنطقَ الإنسانيَّ المؤيَّدَ بالأقيسة والبراهين – أى البراهين العقلية وحدها ؛ لأن علمَ الرسل عليهم السلامُ مُستَمَدٌّ بالوحى من العلم الربَّانيِّ ، أى أن العقل وحده لا يستطيع أن يستقلَّ بمعرفة أمور الغيب بل لا بدّله من آيات الوحى الإلهى، ولم يكن حرصُ الكنديّ على بيان منزلةِ الأخلاق الفاضلةِ فى رقيِّ الحضارةِ وفى بقاءِ العمران بأقلَّ من حرصه على بيان منزلةِ الدين، وقد ألَّف فى الأخلاقِ كتبًا مستقلةً، وألحق الأخلاقَ بمباحث النفسِ، وإن ما ارتضاه من مباحث الأخلاقِ فى كتب الفلاسفةِ وفَّق بينه وبين تعاليم الإسلام الخُلُقية التى تعتمد أساسًا على الدين، وما أمر به الله فى كتابه من تقوى .

أخلاق الكندى وشخصيته: أما عن أخلاق الكندىّ فيقول فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق[القرن ١٤هـ]: «كان الكندىُّ رجلًا منصرفًا إلى جِدّ الحياةِ عاكفًا على الحكمةِ ينظر فيها التماسًا لكمال نفسه، وكان الكندىُّ هادئًا فى حياته آخذًا بأسباب النظام وسياسة النفس ومجاهدةِ شهواتها» .

وعن تواضُع الكندىّ العالم يقول الأستاذ طوقان [القرن ١٤هـ] : «وفوق ذلك كان ذا روحٍ علمىٍّ صحيح أبْعدَ عنه الغرورَ وجعله يرى الإنسانَ العاقلَ مهما يبلغْ من العمل فهو لا يزال مقصِّرًا، عليه أن يبقى عاملًا على مواصلة البحثِ والتحصيل» وقد قال الكندىُّ نفسه فى هذا الشأن، : «إن العاقلَ مَنْ يظنُّ أن فوقَ علمه عِلمًا، فهو أبدًا يتواضعُ لتلك الزيادةِ، وإن الجاهلَ يظنُّ أنه قد تناهى فتمقتُه النفوسُ لذلك..». هذا هو الكندىُّ، عربىُّ الأصلِ، إسلامىُّ النشأةِ والثقافةِ، وقد اعترف له أساطينُ الفكرِ فى الشرق والغربِ بالعبقرية، وبأنه أحدُ الرواد القلائل فى ميادين البحوثِ العلمية والفلسفية، أصالةً وعُمقًا وابتكارًا، ونحن نضمُّه إلى قائمة العباقرةِ من المسلمين ، وهم ألوفٌ والذين أسهموا فى بناء الحضارةِ على أروعِ وأكملِ صورها، فهل لـمُدَّعٍ بدافع الجهل أو التعصب هل له من سبيلٍ إلى أنْ يقولَ : إن العربَ والمسلمينَ ليسوا أهلَ أصالةٍ وابتكارية؟؟ ألا ساء ما يدَّعون، وقبُح ما يفترون !! إن هؤلاء المتعصبين يصدق فيهم قولُ الشاعرِ العربىّ:

ومَنْ يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يَجِد مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وبعد الفيلسوفِ الكندىّ ظهرت طبقةٌ من الفلاسفة قائمةٌ بذاتها تتمثَّل أوَّلا فى الحكيمين البارزين الفارابى وابن سينا، وكلاهما له تآليفُ نفيسةٌ فى الفلسفة، ونبغا فيها نبوغًا عظيمًا حتى قيل: إن الحكماءَ أربعةٌ، اثنان قبل الإسلام هما سُقراطُ، وأبيقراطُ، واثنان بعد الإسلام هما: الفارابى وابن سينا، وقد سبقت وَجَازةٌ عنه ، فمن الفارابى؟



الفارابى

الفيلسوف الأديب الموسيقى

[نحو ٢٥٩ : ٣٣٩هـ] [٨٧٢ : ٩٥٠م]

اسمه وموطنه:

الفارابىُّ هو : أبو نصر محمدُ بنُ محمد بن محمد بن طرخان ، كما أشار ابن النديم فى كتابه «الفهرست» ، ويُعرف «بالفارابى» نسبةً إلى ولاية «فاراب» وهى إقليمٌ كبير وراء نهر«سيحون» واسمه «سرداريا»على تُخوم بلاد الترك، فى طرف بلاد تركستان ، وُلد فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، ودرس الفارابى فى أول حياته العلومَ الإسلامية، إلى جانب الآداب والرياضة والفلسفة وعمل قاضيًا، وكان يجيد لغاتٍ كثيرةً منها إلى جانب العربية، اليونانية والتركيةُ والفارسيةُ، وعندما كان بين الأربعين والخمسين من عمره مال إلى دراسة الفلسفة فرحل إلى بغداد ، وهى إذ ذاك : المصدرُ الأكبر للثقافة والمعرفة، وكان ذلك فى نحو عام [٣١٠] حيث واصل مسيرته فى طلب العلم مع التوسُّع فى دراسة الفلسفة والمنطق ، ودرس المنطقَ والطبَّ على الطبيب المسيحى «يوحنا بن حيلان» وواصل فى «بغداد» هذه الدراسات على «أبى بشر متَّى بن يونس» المسيحى النسطورى وكان أحدَ المترجمين الذين ترعاهم الدولةُ العباسية وهكذا كان العلماء يطلبون العلم من المهد إلى اللحد ، وقد استأثرت فلسفة «أرسطو ومؤلفاته» بقسط كبير من جهوده حتى روى «ابن خلّكان» فى كتابه «وفيات الأعيان» أنه قد وَجَدَ «كتاب النفس» لأرسطو وعليه بخط «الفارابى» : «إنى قد قرأت هذا الكتابَ مائة مرة» وكان الفارابى يقول : «قرأت السماعَ الطبيعىَّ لأرسطاطاليس أربعين مرة» .

إشادة المفكّرين فى الغرب والشرق بالفارابى:

وقد شاءت الأقدار أن يكون الفارابيُ أحدَ العباقرةِ المقدَّمين فى تاريخ تقدُّم الفكرِ، وقد أشاد بعبقريته الباحثون فى القديم والحديثِ ؛ فقال عنه القِفْطِيُّ: «الفارابى فيلسوف المسلمين غير مُدافَع» وقال عنه ابنُ خلّكان فى كتابه «وفيات الأعيان»: «هو كبيرُ فلاسفةِ المسلمين، ولم يكن منهم من بلغ رتبتَه فى فنونه، وإن الرئيسَ ابنَ سينا ؛ بكُتبه تخرَّج وبكلامه انتفع فى مؤلفاته وتصانيفه» . وقال المفكر الأوربى« سينيون» : « الفارابى أولُ مفكِّر مسلم كان فيلسوفًا بكل ما للكلمةِ من معنى». وهو المؤسس الحقيقى للدراسات الفلسفية فى العالم العربى والمنشئ لِما سمَّوْه «الفلسفة الإسلامية» ، لذا قال الشيخ مصطفى عبد الرازق : «ولئن كانت الأجيالُ تهتف باسم «الفارابى» منذ أَلْفِ عام فى الشرق والغرب، فإنه قد استحقَّ ذلك بما وهب حياتَه لخدمة العلمِ والفلسفة، وبما ترك من أثر فى تاريخ التفكيرِ البشرىِّ، وفى تاريخ الـمُثُل العُليا للحياةِ الفاضلة» . ولا تقلُّ شهرتُه فى شئون السياسة والاجتماع عن شهرته فى شئون الفلسفة ، وله فى السياسة والاجتماع كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» الذى أصدره الدكتور على عبدالواحد وافى وحقّقه ، وكتب مقدّماته وعلّق على آرائه فى [القرن الرابع عشر من الهجرة].

هو المعلم الثانى فى تاريخ الفلسفة:

وعن أثر الفارابى فى المفكرين والباحثين فى الشرق والغرب يقول العلامةُ محمدُ شريفُ الهندى: «الفارابى أعظمُ فيلسوفٍ مسلمٍ، لم يصل إلى مكانته فى الفلسفةِ الإسلاميةِ أىُّ فيلسوفٍ آخر، ولهذا عُرف فى تاريخ الفكرِ بأنه «المعلم الثانى» أما المعلم الأول فهو: «أرسطو اليونانى»، ويعترفُ المفكرون المتأخرون بأنهم مدينون للفارابى فيما وصلوا إليه من علم ومعرفة، وأثرُه واضح تمامَ الوضوح

فى أفكار ابن سينا وابن رشد ، قال الدكتور «على عبد الواحد وافى» فى كتابه «المدينة الفاضلة للفارابى» : «والراجح أن السبب فى تلقيبه «بالمعلم الثانى» يرجع إلى مكانته الكبيرة فى الفلسفة ووفرة إنتاجِه فيها، ومتابعتِه لدراسة فلسفة «أرسطو» وشَرْحِه لنظرياته ، حتى لقد اعتبروا «الفارابى» أكبرَ الفلاسفةِ من بعد أرسطو» .

ويقول «كارا دى فو» : «إن منطق الفارابىّ كان عظيمَ التأثير على الباحثين الأوربيين الذين عُنوا بالمنطق».

ويضعه بعضُ المستشرقين على قدم المساواة مع كبار الفلاسفة القدامى مثل ؛ أرسطو وإقليدس وبطليموس وأوغسطين.

سَعَة معارفه:

وكان الفارابىّ واسع آفاقِ المعرفةِ كسائر المفكرين فى عصره ، فقد ألَّف فى الفلسفة بفروعها المختلفة وفى علم النجوم، وفى المناظر، وعنى بعلم المنطق، وبالطب وبالهندسة، كما كان بارعًا فى « الموسيقى»، وبلغت مؤلفاته مائة وثمانيةً وعشرين كتابًا، وقد تُرجمت معظم مؤلفاته إلى العِبرية واللاتينية، ولا يزال رجالُ الفلسفةِ والعلم فى أوربا وأمريكا يجعلون مؤلفاته إلى اليوم موضعَ عنايتهم.

قال الدكتور عبد الواحد وافى : «بلغت مؤلفاتُ الفارابى من الكثرة ماجعل المستشرق الألمانىّ «ستينشنيدر» يخصص لها مُجلَّدًا ضخمًا ، ولكن لم يصل إلينا من هذه المؤلفات إلا أربعون رسالة منها : اثنتان وثلاثون رسالة وصلت إلينا فى أصلها العربى ، وستُّ رسائل وصلت إلينا مترجمة إلى العبرية ، ورسالتان وصلتا إلينا مترجمتين إلى «اللاتينية» [انظر بروكلمان: فى كتابه «تاريخ الأدب العربى» الجزء الأول الصفحات [٢١٣،٢١٠]» . وقد طبعت معظم مؤلفات الفارابى

بالعربية وبغيرها فى أوربا وفى الهند وبعضها فى بيروت والقاهرة .

وله تعليقات على آراء أفلاطون والتوفيق بينه وبين أرسطو وعلى كتب غيرهما من الفلاسفة والفلكيين اليونانيين ومن مؤلفاته : «كتاب السياسة المدنية» ومن مبتكراته الرائدة كتابه : «فى إحصاء العلوم » الذى تمَّ نشره بالقاهرة للمرة الأولى سنة ١٩٣١ من الميلاد وأعيد طبعه سنة ١٩٤٩ وقد نال إعجاب المفكرين فى القديم والحديث ، وقال عنه القاضى « صاعد » [القرن الخامس] فى كتابه : «طبقات الأمم» : «إنه كتاب شريف فى «إحصاء العلوم» والتعريف بأغراضها لم يسبقه إليه ولا ذهب أحدٌ مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء إليه وتقليب النظر فيه» .

وقد قسم الفارابى فى هذا الكتاب العلوم ثمانى مجموعات ، صَنَّفها فى خمسة فصول ، مثل «مجموعة علم اللسان» فى اللغة وقوانينها وفى الكتابة والقراءة ونحو ذلك مما يتصل بالأدب والشعر .

ومثل «علم المنطق» بجميع فروعه .

و«علم التعاليم» وأراد به ما يشمل : علم العدد وعلم الهندسة والمناظر (البصريات) و « علم النجوم » (الفلك) و «علم الموسيقى» و«علم الأثقال» أى فى الأثقال وفى الآلات التى تستخدم فى رفع الأشياء الثقيلة ونقلها من مكان إلى مكان و«علم الحيَل» أى الميكانيكا التطبيقية كل ذلك تحت عنوان «علم التعاليم» .

وتلاه رابعُ المجموعةِ وهو «مجموعة العلوم الطبيعية» ، وخامستها «مجموعة العلوم الإلهية» ، وسادستها «مجموعة العلوم المدنية» أى الأخلاق والسياسة ، وسابعتها «علوم الفقه» ، والثامنة «علم الكلام بفروعه» أى علم التوحيد ومايتعلق به .

وهذا يؤكد لنا أن الفارابى كان متمكنًا من مختلف فروع المعرفة التى سادت

فى عصره بفضل دعم الدولة الإسلامية لجهود العلماء وللعلم والتعليم والتدريب والترجمة وإنشاء المؤسسات العلمية والطبية والإدارية ، وهذا الكتاب وهو «إحصاء العلوم» يؤكد لنا عبقرية العلماء الذين بذلوا الجهود فى خدمة العلم فى ظل الحضارة الإسلامية التى أيقظت الأنام فى الشرق والغرب وجميع القارات .

شخصية هذا المفكّر الرائد :

عاش حياته فى طلب العلم يقرأ ويكتب أى نحو خمسة وستين عامًا من عمره الذى وصل إلى نحو الثمانين ، فزهد فى الدنيا ، ورضى بشظف العيش وبالكفاية من الملبس والطعام ، ولا ندرى ما الذى صرفه عن التفكير فى الزواج وبناء الأسرة ، وهذا فى الرأى السديد عيبُ عددٍ من العلماءالأكابر،(إن لم يكن ثمَّةَ عذرٌ خاصٌ) .

وعلى الرغم من قُربه الشديد من قلب الأميرالفارس السخىّ الحكيم «سيف الدولة الحمدانى» الذى اقتطع لنفسه إمارةً من جسم الدولة العظيمة ، وجعل حاضرتها «حلب» وكان ينافس الخلافة فى بغداد بتقريب العلماء والشعراء والحكماء ومجالستهم والسخاء عليهم ، على الرغم من منزلة الفارابى لديه إلا أن الفارابى لم يقبل من الأمير سوى «أربعة دراهم فضية» لنفقة يومه لطعامه وحاجاته الضرورية ، بل إن «الفارابى » كان يسهر الليل يقرأويكتب فى ضوء «قنديل» الحارس لفترة طويلة صبورًا جَلدًا زاهدًا .

هذا الفيلسوف الحكيم والعالم الواسع المعرفة «بالطب» والعالم بالميكانيكا التطبيقية ، وبالفلك والرياضيات ، وبعلمي الاجتماع والسياسة وتمييز أنواع «الدول والمدن» حسبما هى عليه من الفضائل الصحيحة والتوجهات السليمة أو بُعدها عن ذلك ، وهو أيضًا المؤلف فى «الموسيقى» وفى سائر فنون العلوم التطبيقية والنظرية وكان يجيد أربع لغات، هذا المفكر مات فى نحو عام [٣٣٩هـ : ٩٥٠م]

لم يترك ولدًا ولا مالًا وقد صلّى عليه «الأمير سيف الدولة الحمدانى» ومعه جلساؤه وحاشيته (نحو خمسة عشرفردًا) وتم دفنه بظاهر مدينة «دمشق» ، وكانت وفاته طبيعية على الراجح بخلاف ما أشار إليه «البيهقى» فى كتابه «تاريخ حكماء الإسلام» من أنه اغتيل على أيدى قاطعى طريق بعد أن قاومهم وحاربهم بشجاعة .



الأديب الحكيم الإمام الفقيه المفكر

ابن حزم الأندلسى

[٣٨٤: ٤٥٦ من الهجرة]

لمع نجمُ ابن حزم فى سماء الحضارة الإسلامية فى الأندلس، واحتل مكانة رفيعة فى تاريخ العلم، وإنّ ابن حزم هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ابن غالب، ولد فى قرطبة فى آخر يوم من أيام رمضان سنة أربع وثمانين بعد الثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة.

وهو على الأرجح ينتمى إلى أسرة فارسية، وَجدُّه يزيدُ كان مولى ليزيد بن أبى سفيان، فهو على ذلك قرشىٌ بالولاء، فارسى بالجنس، أندلسىُ المولد والنشأة؛ لأن جَدَّه الأعلى كان قد رحل مع البيت الأموى إلى الأندلس ، لما رحلوا إليها وأنشأوا مُلكهم بها، وقد احتلَّت هذه الأسرةُ الكريمة مكانةً طيبةً بعلمها وفضلها حتى قال فيهم الفتحُ بن خاقان : « بنو حزم فتيةُ علم و أدب، وأهلُ مجد وحسب، فلهم رِفعةُ العلم، ورفعةُ الجاه والمجد » .

ابن حزم ودور المربيات والأديبات:

رُبِّى ابنُ حزم منذ نعومة أظفاره تربيةً عالية، فحفظ القرآنَ الكريم، وروائعَ الشعر على يد مُربِّيات فاضلات فى بيت أسرته، وقد أشار إلى ذلك فقال« .. وهنَّ أى المُربِّيات علَّمننى القُرآن، ورَوَّيْننى كثيرًا من الأشعار، ودَرَّبننى فى الخط..»

وهذا الخبر الذى جاء فى كتابه« طوق الحمامة» يلفت أنظارنا إلى ثقافة النساء العالية فى تلك العهود.

سعة آفاق علمه وفقهه: وقبل أن يبلغ ابنُ حزم السابعةَ عشرةَ من عمره بدأ

يحضر مجالسَ العلماء ويتلقّى عنهم الحديثَ النبوى، وقد ذكَروا أنه رَوَى الحديث عن أحمد بن محمد الجسور، وعن الهمذانى، ثم درس الأدبَ والأخبار والمنطقَ والفلسفة، ثم انصرف إلى العناية بالفقه، وأعطاه من الجهد والإقبالِ أكبر عناية من غير أن ينقطع عن أبواب العلم الإسلامى الأخرى: فاتّجَه أول ما اتجه إلى دراسة الفقه على مذهب الإمام مالك، ثم درس مذهب الإمام الشافعى، والفقه المأثور، ومع ذلك كان لا يُرضيه إلا ما جاء فى كتاب الله وسُنة النبى المعصوم ﷺ من الأحكام، حتى صار – رحمه الله – إمامًا فى الفقه له منهاجه الذى عرفوه: «بالمنهاج الظاهرى» أو فِقهِ أهلِ الظاهر أى الأخذ بما جاء فى النص من الكتاب والسنة النبوية، وكان ابن حزم فوق ذلك عالمًا بالمِلَل والنِّحَل فى غير الإسلام – أى بالعقائد والديانات الأخرى – وكان عالمًا بالفِرق الإسلامية، وبأهل النجاةِ منهم، مع معرفة دقيقة بالفَرق بين آراء هذه الفِرَق المتعددة – جمع فِرقة أى مذاهب المتكلمين فى العقيدة مثل أهل السنة، والأشاعرة، والمعتزلة والخوارج وغيرهم – وقد كان ابن حزم يناقش هذه الآراء مناقشةً صريحة حرة غير مُلتفت إلى قول عالم آخر مهما تكن منزلتُه ، ما دام قولُه هذا يخالف ظاهر الكتاب و السنَّة، أو يأتى بقول لا يُشتقُّ منهما، ولا يُعتمَد فيه على صريحهما.

وقد سبق ابنُ حزم الإمامَ الغزاليَّ إلى مناقشة آراء الفلاسفة فى العقائد وإبطال تصوّراتهم الفاسدة، وإدحاضِ حُججهم، وبيان بطلان اعتقاداتهم غير الصحيحة، وكان لا يقبل فى العقائد المناهجَ المعقَّدة المتأثرة بمناهج فلاسفة اليونان أو التى تُقتبس منها.

تقدير ابن حزم وريادته: يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه:«ابن حزم حياته وآراؤه» : « لم يعرف التاريخُ قبل ابن حزم عالمًا جمع بين ضروب العلم المختلفة ما جمعه ابنُ حزم فهو الكاتب الأديب، وله خوض فى علوم الفلسفة

والمنطق، وكان جريئًا فى هذه العلوم كما كان جريئًا فى غيرها، فهو يُخطِّئ أرسطو فى منطقه، وينهج فى المنطق منهاجًا يخالفه، وهو يتقصَّى التاريخ ويُدوِّنه متحرِّيًا الحقيقة، وهو مع ذلك المحدِّث العظيمُ الذى يجمع أشتاتَ الحديثِ فيحفظها، وهو العارف بأخبار الرجال وأحوالهم، وهو الفقيه الذى أحيا عِلمَ الظاهر أو بعبارة أدقّ دلالة أحيا علمَ الكتاب والسُّنَّة، وبَيَّن عُمومها وشمولها لأحكام الأحداث التى تجرى بين الناس مهما يتغير الزمان ...، وهكذا تضافرت آراءُ العلماء والباحثين قديمًا وحديثًا على عِظَم منزلة ابن حزم العلمية، وعلى تعدد مواهبه، وتقدير مؤلفاته، فقال عنه الأستاذ قدرى حافظ طوقان: «ابن حزم مجموعة من المواهب والعبقريات» ... وقال عنه رينيه باسيه: «... ابن حزم عالم عربى أندلسى مُتفنِّن فى علوم جَمَّة، وهو فقيه مشهور، ومؤرخ وشاعر مُبرِّز، دقيق الملاحظة شَيِّق الأسلوب..» واعترف «سارطون» فى« كتابه مقدمة لتاريخ العلم» بفضل ابن حزم وعلمه فقال: «.. ابن حزم أعظمُ عالم فى الأندلس ومن أكبر المفكرين المبتكرين المسلمين فيها ...».

وجاء فى كتاب «نفح الطيب»: قال صاعدٌ فى تاريخه: «كان ابن حزم أجمَعَ أهلِ الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسُّعه فى علم اللسان، والبلاغة، والشعر، والسِّير والأخبار، أخبرنى ابنُه الفضلُ أنه اجتمع بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مُجلدة»، وقال الذهبىُّ عن اجتهاد ابن حزم وعلمه: «ابن حزم من العلماء الكبار، اجتمعت له أدواتُ الاجتهاد كاملة..» و قال أيضًا : « .. كان إليه المنتهى فى الذكاء وحِدَّة الذهن، وسَعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب، والمِلَل والنِّحَل، والعربية والآداب والمنطق، والشعر، مع الصدقِ والدِّيانة، والحشمة والسؤدد والثروة وكثرة الكتب ...».

ويشهد له الغزالى بالذكاء وسعةِ الأفق فيقول: « .. وجدت فى أسماء الله

كتابًا لأبى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه، وسيلان ذهنه..».

غزارة علمه وحرية الرأى:

وقد كان ابنُ حزم مع غزارة علمه، ومع سعة آفاق معارفه كان حرَّ الرأى مستقلَّ الفكر، قوى الحُجة، صريحًا فى الحق، يحترم العقل، ويحارب الأوهام والأباطيل ويهاجمها بشدة ، ويؤلمه أشدَّ الألم أن يرى بعضَ الناس يخضع للأوهام، ويعتقد فيما لا يُرجى منه نفع، ولا يُنتظر منه دفعُ ضرٍّ، وقد تجلَّى ذلك فى أمور كثيرة منها:

* أنه حَمَل على الاعتقاد فى النجوم وبيَّن بُطلانَ ذلك فهى جماد لا يعقل أصلًا وحركتُها الرتيبة تؤكد أنها لا اختيار لها، فكيف تُؤثر هذه النجومُ فى أعمال الناس، وكيف تدل على الحوادث المقبلة.

* وكما انتقض على التنجيم و بين فساد الاعتقاد فيه، فإنه أيضًا انتقض على التوسُّل بالأولياء، و مذاهبِ الغُلاة المخالفين لطريقة النبى ﷺ.

ابن حزم شخصيته وتوجهاته

أحد الرواد العظام فى ظل الحضارة الإسلامية:

إن الإمام ابن حزم : هو الفقيه المحدث، وهو المؤرخ، والفيلسوف والأديب المرهف الحس، كان دوحةً وارفةَ الظلالِ، قد بسقت فى مَهد العلم، ونمت فى مَعدِنه، وتغذَّت من جَوّه، فأثمرت من ضروب الحكمة ومن ألوان المعرفة ومن فنونِ العلم والأدب ما دلَّ على سعة اطلاع ذلك العالم العبقرى وعلى غزير علمه وعظيم أدبه، حتى قيل فيه:.« ملأ ابنُ حزم بلاد الأندلس ومغربَ الأمة الإسلامية بعلمه وكتبه وبمذهبه وشَغل أهله أحقابًا طوالًا، حتى لكأنه أمةٌ وحده وليس فردًا

من أمة فحسب، لقد اعتز به الأندلس، وباهى الأندلسُ بفضله العراقَ الذى كان يومئذ يعجُّ بحضارة لم ير التاريخُ لها مثيلًا من قبل، ويتجلَّى من كتبه ورسائله أنه كان يتمتَّع بفكر ثاقب، وبصيرة نافذة، وملاحظة دقيقة ...».

وذلك المفكر العظيم، وصل إلى ما وصل إليه من مكانة علمية رفيعة شهد له بها الباحثون فى الشرق والغرب بفضل المواهب والصفات الشخصية التى أنعم الله بها عليه، وبفضل حرصه على طلب العلم وَحُبِّه لدينه وتفانيه فى خدمته.

ويقدم لنا الشيخ محمد أبو زهرة بحثًا ضافيًا عن نعم الله على هذا العالم الفذِّ يذكر فيه أن ابن حزم أوتى حافظةً قوية مستوعبة، جعلته يستولى على أبواب العلم استيلاء.

ومن سعة علمه: «أنَّه حفظ أحاديثَ رسول الله ﷺ ورتَّب مصادرها، وارتفع فى ذلك إلى مرتبة الحفَّاظ الكبار، كما أنه علم من آثار الصحابة والتابعين ما جعله فريدًا فى المعرفة بفقههم، وفى العلم باستخراج الأحكام، والبناء عليها بما يتسع له منهاجه الفقهى، مع حضور ذهنه، وكان حافظًا لسير الأولين».

كما امتاز ابن حزم: بحضور البديهة وتوقُّد ذهنه واستحضار المعلومات فى وقت الحاجة إليها، والمسارعة بالإجابة عند الحاجة، ومع حضور البديهة أوتى ذلك العالمُ الجليل عمقَ التفكير، وغوصًا على الحقائق، وقوةَ تأمل، فقد كان لا يكتفى بالظواهر، حتى يتعرف ما وراءها، ولا يترك المسبَّبات حتى يعرف أسبابها، ولا يكتفى بمعرفة الوقائع حتى يعرف بواعثها والدوافع إليها، وقد تجلى ذلك فى دراسته النفسية، وفى بعض بحوثه الفلسفية والكلامية ، فهو مثلًا لا يكتفى عند دراسته للفِرق الإسلامية المختلفة بدراسة آراء هذه الفرق وبالأدلة التى تسوقها لهذه الآراء ، بل يدرس ما وراء ذلك من البواعث النفسية والاجتماعية التى جعلت هذه الفرقَ تكثُر وتتشعَّب، ثم يُشير إلى البواعث والأسباب التى جعلتها تختار هذه

الآراء، فيقرر أن بعض أصحاب النِّحَل والمذاهب القديمة دخلوا فى الإسلام رغبة فى الكيد له، وذلك عن طريق بَثِّ أفكار غريبة بين المسلمين وهى ليست من دينهم، ليفسدوا عليهم أمرهم، وكان ذلك منهجَه فى كل ما يكتب سواء أكان يكتب فى التاريخ أو فى الأخلاق، أم كان يكتب فى الفقه، فهو مفكر عميق غواصٌ يبحث عن الحقائق فى مواطنها.

لم ينقطع عن البحث فى أشد محنته:

وكان ابن حزم مع هذه المزايا الفكرية، صبورًا، جلدًا، مثابرًا، فقد أحب العلم، وجدَّ فى طلبه وتحصيله، وانصرف إليه بكليته، لم يمنعه من طلبه تقلبُ الأحوال، فقد سُجن، وتغرَّب، وقد أحرق المناوئون والحاقدون كتبه، ومع ذلك لم ينقطع عن البحث والتأليف، ولم تزده المحنُ إلا انصرافًا إلى العلم وإلى تدوين ما فى صدره، فقد كان يرى فى طلب العلم تقربًا إلى الله ببيان الحق، والجهر به، وكان يرى فى طلب العلم لذة لا تعادلها لذة، ومن أقواله فى ذلك: « ..لذةُ العالم بعلمه، ولذةُ الحكيم بحكمته، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده ؛ أعظمُ من لذة الآكل بأكله، والشارب بشربه، والكاسب بكسبه، واللاعب بلعبه..»

الإخلاص فى طلب الحق: وقد منحه الله فوق ذلك إخلاصًا فى طلب الحق، فكان لفرط إخلاصه يباعد بين نفسه، وبين العُجب بها، وبين الاغترار بما وصل إليه من علم، وكان يعتبر العجب آفةَ الإخلاص وآفة الرأى، وآفةَ الأخلاق الفاضلة، كما كان يعتبر الإخلاصَ شعارَ الحكماء الذين يتمسكون بالفضيلة، ويطلبون حقائق الأشياء.

صراحته وغضبه للحق: وكان إخلاص ابن حزم سببًا فى صراحته، فقد اشتهر بالصراحة فى الحق، ينطق بما يعتقد أنه الحق لا يهمه رَضِىَ الناسُ أم سخطوا، ويستوى عنده الإيذاء والثناء، ما دام الحق يدفعه إلى أن يقول ما قال،

وهو فى ذلك لا يبتغى إلا وجه الله عز وجل، ولا يرجو إلا ثوابه، فهو يدعو إلى مسالمة الناس، والائتناس بهم، وعدم معارضتهم فيما لا يضر فى الدين أو الدنيا، وفيما لا يجلب غضب الله سبحانه وتعالى، ومن وصاياه فى ذلك: « ... وإن لم يكن بُدٌّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق، فأَغْضِبْ الناسَ ونافرهم ولا تُغضب ربك، ولا تنافر الحق ...»

تلكم بعض مزايا هذا المفكر العبقرى صاحب أحَدِّ ذهنية انبثقت عنها الأندلسُ فى جميع عصورها، وهو صاحبُ التصانيف الكثيرة التى جعلته من المقدَّمين فى تاريخ تقدم الفكر و العلم ومن أعلام العلماء الخالدين.

هو صاحب نظرية المعرفة قبل «كانت الألمانى»: لقد ظل علماء الغرب ينسبون الفضل فى إيجاد نظرية «المعرفة» وشرحها إلى الفيلسوف الألمانى «كانت» من علماء القرن الثامن عشر من الميلاد، حتى كشف الدكتور عمر فروخ فى كتابه: « عبقرية العرب» عن الحقيقة التاريخية إذ تبين له بعد الدراسة أن نظرية المعرفة قد عَرَضَتْ لابن حزم قبل «كانت» الألمانى بسبعة قرون ونصف قرن، وقد شرحها ابن حزم شرحًا وافيًا، وكان لابن حزم كما يقول الدكتور فروخ آراءٌ علميةٌ ونظرياتٌ فلسفية هى فى الطبقة الأولى من القيمة الذاتية الحقيقية، ومنها نظرية «المعرفة».

وقد تناول آراءَ ابن حزم بالدراسة والبحث كُلٌّ من: «جولد زيهر، وشيريز، وإسرائيل فرد ليندر ، وبتروف» وغيرهم من علماء الغرب فشرحوها وعلقوا عليها، وبينوا أثره فى الفقه والمنطق والتاريخ، ولقد ترك ابن حزم تراثًا علميًا ضخمًا، وإن كان لم يصل منه إلا القليل، وإن مؤلفاته تبحث فى الفقه، والأخلاق، والفلسفة، وأدب النفس، والأصول، والإمامة والسياسة، والمنطق،

وفى الإيمان، والفرق الإسلامية، وفى الإجماع فى القضايا الفقهية والأحكام الشرعية، والتاريخ.

وتوفى رضى الله عنه سنة ست وخمسين بعد الأربعمائة من الهجرة، تاركًا آثاره العلمية تشهد له بأنه أحد العباقرة العالميين.

ثمرة من ثمرات الحضارة: إن ابن حزم هو أحد الرواد الذين أظلتهم سماءُ الحضارة الإسلامية فى القرن الخامس وقد نمت وازدهرت وشملت جميعَ جوانب الحياة العقلية والوجدانية والعمرانية والاجتماعية، وصارت تلك الحضارة العظيمة أعظم نموذج يحتذيه الأوربيون وغيرهم، وقد تعدَّدت مراكزُ الثقافة والعلوم فى مشرق أمة الإسلام ومغربها، وكان التنافس بينها عظيمًا والتعاون أعظم، بفضل توجيه القرآن الكريم وتعاليم الإسلام التى أنارت للعقل طريقه، وحرَّرته بعد جمود، وفكَّت عنه الأغلال والقيود ، فانطلق فى طريق مستقيم يَشِيد للناس صرحًا عاليًا فى علوم الدنيا والدين ، وقد قدم هذا الصرحُ أعظمَ الثمار لكل طالب وراغب دون تفرقة بين أهل الأديان أو الأجناس ، فأيقظت حضارةُ الإسلام الأنام.



قصة ابن حزم بين السياسة والعلم
وثباته فى مواجهة خصوم بعض أفكاره

تذكرة من سجلّ حياته الحافلة والمضطربة:

هذا الأديب الفقيه الحكيمُ العربيُ الأندلسيُ الذى له فى نفوس المفكّرين فى العالمين الأوربى والإسلامى منزلةٌ خاصة ولجهوده تقديرٌ، ومع هذا لم تسلم حياتُه الحافلة من الاضطراب والتضييق والحبس، وقد حَسَد جهودَه مَن حَسد، وأحبَّه الكثيرون ووقفوا إلى جانبه، وكما أفاده الاشتغالُ بالسياسة ، فإنه أضَرَّه فى حريته العامة وفى وقته الذى كان يُحسِن تثميرَه فيما هو أعظمُ نفعًا وأبقى أثرًا، وسبحان الله : «فكلُّ إنسانٍ مُيسَّر لِمَا خُلِق له» وما أحسَنَ تثميرَ الوقت فيما يتوافق مع قُدرات الإنسان العقلية وهباته الفردية وتوجُّهاته النفسية والفكرية، وإن سِيَرَ هذه الطائفة من العباقرة تُعطينا عبرًا مباشرة وغير مباشرة.

لقد تقلب ابنُ حزم فى أعطاف الخير والنعيم ، فقد ارتقى أبوه إلى مرتبة الوزارة (للحاجب المنصور محمد بن محمد أبى عامر ولابنه المظفَّر) فى عهد الدولة الأموية فى الأندلس ، لذا أتيحت له فرصُ التعليم والتربية على أفضل وجْه، ولم تصرفه حياته الـمُرَفَّهَةُ وقُربُه من أعلى سلطة فى الأندلس عن أن يقضى شبابه فى السعى لتكميل طموحات عقله الوثَّاب بمختلف العلوم، وهو يعيش تحت سماء حضارة أضاءت الدنيا بازدهار فنونِ المعرفة وفروع العلوم الكونية والعقلية والدينيةِ والتجريبية ، مع أجمل الفنون الأدبية ورشاقة الشعر والنثر الفنى، وقل ما شئت عن جمال الحياة الاجتماعية التى التحمت فيها جهودُ أبناءِ الأمة مع اختلاف الأجناس وتعدُّد الأديان ، التحمت هذه الجهودُ لتبنىَ وتدفعَ الإنسانَ فى سُلَّم الارتقاء.

لقد درس ابنُ حزم على أكابر علماء عصره وهو دون الخامسة عشرة مثل: أحمد بن الجسُور المتوفَّى عام [٤٠١هـ] وكان ذلك فى مرحلة اضطراب سياسى بسبب التفرق والمطامح الشخصية التى أدت إلى ارتحال أقرب شيوخه فى مختلف العلوم إلى نفسه وهو (عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى) حيث غادر الأندلس بسبب حروب الطوائف، وقد قاسى ابنُ حزم وأبوه من تنافس الأقوياء على كرسى الحكم، ومات أبوه عام [٤٠٢هـ] وغادر الابنُ العبقريُّ قرطبةَ التى كانت قد مزَّقتها الحروب الأهليةُ والتى قام فيها «البربر» بتخريب قصر أسرته البديع، فتأمَّل سياحته فى أرجاء الأندلس خوفًا على نفسه من تلك الأحقاد المتقاتلة وكانت الشكوك تملأ النفوس.

إلى أين يا ابن حزم؟ وماذا فعل بك قُربك من البيت الأموى؟

اختار ابنُ حزم «المَريَّة» لإقامته سعيًا للسلامة والهدوء، ولكن الفتنة ما فتئتْ أن عصفت بالأمير سليمان الأموى عام [٤٠٧هـ] ثم إن «خيْران صاحب المَريَّة» والمشارك فى خلع الأمير سليمان الأموى انتابته الشكوكُ من وجود الفقيه ابن حزم فى هذه المدينة معه، ذلك لأنه منحدرٌ من موالى الأمويين ، فأخذه وألقاه فى السجن ثم نفاه، وفى بلدة «قَصْر الحصْن» تلقَّاه الحاكم بالترحاب ، فمكث أشهرًا حتى جاءه الخبر بتولِّى : «عبد الرحمن الرابع المُرتَضَى» الخلافة وكان فى مدينة «بَلَنسية» حين بويع هذا الأمير الأموى بالخلافة.

ترك ابن حزم بلدة «حصْن القصْر» وانطلق عن طريق البحر إلى «بَلَنسية» فوجد هناك جمعًا من أصدقائه، وانخرط فى جيش عبد الرحمن المرتضى وحارب معه أمام مدينة «غَرناطة» ووقع أسيرًا ثم تلطفوا به بعد فترة، وأطلقوا سراحه، فعاد إلى «قرطبة» فى شوال عام [٤٠٩هـ] وقد غاب عنها وهى مسقط رأسه ومرتع صباه ستَّ سنين وقد صار فى نحو الخامسة والعشرين.

ثم السياسة والوزارة ثم السجن يا ابن حزم : ثم فى رمضان عام [٤١٤هـ] صار ابن حزم وزيرًا للخليفة «عبد الرحمن الخامس المستظهر» وكان هذا الخليفة نابهًا وصديقًا لابن حزم محبًّا للعلم وأهله، ولم يدم بهم الحالُ سوى «سبعة أسابيع» أى نحو شهر ونصف إذ قتلتْ الفتنةُ والأحقاد والمطامعُ المتواصلة الخليفة «عبد الرحمن الخامس» ورأى ابنُ حزم نفسَه مرةً أخرى فى سجن قرطبة.

لنتأمل حال الأمة العظيمة تعصف بأمنها وبعباقرتها الفتن والمطامع:

إنها فترةُ شبابٍ مضطربةٌ لمفكر عبقرى لاقترابه من حلبة السباق على الكرسى البرّاق كرسى الخلافة والإمارة ، الذى أودى بأمة عظيمة الشأن فى نهاية الأمر حين تقطعت أنفاسُ المتسابقين والتهمتهم مطامعُ الطامعين، وقد زرعوا بذور النهاية الـمُرّة القاتلة بأيديهم ولسانُ حال هذا الأمة يقول : «الفتنةُ نائمة لعن الله من أيقظها» وما أجْمَلَ الحوارَ والتراضىَ فى ضوء الصالح العام وفى إطار القواعد التى شرعها الله لعباده ، ما أجمل الوِفاق مع خُلوّ النفوس من الأهواء الخاصة!.

وفى نهاية مطاف هذه الحياة المضطربة عاش الفقيه العظيمُ فى مدينة «شاطبة» نحو عام واحد، وقال « ياقوت» نقلًا عن « الجيّانى» إن ابنَ حزم صار وزيرًا « لهشام الـمُعتدّ» ثم اعتزل الرجلُ الحكيم أمرَ السياسة لكى يتفرغ بكليَّتِه للعلم والتأليف ولنشر آرائه، والدفاع عنها: إنها عزيمة قوية، وصبرٌ، ودأبٌ على القراءة والتأليف وسط هذا الزخم من الأعاصير التى تكْمُن ثم لا تلبث أن تثور فيلحق أذاها البرىء وغيره.

وفى شاطبة أَلَّف قصةَ حياته التى تضمنت أحوال عصره وأمته فى كتابه «طَوْق الحمامة فى الأُلفة والأُلاف » وذلك عام [٤١٨] ، وفيه عرضٌ قصصىٌّ تضمن أحواله النفسية وعلاقاته وتجاربه، وقدَّم فيه صورةً لأحوال عصره.

وبعد السياسة العلم والجَدَل: حظى فِكرُ ابن حزم وعِلمُه ومؤلفاتُه بعناية

عظيمة الشأن من الأوربيين ومن العرب والمسلمين، وما زالت هذه العنايةُ قائمة والبحوث والدراسات الـمُشتقاة منها مستمرة، ومن أسماء مؤلفاته : رسالة « فى فضل الأندلس» وقد اشتملت على لمحات طريفة عن أهم تصانيف أهل الأندلس المتقدمين، وله فى التاريخ كتاب «نَقْط العروس فى تواريخ الخلفاء» وترجموه إلى الأسبانية وكتاب « جمهرة الأنساب» أو « أنساب العرب» وكانت له نسخة مخطوطة فى مسجد الزيتونة «بتونس» وأخرى بمجريط، وفى المكتبة الأهلية بباريس، وفى «برلين» بألمانيا مع ملحق بسيرة النبى ﷺ وقد كان هذا الكتابُ من أنفع ما رجع إليه «ابن خلدون» عند كلامه على أنساب العرب والبربر فى المغرب والأندلس، وكذلك كان من أعظم المراجع للباحثين فى أوربا ومنهم المفكِّر «كودرا».

وكثرت مؤلفاته فى علمى الحديث والكلام «الإلهيات»، وفى المسائل الفقهية، وقد صار ظاهريًّا مما جلَب عليه نقمة مُعارضى بعض اتجاهاته ، وكان له أستاذ فى هذا الاتجاه هو «مسعود بن سليمان بن مُفلت» وهو المكنَّى : «أبو الخيار» وكان ظاهريًّا (كما أشار الذهبى وابن بشكوال) ورسالة ابن حزم فى هذا الشأن بعنوان: «إبطال القياس والرأى والتقليد والاستحسان والتعليل» وكان الباحث الأوربى «جولدزيهر» أول من درس هذه الرسالة دراسة تفصيلية.

وفى نَقده «الفِرَق» التى تشعَّبت بسبب التأويلات للنصوص فى العقائد ألَّف ابن حزم كتابَه: «الفِصَل فى المِلَل والنِّحل» وتناول فيه شتَّى العقائد للأمم السابقة التى انحرفت عن حقيقة «التوحيد» وما يليق بجلال الإله وكمالِ صفاته وتفرُّده سبحانه بالألوهية وبالربوبية، وكان ميَّالًا للجدل بطبعه قويًّا فيه ولا يتَّهم أحدًا بفكرة لم تصدر عنه، فكان قلَمُ ابن حَزْم فى مَضَاء وحدَّة سيفٍ لا ينثنى، وله رسالة صغيرة فى «مسائل أصُول الفقه» طُبعت فى مكتبة المنار بالقاهرة مع

تعليقات لابن الأمير الصنعانى والقاسمى، وله كتابه الشهير: «الـمُحَلَّى بالآثار فى شرح الـمُجَلَّى بالاقتصار» أى بالاختصار، ويوجد فى «دار الكتب المصرية» وفى عدد من المكتبات فى أوربا، وله كتاب «الإيصال إلى فَهْم الخصال» ويوجد هذا الكتاب فى كتاب «المختصر» لابنه الأديب المفكر أبى رافع «فى دار الكتب المصرية».

تأثره بابن داود وبأبيه داود: وابن داود هو أبو بكر محمد بن داود الأصفهانى ، فقيهٌ ظاهريٌّ وصاحب مجموعة أشعار وشاعر بغدادى معروف [٨٦٨: ٩٠٩ من الميلاد] وأبوه هو داود بن على الفقيه الظاهرى [٨١٥ : ٨٨٣م] وقد تأثر به ابنه، ولابن داود كتاب أو ديوان بعنوان (الزهرة أو الزهور) يشمل نثرًا فنيًّا وشعرًا منثورًا وشعرًا فى الحب من شعره مع مقتطفات فى الحب من أشعار نحو مائتين وخمسين من شعراء العرب حتى سنة [٨٩٠م] وقد تأثر ابنُ حزم بهذا الكتاب فى كتابه [طوق الحمامة] وهما فى الأدب والشعر العُذرى (أو المثالى) وإن داودَ صاحبَ المذهب الظاهرى وولدَه محمدًا الفقيهَ الشاعر قد سبقا ابنَ حزم بنحو قرن من الزمان ، لأنه مولود بقرطبة فى عام [٩٩٤م] ولقد كان لمؤلفات هذين الفقيهين أثر عظيمٌ فى الاتجاه الفقهى لابن حزم بلا ريب، ولابن حزم كتبٌ أخرى كثيرة تشتمل على دراسات وبحوث جديرة بالاعتناء فإلى جانب كتبه فى الفقه وفى العقيدة، وفى مذاهب المتكلمين فى العقائد له كتب فى: (المنطق، والأخلاق وفى نقد الفلسفة اليونانية، وفى الناسخ والمنسوخ) وغير ذلك من المصنفات ، وقد فقدنا منها الكثير بسبب ضراوة أعداء بعض أفكاره أو بسبب حسد بعضهم له، فتأمَّل الآثار المدمِّرة للفتن والاختلاف الذى يؤدى إلى الشقاق والنزاع وإلى إغلاق الطريق أمام الحكمة والإدلاء بالحجة وقبول الحق ما دام مستندًا إلى الكتاب والسنة الشريفة، مع الصبر وسعة الصدر فى تبادل وجهات النظر، وفى الحفاظ على وحدة الصف وقفل كل باب يؤدى إلى شماتة الأعداء.

الاضطراب فى آخر حياته : وكما اتسمت حياتُه بالاضطراب بسبب التصاقه ببنى أمية الذين حكموا الأندلس ، فقد اضطربت أيضًا بسبب معارضة بعض الفقهاء فى الأندلس لأفكاره وتوجهاته فى الفقه وغيره فحذروا السلاطين منه وكذلك من أفكاره ومن تشيُّعه لبنى أمية ، وذلك فى فترة التغيرات المتلاحقة فى السلطة بالأندلس، فطفق الملوك لذلك يُقصُونه عن قُربهم، بل ويبعدونه عن إماراتهم، إلى أن اضطر الإمام الفقيه إلى الاعتكاف فى ضيعة أهله فى قرية «منت ليشم» وزاد من اضطرابه إقدامُ المعارضين له على إحراق مؤلفاته جهرة فى «إشبيلية» فكان يُرسل حسرةَ فؤاده ونقْمته على هؤلاء المنافسين فى أبيات شديدة تندِّد بتصرُّفهم الأحمق، ولكنه مع ذلك واصَلَ الدرسَ والتأليفَ وهو فى عزلته ومنفاه الاختيارى، وقد قال ابنُه العالم المصنِّف أبو رافع الفضل المتوفى عام [٤٧٩هـ] قال: «إن مصنفات أبيه بلغت الأربعمائة، وإن عدد أوراقها بلغ الثمانين ألفًا»، ثم أشار ولده هذا إلى أن معظم أوراقه لم يُكتب لها الذيوع والانتشار بسبب هذه العداوات.

وقد صدرت كتب ورسائل فى مهاجمة تعاليم ابن حزم وبعد وفاته خاصَّة، كما ناصره الكثيرون فى حياته وبعد مماته من الشباب وطلاب العلم ، وذاعت أفكاره الأساسيةُ فى أمة الإسلام شرقها وغربها، وتأثر بها الغربُ ولقيت من المفكرين الأوربيين عناية فائقةً يصعب حصرُها فى مثل هذا المقال، وتُرجمت مؤلفاته واشتُقَّ منها رسائلُ كثيرةٌ أذيعت بالعربية وبغيرها، وقد صار الأخذُ بالحديث الشريف وبظاهر ما جاء فى كتاب الله عز وجل هو مذهب أهل الفكر السديد من أمثال «الإمام ابن تيمية وتلامذته وأشهرهم «ابن قَيِّم الجوزية» وحتى عصرنا الحاضر.



الإمام تقيُّ الدين أحمد بن تيميةَ

صفاته وملامح عبقريته وتوجُّهاته الفكريَّة

[٦٦١ : ٧٢٨هـ] [١٢٦٣ : ١٣٢٨م]

العقل مجاله المادَّة والغيبُ طريقه الوحْى:

يقول الشيخ محمد أبو زهرة [القرن ١٤ من الهجرة] فى كتابه « ابن تيميةَ آراؤه وعصره» عند تناوله مناهجَ شيخ الإسلام فى العقائد والأحكام، يقول:«كان شيخُ الإسلام ابن تيميةَ لا يُهمل العقلَ، كما أنه لا يثق به ثقة مُطلقةً، بل يريد أن يجعلَ العقلَ فى إطار الشرع ودائرته لا يخرج عنه، ولا يتجاوز قَدرهُ، لأن العقل إذا تجاوز قدرَهُ ضلَّ ضلالًا بعيدًا، ويَجْهَدُ جَهْدًا شديدًا ولم ينته إلى نهاية، ذلك أن الفلاسفةَ الأقدمين ومَن نهجوا نهجهم تحيَّروا ولم يصلوا بالعقل المجرد إلى ما وراء المادة فالعقلُ يُحلِّلُ ظواهرَ الكونِ ويكشفُ عن قوانين المادَّةِ ومكامنِ القوةِ فيها، فإن اتَّجه وحدَه إلى ما وراء المادةِ فقد تجاوز الشقةَ الحرامَ، وتعدَّى حدوده، فالعقلُ لابدَّ له فيما وراء المادةِ من مُرشدٍ من النصِّ الدينيِّ والأخذ عن الله مُنزلِ الشرائعِ على رسله من السماءِ، وإنه إذا قام الدليلُ المعجزُ على بعثةِ الرسول فإن ما يجيء به هو الهادى المرشد إلى ما وراء الكونِ ومادَّته، وعلى ذلك يكون علمُ الدين فى عقائده وفروعه يُؤخذ من وحى السماء، لأن مُنزله هو العليمُ بكل شيء ولا ينفرد ابنُ الإنسان بإدراكه لأن الإنسان عِلْمُه يرتبطُ بالأرضِ وما فيها إذ هى موضعُ إقامتِه ومكانُ خلافته، وهى مُسخَّرةٌ له بفضل الخالق الحكيم وإرادته وحده » .

* * *

شيخ الإسلام ابنُ تيميةَ وصبره على طلب العلم: هو تقىُّ الدين أبو العباس أحمدُ بن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبى البركاتِ عبد السلام عبد الله بن محمد وتُعرف هذا الأسرة بأسرة «ابن تيميةَ» وقد وُلد شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ يوم الاثنين العاشر من شهر ربيع الأول سنةَ [٦٦١هـ] إحدى وستين وستمائة بعد

الهجرة النبوية، وكان مولدُه فى مدينة «حرّانَ» مهْدِ الفلسفة والفلاسفة من أقدم عصور الإسلامِ، ولما أغار التتارُ على حرّانَ، هاجرت أسرةُ ابن تيميةَ إلى دمشق عام [٦٦٧: ١٢٦٨] وكان حينذاك فى السابعة من عمره، وعكف الغلامُ الذكى فى دمشق على دراسة العلوم الإسلامية وحضر على والده وعلى أكابر علماء عصره ومنهم «زَينُ الدين أحمد بن عبد الدايم المقدسى» و«نجم الدين بن عساكر» وكان والده الشيخُ شهابُ الدين عبدُ الحليم عالمًا فاضلاً تقيًا ورعًا، فلما استقرّت الأسرةُ فى دمشقَ ذاع فضلُه واشْتُهرَ أمرُه، فأقبل عليه طلابُ العلم يرشدهم ويعلمهم ويعظُهم فى جامع دمشقَ الأعظمِ، وتولى مشيخة دارِ الحديث، وكان هذا الوالدُ الجليلُ قويَّ الحافظة ناصعَ البيانِ ثابتَ الجنانِ، وقد برزت هذه الصفاتُ فى ابنه شيخِ الإسلام أحمدَ فنشأ مُحبًا للعلم، منقطعًا له كأبيه وجدِّه «مجدِ الدين عبد السلام» ولـمّا تُوفى والده سنة [٦٨١هـ: ١٢٨٢م] خلفه ولده فى تدريس فقه الإمام أحمد بن حنبل وكان يفسّر القرآن من حفظه على كرسيٍّ يوم الجمعة من كل أسبوع، وبرع فى الاستدلال بآيات القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ وحجَّ فى عام [٦٩١هـ: ١٢٩٢م] وتَرَدَّد بين دمشق والقاهرة مرّات وتم إدخالُه السجنَ عِدّةَ مرّات وهو صابرٌ محتسبٌ، وترك نحو [خمسمائة كتاب ورسالة] ولقيتْ آراؤه ومؤلفاتُه عنايةً كبيرةً فى الشرق والغرب، ولقد كان أحمد بنُ تيمية قويَّ الحجة فى مواجهة الخصوم، فتعلم العلومَ التى كانت رائجةً فى عصره، ولم يترك بابًا من أبواب المعرفة إلا أتقنه،حتى قالوا عنه: «قد ألانَ الله له العلومَ كما ألان لداودَ عليه السلام الحديدَ»، وكان كما قال كمال الدين الزَّمْلكانى المصرى [٦٦٧: ٧٢٧هـ]: «إذا سئل عن فنٍّ من العلم ظن الرائى والسامعُ أنه لا يعرف غيرَ ذلك الفنِّ، وحَكَم أن أحدًا لا يعرفه مثل ابن تيميةَ، وكان الفقهاءُ من سائر الطوائفِ إذا جلسوا معه، استفادوا فى مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنه نَاظَرَ أحدًا فانقطع منه، ولا تكلم فى عِلم من العلوم سواء أكان من

علوم الشرعِ أم من غيرها إلا فاق أهلَه والمنسوبين إليه، وكان له اليدُ الطُّولَى فى حُسن التصنيف».

فما ينابيعُ الدراسة الواسعة التى تلقاها ابنُ تيمية: لقد حفظ شيخُ الإسلام القرآنَ الكريمَ منذ حداثةِ سنِّه، واستمر حافظًا له إلى أن فاضت روحه إلى ربها حتى قيل : إنه تلا القرآنَ فى سجنه ثمانين مرة أو يزيد، وبعد أن حفظ القرآن اتَّجه إلى حفظ الحديث ودَرَسَه على أكثر من مائتى شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد ابن حنبل مرات، وعُنى بالعلوم العربية عنايةً خاصةً فحفظ المنثورَ والمنظومَ وأخبارَ العربِ فى القديم وفى أيام ازدهار الدولة الإسلامية، وبرع فى النحو حتى صار حُجةً فيه، كما درس فقه الإمام أحمدَ بن حنبل تحتَ إشراف والده، ودرس سائرَ المذاهبِ الإسلامية حتى برع فيها، واتجه إلى تَعَلُّم تفسير القرآن الكريم، فدرس أمَّهات كتب التفسير، وقرأها بعقل فاحص وبوجدان مستيقظ وفكر حكيم، كما درس كتبَ العقائد وآراءَ الفرق وآراءَ الفلاسفة الذين تصدَّى الغزاليُّ لبيان تَهافُتهم، وإلى جانب هذه الثروة العلمية الضخمة درس شيخُ الإسلام المنطقَ وأشكاله وأقيسته، كما درس الرياضةَ، يساعده على ذلك كله ذكاءٌ عال، وهمَّةٌ لا تفتُر وبيئةٌ علميَّة خصبةٌ، وحبٌّ للحق وإخلاص له، وإيمانٌ عميقٌ بضرورة الجهاد فى سبيل الحق والدين.

وقد لمع نجمه فى سماء الحضارة الهادية: فى الثلث الأخير من القرن السابع الهجرىِّ والثلثِ الأولِ من القرن الثامن فى تلك المرحلةِ كانت شمسُ الحضارة الإسلامية تتجه نحو الغروب بسب التمزُّقِ والتشتُّت الذى أصاب الأمة الإسلاميةَ ممَّا أغرى بها أعداءها فهاجمها التتارُ فى قوة و ضراوة من المشرق، كما هاجمها الأوربيون من أقصى الغربِ، وأخذوا يتلَقَّفُون الأندلسَ إمارةً إمارةً، وفى تلك المرحلة انحسرتْ المراكزُ الثقافيةُ الإسلاميةُ حيث توالت هجراتُ

العلماء والأدباء من مختلف الحواضرِ الإسلامية إلى القاهرةِ ودمشق، وقد وجدوا فيهما التشجيع والترحيبَ والأمان، وكان بيتُ شيخ الإسلام بيتَ علمٍ وفضل، وفى هذه البيئة العلميةِ الخصبة نشأ الفتى الذكيُّ المؤمنُ ينهل من ينابيع الثقافة والمعرفة، حتى بزَّ مُعاصريه وفَاق كثيرًا ممَّن سبقوه من أعلام العلماء والفقهاءِ والمحدثين.

وعن ثقافةِ شيخ الإسلام المتعددةِ الجوانب: يقول عنه الشيخ محمد أبو زهرة: «بل إن شئت فقُلْ: إنه أصدقُ رجال العلم تصويرًا للعقلية الإسلامية المتأمِّلةِ العميقة، فهو فيما كتب الفيلسوفُ الإسلاميُّ المستقيمُ الفكر» وعن علم شيخ الإسلام يقول معاصرُه المحدِّث الكبيرُ ابنُ دقيق العيد القوصى المالكى الشافعى [المتوفَّى ٧٠٣هـ]: «رأيتُ رجلًا جَمَع العلومَ كلَّها بين عينيه يأخذ منها ما يُريد، ويَدَعُ ما يريد» وقد قال فيه معاصره أبو الفتح بنُ سيد الناسِ المصريُّ [٦٧١:٧٣٤هـ] بعد أن رآه : «ألفيتُه ممَّن أدرك من العلوم حظًّا، وكان يستوعبُ السُّننَ والآثارَ حِفظًا، إن تكلم فى التفسير فهو حامل رايته ...!! أو إن أفتى فى الفقه فهو مدركُ غايتهِ، أو إن ذَاكَرَ بالحديثَ فهو صاحبُ علمه وذو روايته ..!! أو حَاضَرَ وتحدَّث بالمِلَلِ والنِّحَل لم ترَ أوسعَ من نحلَته فى ذلك ولا أرفعَ من درايته، بَرَّزَ فى كلِّ علمٍ على أبناءِ جنسه، ولم تر عينُ مَن رآه مِثلَه، ولا رأت عينُه مثلَ نفسِه».

فى نور الحقيقة: لقد عاش شيخُ الإسلام فى نور الحقيقةِ يطلبها، ويغترفُ من ينابيعها، ثم ينافح عنها بِعَزْمٍ لا يَلين وإرادة لا تضعُف، وبيقين لا يتزعزع ، وكانت غايته أن يردَّ المسلمين إلى مصدر قُوَّتهم وأن يخلِّصَ المسلمين من الشوائبِ والبِدَع التى علقت بمفهومهم عن الإسلام ، وهو برىء منها ، حتى أثار بعلمه وجهاده الصادق إعجابَ العلماءِ ودهشتهم، يقول الحافظُ الذهبيُّ [٦٧٣ :٧٤٨هـ] وهو

أحد معاصرى ابن تيميةَ: «له باعٌ طويلٌ فى معرفة مذاهبِ الصحابة والتابعين قلَّ أن يتكَلَّم فى مسألة إلا يذكر فيها مذاهبَ الأربعة وقد خالف الأربعةَ فى مسائلَ معروفة، وصَنَّفَ فيها، واحتجَّ لها بالكتاب والسنة» ثم عن اجتهاد شيخ الإسلام يقول: « وله الآن عدةُ سنين لا يُفتى بمذهب مُعيَّن، بل يفتى بما قام الدليلُ عليه عنده، ولقد نصر السُّنةَ والطريقةَ السلفيةَ واحتجَّ لها ببراهينَ ومقدمات وبأمور لم يُسبَقْ إليها، وأطلق عباراتٍ أحجَم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجَسَرَ هو عليها» ثم عن جرأته فى الحق على رغم كثرة الخصوم: «وهو لا يُداهنُ ولا يُحابى، بل يقول الحقَّ المرَّ الذى أداه إليه اجتهادُه وحِدَّةُ ذهنه وسعةُ دائرته فى السنن والأقوال المأثورة مع ما اشْتُهر به من الورع وكمال الفكر وسرعة الإدراك».

إن أقوالَ الذين قدَّروا شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ حقَّ قدرِه، وعرفوا حقيقةَ أمره واعترفوا بمنزلته وبعلمه وفضله من معاصريه وممن جاء بعده كثيرة، وفى مقدمة كتاب «العقود الدريَّة فى مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيميةَ» ومؤلفه تلميذه الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد [٧٠٤ :٧٤٤هـ] نجد أكابر العلماء يُثنون عليه ويُقَدِّرون علمه وفضله، وإن هذا الكتاب بصفحاته التى أربَتْ على الخمسمائة كلُّها فى مناقبه -رضى الله عنه -، وإن مواهبَ أحمد بن تيميةَ التى وهبها اللهُ له، وما كان عليه من صفات شخصية ذاتية، مع حُبّه للعلم وصبره على طلبه وحرصه على الفهم مع تأثير بيت العلم والفضل الذى نشأ فيه إن ذلك كان من الأسباب القوية التى أتاحت له بلوغَ تلك المكانة الرفيعة بين علماء المسلمين، ووصوله إلى هذه الدرجة من العلم وقوة الحجة.

صفاته وقُدراته: قَدَّمَ لنا الشيخ محمد أبو زهرةَ بحثًا ضافيًا عن تلك القُدرات و المواهب فقال:

«**وأولى هذه الصفاتِ حافظةٌ قويةٌ واعيةٌ** : والحافظةُ الواعيةُ هى أساسُ

العلم، فالعالم مَن يتكون له فى حافظته مادةٌ أساسيةٌ يستخدمها ويُنمِّيها، وبمقدارها وبمقدار القوة على استخدامها يكون قدره وسط العلماء ولعلَّ التاريخَ لا يذكر كثيرين أُوتوا مثلَ ذاكرةِ ابن تيميةَ حتى إنه فى صباه ليحفظ بضعةَ عشر حديثًا بالنظرة والكتابة ولـمَّا استوى رجلًا قويًّا كانت تلك الحافظةُ هى التى تُسعفه فى الجدل والـمُنَاظرةِ وإفحامِ الخصوم، وهى التى تُبرزُ علمَه وتثيرُ إعجابَ الناسِ به مع قوة البيانِ وثباتِ الجنان .

والصفة الثانيةُ: من صفات ابن تيميةَ هى العمقُ والتأمل، فقد كان رضى اللهُ عنه يدرسُ المسائلَ مُتعمقًا فيها وكان يتأمل الآياتِ والأحاديث وقضايا العقلِ، ويُوازن ويُقايس بفكرٍ مستقيم حتى ينبلجَ له الحقُّ واضحًا ولذلك كان من أدقِّ العلماءِ وأقدرِهم على استنباطِ المعانى من الأحاديث وآياتِ القرآنِ الكريم » حتى كان كما ذكر صاحبُ العقود الدُّرِّيَّةِ إذا ذكر آيةً أو حديثًا وبَيَّن معانيه وما أُريد به يَعجب العالمُ الفطِنُ من حُسن استنباطه، ويُدهشه ما سمعه أو وقَف عليه منه .

«والصفةُ الثالثةُ: حُضورُ البديهةِ ، فقد كان مع قوةِ حافظته ، وتعمُّقه فى الدراسةِ حاضر البديهةِ تخرُج المعانى من مكانها فى الحافظة سريعةً كالجندى السريع يُجيبُ أولَ نداءٍ فكان عند المناظرةِ يُفحم الخصومَ، ولذا كانوا يتهيَّبون لقاءه، وقد كان علمُه ساعةَ الدرس يَجرى على لسانه كما يجرى التيارُ ويفيض كما يفيض البحر ، كما قال عنه تلميذُه أبو حفصٍ البزار .

الصفة الرابعةُ: الاستقلالُ الفكريُّ، ولعل هذه الصفةَ هى أبرزُ الصفاتِ فى تكوين علمِه وشخصيته العلمية التى جعلت له مزايا خاصة ليست فى غيره من العلماء الذين عاصروه»، **وقد أدته هذه الصفة إلى: الأخذ بالكتاب والسُّنة**: لا يتلفت إلى رأى المخالف لهما أو لأحدهما مهما كانت منزلته العلميَّة ، وعن اجتهاد شيخ الإسلام واستقلاله الفكريِّ قال تلميذُه أبو حفص البزار: « وكان إذا

وضحَ له الحقُّ يَعَضُّ عليه بالنواجذ ، والله ما رأيتُ من أحمد بن تيميةَ أحدًا أشدَّ تعظيمًا لرسولِ الله ﷺ ولا أحرصَ على اتِّباعه ونَصْرِ ما جاء به حتى كان إذا أورد شيئًا من حديثه ﷺ فى مسألة ويرى أنه لم يَنْسخْه شىءٌ غيره من أحاديثه، يعمل ويَقضى ويُفتى بمقتضاه ولا يتلفتُ إلى قول غيره من المخلوقين كائنًا من كان، وإذا نظر المنصفُ إليه بعين العدل يراه واقفًا مع الكتابِ والسنةِ، لا يُميلُه عنهما قولُ أحدٍ كائنًا من كان ولا يرقُبُ فى الأخذ بعلومهما أحدًا، ولا يخافُ فى ذلك أميرًا ، ولا سلطانًا، ولا سيفًا، ولا يرجعُ عن الكتاب والسنَّة لقولِ أحدٍ، وهو متمسِّكٌ بالعُروةِ الوُثْقى» أى بالكتاب والسُّنة.

وعن أثر اجتهاد ابن تيميةَ **واستقلاله الفكرى** فى حياةِ الإسلام والمسلمين يقول الشيخُ أبو زهرة: « واستقلالُه الفكريُّ هو الذى جعله يُجدِّد أمرَ هذا الدين، ذلك لأن غيره كان يفهم الأمورَ بعقلِ غيرِه أو مأخوذًا بذلك العقلِ، أما ذلك المجدِّدُ العظيم فقد كان ينظر إلى الدين غيرَ متأثِّرٍ بتفكير أحدٍ إلا بالكتاب والسنةِ، وبآثارِ الصحابةِ وبعضِ التابعين» كما أَن شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ كان من أبرز صفاتِهِ **الإخلاصُ فى طلب الحق** والطهارةُ من أدران الهوى والغرض فى طلب الدين وفى كشفِه للناس، وإن إخلاصَه جعله يعيشُ فى نور الحقيقةِ **وقد تجلَّى هذا الإخلاصُ فى مظاهر شتَّى** : فهو يُجَابه علماءَ عصره بما علم وَجْهَ الحقِّ فيه بعد طولِ الفحصِ والدراسةِ، لا يُهِمُّه فى ذلك رَضِىَ الناسُ أو سخطوا لأنه لم يكن يرجو إلا ما عند اللهِ، ولقد جاهد فى سبيل الحقِّ بقلمه ولسانِهِ، كما خرج مجاهدًا فى سبيل اللهِ ضِدَّ التتار ، وشهد موقعة «شقحَب» التى انتصر فيها المسلمون بالقرب من دمشق ، بل إن ابنَ تيميةَ مات رضى الله عنه فى سجنه بسبب إخلاصه الذى دفعه إلى المجاهرةِ بالحق وسَجَّل بهذا ابتعادَه عن الغرض والهوى، كما تجلَّى إخلاصُه أيضًا فى عفوه عمَّن أساء إليه، فقد عفا عن العلماء الذين سجنوه فى جُبِّ القلعة، وعفا عن العلماء الذين ألقوا به فى سجن الإسكندرية ،

بعد أن واتته الفرصةُ للانتقام منهم ، إذ مكَّنه السلطانُ الناصرُ من رقابهم، فما قال إلا خيرًا، وقال قولتَه المشهورة فيمن ضيَّقوا عليه : « أحللتُ كلَّ مسلم من إيذائه لى». كما وضح إخلاصُه فى زهده وعُزوفه عن المناصب، وعن كلِّ زخرفِ الدنيا، فلم يطلب منصبًا، ولم يُنازع أحدًا فى رياسة، بل كان المدرسَ الواعظَ الباحثَ فقط، وكان يتصدق بأكثرِ رزقِه الذى يجرى عليه، لقد عاش رضى الله عنه يؤثرُ رضا الخالقِ، ولا يهتمُّ برضا المخلوقِ، ولاقَى العنتَ والأذى وهو صابرٌ شاكرٌ ، وهذا أقصى مراتبِ الإخلاصِ ودرجاتِه.

وقد أوتىَ شيخُ الإسلام مع الحافظة القوية أوتى **فصاحةَ اللسانِ**، وقُدرةً على البيان: فكان الخطيبَ المِصْقعَ تهتزُّ له أعوادُ المنابرِ، وقد جمع اللهُ سبحانه له بين فصاحةِ اللسانِ، وفصاحةِ القلمِ فسخَّر هذه النعمةَ لخدمة الدين ولإعلاءِ كلمة الحقِّ، يُعينُه على ذلك **قلبٌ شجاع** لا يعرفُ الخوفَ إلا من اللهِ، **وصبرٌ وعزم** لا يكلُّ، ولا يَنثنَى عن المضىِّ فى سبيل الله ، كان فى موقف الموتِ الفارسَ الذى يتقدم الجموعَ المجاهدةَ شُجاعًا، كما فعل عندما هاجم التتارُ مدينتَه، فشارك فى الجهاد حتى تحطمت صخرةُ الغزاةِ فعادوا مدحورين، وقاد هو وحده كتيبةً فى الشام وَاجَهَ بها بعضَ المنحرفين عن دينهم حتى خضعوا وتاب مَنْ تاب منهم، وإلى جانب هذه البطولةِ فى ميادين الشرف دفاعًا عن الدين والوطن، ظهرت **شجاعتُه الأدبيةُ** فى جهره بالحقِّ الذى يعتقده ، وما عُرف عنه أنه وَهَن فى ذلك على رغم كثرة خصومِه ومناوئيه فى الفكر ، فقد خاصمه علماءُ وكبراءُ فما امتنع عن قول الحقِّ المستند إلى الدليل، وتلك هى سماتُ العالمِ الحقِّ، يبحث عن الحقيقة ويُعلنها ويدافعُ عنها، ويبذل الجهد للإقناع بالحجة والبرهان، فإن العلمَ والعملَ أمران لا ينفصلان، ولا يُغنى أحدُهما عن الآخر، وبذلك سما التفكيرُ الإسلامىُّ فوق كلِّ تفكير، وبنى الإسلامُ أعظمَ حضارةٍ وأرقى مدنيَّةٍ، ولقد كان

ابنُ تيميةَ يمثل الفكرَ الإسلاميَّ أصدقَ تمثيل، ما كان يعيش بعلمِه الراقى، وفكرِهِ العميق فى برج عاجىٍّ ، كما يقول المثلُ المعاصر ، بل كان يعيش بعلمه فى خضمِّ الحياة ومن أجل حياة أفضل دومًا للإنسان، كما كان شيخُ الإسلام من أشد الناسِ حرصًا على الاقتداءِ بالسلف الصالح فى القول والعملِ، ويجتهد فى ذلك ما استطاع.

فراسته وذكاؤه: ومع تلك الصفاتِ التى تمَّ الحديثُ عنها: « كان لشيخ الإسلام «**فِراسةٌ وزَكَانةٌ**» يَسْبُرُ بها غَوْرَ النفوسِ، وينفذُ بها إلى فهم مقاصد الكلام ، وقد بَدَت فراسته واضحةً فى كلِّ أمرٍ تولَّاه وبهذه الفِراسةِ كان يُدرك نفسيَّاتِ الناسِ، فإذا خاطب جماعةً استرعى انتباهها، وحرَّك مشاعرَها بما يقول؛ إلا من ركب العنادُ رأسَه، فإن منافذَ الإدراك عنده تُسَدُّ.

ومع هذا كلِّه آتى الله شيخَ الإسلام ابنَ تيميةَ وأعطاه **هيبة شخصية** تملأُ نفسَ مَنْ يراه، وتجعلُه يُحسُّ بأنه فى حضرة رجلٍ عظيم، وقد حدث أن التقى شيخُ الإسلام «بقازان» ملكِ التتار وقائدها فخاطبه بقوة وقال له كلَّ ما يريد، والترجمانُ ينقل حديثَه إلى «قازانَ» فأحس ملكُ التتار بهيبته وقوة نفسه فقال لحاشيته: « إنى لم أر مثلَه ولا أثبتَ قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه فى قلبى، ولا رأيتنى أعظم انقيادًا لأحدٍ منه».

تلكم بعض صفاته، التى أنعم الله بها عليه، فجعل قلبَه وعاءً للحق وأجرى الحكمةَ على لسانه وقلمه، وحصَّن نفسَه بالفهم الصحيح لمعانى القرآن الكريم، ولمرامى السنةِ النبوية المطهرة بإذن الله تعالى.

اجتهاده فى طب الحق والفهم فى الدين: رُوِى عن شيخ الإسلام ابن تيميةَ أنه كان يقول : « ربما طالعتُ على الآية الوحدةِ من القرآن الكريم نحو مائةِ تفسير، ثم أسأل الله الفهمَ، وأقول : « يا مُعلِّم آدمَ وإبراهيمَ علِّمنى» . وكنتُ أذهب إلى

المساجد المهجورة ونحوها، وأُمرِّغ وجهى فى التراب، وأسأل الله تعالى، وأقول : «يا معلمَ إبراهيمَ فَهِّمْنى» . وهذا الخبر عن ابن تيميةَ رضى الله عنه يُرينا كيف كان منهجُه فى طلب الحقيقة، فهو يتأنّى ويفحصُ ويدقِّقُ، وهو لا يتعجَّلُ فى الحُكم، ولا يقلِّدُ على غير بصيرة ولا سندٍ قوىّ واضح ، فإذا ما أعْوَزَه الدليل الواضحُ، لجأ إلى ربِّه يطلب منه الهدايةَ والمعونةَ وتظلُّ تشغلُه المسألةُ وتملأ عليه نفسَه وعقلَه حتى يهتدىَ إلى مقطع الصوابِ فيها، بل لقد عاش شيخُ الإسلام منقطعًا للعلم بكليته، منصرفًا للبحث والدرسِ والفحص انصرافًا تامًّا بفكر مستقيم، وبعقلٍ قوىٍّ فعاش كما قال بعض مُعاصريه: «ما خالط الناسَ فى بيع ولا شراء، ولا معاملة، ولا تجارة ولا مشاركةٍ، ولا عمارة، ولا كان ناظرًا لوقف أو مباشرًا لمال، ولا كان مُدَّخرًا دينارًا ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا، وإنما كانت بضاعتُه مدةَ حياتهِ، وكان ميراثُه بعد وفاتهِ – رضى الله عنه – العلمَ اقتداءً بسيد المرسلين ﷺ الذى قال:«العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ» لأن الأنبياء لم يُورثوا دينارًا ولا درهمًا ولكن ورَّثوا العلمَ، فمن أخذ به فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ».

وفى أثناء هذه الحياةِ المباركَةِ أقبل ابنُ تيميةَ على طلب العلم وفنون المعرفة وتتلمذ على أفاضل العلماء ، وقد قال عنه بعضُ معاصريه : «لقد سمع ابنُ تيميةَ غير كتابٍ على أكثر من شيخ من ذوى الروايات الصحيحة العالية» . أما دواوينُ الإسلام الكبار فى الحديث والسنَّةِ النبوية مثل : مسند الإمامِ أحمدَ ، وصحيح البخارى ، ومسلم ، وجامع الترمذى ، وسنن أبى دواود ، والنسائىّ ، وابن ماجه والدراقطنى ، فإنه سمعَ كُلًّا منها مراتٍ عِدَّة، وأول كتابٍ حفظه فى الحديث «الجامعُ بين الصحيحين» للإمام الحميدى، وإن شيوخَه الذين سمع منهم أكثرُ من مائتى شيخ، ولقد كان هذا شأنَه فى دراسةِ تفسير القرآنِ الكريم فقد دَرَسَ نحو مائة كتاب فى التفسير، كما تحدَّث شيخُ الإسلام عن نفسه ، وكانت دراسته لأقوال المفسرين تقوم على التمحيص والنقدِ والموازنة ، فلم يقبل من الآراء

والأقوال إلا ما استقام عليه إدراكُه المستقيم، وقد جمع رضى الله عنه من أقوال مفسرى السلفِ الذين يَذكُرون الأسانيدَ فى كتبهم أكثرَ من ثلاثين مجلَّدًا، وقد بيَّضَ أصحابُه بعض ذلك، وكثير منه لم يكتبوه، ولو كُتب كلُّه لبلغ خمسين مجلدًا ، (كما جاء فى العقود الدرية) وقد عُنى شيخُ الإسلام بتفسير ما أَشْكَلَ تفسيرُه على العلماء فجاء بما لم يلتفت إليه أعلامُ المفسرين، و عن ذلك يقول تلميذُه الحافظُ شمسُ الدين الذهبى: « برع - أى شيخ الإسلام - فى تفسير القرآنِ، وغاص فى دقيق معانيه، بطبع سيَّال، وخاطرٍ إلى مواقع الإشكال ميَّال ، واستنبط منه أشياءَ لم يُسبق إليها..» وإن تلميذَه الحافظَ بنَ عبدالهادى المقدسىَّ أشار إلى هذا المعنى فى كتابه «العقود الدريّة» فقال: «ومعظمُ تفسيره ، أى تفسير شيخ الإسلام ، يشتملُ على مثل هذه المواقع المشكلة من القرآن وأقوال المفسرين فيها، وبيان خطئهم فيما قالوا وترجيح الراجحِ منها مع الأدلةِ القاطعةِ، والبراهين الساطعةِ» . وقد أشار شيخُ الإسلام نفسُه فى رسالة بعث بها من سجنه إلى ما فتح الله عليه من المعانى القرآنية فقال: «قد فتح الله علىَّ فى هذا الحصن، فى هذه المرةِ من معانى القرآن، ومن أصول العلمِ بأشياءَ كان كثيرٌ من العلماءِ يتمنَّونها، وندمتُ على تضييع أكثرِ أوقاتى فى غير معانى القرآن».

وعن عبقرية شيخ الإسلام فى فهمه معانى القرآنِ الكريم، وعن صفاءِ روحه ونفسه كما ظهر فى تفسيره القيِّم يحدِّثنا العلامةُ، «عبدُ الصمد شرفُ الدين الكُتبى» الذى عُنى بنشر مجموعة تفسير شيخ الإسلام فيقول: «كم من مشتاقٍ إلى تفسير ابن تيميةَ سَيُشْفى غليلَه منها ، أى من مجموعة التفسير ، بما أودعها من كنوز علمهِ ومن كشفِ القناعِ عن أبكار دقائقِ المباحثِ، وأترابِ غوامضِ الحقائقِ ما يبهج القلبَ، ويبهرُ العقلَ» . ثم يقول : «وإذا تقرر ذلك فحسبنا أن نعلمَ أن هذا أفضلُ ما كتبه المصنفُ الفذُّ من أكبر أوعيةِ العلم والإيمانِ فى آخر عمره ، وهو منعزلٌ فى خلوةِ سجنٍ باطنُه رحمةٌ وظاهرُه من قِبَلِهِ العذابُ» . ويسوق العلامةُ

عبد الصمد أدلةً على عبقرية الإمام فى التفسير ومنها قوله : « .. وفى تفسير سورة الكافرون : قد أتى بالعجب العُجاب ما لم يَدُرْ فى خيال مَن سبقه ممّن تصدَّى لتأليف تفسير كتابِ العزيز الوهاب : لا ابن القيم ، ولا ابن كثير ، ولا الزمخشرىّ ، ولا ابن جرير ، وبالجملة فنحن نرى فى أوراق هذه المجموعةِ القيمةِ شخصيةَ ابن تيمية بارزةً إلينا بكلِّ وضوح وجلاء، ونلاقيه فيها وَجْهًا لوجه كِفَاحًا بدون حِجاب وغطاء».

وفى الفقه: لقد كان منهجُه فى البحث والدراسة فى أى فرع من فروع العلم يقوم على أساس طلب الحقِّ، والسعى وراء الحقيقة التى تطمئن إليها النفسُ فى صبر وأناةٍ وعُمقٍ واستقلال فى التفكير، فهو رضى الله عنه نشأ على مذهب الإمام «أحمدَ ابن حنبل» حيث تلقَّى أصولَ هذا المذهبِ عن أبيه، ثم إنه بعد ذلك نظر فوجد ثروةً عظيمةً من كتب الفقه ومن آراء الفقهاء فأقبل على دراسةِ الفقه الإسلامىّ غيرَ متقيد بمذهب من المذاهب، لأن غايتَه كانت الوصولَ إلى الأحكام التى تتفق مع الأدلةِ القاطعة والبراهينِ الواضحة كما جاءت فى الكتاب والسُّنَّة، فكان لذلك يدرس كتبَ الفقهاءِ الكبارِ، ومؤلفاتِ العلماءِ المتأخِّرين بعقله القوىِّ وفكْرِه المستقل، ولم يمنعه احتكاكُه بالشِّيعة من دراسة فقههم دراسةَ الناقدِ الفاحص البصير، وهو فى كلِّ ذلك يُخالف عن بَيِّنة، ويُوافق عن بَيِّنَة ويَقْبلُ خيرَ ما فى كتب الفقهاء بعد الدراسةِ والفحصِ مهتديًا بنور القرآن والسنةِ، وكثيرًا ما كان ينتهى إلى دليل يَهْديه إلى أحكام لم يذكرها سِوَاه من أصحاب المذاهب، وفى ذلك يقول صاحبُ العقود الدريَّة : « كان له باع طويلٌ فى معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقَلَّ أن يتكلم فى مسألة إلا يذكر فيها أقوالَ المذاهبِ الأربعةِ، وقد خالف الأربعةَ فى مسائلَ معروفة، وصنَّف فيها، واحتجَّ لها بالكتابِ والسنَّة» . أمَّا فى العقيدة: فقد قضى شيخُ الإسلام شطرًا كبيرًا من حياته يُنافح عن عقيدة التوحيد ويُبيِّن للمسلمين أصول عقيدتهم، كما جاءت فى كتاب ربِّهم،

وعلى لسان نبيِّهم الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحىٌ يُوحى، وقد اقتضاه ذلك أن يتصدَّى لأصحاب الفِرَقِ، ولأرباب الطرق الصوفيةِ من الغُلاة [الـمُفْرِطين والـمُفرِطين]، وللفلاسفةِ، بل إنه تصدَّى لِـمن هاجموا الحقائقَ الإسلاميةَ من غير المسلمين وغيرهم ممن أرادوا الكيدَ للإسلام، ولكى يكونَ دليلُه واضحًا وقاطعًا ونافذًا فى دحْض أباطيل هذه الطوائف كلها أقبل على دراسةِ **العقائد فى الكتاب والسنةِ**: كما درسها على شيوخه، ثم درس آراءَ الفِرَقِ المختلفةِ فى كُتب عِلم الكلام، وقرأ كتبَ العلامة الغزالى التى جمعت بين الفلسفةِ وعلم الكلام، ودَرَسَ المنطقَ وكلامَ الفلاسفةِ فى الإلهيات والكونيَّات، كما درس النصرانيةَ وطوائفَها وفرقَها، وكان فى كلِّ ذلك يُـمحِّص الآراء ويفحص الأقوالَ ولا يترك بابًا مِـما له صلةٌ بذلك إلا فحصه ودرسه، مِـمَّا لم يقْوَ عليه أحدٌ قبله، أو مِـمّن عاصره قال العلامة الإمام «السيوطىُّ» فى ضمن نصيحة لطالب علم العقائد: « فإن برعتَ فى الأصول وتوابعها من المنطق والحكمةِ والفلسفةِ وآراءِ الأوائل، واعتصمتَ مع ذلك بالكتاب والسنةِ، وبأصول السلفِ، ولفَّقت بين العقل والنقل فما أظنك فى ذلك تبلغ رتبةَ ابن تيميةَ، ولا واللهِ تُقَاربها..» فهذا الخبر يبين لنا كيف كان ابنُ تيميةَ دارسًا لأقوال الفلاسفة والحكماءِ ولعلوم شتَّى، ولاشك فى أن دراسةَ ابن تيميةَ للفلسفة وآراءِ المتكلمين هى التى مكَّنتْه من بيان انحرافهم وضلالهم، ومن كَشْف النقابِ عن تَهافُتِهم، وضَعْف كثيرٍ من آرائهم، كما مكَّنتْه من إصدار أحكامه على هؤلاء عن بَيِّنة وبصيرةٍ، فحكم على آراءِ أرسطو بالغثاثة وحكم على بعض الفرق التى انحرفتْ عن الإسلام مبينًا مواطن خروجهم عن كتاب الله وسنة رسول الله.

يقول الشيخ أبو زهرة « ... ونستطيع أن نقرر غير مبالغين أنه قرأ كتبَ العلوم الإسلامية وكتبَ الفلاسفةِ التى كانت معروفةً فى عصره وما كان لِـمثله أى فى

منزلته العلمية وسمو مكانته أن يحكم على شىءٍ قبل معرفتِهِ وتصوُّره..». لقد كان شيخُ الإسلام يعدُّ نفسَه للدفاع عن الإسلام فى كلِّ ميادين الهجوم، فكان يعدُّ الأسلحةَ التى يشنُّ بها الغاراتِ على كل مَن يُتَصَوَّرُ منهم الهجوم، وتلك الأسلحةُ هى علمُه بما عليه أولئك الخصومُ المهاجمون، لقد وجد شيخُ الإسلام أن ظروف زمانه تفرض عليه أمرين؛ **أحدُهما:** أن يقفَ بالمرصاد للمهاجمين للحقائق الإسلامية من الصليبيين الذين كانوا يرابطون فى قبرصَ وغيرِها بعد غاراتِهم على المسلمين . **وثانيهما** : أن يقفَ بالمرصاد للنِّحَل المختلفة التى تسربلَت بِسِربال الإسلام، ولبست لَبوسَه وهى تكيد له فى الباطن؛ هذان الأمران جعلاه يجردُ سيفَ البيان والدليل والبرهان على الفريقين ، وهذا يستدعى قراءةً وإطلاعًا، فانصرف وقتًا طويلًا إلى الدراسة العميقة ، فدرس مذاهبَ وآراءَ هؤلاء وأولئك ودرس الأصولَ الفلسفيةَ التى بنت عليها الفرقُ الإسلاميةُ المنحرفةُ مذاهبَها ومناهجها، درس ذلك كلَّه ثم تقدم إلى الميدان مناظرًا بالحجة الساطعةِ والبرهانِ القاطع، ثم قدَّم للإنسانية ثروةً علميةً وفكرية تشهد له بالعبقرية، فقد كان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ قوةً فكريةً رائعةً منحه الله عقلًا راجحًا، وفكرًا خصبًا حتى أدهش الناسَ فى عصره وبعد عصره بعبقريته ومواهبه، وحتى صار لاسمه دوىٌّ فى شرق البلادِ الإسلاميةِ وغربِها.

تراثه العلمى والبَحْثِىّ :

وقد تركت لنا عبقريةُ الإمام العظيم ثروةً فكريةً نفيسةً فى عدةِ أبوابٍ من العلم : بعضُها فى التفسير، وبعضها فى الفقه والأصول، وبعضُها فى العقيدة والفتاوى، وبعضها كان جدلًا بينه وبين خصومه، ومن كتبه القيمة فى معانى القرآن « مجموعة تفسير شيخ الإسلامِ ابن تيميةَ » التى نشرها العلامةُ عبدُ الصمد شرف الدين الكتبى [أوائل القرن الرابع عشر بعد الهجرة] ، ومن كتبه فى القرآن

الكريم ؛ «فضائلُ القرآنِ» ، و«أمثالُ القرآن» و«أقسام القرآن».

ولشيخ الإسلام فى العقائد كتبٌ كثيرةٌ ومنها : كتاب «الإيمان» وكتابُ «الاستقامة»، وكتابُ «الفرقان»، وشرحُ الأصبهانية ومنها الأزهريةُ ، والإكليلُ، ورسالة مراتبِ الإرادة، ورسالةُ القضاءِ والقدرِ، وبيان الهدى من الضلال، وبيان الفرقِ الناجية ، وغيرُ ذلك من الكتب والرسائل، يقول الشيخُ أبو زهرة : «ولشيخ الإسلام فى مناهج الاستدلال: كتابُ نقض المنطق، والردّ على المنطق، كماله فى الردّ على الفلاسفة مجلداتٌ، وإنَّ كتبَه الخاصةَ بالعقائد كثيرة، فإنها قد شغلته مسائلُها والمناقشةُ فيها أكثر حياته، إذْ إنه من وقت أن كتب رسالته «الحمويَّةَ» [نسبة إلى مدينة «حماة» بسورية للجواب عن سؤال ورد منها فى أواخر القرنِ السابع من الهجرة] إلى أن توفَّاه الله سبحانه وتعالى وهو يكتبُ فى العقيدة مؤيدًا آراءه فيها بكتُبه الطوال أحيانًا، وبرسائله أحيانًا.

وله كتابٌ سمَّاه: «تنبيهُ الرجلِ العاقل على تمويه الجَدل الباطل».. ومن بين كتبه ما جمع «بين المناقشةِ الخصبةِ و المثمرة والعلم الصحيح العميق» فهو من ناحية مرجعٌ فى بابه وحقائقُ علميةٌ صادقةٌ عميقةٌ، ومن ناحية أخرى جدلٌ ومناظرةٌ جيدةٌ محكمةٌ عميقةٌ، وإن منهجه فى الاستدلال والبرهان وقوته فى ذلك وحده جديرٌ بأن يَكتبَ ابنَ تيميةَ فى سجل العلماءِ العاملين والأئمة المجتهدين والمفكرين الخالدين.

وقد ترك شيخُ الإسلام آثارًا فقهيةً جليلةً منها : فتاويهِ المختلفة التى كان بعضُها فى مصر، وبعضُها فى الشام، وقد جُمعت منها المجلداتُ الضخامُ، وقد طُبع من هذه الفتاوى سبعةٌ وثلاثون مجلدًا تحت عنوان:« مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمدَ بنِ تيميةَ» جمعها العلامةُ الشيخُ « عبد الرحمن بنُ محمدِ بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى». [القرن الرابع عشر بعد الهجرة] وطبعها « آل سعود»

مَرّات لتيسير الانتفاع بها رغبةً فيما عند الله من الرحمة، وقد اختصرها فضيلة الشيخ «حسنين مخلوف» مفتى الديار المصرية [القرن الرابع عشر بعد الهجرة] فى نحو سبع مجلّدات.

لقد عاش شيخُ الإسلام مجاهدًا مخلصًا فى سبيل الله، وفيًّا لدينه، مناضلًا عن الحق، لا يخشى فيه بأسَ أحد، ولا لومَ لائم، جاهد بالسيف، وجاهد باللسان والبرهان، وجاهد بالقلم جهادًا متصلًا حتى كثر محبُّوه وتلاميذُهُ وكثُر الشانئون والحاقدون عليه من أهل البدع وأربابِ الأهواءِ والأغراض، فلم تمرّ حياتُه صفوًا بلا كدر، فقد ضيق عليه الحاسدون، وقعدوا له فى كل سبيل، يتآمرون ويكيدون ويزيِّنون للحاكم باسم الدين الكيدَ له والتضييق عليه، فَسُجِن الشيخ الوقورُ الصالحُ أكثر من مرة.

فى السجن ثم الرحيل: وكان رضى الله عنه كلما خرج من السجن عاد إلى جهاده واجتهاده أصلب عودًا ، وأشد استمساكًا بالحق، وأكثرَ نشاطًا وحيويةً فى تبليغ الدعوةِ وفى إرشاد الناسِ إلى حقائق الإسلام، وكان ذلك يغيظ حسَّادَه فيعودون إلى التآمر والكيد ، ويعمدون إلى تحريك عوامل النقمة فى نفوسِ أولياء الأمرِ على مُحيى السنةِ النبويةِ، وانتهى الأمرُ بالشيخ الجليل إلى السجن فى قلعةِ دمشق، عامَ ستةٍ وعشرين بعد السبعمائة من الهجرة[٧٢٦]، وكان قد بلغ الخامسةَ والستين، ومع ذلك أظهر سرورًا وقال « أنا كنتُ منتظرًا ذلك، وهذا فيه خيرٌ كثيرٌ ومصلحةٌ كبيرةٌ».

وبين جدرانِ السجنِ أقبل الشيخُ على خير ما أحبّ أقبل على عبادةِ ربِّه، وعلى تلاوةِ القرآن، وعلى العناية بتدوين آرائه وتفسير آياتِ الكتابِ الحكيم، وخرجَتْ من بين جدرانِ السجن آراؤه تنير الأفق أمام المسلمين، فأدرك حُسَّادُه أنهم حبسوا شخصًا ، ولكنهم لم يحبسوا فكره ولا رأيه، فسَعوا سعْيَهم عند ذوى السلطان ليمنعوا ذلك النورَ أن يُشرق من رُدهات السجن، فصدر الأمرُ بمنعه منعًا

باتًّا من المطالعة، وأخذوا ما كان لدى الشيخ من الكتب والأوراقِ والمحابر والأقلام، فلم يضعُف ولم يَهن، وكان يقول: « ما يصنع بى أعدائى؟ إن بستانى فى صدرى، أين رحلتُ فهو معى، إنَّ حبسى خلوةٌ، وقتلى شهادةٌ وإخراجى سياحةٌ»، واتجه إلى ربه بكلِّ قلبه قائلًا : «كلُّ ما يقضيه الله تعالى فيه الخيرُ والرحمةُ والحكمةُ، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، فالعبدُ عليه أن يشكرَ الله ويحمدَه دائمًا على كلِّ حال، ويستغفرَ من ذنوبه، فالشكرُ يوجبُ المزيدَ من النعم والاستغفارُ يدفع النِّقم، ولا يقضى الله للمرء من قضاءٍ إلا كان خيرًا له، إن أصابته سرَّاءُ شكر، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له».

وفى عام ثمانيةٍ وعشرين بعد السبعمائة [٧٢٨هـ] بعد أن بقى فى القلعة بدمشق سنتين وثلاثة أشهر وأيامًا محبوسًا قبضه الله سبحانه وتعالى إليه عقب مرضٍ ألمَّ به فى سجنه لم يُمهله أكثرَ من بضعة وعشرين يومًا .

فى العقود الدريَّة عن معاملة الشيخ فى القلعة: «كان الشيخ ابن تيمية فى هذه المدة مُعَظَّمًا مُكرَّمًا يُكرمُه نقيبُ القلعة ونائبها إكرامًا كثيرًا، ويستعرضان حوائجه ويبالغان فى قضائها» وحضر الصلاةَ عليه خلقٌ كثير صعُب إحصاؤهم.

مات العبقريُّ العظيم ولا زال اسمه يُدوِّى ، وسيستمرُّ هذا الاسم بين العلماء العظماء المخلصين بإذن الله إلى يوم القيامة.

رزقنا الله بفضله علمًا نافعًا وقلبًا خاشعًا ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا على البلاء صابرًا، ونفسًا مطمئنَّة ترضى بقضاء ربها، وتقنع بعطائه ، مؤمنةً بلقائه سبحانه، فاحشُرنا اللهم فى زُمرة نبيك الكريم ، وصلِّ اللهم وسلِّم عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسَلين وصحابته وآل بيته وأحبابه إلى يوم الدين «آمين» .



الرحّالة العالم الفقيه «ابن بطوطة»

وثمرات جهوده وأعمال الرحّالة المسلمين فى ازدهار علمى الجغرافيا والتاريخ وظهور فنون أدبية جديدة «القرن الثامن من الهجرة»

محمدُ بنُ عبد الله بنِ محمدِ بن إبراهيم أبو عبد الله اللّواتىُ الطنجىُ المولودُ فى طنجةَ فى ١٤ من رجب سنةَ ثلاث بعدَ السبعمائة من الهجرة [١٣٠٤ من الميلاد]، وهو من أسرة كريمة، ومنهم رجال من الطبقة العلمية العليا، وقد أُتيح لكثيرٍ من أبنائها الوصولُ إلى منصبِ القضاءِ والنبوغُ فى العلوم الشرعية، وأصل «اللّواتية» من «برقة» قرب الحدود المصرية الغربية حيث كانت مساكنُ قبيلة «لواتة» كما تذكر كتب التاريخ، وابنُ بطوطة من الرُّواد القلائل فى أمانته ودقته العلمية فى الوصف، وفى قوة ملاحظته للطباع وللعلاقاتِ الاجتماعية وهو أعظمُ الرحالةِ المسلمين قاطبةً، وأكثرُهم طوافًا فى الآفاق، وأوفرهم نشاطًا، واستيعابًا للأخبار، وأشدُّهم عنايةً بالتّحدُّث عن الحالة الاجتماعية فى البلاد التى تجوَّل فيها، وإن حديثَ رحلاته الطويلةِ غنىٌ بالأحداث، وتشهد رحلاته بأنه كان من ذوى الجرأة فى قطع المسافات الطويلة الذين لا يقَرُّ لهم قرارٌ، ومن الذين يدفعُهم حبُّ الاستطلاعِ والرغبةُ فى المعرفةِ إلى أن يركبوا الصعب من الأمور، وإن من أعظم ما أعانه على التجوال فى تلك البلدان الكثيرة ما بين الصين فى أقصى الشرق إلى شواطئ بلاد المغرب، ودخولِه دولًا أفريقيةً فى غربها وشرقها، والبلدانِ العربية أن راية الإسلام كانت تُرفرف على تلك المناطق كلها بالأمن والمؤاخاة فكان يجد ابنُ بطوطةَ الترحاب أينما حلَّ.

ففى الرحلة الأولى: غادر موطنه [عام ٧٢٥هـ:١٣٢٥م] وهو ابنُ اثنتين

وعشرين سنةً لأداء فريضة الحجِّ، ولكنه قضى فى هذه الرحلة أربعةً وعشرين عامًا طاف خلالها فى بلدان الشمالِ الأفريقيِّ، ثمَ واصَل سَيْره إلى مصرَ العليا، ثم إلى بيت المقدسِ وبلادِ الشام، ثم توجه إلى مكةَ المكرمة لأداءِ فريضةِ الحجِّ ، ومن مكةَ اتجه إلى العراق وطاف فى معظم مدنه، ثم خرج إلى بلاد فارس ، كما زار الموصلَ وديارَ بكر وبلاد الأناضولِ، ومنها إلى مكة المكرمةِ للمرة الثانية وقضى فيها عامين، ومن مكة خرج عام [٧٣٠ من الهجرة] إلى جنوبى الجزيرة العربية فأفريقيةَ الشرقية فبلاد فارسَ [مقاطعةِ كورستان] ثم عاد إلى مكة من «هرمز» ليحج مرة أخرى.

ثم رحل من مكةَ إلى مصرَ عن طريق البحرِ، وطاف فى مدن الصعيدِ المُهِمَّة وبحث فى أحوال سكانها، ثم خرج من مصر إلى اللاذقيةِ مارًّا بفلسطينَ، ومنها قام برحلة تُعتبر الأولى من نوعها فى العالمِ الإسلامى : فقد دخل بلادَ الرومِ، وطاف فى مدنها مدينةً مدينةً، وفى قُراها قريةً قريةً حتى وصل إلى « أيا صوفيا» ، ومنها انتقل إلى جنوبى روسيا، ومنها إلى خوارزم ثم إلى بُخارى ، وسمرقندَ ، وبلخَ ، وهَراةَ حتى مدينة طُوسَ فى خُراسانَ ، ومن هناك اتجه إلى أفغانستانَ فَدِلهى فى الهند وهناك عمل قاضيًا للمسلمين لمدةِ سنتين.

وبعد ذلك انتقل إلى الصين ، وكتب عن غاباتِها وثغورها وعن حالة المسلمين فيها ، ثم سافر بعد ذلك إلى «Maldives جزر الملديف» وهو تحريف «مَهَل ذِيَبَة» وتولى القضاءَ فيها لمدة عام ونصف العام، وأعجبه صلاحُ أهلِها وتقواهم، ومن جزر«ملديفَ» رحل إلى جبل «سرنديبَ» ومنه جاء إلى سيلانَ فى طريقه إلى «الصين» ثم رجع إلى «طنجةَ» مسقط رأسه فى عام ثمانية وأربعين بعد السبعمائةِ من الهجرة، أى أنه قضى أربعةً وعشرين عامًا فى رحلته الأولى.

رحلته الثانية: ومن طنجةَ قام برحلته الثانيةِ إلى بلادِ الأندلسِ وطاف فى

بعض مدنها، ثم عاد إلى مدينة « فاس» ثم عقد العزم على السفرِ فى **رحلة ثالثةٍ**: ليزورَ بلادَ المسلمين فى السودانِ الغربيِّ، وهناك قام بجولة طويلة فى «مالى» ثم غادرها إلى مدينة« تُمبكْتُو» ، ثم واصل السفر شرقًا فى الصحراء حتى وصل إلى مدينة«تكدّا» وكانت هذه المدينةُ آخرَ مرحلة فى رحلته هذهِ؛ لأنه غادرها فى عام أربعة وخمسين بعد السبعمائةِ من الهجرةِ عائدًا إلى مراكش، وهناك أملى رحلته وأخبارها: تحت اسم« **تحفة النظار فى غرائب الأمصارِ، وعجائب الأسفار**» أَملاها على العالم «محمد بن محمد بن جزىٍّ» فكتبها فى أربعة مجلدات كبار فى أسلوب أدبى تأثَّر فيه كثيرًا بكتاب «ابنِ جُبير أبى الحسين محمد بن أحمد الكنانىِّ الأندلسىِّ الرحّالة المعروف [المتوفَّى فى الإسكندرية فى أوائل القرن السابع]» ومات ابنُ جزى عام [٧٥٧هـ] وإنّ رحلة ابن بطوطة تعتبرُ من أكبر الرحلاتِ التى قام بها الرحّالةُ على هذا النحو وبالوسائل التى كانت متاحة فى هذا العهد القديم، وقد قام بنشر كتاب رحلة ابن بطوطة باللغة الفرنسية المستشرقان «دفريمرى، وصانكونتى» بطلب من الجمعيةِ الآسيوية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من الميلاد، وترجمها إلى الإنجليزية المستر «صموئيل» فى القرن التاسع عشر أيضًا، وقد حظى هذا الكتاب لعظيم نفعه بعناية كبيرة فى الشرق والغرب ، وقد وُفِّق ابنُ بطوطةَ كلَّ التوفيق فيما أملاه عن رحلته، فخلَّف لنا صورًا صادقةً، كلُّها حياةٌ للعصر الذى عاش فيه، ووصف لنا الأشخاصَ والجماعات وصفًا يجعلنا نشعر كأنهم بين أيدينا ننظر إليهم ونرى أحوالهم، وقد زار معظم الدول والمجتمعات الإسلامية فى عصره، وتحدَّث عن أحوال أهلها وعوائدِهم وطرقِ معيشتهم، وقد قطع فى أسفاره مسافةً قدَّرها العلماءُ بخمسة وسبعين ألفَ ميل، وهى مسافةٌ لم يقطعها رحّالةٌ غيره قبل استخدام البحارِ فى وسائلِ السفر، وإن رحلة ابنِ بطوطةَ تعتبرُ سِجلًا حافلًا، بالمعلوماتِ التاريخية والجغرافيةِ، وقد عُنى بتسجيل النواحى الاقتصاديةِ فى مشاهداته، فذكر أجلَّ ما تختصُّ به المدنُ التى

زارها من منتجاتٍ زراعيةٍ أو صناعيةٍ ، من ذلك مثلًا قوله فى «بعلبكٌ» ويُصنعُ بها أوانى الخشب وملاعقه التى لا نظير لها فى البلاد الأخرى، وربما صنعوا الصحفةَ «أى الصحنَ» وصنعوا صحفةً أخرى تَسَعُ فى جوفها أخرى إلى أن يبلغوا العشرَ يُخيّلُ لرائيها أنها صحفةٌ واحدة، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرًا واحدةً فى جوف الأخرى ويصنعون لها غشاءً من جلد« أليس ما قاله ابنُ بطوطةَ يشبهُه ما تقوم به بعضُ المصانع فى عصرنا الحاضرِ فى إنتاج بعض أنواع الآنية؟ ومع ذلكَ كانت له عناية أيضًا بالحديث عن الأخلاق وفضائلِ الشعوب، ومزايا الجماعاتِ، خاصةً الإسلامية منها، فهو حين أدَّى فريضةَ الحجِّ، ووصف مناسكها تحَدَّث عن الحجازيين، وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعيةِ، وأثنى على أهل مكةَ، ومدح ما شاهده فيها من حُسن أخلاقِ أهلها وحُسن جوارهم للغرباء وإكرامهم لهم، ومما قاله مثلًا عن المسلمين فى الصين فى ذلك الزمانِ: «ولابدٌّ فى كلٌ بلد من بلاد الصينِ من شيخٍ للإسلام، تكون أمور المسلمين كلُّها راجعةً إليه، ولا بدَّلهم من قاضٍ مسلمٍ يقضى بينهم» وذكر أن كلَّ مدينة من مدن الصينِ كان فيها حيٌّ للمسلمين يسكنونه ويتخذون فيه المساجدَ، كما ذكر أن المسلمين الذين كانوا يزورن الصينَ كانوا يَلقَوْن من إخوانهم المسلمين هناك أعظمَ الترحيب والإكرام ، فتأمّل أيها القارئُ واذكُر ما فيه مسلمو الصين فى عصرنا الحاضر [القرن الحادى والعشرين من الميلاد] من العنَت والمشقَّة والتضييق عليهم فى العبادات والتعليم وغير ذلك، ومما قاله عن أهل السودان: « ومن أفعالهم الحسنةِ مواظبتُهم على الصلوات، والتزامُهم لها فى الجماعات، وضربُهم أولادَهم عليها، وإذا كان يومُ الجمعةِ، ولم يُبكِّر الإنسانُ إلى المسجد لم يجد أين يجلس لكثرة الزحام، وكانوا يلبسون الثيابَ البيضَ الحسانَ يومَ الجمعةِ، كما أن لأهله عنايةً كبيرةً بحفظ القرآنِ الكريمِ وهم لا يتساهلون أبدًا مع أبنائهم إذا قصَّروا فى حِفظه»، لقد كان اتساعُ رقعةِ العالمِ الإسلاميِّ، وقوةُ الروابطِ الدينيةِ والثقافيةِ عاملًا جوهريًا فى

نجاح ابن بطوطةَ وسائر الرحالةِ المسلمين فالجزءُ الأكبر من المعمورة فى ذاك الزمان كانت تزدهر فيه حضارةُ الإسلام، ويعيش الناسُ فى حرية وتعاون ومؤاخاة، إذْ كان المسلمون يؤمنون بأنهم إخوةٌ وبأنهم أبناءُ أمة واحدة مهما تناءت ديارهم.

وقد كان هذا الـمُلكُ الإسلامىُ الواسعُ الذى أسسه المسلمون هو الذى حَدَا بالمسلمين إلى الرحلة والانتقال، لدراسة أحوال البلادِ من جميع النواحى الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية فسافر النابهون، ومنهم ابن بطوطة للدراسة وجَمْع البيانات والمعلومات الدقيقة مِمَّا يساعد على التأليف فى «علم تقويم البلدان» وكانت هذه الدراسةُ العمليةُ تقوم مقامَ ما نصنعُه اليومَ من تَتبُّع المراجع والمؤلفاتِ.

وعن أثرِ الرحلاتِ العلميةِ التى قام بها عشراتٌ من النابهين والعلماءِ المسلمين فى تطور العلمِ والمعرفةِ يحدثنا الدكتور زكى محمد حسن [القرن الرابع عشر] فى كتابه « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى» فيقول: «وأما شأنُ هذه الرحلاتِ فى تطور العلمِ والمعرفةِ فمما لاشك فيه أن المسلمين ساهموا فى التعريف بالشرق الأقصى وإفريقيةَ فضلًا عن آفاقِ دولتهم المترامية الأطرافِ، فالرومانُ كانوا يتخيلون وجود الصين، ولكنَّ الرحَّالةَ المسلمين عرفوها، وكتبوا عنها منذ بداءة العصورِ الوسطى أخبارًا أيَّدتها رحلةُ «ماركو بولو البندقىّ» فى القرنِ الثالثَ عشرَ من الميلاد، وكان الرومانُ لا يعرفون من أفريقيةَ إلا سواحلَها الشماليةَ، أمَّا المسلمون فقد عبروا الصحراءَ، وعرفوا مجاهلَ هذه القارةِ التى ظل الأوربيون حتى القرنِ الثامنَ عشرَ يقفون عند سواحلها، فلا تتطوَّلُ أعناقُهم إلى ما وراءها»، ثم يقول الدكتور زكى عن أهميةِ المراجعِ العلميةِ التى خلَّفها الرحَّالون وعلماءُ الجغرافيا المسلمون: «وحسبُنا لتبيانِ فضلِ الرحالةِ المسلمين أن ينتهىَ بنا المطافُ إلى أن دراستهم جاءت على نحوٍ دقيقٍ وافٍ، وهذا أمرٌ لا بدَّ منه لكلِّ باحثٍ فى تاريخ التجارةِ أو النظامِ السياسىِّ أو التاريخ الاجتماعىِّ فى الشعوبِ الإسلاميةِ والأممِ التى اتصلت بها، ذلك لأن ما كتبه الرحالةُ المسلمون من وصَّافين وجغرافيين كنزٌ لا ينضبُ مَعينُه، يضمُّ الوثائقَ العظيمةَ الشأنِ فى تاريخ

الإنسانيةِ، وفى استطاعةِ الباحثِ أن يستخرجَ منها شتَّى الحقائقِ،ومختلفَ ضروبِ المعرفةِ مطمئنًا إلى نتائجِ بحثه، إذا أقبل على دراسةِ هذه الوثائق ببصيرةٍ نافذةٍ».

لقد كان هؤلاء الرحالةُ لا يقفون عند وصفِ مراحل أسفارِهم وصفًا عامًّا، بل يُعنَوْن بتقييد الظواهرِ الاجتماعيةِ غيرِ المألوفةِ فى أقاليمهم، ثم إنهم يحرِصون على لقاءِ أعلام البلادِ التى يجتازونها من علماءَ وأدباءَ ورؤساءَ، إلى جنبِ تَعرُّفهم إلى طبقاتِ الشعبِ المختلفة، وكما كان لكتب الرحلاتِ التى ألَّفها الرحالةُ المسلمون أثرٌ كبيرٌ فى تقدم العلمِ والمعرفةِ فى ميدانى: الجغرافية والتاريخ فإنها كانت كذلك سببًا فى ظهور « فنٍّ قصصيٍّ بديع» لأن ما كتبه المسلمون عن البحارِ صار بعد ذلك مصدرًا للقصص المتعلقة بالبحر ، وهى على قلة عددها من أبدع القصصِ البحريةِ فى آداب العالمِ على الإطلاق، وحسبُنا أن نشيرَ هنا إلى قصةِ « السندبادِ البحريِّ» وقصة «عبد اللهِ البرّى» فالثابتُ أن كثيرًا من وقائع القصصِ البحريةِ منقول عن كتب الرحلاتِ، ولقد كان لبعض الرحّالةِ والملاحين المسلمين الفضلُ الأكبرُ فى نجاح أعلامِ الرحّالةِ الأوربيين فى المحيط الهنديِّ وفى مجاهلِ أفريقية عند نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث.

تلك لمحةٌ عن أدب الرحلات الذى مثَّله «ابن بطوطة» أصدق تمثيل وتَبعَه كما سَبَقَه غيرُه من أفاضل الأدباء والمفكِّرين ، وأعانوا بذلك على ظهور و ازدهار علوم الجغرافيا، والاجتماع، والاقتصاد، والأخلاق فضلًا عن متعة النفس بأن تجول مع الكتاب الجيّد الرائع فى هذه المناطق الشاسعة الكثيرة ترى وتسمع وتفهم وتعيش الأحوال التى عاصرها صاحبُ الكتاب ووصفها بدقة وعناية وبصيرة نافذة تقرأ وتعيش هذه الأحوال وهى جالسة مع الكتاب وصفحاته فى مكان واحد.



لـمحة يسيرة :

المرأة كرّمها الإسلام
وكانت المرأة فى ظلِّ الحضارة مُعلمة
وفقيهة وطبيبة ومشاركة فى ميادين كثيرة

فقيهات وأدبيات وعالمات فى ظل حضارة الإسلام: أكان للمرأةِ المسلمةِ حظٌّ من الثقافة والعلم فى ظلِّ الدولة الإسلامية؟ وهل فى تاريخ الحضارة الإسلامية ما يدل على أن المرأةَ أُتيح لها من ضُروب المعرفة ومن فُرص التعليم ما أُتيح للرجل؟

ولاشَكَّ فى أنّ كلَّ مُسلم يعلم أن الإسلامَ رفع من شأن المرأةِ، وأعلى مكانتها، وأزال عنها غَبْنَ الجاهليين لها وعزَّزهَا، وصان كرامتَها، وجعلها والرجلَ سواء فى المسؤولية والجزاء، وفى الحقوق والواجبات؛ فالمرأةُ مُطالَبَةٌ بمعرفة أمورِ دينها، وأحكام شريعتها، مُطالَبَةٌ بمعرفة أصولِ العقيدة، وقواعد الإسلام وبكل ما يتصل بالعبادات من أحكام ؛ كالطهارة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج والعمرة وهى فى ذلك مسؤولةٌ مسؤوليةً كاملةً كالرجل، وإنَّ الرسولَ ﷺ قد حَثَّ النساءَ على طلب العلم وجعله فريضةً عليهنَّ فى هذه الحدود، وأباح للمرأة طلب العلم وزيادة المعرفة فقال ﷺ : «**طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم**» «أى ومسلمة» لأن المعنى على كل شَخْصٍ مسلم ، وقد أباح الإسلامُ للمرأة أن تحصل على ما تشاء الحصولَ عليه من علم وأدب يُهذِّب النفْس ويُرَبِّى الذَّوق فى الطريق الصحيح، وأن تحصل على ما تستطيع من ثقافة مفيدة لا ضَرَر منها على الأخلاق والفضائل السامية التى جاء بها الوحى، على أن يتمَّ ذلك فى حدود الاحتشام والوَقار والأدب والقِيَم التى تليق بالمرأة المسلمة، وقد رُوى أن النبى ﷺ كان

يُعيِّن للنساءِ يومًا يلقاهُنَّ فيه، ويعلمهنَّ، وقد طلبت النساءُ ذلك فقالت إحداهنَّ للرسول ﷺ : «غَلَبنا عليك الرجالُ، فاجْعَلْ لنا يومًا من نفسك أى لنزداد علمًا وتبَصُّرًا ومعرفة».

أمثلة للبرهان والبيان : وقد رَوَى البلاذريُّ فى كتابه «فتوح البلدان»: «أن الشِّفَاءَ بنتَ عبد الله العدويَّة (أى من بنى عَدى أسرة عمر بن الخطاب) كانت تكتب فى الجاهلية وتُعلِّم الفتياتِ» . وقال: «وإن حفصةَ بنتَ عمر رضى الله عنه أخذت عن الشفاء العدوية القراءةَ والكتابةَ قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولـمَّا تزوجها عليه السلامُ طلب إلى «الشفاء» أن تتابعَ تثقيفها، وأن تعلِّمها تحسين الخَطِّ كما علَّمتها أصلَ الكتابة **وعائشة أم المؤمنين:** رَوى الواقديُّ أن عائشةَ وأمَّ سلمةَ رضى الله عنهما تعلَّمتا القراءةَ والكتابة، وأنهما كانتا تقرءان ولكنهما لم يُجيدا الكتابة، وكانت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضى الله عنها على جانب كبير من الذكاء وتُلمُّ بمسائل كثيرة فى الفقه، كما كانت على نصيب وافر من علوم كثيرة، فقد قضت مع الرسول ﷺ شطرًا كبيرًا من الحياة، وقد وعت فى حافظتها ما كانت تسمعُه وتراه من ضروب الأحكام الدينية، والمعاملات الشرعية.

وقد كان الصحابةُ يتخذونها المرجِعَ فى أحكام الدين، وأمورِ الشرع الشريف، وقد ضربت بسهم وافرٍ فى الفتاوى الشرعية، وَفِقْه النساء وقد شهد لها رضى الله عنها أعلامُ الصحابة بالفقه وحفظ الحديث فعن أبى موسى رضى الله عنه قال: «ما أشْكَل علينا أصحابَ رسولِ ا لله ﷺ حديثٌ قطّ، فسألنا عنه عائشةَ رضى الله عنها، إلا وجدنا عندها منه علمًا» وعن مسروق- رضى الله عنه - كان يحلف بالله لقد رأيتُ الأكابرَ من أصحاب رسول ا لله ﷺ يسألون عائشةَ رضى الله عنها فى الفرائض (المواريث) وعن عُروة رضى الله عنه قال: « ما

رأيتُ أحدًا أعلمَ بالقرآن ولا بفرائضه، ولا بحلال ولا بحرام، ولا بشِعْر، ولا بحديثِ العرب، ولا بأنساب العرب من عائشةَ رضى الله عنها »أى أنها كانت فقيهةً أديبةً، مؤرِّخة، ومُحدِّثة، وكانت عائشةُ رضى الله عنها إذا جاء الحديثُ عنها أمامَ التابعى عطاء بن رَبَاح رضى الله عنه قال: «كانت عائشةُ أفقهَ الناسِ، وأعلمَ الناسِ، وأحسنَ الناسِ رأيًا فى العامَّة»، أى كانت مشاركة فى السياسة العامة وعلى دراية بطبائع الناس وتوجُّهاتهم، كما كانت عائشةُ رضى الله عنها تروى الشعرَ، وتَعْلَمُ وقائعَ العربِ، وحروبَهم، وسِيَرَهم كما كانت فصيحةً قويةَ التأثير، قال معاويةُ :« لم أسمعْ خطيبًا أبلغَ ولا أفصحَ من عائشة». وكانت صاحبة مشورة ورأى فى أحوال الأسرة والعلاقات الإنسانية والتربية.

العناية بتربية البنات: وتدلُّ شواهدُ كثيرةٌ على أن أبوابَ التعلم والثقافة بمختلف صنوفهما كانت مُفتَّحةً أمام البنتِ المسلمة فى ظل الإسلام، وأنه بفضل ذلك قد نبغ عددٌ كبيرٌ من النساء العربيات المسلمات وبَرَّزْن وتفوقْنَ فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة وشتى أنواع المعرفة، يقول الدكتور أحمد شلبى فى كتابه «تاريخ التربية الإسلامية» : « عقد محمدُ بنُ سعد جزءًا من كتاب «الطبقات» لرواية الأحاديث عن النساء أتى فيه على ذكْر أكثرَ من سبعمائة امرأةٍ رَوَيْنَ عن الرسول ﷺ، أو عن الثِّقات من أصحابه ، وعنهنَّ رَوى أعلامُ الدين وأئمةُ المسلمين، ويقول: «وترجم ابنُ حَجر العسقَلانى حياةَ ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة وألف مُحدِّثةٍ، وقال عنهن: «إنهنَّ كُنَّ ثقات عالمات» كما خصص كلٌّ من النواوى، فى كتابه «تهذيب الأسماء» والخطيب البغدادى فى كتابه «تاريخ بغداد» ، والسخاوى فى «الضوء اللامع» خصَّصُوا حيِّزًا كبيرًا للحديث عن النساء اللائى كانت لهن ثقافةٌ عاليةٌ وبخاصة فى العلوم الدينية، ورواية الحديث، ومما يدل على دقة النساء المسلمات فى الرواية والحفظ أن الحافظَ الذهبىَّ اتَّهم أربعةَ آلاف من المحدِّثين، ولكنه قال عن المحدِّثات : «وما علمتُ من النساء

من اتُّهمت – أى : فى الرواية وقوة الحفظِ –، ولا مَن تركوها – أى : لضعف حِفظها أو عدم دقتها – وقد عدَّ ابنُ عساكر أساتذته وشيوخَه الذين تلقَّى عنهم العلم وكان من بينهم إحدى وثمانون امرأةً» هذا وقد نبغ من بين النساء طبيباتٌ، وشاعراتٌ، وأديباتٌ ، ومعلماتٌ، وفقيهاتٌ، ومُحدِّثات، كان لهن شأنٌ عظيم فى المجتمع الإسلامى.

وقد حثَّ الرسولُ ﷺ على العناية بتعليم البنات ورعايتهن وإحسان تربيتهن وتزويجهن المناسب اللائقَ لكل واحدة منهن سواء فى ذلك بنت الرجل أو أخته الصغيرة أو خادمته.

من ذلك قوله ﷺ : «**أيُّما رجلٍ كانت عنده وليدةٌ** – أى جارية – **فعلَّمها فأحسَن تعليمَها، وأدَّبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوَّجها فله أجران**» وإن بنتَ الرجل أو أخته الصغيرةَ تكون – ولاشكَّ – أولى بالعناية والوصية بحُسن التأديبِ والتربية. [راجع الأدب المفرد للبخارى وغيره من كتب الحديث]

وفى الحديث الذى رواه بعض أصحاب السنن والبخارى فى الأدب المفرد: «**مَن ابتُلِىَ من هذه البناتِ بشىءٍ فصبرعليهنَّ وأطعمهنَّ وسقاهنَّ وكسَاهنَّ كنَّ له سِترًا من النار**» [رواية عائشة عند البخارى وابن ماجه]

وزاد الطبرانى من رواية ابن عباس رضى الله عنه: « **فأنفق عليهن ، وزوَّجهنَّ ، وأحْسَنَ أدبَهُنَّ** » .

نسأل الله أن يحفظ الأمةَ ، وأن يكتب لها دومًا الازدهار والتقدم فى الطريق الصحيح الذى يحقق للإنسان حياة أفضل.



وليس آخِرًا :

الحضارة التى أخذت بيد الإنسان فى مدارج الرقى هى النموذج الصحيح

إن المتأمل فى تاريخ الحضارة الإسلامية منذ بزوغ فجر الدعوة المحمدية فى مكة المكرمة إلى أن بسط الإسلامُ جناحيه على رقعةٍ تمتدُّ من حدود فرنسا فى أقصى الغرب إلى حدود الصين فى أقصى الشرق تتضحُ له حقائقُ كثيرةٌ حقائقُ جديرةٌ بأن يتأمّلها المسلمون فى عصرنا الحاضر ، ويمعنوا النظرَ فيها ليحدِّدوا لأنفسهم مكانَتَهم بين أممِ الأرض وليعرفوا مَن هم ؟ وكيف كانوا؟ وماذا يجب أن يكونوا؟

والحقيقةُ التى يجب ألا تغيبَ عن العقول هى أن الإسلامَ بمبادئه الخالدةِ الكريمة أقام صرحَ الأخوةِ الإنسانية ، وامتزجت تحت رايته كلُّ العناصر والأجناس من عَرَبَ وعَجَم حيث آخت بين الجميع عقيدةُ التوحيد ، وربطت بينهم أواصرُ الأخوة فى الدين، وارتفع نداءُ السماء فوق اعتباراتِ الألوانِ ، والألسن ، والعناصر، والبيئات : ﴿ .. إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. ﴾ [الحجرات: ١٠] كما امتزجت عناصرُ الأمة من جميع الأديان يتعاونون ويَلْقَى الجميعُ العدلَ والرحمة والمُواساة فى تعاطف وتساند ، ولقد أقامت أمةُ الإسلام صرحَ حضارتها على أساسٍ روحىٍّ ، وعلى أنْفَس وأعظم القيم الأخلاقية والاجتماعية والفكرية فوازنت بذلك بين حاجات الإنسان المادية وحاجاته الروحيةِ ، ولم تَدَعْ لسلطان المادة الفرصةَ لكى يتسلطَ على الجانب الروحىِّ والمعنوىِّ فى الإنسان فيهبط من علياء الفضائل الأخلاقية السامية إلى حضيض الماديات والشهواتِ الحيوانية، وإن المسلمين حين عُنُوا بالعلم الدنيوىِّ ، واشتغلوا بالنظر والتأملِ فى النفسِ الإنسانية

وفيما يحيطُ بالإنسانِ من عوالم الطبيعةِ والآيات الكونية ، إنما فعلوا ذلك استجابةً لأمر الله عزَّ وجلَّ، ولأن هذا التأملَ ، وذاك النظرَ يُعزِّزُ ثمراتِه الصحيحةَ ماجاء به الدينُ ومانزل به الوحيُ على سيد المرسلين ﷺ ، وكان من أثرِ هذه الدعوةِ الربانيةِ أن تكوَّنت لدى المسلمين فى عصرهم الذهبىّ ثروةٌ فكريةٌ وعلميةٌ بلغت أقصى غاية من النمو والازدهار، وكان القرآنُ الكريمُ هو أولَ أسبابِ تنشيطِ الحياةِ الفكريةِ فى البيئات العربيةِ والإسلاميةِ ليصلَ الإنسانُ إلى أسمى درجاتِ المعرفةِ ، وهى الإيمانُ بوحدانية الخالق وبكمال قدرته ورحمته وكمال صفاته ، ولينتفع بما أودع اللهُ فى الأرض وفى الكون المحيط من بركات تزدهر بها حياته ويتقدم العمران .

ذلك أن المدنيات لا تُقدَّرُ قيمتُها بما تحققُه من بنيانٍ مادىٍّ فحسب ؛ لأن البنيانَ المادىَّ وحده لايحققُ للبشرِ ما يطمحون إليه من أسباب الاستقرار النفسى والأمن والشعورِ بالكرامة ولايحقق هذا البنيانُ المادىُّ حاجةَ الناس إلى التعاون على البرِّ والخير وحاجتهم إلى إيثار المصلحة العامة على المنافع الفردية أو الخاصة وكم ابتُليت الشعوبُ من أثر الأنانية الفردية والأَثرَة ومن النَّزَعَاتِ الإقليمية أو العنصرية نتيجة لتسلُّطِ التفكير المادى على الفكر والأخلاق .

أما الحضارة الإسلامية فقد عاش البشرُ فى ظلالها ينعمون بحياة مستقرة ، ولم تجلب حضارتُنا على الإنسان الدمار والتعاسة والشقاء كما فعل ويفعل أصحابُ المدنيات التى قامت على الفكر المادى ، يقول الأستاذ محمد صادق عرجون فى كتابه : «الأمةُ الإسلامية كما يريدها القرآن ..» : « .. شيَّدت الأمةُ الإسلاميةُ حضارتها بيدها وفكرِها وعقيدتها .. فكانت بهذه الحضارة الفاضلة نموذجًا للإنسانية الفاضلة فى ذروة أوجها الحضارىّ ، وكانت بعقيدتها التوحيدية مثلًا للكرامة الإنسانية ، عاش المسلمون فى دولتهم الكبرى بفضل إيمانهم الصادق ، وفهمهم الصحيح لمرامى الإسلام ولمبادئه ، وهم : وحدةٌ فى العقيدة

والإيمان ، وهم مع سائر مواطنيهم وحدةٌ فى اللغة واللسان وفى العمل لتحقيق النمو ، وهم وحدةٌ فى القوة والعزّة ، ولذا لم تَقْوَ الثقافاتُ الوافدةُ على أن تذيبَ شخصيةَ الأمة الإسلامية أو تُغير من ملامح حياتها الأصيلة ، لأن الأمة الإسلاميةَ امتصت هذه الثقافات ، ثم حوّلتها إلى غذاء صالحٍ يتلاءمُ مع القيم التى آمنت بها ومع المبادئ الكريمة التى اعتنقتها ، وعاشت بها ولها » ولذا صار أبناء هذه الأمة فى قرن من الزمان أساتذةَ الدنيا كلِّها ، يتقرَّبُ إليهم المخالفون لهم فى المبادئ والفضائل، والنظم الاجتماعية ، ليتعلموا على أيدى أبنائها وليقبسوا من معارفهم وثقافتهم الممتازة ، فوجد هؤلاء الراغبون فى المعرفة فى رحاب المسلمين لينًا ، وتسامحًا ، ورغبةً صادقةً فى انتشالِ الدنيا من ظلامها وجهلها وضلالها ، لقد أراد القرآنُ الكريم للمسلمين أن يكونوا أمةً وسطًا وأن يكونوا خيرَ أمةٍ أخرجت للناس ، فكان المسلمون كذلك حين استجابوا لدعوة القرآنِ فعاشوا أمةً واحدة غايتُها إعلاءُ كلمةِ الحقِّ ، والعمل على كفِّ الشرور والمفاسد وإزالة المظالِمِ وعلى تحقيق كل ما يعود بالخير والمنفعة والأمن والرخاء من أجل حياة أفضل للإنسان ، ولكنَّ المسلمين حين انحرفوا عن مبادئ دينهم ، وشغلتهم الدنيا عن آخرتهم واستبدت المطامعُ والأهواءُ بذوى الغايات الخاصة والأغراض الذاتيّة فتفرقوا لذلك شيعًا وأحزابًا ، وتمزَّقت أمتُهم أشلاءً وأوصالًا، حين صار المسلمون كذلك طمع فيهم مَنْ كان يَخْشى بأسَهم وتسلط عليهم مَنْ كان يرجو رضاهم .

إن مكانَ المسلمين لم يكنْ - ولا ينبغى أن يكونَ - غيرَ الصدارةِ عن جدارة فهم أهلُ العدلِ والإنصاف والقوة العاقلة وأهل الرحمة والتسامح لم يكن المسلمون تابعين وإنما كانت لهم الريادةُ فى جميع القطاعات والجوانب ، إذ لم يتقاعسْ المسلمون أيامَ دولتهم القويةِ عن السعى فى دأب وحرصٍ على كلِّ نافع ومفيدٍ من علوم الدين أو علوم الدنيا فبهروا العالمَ كلَّه بما حققوه فى مجال الفكر ، والثقافةِ ، والحضارةِ .. وأفاد منهم العالمُ كلُّه علمًا وفكرًا ، ومُثلًا عُليا ، جاء فى كتاب «بناء الإنسانية» للعلامة «بريفُولت» : «..لقد كان العلمُ أهمَّ ماجادت به

الحضارةُ الإسلامية على العالمِ الحديث .. ثم يقول: « .. ولم يكن العلمُ وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرةً من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية ..» .

وإنه فى إطار دعوةِ الإسلام كان الحثُّ على طلب العلم والدعوةُ إلى السعى نحوَ المعرفةِ ، ونحو البحثِ عن كلِّ ماينفعُ الناس فى أمورِ دينهم ، أو شئون حياتِهم الدنيويةِ من كلِّ مايدفع بالناسِ فى مدارجِ الترقى والتقدم فى الطريق الصحيح الخالى من الشرور والآثام، وذلك تحت إطار القواعدِ العامةِ التى وضعها الإسلامُ للمؤمنين ومنها قولُ الهادى عليه الصلاة والسلامُ للمسلمين : « .. أنتم أعلمُ بأمورِ دنياكم..». وفى ظلال القواعد العامةِ التى وضعها الإسلامُ أقبل المسلمون على كلِّ نافعٍ من المعارف والعلومِ والثقافاتِ إقبالًا منقطعَ النظير لا نجدُ له مثيلًا عند أممِ الحضاراتِ السابقة على الإسلام .

وبفضل الإسلام ، وفى ظلال الحضارةِ التى أقامها نشأت علومٌ ومعارفُ لم يكن للأمم السابقةِ عهدٌ بها ، علومٌ تتصلُ بالدين الإسلاميِّ نفسه مثل علوم : التوحيد ، والفقه ، وأصول الفقهِ ، والتفسيرِ ، والحديث ، والسيرة ، وعلوم السنَّة النبوية وعلومِ اللغةِ ؛ من نحوٍ وصرف ، وبلاغة، وعروض ومعاجم لغوية وغير ذلك ، وقد ازدهرت هذه العلومُ أيَّما ازدهارٍ وظهر فيها الابتكارُ والأصالةُ كما اتَّسمت بعمق الفكرِ ودقتِه.

وإلى جانبِ هذه العلومِ ازدهرت العلومُ الكونيةُ : من فيزياء ، وفلكٍ ، وصيدلة، وطبٍّ ، ونباتٍ ورياضيات وكيمياء وغيرها ، وقد ثبت لنا كيف ظهرت أصالةُ المسلمين فى هذه العلوم ، وإن كان للأمم القديمة معرفةٌ ببعضها ، كاليونانِ والهندِ والفرسِ ، إلا أن المسلمين لم يقفوا فى معرفتِهم بهذه العلومِ عند حدِّ النقل عن الأقدمين ، وإنما قاموا بتصحيح أخطائِهم وبتنقية هذه العلومِ من الخرافة

والأباطيل ، ثم أضافوا وابتكروا وأتوا بالجديد من الأفكار والعلوم ومن النظريات والبحوث فى كلِّ ميادين المعرفة الإنسانية ، حتى صار من حقِّ التاريخ أن يقول : إن العلومَ الكونيةَ التى عرفها الغربُ عن طريقِ المسلمين هى علومٌ إسلاميةٌ عربيةٌ ؛ لأن جهودَهم فيها واضحةٌ وفضلَهم لا يمكنُ إنكارُه أو التغاضى عنه ، وقد اعترف بذلك العدوُّ والصديقُ ، المسلمُ وغيرُ المسلمِ من الباحثين والمؤرخين فى القديم أو العصر الحديث .

إن عصرنا الحديثَ .. لَمَدينٌ فى تقدُّمه العلميِّ والحضاريِّ للإسلام ، مدينٌ للمسلمين الذين حملوا مشاعل الهداية ، والمعرفة ، وأضاءوا لكلِّ الناس سبل الحياةِ بلا تمييز بين جنسٍ وجنسٍ أو أهلِ دينٍ ودينٍ آخر ، بفضل ما دعا إليه الإسلام من تسامح وعدالة ومساواة فى الحقوق والواجبات ، وماكفله لجميع الناس من حرية العمل والعبادة والمشاركة فى بناء الحياة والسعى نحو ما هو أفضل للإنسان .

والحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أحمد بن محمد طاحون

ميدان لبنان : القاهرة فى : صفر ١٤٢٣ من الهجرة
مايو ٢٠٠٢ من الميلاد

[من أجْلِ ما فاتَتْنا قِراءَتُه وكان بِوسْعِنا أن نقرأَه فإنَّنا نَشْعُرُ الآنَ بالأَسَى]

* * *

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾

* * *

أخوكم وهو على عتبة الثمانين

فاغفر اللهمَّ له ولوالديه ومشايخه

القاهرة فى : ربيع الأول ١٤٢٣

يونيـــو ٢٠٠٢

كشاف الكتاب

تمت مراجعة الطبعة الأولى بالقاهرة فى شهر ربيع الأول عام ١٤٢٣ من الهجرة (مايو عام ٢٠٠٢ من الميلاد) وتمت مراجعة هذه الطبعة الثانية فى جمادى الآخرة ١٤٢٤ (أغسطس ٢٠٠٣).

والحمد لله رب العالمين وأسأل الله عز وجل أن ينفع به وأن يجعله فى ميزان الحسنات خالصًا لوجه الله الكريم وأن يغفر لى ولوالدىّ ولمشايخنا من أهل التوحيد والصلاة والسلام على رسول الله .

أحمد بن محمد طاحون

تذكرة

« حين أعددت (كتاب الشكر) للإمام الحافظ ابن أبى الدنيا ، تمنيت لو أن المؤلف قدم نفسه ليعين من يجيئون بعده ، فالكلمة بعد صدورها عن صاحبها تصير فى حوزة التاريخ ، لهذا أقدم هذه الوجازة » :

١ - مؤلف هذا الكتاب هو العبد الفقير إلى عفو الرحمن ورحمته : أحمد بن محمد إبراهيم طاحون ، المولود فى عام ١٩٢٧ من الميلاد فى « شما » من قرى مركز أشمون بإقليم المنوفية فى مصر ، حرسها اللّٰه .

٢ - مات أبوه وهو دون الثالثة ، وعنيت به أمه الصالحة - رحمهما اللّٰه وغفر لهما - فبعثت به إلى « مكتب القرية » ليحفظ القرآن الكريم ، ثم إلى القاهرة ليتم حفظه هناك ، لأن حفظ القرآن كان شرطًا لدخول الأزهر .

٣ - بعد أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد شبين الكوم الدينى التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٥ من الميلاد ، ثم على دبلوم فى التربية من معهد التربية العالى للمعلمين بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد .

الحياة العملية :

* اشتغل بتدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية فى إقليم الجيزة بمصر من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ من الميلاد ، ثم بمدارس الصومال ثلاث سنوات دراسية ، عاد بعدها إلى المدرسة السعيدية بالجيزة

* وفى عام ١٣٩١ من الهجرة (١٩٧١ من الميلاد) تعاقد مع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية فى مدرسة الفلاح الثانوية بجدة حتى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧ من الميلاد) .

* التحق بالبنك الإسلامى للتنمية فى جدة فى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧م) ، وزار نحو ١٨ دولة إسلامية ، ومعظمها للعمل فى أمانة مؤتمرات البنك الإسلامى للتنمية السنوية وبقى حتى التقاعد فى الخامسة والستين ، ثم التحق بمنظمة المؤتمر الإسلامى بجدة لمدة ثلاث سنوات استقال بعدها وعاد إلى مصر بحمد اللّٰه وفضله .

* اشتغل بالخطابة وهو طالب فى مساجد قريته ثم فى القاهرة .

* قدم أحاديث عبر إذاعة المملكة العربية السعودية على مدى نحو عشرين عامًا .

* عضو التوعية الإسلامية فى الحج من عام ١٣٩٣ من الهجرة ١٩٧٣ من الميلاد ولنحو ١٦ عامًا .

وفى جدة اشتغل بالكتابة وقد طبع له ما يزيد على خمسة وثلاثين كتابًا ورسالة كما اشتغل بالخطابة فى عدد من مساجد جدة .

ونشرت له بعض المجلات والصحف مقالات متعددة ، وأعد صفحة « دعوة الحق » اليومية فى صحيفة البلاد - ومقرها جدة - لسنوات عديدة .

والحمد للّٰه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المراجع

م	المراجع	المؤلف	القرن الهجرى
١	دائرة المعارف الإسلامية	الجزء الأول (وحسب التسلسل الهجائى)	
٢	شمس العرب تُشرق على الغرب	الباحثة الألمانية (زيغريدهونكه) وترجمه عربيًّان	الرابع عشر
٣	دائرة معارف الشعب	رقم (٦٤)	
٤	رسالة الدكتوراة	لفضيلة الشيخ عبد الحليم محمود	الرابع عشر
٥	الحضارة الإسلامية فى الأندلس	الدكتور عبد الرحمن على الحجى	الرابع عشر
٦	تراث العرب العلمى فى الفلك والرياضيات	الأستاذ قدرى حافظ طوقان	الرابع عشر
٧	تاريخ التربية الإسلامية	الدكتور أحمد شلبى	الرابع والخامس عشر
٨	تاريخ الوزراء والكتاب (ومقدمة المحققين وتعليقاتهم)	المؤرِّخ محمد بن عبدوس الجهشيارى والمحققون الأساتذة مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى	الثالث والرابع الرابع عشر
٩	سيرة ابن هشام والمقدمة (تهذيب سيرة ابن إسحاق)	ابن هشام هو (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى) (ابن إسحاق هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار) والمقدمة والتعليقات للأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى	الثانى والثالث الثانى الرابع عشر
١٠	المواهب اللَّدنية بالمنح المحمدية	للإمام أحمد بن محمد القسطلانى المصرى	التاسع والعاشر

م	المـراجـع	المـؤلف	القرن الهجرى
١١	وصف مصر (ومقدمته)	عمر بن محمد بن يوسف الكندى المصرى	الرابع
١٢	سيرة عمر بن عبد العزيز على ماروا ه الإمام مالك (ومقدمته)	الفقيه العلامة أبو محمد عبد الله بن عبد الحكَم والمحقق الأستاذ أحمد عبيد	(الثانى والثالث) الرابع عشر
١٣	تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة	أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى	(الرابع والخامس)
١٤	أسْدُ الغابة فى معرفة الصحابة	المؤرخ عز الدين أبو الحسن علىُّ بن أبى الكرم الشيبانى (ابن الأثير الجزرى)	السادس والسابع
١٥	الضوء اللامع	للإمام السخاوى	التاسع
١٦	الذهب المسبوك فى ذِكر من حَجَّ من الخلفاء والملوك (ومقدمة المحقق وتعليقاته)	للإمام أحمد بن على المقريزى والمقدمة والتعليقات للدكتور جمال الدين الشيال	الثامن والتاسع الرابع عشر
١٧	تاريخ الطب العربى	الدكتور يحيى شريف	الرابع عشر
١٨	تاريخ البيمارستان (المستشفى) فى الإسلام	الدكتور أحمد عيسى	الرابع عشر
١٩	العلوم عند العرب	الدكتور عبد الحليم منتصر	الرابع عشر
٢٠	تاريخ النحو	لفضيلة الشيخ محمد الطنطاوى	الرابع عشر
٢١	مهد العرب	الدكتور عبد الوهاب عزام	الرابع عشر
٢٢	مقدمة تهذيب الصحاح للعلامة محمود بن أحمد الزنجانى	صاحب المقدمه الأستاذ أحمد بن عبد الغفور عطار	الرابع عشر
٢٣	ضحى الإسلام (الجزء الثانى)	الدكتور أحمد أمين	الرابع عشر
٢٤	تاريخ القرآن الكريم	أبو عبد الله الزنجانى الدمشقى	الرابع عشر

م	المـــراجـــع	المـــؤلف	القرن الهجرى
٢٥	حاشية كتاب «منار السالك إلى أوضح المسالك	الشيخان : محمد عبد العزيز النجار وعبد العزيز حسن	الرابع عشر
٢٦	الكندى فيلسوف العرب	الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى	الرابع عشر
٢٧	آراء أهل المدينة الفاضلة لمؤلفة الفيلسوف الطبيب الفارابى (أبو نصر محمد (٣و٤هـ).	أصدره وحققه الدكتور على عبد الواحد وافى	الرابع عشر
٢٨	عبقرية العرب	الدكتور عمر فروخ	الرابع عشر
٢٩	ابن تيمية آراؤه وعصره	لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة	الرابع عشر
٣٠	العقود الدرّيّة	الحافظ بن عبد الهادى المقدسى	السابع والثامن
٣١	مجموعة التفسير (لابن تيمية ومقدمة الناشر	نشرها وقدّم لها الشيخ عبد الصمد شرف الدين الكتبى	الرابع عشر
٣٢	الرّحالة المسلمون فى العصور الوسطى	الدكتور زكى محمد حسن	الرابع عشر
٣٣	الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن	الشيخ محمد صادق عرجون	الرابع عشر
٣٤	الوفا بفضائل المصطفى ﷺ	الحافظ العلامة أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى	السادس
٣٥	تاريخ عمر بن الخطاب (والمقدمة)	الحافظ ابن الجوزى	السادس
		وحققه وقدّم له (الأستاذ أسامه عبد الكريم الرفاعى)	الرابع عشر
٣٦	منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان	الحاذق الصيدلى القاهرى أبو المنى داود ابن أبى نصر بن حفاظ المعروف بالعطار الإسرائيلى الهارونى	السابع

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

للمؤلف :

* مرشد الدعاة إلى اللَّه (دراسة وتطبيق) .
* رياض الفالحين ومنار السالكين .
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم (خمسة أجزاء).
* أخرج كتاب الشكر وكتاب التوكل للإمام ابن أبى الدُّنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف وعصره .
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير .
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب : « تجريد التوحيد المفيد » للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة) .
* دليل الحجِّ والعمرة بالسؤال والجواب .
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب : فضل اللَّه الصمد فى توضيح «الأدب المفرد » للإمام البخارى] .
* أذكار ودعوات مباركات .
* في شهر الصوم خواطر ومسائل .
* إلى البرهان يا أولى الألباب .
* حضارة الإسلام وأروبا .
* مع القرآن الكريم .
* الدعاء المبرور لحجاج بيت اللَّه المعمور .
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد .
* يوم الفرقان .
* الثمار والرياحين فى قصص من القرآن الكريم .
* فى فجر الإسلام « عرض قصصى » .
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء .
* الزهور النديّة في « خصائص وأخلاق خير البرية » : « تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنيَّة بالمنح المحمدية » للإمام القسطلانى .
* فى أنوار سورة الفرقان .
* فلسطين والقدس أمانة الآباء فى عنق الأبناء .
* البيان [ستّ رسائل] .
* في « مصطلح الحديث » تيسير وضبط وتوضيح كتاب الشيخ عبد الغنى محمود ورسالة للشيخ محمود خطاب السبكى .
* البستان (١٤ رسالة) .
* مع بحر النور الهادي البشير ﷺ .
* الأمن والرخاء أم الفتنة العمياء .
* صاحب الخلق العظيم (فى نور سورة القلم وهدايتها) .
* تحديد الربح سَلفًا أو نسبته : ما حدُودُه ؟ (رسالة) .
* الصيدلى والصيدلة (رسالة محققة في أخلاق المهنة) .
* وهلك أبو لهب وحمالة الحطب . (رسالة) .